

دار الكتب المصرية

نهاية الأرب

في

فنون الأرب

تأليف

شمس الدين محمد بن عبد الوكيل النوبختي

السفر الأول

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

سنة ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م

جزء
معين التاريخ
لأهل التاريخ

فهرس

السفر الأول

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنویری

صفحة

مقدمة الكتاب ١

الفرس الأول

في السماء والآثار العلوية، والأرض، والمعالم السفلية ٢٧

القسم الأول

في السماء وما فيها، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

مبدأ خلق السماء ٢٨

ذكر ما قيل في أسماء السماء وخلقها ٢٩

» ما حكى في سبب حدوثها ٢٩

الباب الثاني :

في هيئة السماء ٣٠

في الأمثال التي ورد فيها ذكر السماء ٣٢

في وصف السماء وتشبيهها ٣٣

ما قيل في الفلك ٣٤

الباب الثالث :

في ذكر الملائكة ... ٣٦

الباب الرابع :

في الكواكب السبعة المتحيرة ... ٣٨

ذكر ما قيل في الشمس ... ٤٠

» ما يمثل به مما فيه ذكر الشمس ... ٤٢

» ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها ... ٤٤

» شيء مما وصفت به على طريق الذم ... ٤٦

» ما قيل في الكسوف ... ٤٨

» أسماء الشمس اللغوية ... ٤٨

» عباد الشمس ... ٤٩

» ما قيل في القمر ... ٤٩

» » » (من استهلاله الى انقضاء الشهر وأسماء لياليه) ... ٥٠

» أسماء القمر اللغوية ... ٥١

» ما يمثل به مما فيه ذكر القمر ... ٥٢

» ما قيل في وصف القمر وتشبيهه ... ٥٣

» شيء مما قيل فيه على طريق الذم ... ٥٦

» عباد القمر ... ٥٧

» ما قيل في الكواكب المتحيرة ... ٥٨

» عباد الروحانيات ... ٥٨

» بيوت الهياكل وأماكنها ونسبتها الى الكواكب ... ٦١

الباب الخامس :

- ٦٣ ... في الكواكب الثابتة ...
٦٤ ... ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الكواكب ...
٦٥ ... » ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها ...

القسم الثاني

في الآثار العلوية، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

- ٧١ ... في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج والبرد ...
٧٢ ... ذكر ما قيل في ترتيب السحاب، وأسمائه اللغوية وأصنافه ...
٧٤ ... » في ترتيب المطر ...
٧٤ ... » في فعل السحاب والمطر ...
٧٥ ... » أسماء أمطار الأزمنة ...
٧٥ ... » المطر اللغوية ...
٧٧ ... » ما يمثل به مما فيه ذكر المطر ...
٧٨ ... » شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر ...
٨٢ ... » ما ورد في وصفها ثرا ...
٨٦ ... » شيء مما وصف به الثلج والبرد ...

الباب الثاني :

- ٨٧ ... في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قزح ...

صحيفة

الباب الثالث :

- في أسطقس الهواء ... ٩٥
- ذكر ما قيل في حد الهواء ... ٩٥
- » أسماء الرياح اللغوية ... ٩٨
- فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع ... ٩٩
- ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الهواء ... ٩٩
- » ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه ... ١٠٠

الباب الرابع :

- في أسطقس النار، وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران ... ١٠٣
- ذكر أسماء النار ... ١٠٤
- » عباد النار ... ١٠٥
- بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس ... ١٠٧
- ذكر نيران العرب ... ١٠٩
- » النيران المجازية ... ١١٤
- » النيران التي يضرب بها المثل ... ١١٥
- » ما جاء منها على لفظ أفعل ... ١١٦
- » ما قيل في وصف النار وتشبيهها ... ١١٧
- » شيء مما قيل في الشمعة والشمعدان، والسراج، والقنديل ... ١٢٠
- ماورد في وصفها نثرا ... ١٢٣
- ما قيل في السراج ... ١٢٤
- رسالة القنديل والشمعدان ... ١٢٤

القسم الثالث من الفن الأول

في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد،
وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

- في الليالي والأيام... ١٣٠
- ذكر ما قيل في الليل وأقسامه... ١٣١
- فصل وقد عبر بالليالي عن الأيام ... ١٣٢
- ذكر الليالي المشهورة... ١٣٢
- » ما يتمثل به مما فيه ذكر الليل ... ١٣٣
- » ما قيل في وصف الليل وتشبيهه ... ١٣٤
- » ما وصف به الليل من الطول ... ١٣٥
- » » » من القصر... ١٤٠
- » » » من الإشراف ... ١٤٢
- » » » من الظلمة... ١٤٢
- » شيء مما قيل في تبشير الصباح ... ١٤٣
- » ما قيل في النهار... ١٤٧
- » الايام التي خصت بالذكر ... ١٤٨
- » أيام أصحاب الملل الثلاث ... ١٥٠
- » ما يتمثل به مما فيه ذكر النهار ... ١٥٠
- » شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه ... ١٥١
- » » » وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات ... ١٥٣

الباب الثاني :

في الشهور والأعوام	١٥٦
ذكر الشهور وما قيل فيها	١٥٦
» الأشهر العربية وما يختص بها من القول	١٥٧
شهور اليهود	١٥٩
الشهور العجمية	١٥٩
ذكر ما يختص بالسنة من القول	١٦٤
» النسيء ومذهب العرب فيه	١٦٥
» السنين التي يضرب بها المثل	١٦٧

الباب الثالث :

في الفصول وأزمنتها	١٦٩
ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظماً ونثراً	١٧١

الباب الرابع :

في ذكر مواسم الأُمم وأعيادها، وأسباب آتخاذهم لها، وما قيل في ذلك	١٨٤
ذكر الأعياد الإسلامية	١٨٤
» أعياد الفرس	١٨٥
» » النصراني القبط	١٩١
» » اليهود	١٩٥

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون،
والغدران، وفيه سبعة أبواب

الباب الأول :

في مبدأ خلق الأرض ١٩٨

الباب الثاني :

في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، في الاتساع، والاستواء، والبعد،
والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة، والارتفاع، والانخفاض،

وغير ذلك ١٩٩

ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته ٢٠٢

» » » الغبار وأوصافه ٢٠٣

» » » الطين ٢٠٣

» » » الترمال ٢٠٤

» ترتيب كمية الرمل ٢٠٥

» تفصيل أسماء الطرق وأوصافها ٢٠٦

الباب الثالث :

في طول الأرض ومساقطها ٢٠٧

الباب الرابع :

في الأقاليم السبعة ٢٠٩

ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الأرض ٢١٣

» شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها ٢١٤

صفحة

الباب الخامس :

- فى الجبال ٢١٨
- ذكر أسماء ما أرتفع من الأرض الى أن يبلغ الجبيل ٢٢٠
- » ترتيب أبعاد الجبل ٢٢١
- » » مقادير الحجارة ٢٢٣
- » ما يمثل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة ٢٢٦
- » شىء مما قيل فى وصف الجبال وتشبيهها ٢٢٧

الباب السادس :

- فى ذكر البحار والجزائر ٢٢٨
- ذكر بحار المعمور من الأرض ٢٢٩
- » ما يتفرع من البحر المحيط ٢٣١
- » الخلجان التى تخرج من البحر الرومى ٢٣٥
- بحر الهند وجزائره ٢٣٧
- ذكر خلجان البحر الهندى ٢٤٣
- بحر مانيطش ٢٤٦
- بحر الخزر وجزائره ٢٤٧
- ذكر ما فى المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب ... ٢٥٠
- » ما يمثل به مما فيه ذكر البحر ٢٥٤
- » شىء مما قيل فى وصف البحر وتشبيهه ٢٥٥
- » » وصف به البحر والسفن ٢٥٦
- » ما وصفت به البحار والسفن ثنا ٢٥٨

الباب السابع :

في العيون والأنهار والغدران وما وصفت به البرك ، والدوايب ،

٢٦١ والنواعير، والجداول
٢٦٢ نهر النيل
٢٦٦ الفرات »
٢٦٨ دجلة »
٢٦٩ سجستان »
٢٧٠ مهران »
٢٧٠ جيحون »
٢٧١ سيحون »
٢٧٢ الكُك »
٢٧٣ الكر »
٢٧٣ إتل »
٢٧٤ ذكر ما في المعمور من الأنهار والعيون التي يتعجب منها
٢٧٧ ما يمثل به مما فيه ذكر الماء »
٢٨١ شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه »
٢٨٢ وصف به الأنهار » » »
٢٨٥ البرك » » » »
٢٨٨ الدوايب والنواعير » » » »
٢٨٩ نثرًا » » » » » »

صحيفة

ذكر شيء مما وصفت به الجداول ٢٩٠
 « عباد الماء ٢٩١

القسم الخامس من الفن الأول

في طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ، وخصائصها ، والمباني القديمة ،
 والمعقل ، وما وصفت به القصور والمنازل ، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

في طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ٢٩٢

الباب الثاني :

في خصائص البلاد ٢٩٧

مكة المشرفة ٢٩٧

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض ٢٩٨

« بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام ومبدأ الطواف ... ٢٩٩

« زيارة الملائكة البيت الحرام ٣٠٠

ذكر هبوط آدم عليه السلام الى الأرض ، وبنائه الكعبة المشرفة وحجه

وطوافه بالبيت ٣٠١

ذكر فضل البيت الحرام ، والحرم ٣٠٤

« ما جاء في طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت ٣٠٧

« من تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت ٣٠٧

« حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج وحج الأنبياء بعده وطوافهم ... ٣٠٨

ذكر ما جاء من مسألة إبراهيم عليه السلام الأمن والرزق لاهل مكة

والكتب التي وجد فيها تعظيم الحرم ٣١١

من نهاية الأرب

(م)

صحيفة

- ذكر أسماء الكعبة ومكة ... ٣١٣
- » ما جاء في فضل الركن الأسود ... ٣١٤
- » » » استلام الركن الأسود، واليماني ... ٣١٦
- » » » الطواف بالكعبة ... ٣١٧
- » » » زمزم ... ٣١٧
- » » من آتساع مني أيام الحج، ولم سميت مني ... ٣١٩
- » » في فضائل مقبرة مكة ... ٣١٩
- » شيء من خصائص مكة ... ٣١٩
- المدينة المشرفة (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) ... ٣٢٠
- ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها ... ٣٢٣
- البيت المقدس، والمسجد الأقصى ... ٣٢٥
- البدء بذكر الأرض المقدسة ... ٣٢٥
- فضل بيت المقدس ... ٣٢٨
- » زيارة بيت المقدس، وفضل الصلاة فيه ... ٣٣٠
- ما ورد في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه ... ٣٣٢
- فضل السكنى فيه والإقامة والوفاء به ... ٣٣٢
- ما بيت المقدس من قبور الأنبياء، ومحراب داود وعين سلوان ... ٣٣٣
- ما ورد في أن الحشر من بيت المقدس ... ٣٣٤
- » في فضل الصخرة والصلاة الى جانبها ... ٣٣٥
- » في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس الى السماء ... ٣٣٦

صحفة

٣٣٩	ثواب الإهلال من بيت المقدس
٣٣٩	ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة
٣٤٠	اليمن وما يختص به
٣٤٠	الشام وما يختص به
٣٤٠	مسجد دمشق وما قيل فيه
٣٤٤	مصر وما يختص بها من الفضائل
٣٤٩	ذكر من ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كان بها منهم
٣٤٩	» » كان بها من الصديقين والصديقات، رضى الله عنهم
٣٥٠	» » صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
٣٥٠	» » أظهرته مصر من الحكماء
٣٥٤	ومن فضائل مصر
٣٥٧	ما وصفت به مصر
٣٥٨	جزيرة الأندلس
٣٥٩	البصرة وما آختصت به
٣٦٠	بغداد وما آختصت به
٣٦١	الأهواز وما آختصت به
٣٦١	فارس وما آختصت به
٣٦٢	أصفهان وما آختصت به
٣٦٢	حرجان وما آختصت به
٣٦٣	نيسابور وما آختصت به

من نهاية الأرب (س)

طوس وما آختصت به	٣٦٤
بلخ وما آختصت به	٣٦٤
بست وما آختصت به	٣٦٥
غزنة وما آختصت به	٣٦٥
سجستان وما آختصت به	٣٦٦
الهند وما آختصت به	٣٦٦
الصين وما آختصت به	٣٦٦
سمرقند وما آختصت به	٣٦٧
بلاد الترك وما آختصت به	٣٦٧
خوارزم وما آختصت به	٣٦٨
ذكر الخصائص التي تجري مجرى الطلسمات	٣٦٨
<p style="text-align: right;">ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة (وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفرش، والمراكب، والحيوانات ذوات السموم، والحلوى، والثمار، والرياحين، والخلق، والأخلاق، والأمراض والآثار العلوية)</p>	
... .. .	٣٦٩

الباب الثالث :

في المباني القديمة	٣٧٢
ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض	٣٧٢
» خبر إرم ذات العماد	٣٧٣
» خبر سدد يأجوج ومأجوج	٣٧٤

صحفة	
٣٧٩	ذكر مباني الفرس المشهورة
٣٨٠	من مباني الفرس إيوان كسرى
٣٨١	» المباني القديمة الحضر
٣٨٢	» » القليس
٣٨٣	» » المشهورة قنطرة صنبجة
٣٨٣	» » القديمة ملعبا بعلبك
٣٨٤	ذكر مباني العرب المشهورة
٣٨٤	غمدان
٣٨٥	حصن تيماء
٣٨٥	الخورنق والسدير
٣٨٧	الغريان
٣٨٧	ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية
٣٨٨	الأهرام
٣٩٢	حائط العجوز
٣٩٣	ملعب أنصنا
٣٩٣	مدينة عين شمس
٣٩٤	البرابي
٣٩٥	حنية اللازورد
٣٩٥	منارة الاسكندرية

من نهاية الأرب (ف)

صحيفة

رواق الإسكندرانيين ٣٩٨

ذكر شيء من عجائب المباني ٣٩٨

الباب الرابع :

فيما وصفت به المعقل والحصون ٤٠١

الباب الخامس :

فيما وصفت به القصور والمنازل ٤٠٦

ما وصفت به المنازل الخالية ٤١٢

ذكر شيء مما قيل في حب الأوطان ٤١٥

» » » » في الحمام ٤١٥

نسخة ما هو مكتوب في آخر الأصل بخط المؤلف ٤١٦

تمّ فهرس السفر الأول

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٠/١٩٢٢/٢٥٠٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- الحمد لله رافع السماء وفاتق رُتُقِها ، ومُنشئ السَّحاب وموكِّف ودقِها ، ومُجْرِى
الْأَفلاك ومُدبِّرها ، ومُطْلِع النَّيَّات ومُكَوِّرُها ، ومُرْسِلِ الرِّيح ومُسَخِّرِها ، ومُزِينِ
سَمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِب ، وحافظِها عند آسْتِرَاقِ السَّمْع بِإِرسالِ الشُّهُبِ الثَّوَابِق ،
وهادِى السَّارِى بِمِطَالِعِ نَجُومِها فى ظُلَمِ الْغِيَاہِب ، وجاعِلِ اللَّيْلِ سَكَنًا وَلِبَاسًا ، ومُبَدِّلِ
وَحْشَةِ ظُلُمَانِہ بِفَلَقِ الْإِصْبَاحِ إِيْناسًا ، ومَاحِى آيَتِہ بِآيَةِ النَّهَارِ الْمُبْصِرِہ ، ومُذْهَبِ دُجَّتِہ
بِإِشْرَاقِ شَمْسِہ النَّيِّرِہ ، وبِاسْطِ الْأَرْضِ فِرَاشًا ومِهادًا ، ومُرْسِىِ الْجِبَالِ وجاعِلِها
أَوْتادًا ، ومُفَجِّرِ الْعِیُونِ مِنْ جِوَانِبِها وَخِلَافِها ، ومُضْحِكِ ثَغُورِ الْأَزْهَارِ بِبِكَاءِ عِیُونِ
الْأَمْطَارِ وَأَنھِمَالِها ، ومُكَرِّمِ بَنِی آدَمَ بِتَفْضِيلِہُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِہ ، ومُذَلِّلِ الْأَرْضِ
لِہُمْ لِيَمْشُوا فى مَنَاكِبِها وَلِيَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِہ ، وحامِلِہُمْ عَلَى ظَہْرِ الْيَمِّ فى بَطُونِ الْجِوَارِى
الْمُنْشَأَتِ ، ومُعَوِّضِہُمْ عَنْ أَعْوَادِ السُّفُنِ غِوَارِبَ الْيَعْمَلَاتِ ^(١) . خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ
وَأَوْدَعُها مِنْ خَفَى حِكْمِہ ما أودع ، وبَينَ أَشْكالِہُمْ (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِہ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ) . وَهَدَى الطَّيْرَ إِلَى ما أَتَّخَذَتْهُ
مِنْ الْأَوْكَارِ وَأَتَّخَذَتْها مِنْ الْمَبَانِى ، وجعلَها مِنْ رِسائِلِ الْمَنائِيا وَوَسائِلِ الْأَمَانِ .
- أَحْمَدُہُ عَلَى نِعْمِہ الَّتِى كَمَ أَوْلَتْ مِنْ مَنِّہ ، وَمِنِّہ الَّتِى كَمَ وَالَتْ مِنْ نِعْمِہ ، وَأَشْكُرُہُ
عَلَى لَطَافِہ الَّتِى كَمَ كَشَفَتْ مِنْ عُجْمِہ ، وَأَزَالَتْ مِنْ نِقْمِہ .

(١) الْيَعْمَلَةُ (بفتح الياء والميم) الناقة النجبية المعتولة المطبوعة والجمل يَعْمَلُ . وَهُوَ اسْمٌ لَا وَصْفٌ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبدٍ نطق بها لسانه وقلبه ،
وأنس بها ضميره ولبه .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، الذي جعلت له الأرض مسجدا وترابها طهورا ،
وأُنزل عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ . صلى الله وسلم عليه وعلى آله الذين رَفُّوا بنسبهم إليه أعلى المراتب ،
وتسّموا من ذُرّوة الشرف والثناء كاهل الكواكب ، وعلى أصحابه الذين اتّطدت
بهم قواعد الشريعة وعلا منارها ، وهُدِمت معاقل الكفر وعَفَّت آثارُها ، وأنفقوا من
قَبْلِ الفتح وقاتلوا . وجالدوا في دين الله وجادلوا : صلاةً ترفع منار قائلها ، وتُرسل عليه
سحاب المغفرة بوابها !

وبعد ، فمن أولى ماتديجت به الطروس والدفاتر ، ونطقت به ألسنة الأقلام عن
أفواه المحابر وأصدرته ذوو الأذهان السليمة ، وأنسبت إليه ذوو الأنساب الكريمة ،
وجعله الكاتب ذريعةً يتوصّل بها إلى بلوغ مقاصده ، ومحجّةً لا يضلّ سالكها
في مصادره وموارده : فنّ الأدب الذي ما حلّ الكاتب بَواديه ، إلّا وعمرت بَواديه ،
ولا وردّ مشاعره ، إلّا واستعدّب شرائعه ، ولا نزل بساحته إلّا واتّسعت له رحابها ،
ولا تأقل مشكلاته إلّا وتبينت له أسبابها .

وكنْتُ من عدل في مبادئه ، عن الإلزام بناديه ، وجعل صناعة الكتابة فنّه
الذي يستظلّ بوارفه ، وفنّه الذي جُمع له فيه بين تليده وطارفه . فعرفتُ جليّها ،
وكشفتُ خفيّها ، وبسطتُ الخرائد ونظمتُ منها الارتفاع ، وكنْتُ فيها كموقد نارٍ على

(١) لعلها : الجرائد . أى جرائد الحسابات التي يستخرج منها الارتفاع أى مقدار الإيراد . وبقيّة
الكلام تدل على ذلك لأنه استعار اصطلاحات أهل الحساب .

يَفَنَّا ، وَاسْتَرْفَعْتُ الْقَوَانِينَ ، وَوَضَعْتُ الْمَوَازِينَ ، وَعَانَيْتُ الْمُقْتَرَحَاتِ ، وَاعْتَمَدْتُ عَلَى
الْمَقَايِيسَاتِ ، وَفَذَلِكْتُ عَلَى الْأَصْلِ وَمَا أُضِيفُ إِلَيْهِ ، وَحَرَرْتُ مَا بَعْدَ الْقَذَلَكَةِ فَكَانَ
الْعَمَلُ عَلَى مَا اسْتَقَرَّتْ الْجُمْلَةُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَخْرَجْتُ وَحَصَلْتُ ، وَجَمَلْتُ مِنْ عَرْضِهِ
وَخَصَصْتُ ، وَسُقْتُ الْحَوَاصِلَ ، وَأُورِدْتُ الْحَاسِبِ وَفَذَلِكْتُ عَلَى الْوَاصِلِ ، وَطُرِدْتُ
مَا آتَسَاقَ إِلَى الْبَاقِي وَالْمَوْقُوفِ ، وَنَضَّدْتُ شَوَاهِدَ الْمَصْرُوفِ ، وَشَطَبْتُ شَوَاهِدَ
الْأَرْتِفَاعِ ، وَفَرَنْتُ أَعْمَالَ الْمَبِيعِ بِالْمَبْتَاعِ ، وَاسْتَوْفَيْتُ أَعْمَالَ الْأَعْتَصَارِ وَتَوَالَى
الْغَالَتِ ، وَتَأَمَّلْتُ سِيَاقَ الْأَصْنَافِ وَالْآلَاتِ ، وَنَظَرْتُ فِي سِيَاقَاتِ الْعُلُوفَاتِ
وَالْعَوَامِلِ ، وَأَجَبْتُ عَنِ الْمُخْرَجِ وَالْمُرْدُودِ فَأَعْجَزْتُ الْمُنَاطِرَ وَالْمُنَاضِلَ ، وَأَتَقْنْتُ مَوَادَّ
هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَتَاجَرْتُ فِيهَا بِأَنْفُسِ بَضَاعِهِ .

١٠ ثُمَّ نَبَذْتُهَا وَرَاءَ ظَهْرِي ، وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِهَا فِي سِرِّي دُونَ جَهْرِي ، وَسَأَلْتُ اللَّهَ
تَعَالَى الْغُثْيَةَ عَنْهَا ، وَتَضَرَّعْتُ إِلَيْهِ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا . وَرَغِبْتُ فِي صَنَاعَةِ الْآدَابِ
وَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِهَا ، وَأَتَنَظَّمْتُ فِي سَلَكِ أَرْبَابِهَا ، فَرَأَيْتُ غَرَضِي لَا يَتِمُّ بِتَلْقِيهَا مِنْ أَفْوَاهِ
الْفَضَلَاءِ شَفَاهَا ، وَمُورِدِي مِنْهَا لَا يَصْنَعُونَ مَا لَمْ أُجَرِّدِ الْعِزْمَ سَفَاهَا .

١١ فَاَمْتَطَيْتُ جَوَادَ الْمَطَالَعَةِ ، وَرَكَضْتُ فِي مِيدَانِ الْمَرَاجِعَةِ . وَحَيْثُ ذَلَّ لِي مَرَكَبُهَا ،
وَصَفَا لِي مَشْرَبُهَا ، آثَرْتُ أَنْ أُجَرِّدَ مِنْهَا كِتَابًا أُسْتَأْنَسُ بِهِ وَأَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَأَعُولُ فِيمَا
يَعْرِضُ لِي مِنَ الْمَهْمَاتِ عَلَيْهِ . فَاسْتَخَرْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَثْبَتُ مِنْهَا خَمْسَةَ فَنُونٍ
حَسَنَةَ التَّرْتِيبِ ، بَيِّنَةَ التَّقْسِيمِ وَالتَّبْوِيبِ : كُلُّ فَنٍّ مِنْهَا يَحْتَوِي عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ .

الفصل الأول

في السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في السماء وما فيها .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — في مبدأ خلق السماء .

الباب الثاني — في هيئتها .

الباب الثالث — في الملائكة .

الباب الرابع — في الكواكب السبعة .

الباب الخامس — في الكواكب الثابتة .

القسم الثاني — في الآثار العلوية .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في السحاب ، وسبب حدوثه ، وفي الثلج ، والبرد .

الباب الثاني — في الصواعق ، والنيازك ، والرعد ، والبرق .

الباب الثالث — في أسطُقس الهواء .

الباب الرابع — في أسطُقس النار ، وأسمائها .

القسم الثالث — في الليالي ، والأيام ، والشهور ، والأعوام ، والفصول ،

والمواسم ، والأعياد .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في الليالي ، والأيام .

الباب الثاني — في الشهور، والأعوام.

الباب الثالث — في الفصول.

الباب الرابع — في المواسم، والأعياد.

القسم الرابع — في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون.

وفيه سبعة أبواب :



الباب الأول — في مبدأ خلق الأرض.

الباب الثاني — في تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث — في طول الأرض، ومساحتها.

الباب الرابع — في الأقاليم السبعة.

الباب الخامس — في الجبال.

الباب السادس — في البحار، والجزائر.

الباب السابع — في الأنهار، والغدران، والعيون.

القسم الخامس — في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني

القديمة، والمعقل، والقصور، والمنازل.

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها.

الباب الثاني — في خصائص البلاد.

الباب الثالث — في المباني القديمة.

الباب الرابع — فيما وُصِفَتْ به المعقل.

الباب الخامس — فيما وُصِفَتْ به القصور، والمنازل.

٥

١٠

١٥

٢٠

الفن الثاني

في الإنسان وما يتعلّق به

ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأول — في اشتقاقه ، وتسميته ، وتنقلاته ، وطبائعه ، ووصف

أعضائه ، وتشبيهها ، والغزل ، والنسيب ، والمحبة ،
والعشق ، والهوى ، والأنساب .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في اشتقاقه ، وتسميته ، وتنقلاته ، وطبائعه .

الباب الثاني — في وصف أعضائه ، وتشبيهها . وما وُصف به

١٠ طيب الرّيق ، والنّكهة ، وحسن الحديث
والنّعمة ، واعتدال القُدود . ووصف مشي
النساء .

الباب الثالث — في الغزل ، والنسيب ، والهوى ، والمحبة ، والعشق .

الباب الرابع — في الأنساب .

القسم الثاني — في الأمثال المشهورة عن النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) ،

وعن جماعة من الصحابة (رضى الله عنهم) ، والمشهور

من أمثال العرب ، وأوابد العرب ، وأخبار الكهنة ،

والزجر ، والقال ، والطّيرة ، والفراسة ، والدّكاء ،

والكفايات ، والتعريض ، والأحاجي ، والألغاز .

وفيه خمسة أبواب :

٢٠

الباب الأول — في الأمثال .

الباب الثاني — في أوابد العرب .

الباب الثالث — في أخبار الكهنة ، والزجر ، والفأل ، والطيرة ،
والفراسة ، والدكاء .

الباب الرابع — في الكنايات ، والتعريض .

الباب الخامس — في الأحاجي ، والألغاز .

القسم الثالث — في المدح ، والمهجو ، والمُجُون ، والفكاهات ، والمُلح ،
والنحر ، والمعاقرة ، والتَّدْمان ، والقيان ، ووصف آلات
الطرب .

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول — في المدح .

وفيه ثلاثة عشر فصلاً . وهي :

حقيقة المدح ، وما قيل فيه .

ما قيل في الجُود ، والكرم ، وأخبار الكرام .

ما قيل في الإِعطاء قبل السؤال .

ما قيل في الشجاعة ، والصبر ، والإقدام .

ما قيل في وفور العقل .

ما قيل في الصدق .

ما قيل في الوفاء ، والمحافظة .

ما قيل في التواضع .

ما قيل في القناعة ، والنزاهة .



١٠

١٥

٢٠

- ما قيل في الشكر، والثناء.
- ما قيل في الوعد، والإنجاز.
- ما قيل في الشفاعة.
- ما قيل في الاعتذار، والاستعطاف.

٥ الباب الثاني - في الهجاء.

وفيه أربعة عشر فصلاً:

- ما قيل في الهجاء، ومن يستحقه.
- ما قيل في الحسد.
- ما قيل في السعاية والبغى.
- ١٠ ما قيل في الغيبة والنميمة.
- ما قيل في البخل واللؤم، وأخبار البخلاء،
وأحتجاجهم.
- ما قيل في التطفل. ويتصل به أخبار الأكلة
والمؤكلة.
- ١٥ ما قيل في الجبن، والفرار.
- ما قيل في الحمق، والجهل.
- ما قيل في الكذب.
- ما قيل في الغدر، والخيانة.
- ما قيل في الكبر، والعجب.
- ٢٠ ما قيل في الحرص، والطمع.
- ما قيل في الوعد، والمطل.
- ما قيل في العي، والحصر.

الباب الثالث — فى المَجُون، والنوادر، والفُكاهات، والمُلَح .

الباب الرابع — فى الخمر، وتحرِيمها، وآفاتِها، وجنائياتِها،

وأسمائها. وأخبار مَنْ تنزه عنها فى الجاهليّة،

ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومن أشتهر بها،

وليس ثوبَ الخَلَاعة بسببها . وما قيل فيها

من جيد الشعر، وما قيل فى وصف آلاتِها،

وآنيَتِها، وما قيل فى مبادرة اللذات، وما

وُصفت به المجالس، وما يجرى هذا المجرى.

الباب الخامس — فى النَّدمان، والسُّقاة .

الباب السادس — فى الغناء، والسَّماع، وما ورد فى ذلك من الحَظَر

والإباحة، ومن سمع الغناء من الصحابة

(رضوان الله عليهم) والتابعين، والأئمّة،

والعبّاد، والزّهّاد، ومن غنّى من الخلفاء،

وأبنائهم، والأشراف، والقواد، والأكابر،

وأخبار المغنّين ممن نقل الغناء من الفارسيّة

إلى العربيّة .

الباب السابع — فيما يحتاج إليه المغنّى، ويضطرُّ إلى معرفته،

وما قيل فى الغناء، وما وُصفت به القيّان،

وما وُصفت به آلات الطرب .

القسم الخامس — في المَلِك ، وما يُشترط فيه ، وما يُحتاج إليه ، وما يجب
لَهُ على الرعية ، وما يجب للرعية عليه . ويتصل به ذكر
الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاح ، وولاية
المناصب الدينية ، والكتاب ، والبُلغاء .

وفيه أربعة عشر بابا :

- الباب الأول — في شروط الإمامة : الشرعية ، والعرفية .
- الباب الثاني — في صفات المَلِك وأخلاقه ، وما يفضل به
على غيره . وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء
والملوك الدالة على علو همتهم ، وكرم شيمتهم .
- الباب الثالث — فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة ،
والنصيحة ، والتعظيم ، والتوقير .
- الباب الرابع — في وصايا الملوك .
- الباب الخامس — فيما يجب على المَلِك للرعايا .
- الباب السادس — في حُسن السياسة ، وإقامة المملكة . ويتصل
به الحزم ، والعزم ، وَاَتِّهَازُ الْفُرْصَةِ ، والحلم ،
والعفو ، والعقوبة ، والانتقام .
- الباب السابع — في المشورة ، وإعمال الرأي ، والاستبداد ،
ومن يُعتمد على رأيه ، ومن كره أن يستشير .
- الباب الثامن — في حفظ الأسرار ، والإذن ، والحجاب .

الباب التاسع — في الوزراء، وأصحاب المليك،

الباب العاشر — في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب؛

ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل

في أوصاف السلاح .

الباب الحادي عشر — في القضاة، والحكام .



الباب الثاني عشر — في ولاية المظالم، وهي نيابة دار العدل .

الباب الثالث عشر — في نظر الحسبة، وأحكامها .

الباب الرابع عشر — في ذكر الكتاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرع

عنها من الوظائف والكتابات، وهي : كتابة

الإنشاء، وكتابة الديوان، والتصرف، وكتابة

الحكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة

التعليم .

الفن الثالث

في الحيوانات الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في السباع، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في الأسد، والبر، والنمر.

الباب الثاني — في الفهد، والكلب، والذئب، والضبع،
والنمس.

الباب الثالث — في السنجاب، والثعلب، والذئب، والهر،
والخنزير.

القسم الثاني — في الوحوش، والظباء، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — فيما قيل في الفيل، والكركدف، والزرافة،
والمهامة، والإيل.

الباب الثاني — في الحمر الوحشية، والوعل، واللمط.

الباب الثالث — فيما قيل في الظبي، والأرنب، والقرد، والنعام.

(١) ويقال أيضا : الأيل والأيل (قاموس) .

القسم الثالث — وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في الخيل .

الباب الثاني — في البغال ، والحمير .

الباب الثالث — في الإبل ، والبقر ، والغنم .

القسم الرابع — وفيه بابان :

الباب الأول — في ذوات السموم القواثل .

الباب الثاني — فيما هو ليس بقاتل بفعله ، من ذوات السموم .

القسم الخامس — وفيه سبعة أبواب : ستة منها في الطير ، وباب في السمك .

(وذيلت عليه بباب ثامن ، أوردت فيه ما قيل

في آلات صيد البر ، والبحر) .

الباب الأول — في سباع الطير ، وهي : العقبان ، والبوازي ،

والصقور ، والشواهي .

الباب الثاني — في كلاب الطير ، وهي : النسر ، والرحم ، والحداة ،

والغراب .

الباب الثالث — في بهائم الطير ، وهي : الدراج ، والحباري ،

والطاووس ، والدِّيك ، والدجاج ، والإوز ،

والبط ، والنحام ، والأنيس ، والقائند ،

والخُطَّاف ، والقيق ، والزُّرْزُور ، والسَّمَانِي^(١) ،

والهُدُود ، والعَقَق ، والعصافير .

(١) في الأصل السَّمان . وقال في الصحاح والسَّمانى ولا شدد الميم .

الباب الرابع — في بُغَاث الطير، وهو : القُمْرِي ، والدُّبَيْتِي ،
وَالْوَرَشَاتُ ، وَالْفَوَاخِثُ ، وَالشَّفَنِينَ ،
وَالْعَبْطَبَطُ ، وَالنَّوَّاحُ ، وَالْقَطَاةُ ، وَالْيَمَامُ ،
وَأَصْنَافُهُ ، وَالْبَبْغَاءُ .

الباب الخامس — في الطير الليلي ، وهو : الخُفَّاشُ ، وَالكَرَّوَانُ ،
وَالْبُومُ ، وَالصَّمدِي .

الباب السادس — في الهمَج ، وهو : النمل ، والزُّنْبُورُ ، والعنكبوت ،
والجُرَادُ ، ودود القَزَّ ، والدُّبَابُ ، والبَعُوضُ ،
والبِراغِيثُ ، وَالْحُرْقُوصُ .

الباب السابع — في أنواع الأسماك .

الباب الثامن — يشتمل على ذكر شئ مما وُصِفَتْ به آلات الصيد
في البرِّ ، والبحر ، ووصف رُماة البُنْدُقِ ،
وما يجري هذا المجرى .

الفن الرابع

في النبات

ويشتمل على خمسة أقسام :

(وذيلتُ على هذا الفن ، في القسم الخامس ، بشيء من أنواع الطيب ، والبحُور ، والغوالي ، والندود ، والمستطرات ، وغير ذلك) .

القسم الأول — في أصل النبات ، وما تختص به أرض دون أرض .
(ويتصل به ذكر الأقوات ، والخضراوات ، والبقولات) .
وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — في أصل النبات ، وترتيبه .
الباب الثاني — فيما تختص به أرض دون أرض ، وما يستأصل
شأفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة .
الباب الثالث — في الأقوات ، والخضراوات ، والبقولات .

القسم الثاني — في الأشجار .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأول — فيما لثمره قشر لا يؤكل .
الباب الثاني — فيما لثمره نوى لا يؤكل .
الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوى .

القسم الثالث — في الفواكه المشمومة .

وفيه بابان :

الباب الأول — فيما يُشَّم رَطْبًا، وَيُسْتَقَطَر .

ويشتمل على أربعة أنواع : وهي "الورد،

والنَّسْرِينُ، والخَلَّافُ، والنَّيْلُوفَرُ" .

الباب الثاني — فيما يُشَّم رَطْبًا، وَلَا يُسْتَقَطَر .

ويشتمل على ما قيل في البنفسج، والزرعس،

والياسمين، والآس، والزعفران، والحبَّاق .

القسم الرابع — في الرياض، والأزهار .



(ويتصل به الصموغ، والأمتان، والعصائر) .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأول — في الرياض، وما وُصِفَتْ به نظمًا، ونثرًا .

الباب الثاني — في الأزهار، وما وُصِفَتْ به .

الباب الثالث — في الصموغ .

وفيه ثمانية وعشرون صنفًا .

الباب الرابع — في الأمتان .

القسم الخامس — في أصناف الطيب، والبخورات، والغوالي، والندود،

والمُسْتَقَطَرَات، والأدهان، والنَّضُوحَات، وأدوية

الباه، والخواص .

وفيه أحد عشر بابًا :

الباب الأول — في المسك، وأنواعه

الباب الثاني — في العنبر، وأنواعه، ومعادنه .

الباب الثالث — في العود، وأصنافه، وأنواعه، ومعادنه ،

الباب الرابع — في الصنّيدل، وأصنافه، ومعادنه .

الباب الخامس — في السنبُل الهنديّ، وأصنافه، والقرنفل،

وجوهره .

الباب السادس — في القسّط، وأصنافه .

الباب السابع — في عمل الغوّالي، والندود .

الباب الثامن — في عمل الرامك، والسكّ من الرامك والأدهان .

الباب التاسع — في عمل النّضوحات ، والمياه المستقطرة، وغير

المستقطرة .

الباب العاشر — في الأدوية التي تزيد في الباه ، وتلذّذ الجماع ،

وما يتصل بذلك .

الباب الحادي عشر — فيما يفعل بالخاصّة .

الفرس الخامس

في التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأول — في مبدأ خلق آدم (عليه السلام) وحواء ، وأخبارهما ،
ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرّس .

وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأول — في مبدأ خلق آدم (عليه السلام) ، وموسى
(عليه السلام) ، وما كان من أخبارهما إلى
حين وفاتهما .

الباب الثاني — في خبر شيث بن آدم (عليهما السلام) ، وأولاده .
الباب الثالث — في أخبار إدريس : النبي (عليه السلام) .
الباب الرابع — في قصة نوح (عليه السلام) ، وخبر الطوفان .
الباب الخامس — في قصة هود (عليه السلام) مع عاد ، وهلاكهم
بالريح العقيم .

الباب السادس — في قصة صالح (عليه السلام) مع ثمود ،
وعقرهم الناقة ، وهلاكهم .
الباب السابع — في أخبار أصحاب البئر المعطلة ، والقصر المشيد ،
وهلاكهم .

الباب الثامن — في أخبار أصحاب الرّس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثاني — في قصة إبراهيم ، الخليل (عليه السلام) ، وخبره مع نمرود ؛
وقصة لوط ؛ وخبر إسحاق ، ويعقوب ؛ وقصة يوسف ؛
وأَيُّوب ؛ وذى الكِفْل ؛ وشُعَيْب (عليهم السلام) .
وفيه سبعة أبواب :

الباب الأول — في قصة إبراهيم ، الخليل (عليه الصلاة
والسلام) ، وأخبار نمرود بن كنعان .

الباب الثاني — في خبر لوط (عليه السلام) مع قومه ، وقلب
المدائن .

الباب الثالث — في خبر إسحاق ، ويعقوب (عليهما السلام) .

الباب الرابع — في قصة يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) .

الباب الخامس — في قصة أيوب (عليه السلام) ، وأتلائه ، ورافيته .

الباب السادس — في خبر ذى الكِفْل بن أيوب (عليهما السلام) .

الباب السابع — في خبر شُعَيْب (عليه السلام) ، وقصته مع
مَدْيَن .

القسم الثالث — يشتمل على قصة موسى بن عمران (عليه السلام) ،

وخبره مع فرعون ؛ وخبر يوشع ، ومن بعده ؛ وخرقيل ،

وإلياس ، وأليسع ، وعيلا ، وأشمويل ، وطالوت ،

وجالوت ، وداود ، وسليمان بن داود ، وشعيا ،

وأرميا ، وخبر بُحَّتْ نَصْرَ ، وخراب بيت المقدس ،

وعمارته ؛ وما يتصل بذلك من خبر عزير ؛ وقصة

نهاية الأرب

يونس بن متى ، وخبر بلوقيا ، وزكريا ، ويحيى ،
وعمران ، ومريم ، وعيسى (عليهم السلام) ، وقصص
الحواريين ، وما كان من أمرهم فيمن أرسلوا إليه ،
وخبر جرجيس .

٥ وفيه ستة أبواب :

(وذلت على هذا القسم ذبلا يشتمل على أربعة أبواب ، ذكرت فيها
ما قيل في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى — عليه السلام — إلى
الأرض ومدة إقامته بها ، ووفاته ، وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار
الحشر والمعاد) .

١٠ الباب الأول — في قصة موسى بن عمران ، وهرون ، وغرق
فرعون ، وأخبار بني إسرائيل ، وأخبار
قارون ، وخبر بلعم بن باعوراء ، والجبارين ،
وغير ذلك .

١٥ الباب الثاني — فيما كان بعد موسى بن عمران (عليه السلام)
من أخبار يوشع بن النون ، ومن بعده ، وخبر
حزقييل ، وإلياس ، وأليسع ، وعيلا ،
وأشمويل ، وطالوت ، وجالوت ، وداود ،
وسليمان .

٢٠ الباب الثالث — في أخبار شعيا ، وأرميا ، وخبر بُحْتَنَصَّر ،
ونحرا بيت المقدس ، وعمارته ، وما يتصل
بذلك من خبر عُزَيْر .

الباب الرابع — في قصّة ذى النون يونس بن متى (عليه السلام) ، وخبر بلوقيا .

الباب الخامس — في خبر زكريّا ، ويحيى ، وعمران ، ومريم أبنته ، وعيسى بن مريم (عليهما السلام) .

الباب السادس — في أخبار الحواريين الذين أرسلهم عيسى (عليه السلام) ، وما كان من أمرهم بعد رفعه ، وخبر جرجيس .

التذييل على هذا القسم — ويشتمل على أربعة أبواب :

الباب الأول — في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم .

الباب الثاني — في خبر نزول عيسى إلى الأرض ، وقتل الدجال ، ونحروج يأجوج ، ومأجوج ، وهلاكهم ، ووفاة عيسى (عليه السلام) .

الباب الثالث — في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى ابن مريم إلى النفخة الأولى .

الباب الرابع — في أخبار يوم القيامة والحشر ، والمعاد ، والنفخة الثانية في الصور .

القسم الرابع — فى أخبار ملوك الأصقاع ، وملوك الأمم ، والطوائف ؛
وخبر سبل العرم ، ووقائع العرب فى الجاهلية .
وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول — فى أخبار ذى القرنين ، المذكور فى سورة الكهف .



الباب الثانى — فى أخبار ملوك الأصقاع ، وهم : ملوك مصر ،
والهند ، والصين ، وجبل القتح .

الباب الثالث — فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ، وهم : ملوك
الفرس الأول ، وملوك الطوائف منهم ؛
والملوك الساسانية ، وملوك اليونان والسريان ؛
والكلدانيين ، والصقالبة ، والبوكرد ؛
والإفرنجية ، والجلائقة ، وطوائف السودان .

١٠

الباب الرابع — فى أخبار ملوك العرب .

(ويتصل به خبر سبل العرم) .

الباب الخامس — فى أيام العرب ، ووقائعها فى الجاهلية .

القسم الخامس — فى أخبار الملة الإسلامية ، وذكروا من سيرة نبينا محمد

١٥

(صلى الله عليه وسلم) ، وأخبار الخلفاء من بعده
(رضى الله عنهم) ، وأخبار الدولة الأموية ،
والعباسية ، والعلوية ، ودول ملوك الإسلام ،
وأخبارهم ، وما فتح الله (سبحانه وتعالى) عليهم — على
ماسنين ذلك — إن شاء الله (تعالى) .

٢٠

وفيه اثنا عشر بابا :

الباب الأول — في سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

الباب الثاني — في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر، وعمر،

وعثمان، وعليّ، وآبنة : الحسن (رضى الله

عنهم أجمعين) .

الباب الثالث — في أخبار الدولة الأموية بالشام وغيره .

الباب الرابع — في أخبار الدولة العباسية بالعراق، ومصر .

الباب الخامس — في أخبار الدولة الأموية بالأندلس، وأخبار

الأندلس بعد انقراض الدولة الأموية .

الباب السادس — في أخبار إفريقية، وبلاد المغرب، ومنّ وليها

من العُمّال، ومن استقلّ منهم بالملك .

الباب السابع — في أخبار من نهض في طلب الخلافة من

الطالبين ، في مدّة الدولتين : الأموية ،

والعباسية ، فقتل دونها ، بعد مقتل الحسين

آبن عليّ (رضى الله عنهما) .

الباب الثامن — في أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والخواارج

بالموصل .

الباب التاسع — في أخبار من استقلّ بالملك ، والممالك ، بالبلاد

الشرقية والشمالية ، في خلال الدولة العباسية ،

وهم : ملوك خراسان ، وما وراء النهر ،

والجبال ، وطبرستان ، وغزنة ، والغور ،

وبلاد السند، والهند : كالدولة السامانية ،
والصفارية ، والغزنوية ، والغورية ، والدَّيْلَمِيَّة
الختليَّة .

الباب العاشر — فى أخبار ملوك العراق ، وما والاہ ، وملوك

- ٥ الموصِّل ، والديار الجَزِيرِيَّة ، والبكرية ، والبلاد
الشامية ، والحلبية : كالدولة الحمدانية ،
والدَّيْلَمِيَّة البُويهيَّة ، والسَّلاجُقيَّة ، والأتابكية .

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخُوارزَمِيَّة ، والجنكزخانِيَّة ،
وهى دولة التتار، وما تفرَّع منها .

- ١٠ الباب اثنانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصرية الذين ملكوا
فى خلال الدولة العباسيَّة ، نيابةً عن خلفائِها ،
وهم : المملوك العبيدِيُّون الذين آتَسَّـجُوا إلى
على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وما كان
من أمرهم ، وما ملكوه من بلاد المغرب ،
١٥ وكيف آسْتَوْلَوْا على الديار المصرية ، والبلاد
الشامية ، والحلبية ، والثغور ، والسواحل ،
وغير ذلك إلى أن انقرضت دولتهم ؛ وقيام
الدولة الأيوبيَّة ، وأخبار ملوكها بمصر ، والشام
إلى حين انقراضها ؛ وقيام دولة الترك ، ومَن
مَلَّكَ منهم من أبناءهم ، وما حازوه من الأقاليم ،
٢٠ وما فتحوه من الممالك ، وغير ذلك من

أخبارهم ، وما استقر في ملك ملوك هذه الدولة
إلى حين وضعنا لهذا التأليف في سنة ...
وسبعمئة (في أيام مولانا السلطان السيد
الأجل المالك الملك الناصر ، ناصر الدنيا
والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ،
أبي الفتح محمد ، بن السلطان الشهيد ، الملك
المنصور ، سيف الدنيا والدين ، أبي المظفر
قلاوون ، الصالحى . خلد الله ملكه على ممر
الزمان ، وسقى عهد والده صوب الرحمة
والرضوان ، ببركة سيد ولد عدنان !)

٥

١٠

هذا مجموع ما يشتمل عليه هذا الكتاب ، من فنون وأقسام وذيل وأبواب .
ثم ينطوى كل باب منها على فصول وأخبار ، ويحتوى على وقائع وآثار .
ولما انتهت أبوابه وفصوله ، وأنحصرت جملته وتفصيله ، ترجمته :

بنهاية الأرب في فنون الأدب

وأتيئت فيه بالمقصود والغرض ، وأثبتت الجوهر ونفيت العَرَض ، وطوّقتُه بقلائد
من مقول ، ورصعته بفرائد من منقول . فكلامى فيه كالسارية تلتها السجائب ، أو السرية
ردفتها الكئاب . فما هو إلا مترجم عن فنونه ، وحاجب لعيونه .

١٥

وما أوردت فيه إلا ما غلب على ظنى أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل
عليه . ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنانى ، وغضضت طرفى ، ولو خبرت طريق

المعتز لعظمت عِناي ، وثبت عِظفى . لكنى تبعْتُ فيه آثار الفضلاء قَبْلَى ،
وسلكتُ منهم فوصلتُ بحبالهم حبلى . فإن يكن اعتراض ، فعلى علاهم لا على
العار . وقد علمتُ أنه من صنف كتابا فقد استهدف ، وأصمَّ الأسماع وإن كان
لبعضها قد شنف .

- ٥ . وخلق للواقف عليه أن يسد ما يجد به من خلل ، وأن يغفر ما يلمح فيه من زلل .
فأسبل عليها ستر معروفك الذى سترت به قدما على عَوارى . والذى أدّى إليه
أجتهادى من تأليفه فقد أصدرته ، والذى وقفت عنده غايى فقد أوردته . قد
تبلغت فيه وسعى ، لكن ليس من عثرة الكتاب أمان . وبالله سبحانه المستعان !
وعليه أتوكل ، واليه أتضرع فى التيسير وأتوسل ؛ ومن فضله أستمد الصواب ،
وباسمه أستفتح الكتاب^(١) !
- ١٠ .

(١) ورد فى النسخة الفوتغرافية التى أعتمدنا الطبع عليها (وهى المحفوظة بكتبخانة الكوبرى بى بالقسطنطينية)
ما نصه فى هذا الموضع : ” هذا آخر الفهرست لهذا الكتاب . ولنبتدى إن شاء الله تبارك وتعالى بما بدأ به
مؤلفه عفا الله تعالى عنه وهو الفن الأول . وزجوبعون الله وحوله وقوته الإتمام بسلام . وصلى الله
وسلم على أشرف الانام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام “ - وهى من زيادات الناسخ .



الفن الأول

فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية

وقد أوردت فى هذا الفن نبذة من وصف السماء ، التى هى قبلة الدعاء ، وباب
الرجاء ، والكواكب السيارات ذوات السنا والسناء ، والملائكة الذين هم أولو أجنحة ،
مثنى ، وثلاث ، ورباع ، والسحاب التى تجود بوابها فتعدل فى قسما بين السهل
واليفاع ، والرعد الذى إن ننت يحثها ، والريح الذى إن أجمعت يثها ، والبرق الذى
شبهه بنان الحاسب والكف الخضيب ، والثلج الذى خلع على الأرض رداء المشيب ،
وقوس السحاب الذى تنكبه الجو فأفرغ عليه مصبغات الحلل ، ورمى الجذب ببنادق
البرد فتباشرت بالخصب أهل الحلل ، والتيان وعبادها وعددها ، والمياه وأمدادها
ومددها ، والليالى والأيام ، والشهور والأعوام ، والسنة وفصولها ومباديها ، والأعياد
والمواسم ومخذيها ، والأرض والجبال ، والبرارى والرمال ، والجزائر والبحار ، والعيون
والأنهار ، وطبائع البلاد ، وأخلاق من سكنها من العباد ، والمباني والمعاقل ،
والقصور والمنازل .

وجعلته خمسة أقسام يستدل بها عليه ، ويتوصل من أبوابها إليه .

القسم الأول

في السماء وما فيها

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأول

من القسم الأول من الفن الأول

١ — في مبدأ خلق السماء

قال الله تعالى : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكُمَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ صُحَّاحَهَا ﴾ .

§ والسماء تُذَكَّر وتُؤنث .

فشاهد التذكير قول الله (عز وجل) : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ ؛ وقول الشاعر :

فلورَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا ، * لِحَقْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ !

وشاهد التأنيث ، قوله (تبارك وتعالى) : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ ؛ وقول الشاعر :

* يَارَبِّ ، رَبِّ النَّاسِ فِي سَمَاتِهِ ! ^(١) *

(١) هكذا في الأصول ، أى بالياء المثناة . ولو هُجِزَتْ ، لفات الشاهد .

٢ - ذكر ما قيل في أسماء السماء وخلقيها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء .

منها : الجرباء . وسميت بذلك لكثرة النجوم بها .

ومنها : الخلقاء . لملاستها .

وبرقع . والرقيع .^(١) ومنه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن معاذ :

« لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة » . أى من فوق سبع سموات .

ومنها : الطرائق . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ .

والسماء مخلوقة من دُخان .

٣ - حكي في سبب حدوثه

أن الله تعالى خلق جوهره ، وصف من طولها وعرضها عظم . ثم نظر إليها نظر

هيبة ، فأبغضت ، وعلاها من شدة الخوف زبدٌ ودُخان . فخلق الله من الزبد الأرض ،

وفتقها سبعا ، ومن الدخان السماء ، وفتقها سبعا . ودليله قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى

السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ . قال : ولما فتق الله تعالى السماوات ، أوحى في كل سماء أمرها .

وآختلف المفسرون في الأمر ، ما هو ؟ فقال قوم : خلق فيها جبلا من برد وبحارا ،

وقال قوم : جعل في كل سماء كوكبا ، قدر عليه الطلوع والأفول ، والسير والرجوع .

وقال قوم : أسكنها ملائكة يتخرون للعالم السفلى ، فوكل طائفة بالسيحاب وطائفة

بالريح ، وجعل منهم حفظة لبنى آدم وكاتبين لأعمالهم ومستغفرين لذنوبهم .

(١) كزبرج وقنفذ كما في القاموس .

الباب الثاني

١ - في هيئتها

ذهب المفسرون ليكتب الله عز وجل أن السماء مسطوحة ، بدليل قوله تعالى :
(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) .

وقال تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) .

ويطلق على مجموعها فَلَكٌ ، لقوله تعالى : (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

(١٢)

وذهب الحسن إلى أن الفلك غير السماوات ، وأنه الحامل بأمر الله تعالى للشمس والقمر والنجوم .

قالوا : ولما فتق الله تعالى رتق السماوات ، جعل بين كل سماء وسماء مسيرة
خمسمائة عام .

وروى عن أبي هريرة (رضى الله عنه) ، قال : ” بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس هو وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب . فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا العنان ، هذه رَوَايا الأرض ،

يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه . ثم قال : أتدرون ما فوقكم ؟ قالوا :
الله ورسوله أعلم . قال : هذا الرقيع : سقف محفوظ ، وموج مكفوف . ثم قال : هل تدرون ما بينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينكم وبينها خمسمائة سنة . ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : سماء في بُعد ما بينهما

(١) العنان السحاب . واحده نيه . (قاموس) .

نحسمائة سنة . قال ذلك حتى بلغ سبع سماوات ، ما بين كل سماءين ، ما بين السماء والأرض . ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنَّ فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بُعد ما بين السماءين . ثم قال : هل تدرون ما تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنَّها الأرض . ثم قال : أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنَّ تحتها أرضاً أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة . حتى عدَّ سبع أرضين ، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة . أخرجه أبو عيسى الترمذی ، في "جامعه" .

ويروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان جالسا بالبطحاء ، بين أصحابه ، إذ مرَّت عليهم سحابة . فنظروا إليها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ما آسم هذه ؟ قالوا : نعم . هذا السحاب . فقال (صلى الله عليه وسلم) : والمُزَن . قالوا : والمُزَن . قال : والعَنَان . قالوا : والعَنَان . فقال : هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لا ندري . قال : خمسمائة عام . وبينها وبين السماء التي فوقها كذلك . (حتى عدَّ سبع سماوات) . ثم قال : وفوق السماء السابعة بحرٌ ، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء (وفي لفظ : كما بين السماء والأرض) . وفوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ظهورهم العرش ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض .

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي ، وقال : « ثم ما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام . ثم ما بين الكرسي إلى السماء مسيرة خمسمائة عام . والعرش فوق الماء . » ولم يذكر الأوعال .

(١) في الترمذی : أظلافهنَّ وركبهنَّ ظهورهنَّ .

وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي ، وأن السماوات في ضمنه . وهي بالنسبة إليه كحائنة ملقاة في أرض فلاة . والكرسي بالنسبة إلى العرش كذرة ملقاة في أرض فلاة فيجاء . (وفي رواية كحائنة) .

وروى أن أبا ذر (رضي الله عنه) قال : "يارسول الله : أي آية أنزلت عليك أعظم؟ قال : آية الكرسي . ثم قال : يا أبا ذر ! أتدرى ما الكرسي ؟ قلت : لا ، فعلمني يارسول الله ، مما علمك الله . فقال : ما السماوات والأرض وما فيهن في الكرسي ، إلا كحائنة ألقاها ملق في فلاة . وما الكرسي في العرش ، إلا كحائنة ألقاها ملق في فلاة . وما العرش في الماء ، إلا كحائنة ألقاها ملق في فلاة . وما الماء في الريح ، إلا كحائنة ألقاها ملق في فلاة . وجميع ذلك في قبضة الله كالْحَبَّة ، وأصغر من الحبة ، في كف أحدكم . تعالى الله سبحانه " . رواه أبو حاتم في كتاب العظمة . ١٠

والقول في هيئة السماء ، على مذاهب أصحاب علم الهيئة ، كثير . أغضينا عنه ، لأنه لا يقوم عليه دليل واضح . فلذلك اقتصرنا على ذكر المنقول دون المعقول . فلنذكر ما جاء في الأمثال التي فيها ذكر السماء ، وما وصفها الشعراء به وشبهوها .

٢ — أما الأمثال

فقولهم : أرفع من السماء ، للبالغة . ١٥

وقول الشاعر :

من ذا رأى أرضاً بغير سماء ؟

إن السماء تُربّجى حين تُحتجب .

إن السماء ، إذا لم تبتك مُقلّتها ، * لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر .

٣ — وأما الوصف والتشبيه

فمنه قول عبد الله بن المعتز :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا، لَمَّا تَجَلَّتْ * خِلَالَ نُجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ ،
رِيَاضُ بَنَفْسِجٍ خَضِلٍ ، نَدَاهُ * تَفْتَحُ بَيْنَهُ نَوْرُ الْأَقَاحِ .

وقال آخر :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا، وَالشَّهْبُ فِيهَا ، * وَأَصْغَرُهَا لِأَكْبَرِهَا مُزَاجِمُ ،
بِسَاطِ زُمُرْدٍ تُثْرَتْ عَلَيْهِ * دَنَانِيرُ تُخَالِطُهَا دَرَاهِمُ .

ونحوه قول الآخر :

كَأَنَّ سَمَاءَ الْأَرْضِ نَطْعُ زُمُرْدٍ ، * وَقَدْ فُرِشَتْ فِيهِ الدَّنَانِيرُ لِلصَّرْفِ .

وقال آخر :

وَرَأَيْتُ السَّمَاءَ كَالْبَحْرِ إِلَّا * أَنَّ مَرَسُوبَهُ مِنَ الدَّرَطِافِ .
فِيهِ مَا يَمَلَأُ الْعُيُونَ كَبِيرٌ * وَصَغِيرٌ مَا بَيْنَ ذَلِكَ خَافِ .

وقال التنوخي يصف ليلة :

كَأَنَّمَا نُجُومُهَا ، * نُصَبَ عُيُونُ الرُّمَقِ ،
دَرَاهِمٌ قَدْ تُثْرَتْ * عَلَى بِسَاطِ أَزْرَقِ .

وقال أبو طالب الرقي :

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ السَّمَاءِ، لَوَامِعًا ، * دُرَرٌ تُثْرَنَ عَلَى بِسَاطِ أَزْرَقِ .

وقال ظافر الحداد :

كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ، لَمَّا تَبَلَجَتْ ، * تَوْقُودُ جَمْرٍ فِي خِلَالِ رَمَادِ .
حَكَا ، فَوْقَ مَمْتَدِّ الْمَجَرَّةِ شَكْلُهَا ، * فَوَاقِيعَ تَطْفُو فَوْقَ لَحْمَةِ وَادِي .

وقال آخر:

كَأَنَّ النُّجُومَ ، نَجُومَ السَّمَاءِ ، * وقد لُحِنَ لِلْعَيْنِ مِنْ فَرْطِ بَعْدِ ،
مَسَامِيرُ مِنْ فِضَّةٍ سُمِّرَتْ * عَلَى وَجْهِ لَوْحٍ مِنَ اللَّازُورِدِ .

وقال محمد بن عاصم :

تُرَى صَنْحَةَ الْخَضِرَاءِ ، وَالنَّجْمُ فَوْقَهَا ، * كَكَفِّ سُدُوسٍ بَدَأَ فِيهِ دُرُّهُمُ .
تُرَى ، وَعَلَى الْآفَاقِ أَثْوَابُ ظُلُمَةٍ ، * وَأَزْرَارُهَا مِنْهَا شَمَالٌ وَمَرْزِمُ^(١) .

٤ - وما قيل في الفلك

قال أبو العلاء المعري :

يَا لَيْتَ شِعْرِي ! وَهَلْ لَيْتَ بِنَافِعَةٍ ؟ * مَاذَا وَرَاءَكَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَلَكَ ؟
كَمْ خَاصٍ فِي إِثْرِكَ الْأَقْوَامُ وَآخَتَلَفُوا * قِدَمًا ! فَمَا أَوْصَحُوا حَقًّا وَلَا تَرَكَوْا .
شَمْسٌ تَغِيبُ وَيَتَّقِنُوا إِثْرَهَا قَمَرًا * وَنُورٌ صَبَحَ يُوَاغِي بَعْدَهُ حَلَكُ .
طَحَنَتَ طَحْنَ الرَّحَى مِنْ قَبْلَانَا أُمًّا * شَتَّى ، وَلَمْ يَدْرِ خَلْقُ آيَةٍ سَلَكَوْا .
وَقَالَ ، إِنَّكَ طَبَعَ خَامِسٌ ، نَقَرًا * عَمْرِي ! لَقَدْ زَعَمُوا بَطْلًا وَقَدْ أَفْكُوا !
رَامُوا سَرَائِرَ لِلرَّحْمَنِ حَجَّابَهَا * مَا نَالَهُمْ نَبِيٌّ ، لَا وَلَا مَلَكُ .

وقال الرئيس أبو علي^(٢) بن سينا :

يَرْبِكَ ! أَيُّهَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ ، * أَقْصَدُ ذَا الْمَسِيرُ أَمْ أَضْطَرَارُ ؟
مَدَارُكَ ، قُلْ لَنَا ، فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ * فَفِي أَفْهَامِنَا مِنْكَ أَنْهَارُ !

(١) المرزم : الثابت القائم على الأرض .

(٢) قال صاحب عيون الأنبياء (ج ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩) إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة

لأبي سينا وليست له ، ونص على أنها لأبي الشبل البغدادي وقد أوردتها في خمسين بيتا .

وَعِنْدَكَ تُرْفَعُ الْأَرْوَاحُ؟ أَمْ هَلْ * مَعَ الْأَجْسَادِ يُدْرِكُهَا الْبَوَارُ؟
 وَفِيكَ الشَّمْسُ رَافِعَةٌ شُعَاءً ، * بِأَجْنِحَةٍ قَوَادِمُهَا قِصَارُ؟
 قُطُوفُ، ذِي النُّجُومِ أَمْ اللَّالِي؟ * هَلَالٌ أَمْ يَدٌ فِيهَا سِوَارُ؟
 وَشُبَّ ، ذِي الْمَجَرَّةِ أَمْ ذُبَالٌ ^(١) * عَلِيمَا الْمَرْخِ يُقَادِحُ ^(٢) وَالْعَفَارُ ^(٣)؟
 وَتَرْصِيعُ، نُجُومُكَ أَمْ حَبَابُ * تُؤَلِّفُ بَيْنَهَا اللَّجَجُ الْغِزَارُ؟
 تَمَدُّ رِقْوُمُهَا آيَالًا وَتُطَوِّى * نَهَارًا، مِثْلَ مَا طَوَّيَ الْإِزَارُ!
 فَكَمْ بِصَقَالِهَا صَدَى الْبَرَايَا ! * وَمَا يَصْدَا لَهَا أَبَدًا غِرَارُ.
 وَتَبْدُو ثُمَّ تَخْنِسُ رَاجِعَاتٍ * وَتَكْنِسُ مِثْلَ مَا كَنَسَ الصُّوَارُ ^(٤).
 فَبَيْنَا الشَّرْقُ يُقَادِمُهَا صُعُودًا * تَلْقَاهَا مِنَ الْغَرْبِ أَنْحِدَارُ.
 هِيَ الْعَشَوَاءُ، مَا خَبَطَتْ هَشِيمٌ * هِيَ الْعِجْمَاءُ، مَا جَرَحَتْ جُبَارُ ^(٥).

وقال أبو عبادة البُحْتَرِيُّ :

أَنَاةٌ ! أَيُّهَا الْفَلَكُ الْمُدَارُ ! * أَنَهَبُ مَا تُصَرِّفُ أَمْ خِيَارُ؟
 سَتَبِلُ مِثْلَ مَا نَبِلُ ، وَتَفْنِي * كَمَا تَفْنَى ، وَيُؤْخَذُ مِنْكَ ثَارُ.

(١) الذبال : الفتائل .

(٢) المرخ : شجر سريع الوري كثيره . وقد وصفه المؤلف فيما بعد (ص ٣٩) بأنه شجر تحنك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا .

(٣) العفار : شجر يتخذ منه الزناد وهو من شجر النار .

(٤) الصوار كالصيار بكسر الصاد وضمة : القطيع من البقر .

(٥) الجبار (بضم الجيم) الهدر .

الباب الثالث

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في ذكر الملائكة

١٤ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ” أَطَّتِ السَّمَاءُ ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَبَّ .
 ما فيها موضع أربع أصابع ، إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد “ .

والملائكة أولو أجنحة : مثنى ، وثلاث ، ورباع ، وأكثر من ذلك . فإنه قد
 ورد أن جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح . وهى الصورة التى رآه النبيّ
 (صلى الله عليه وسلم) فيها مرتين :

إحداهما فى الأرض ، وقد سد ما بين الحافقين . ووصفه الله تعالى بالقوة ،
 فقال تعالى : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ . ومن قوته ، أنه آقتلع مدائن
 قوم لوط ، وكانت خمس مدائن ، من الماء الأسود ، وحملها على جناحه ، ورفعها إلى
 السماء ، حتى إن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم ، وأصوات دجاجهم ؛ ثم قلبها .
 والمرة الثانية ، رآه (صلى الله عليه وسلم) عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . قال الله تعالى :
 ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ .

وكان هبوط جبريل (عليه السلام) على الأنبياء (صلوات الله عليهم) ورجوعه
 فى أَوْحَى^(٢) مِنْ رَجْعِ الطَّرْفِ .

(١) أط : صوت .

(٢) أسرع .

وعُظَاء الملائكة أربعة، وهم : إسرافيل ، وميكائيل ، وجبرائيل ، وعزرائيل .
وأقربهم من الله تعالى منزلةً ، إسرافيل .

فإذا أراد الله تعالى بوحيٍ ، جاء اللوحُ المحفوظُ حتى يقرعَ جبهةَ إسرافيل ، فيرفع رأسه ، فينظر فيه . فإن كان إلى السماء ، دفعه إلى ميكائيل ؛ وإن كان إلى الأرض ، دفعه إلى جبرائيل ؛ وإن كان بموت أحد ، أمر به عزرائيل . صلوات الله عليهم !

وقد رُوى في قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، هم أربعة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل . فجبريل على الجنود والرياح ، وميكائيل على القَطَر والنبات ، وعزرائيل على قبض الأرواح ، وإسرافيل يبلغهم ما يؤمرون به .

وجعل الله تعالى لهم أن يمثّلوا للبشر على ما شاءوا من الصور ، كما كان جبريل يمثّل لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على صورة دحية الكلبيّ مراراً ، وفي صورة غيره من الرجال ، وكما تمثّل لمريم عليها السلام بشراً سوياً . ونزلت الملائكة في غزوة بدر على الخيول المسقومة ، وقد سدّلوا ذوائب عمامتهم على مناكبهم . وهم مخلوقون من نور . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

الباب الرابع

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في الكواكب السبعة المتحيرة

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ ﴾ . ذهب المفسرون إلى أنها هي الكواكب السبعة : زُحَلُ ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر .

وقالوا : إن هذه الكواكب هي المعنية بقوله تعالى : ﴿ فَاَلْمُدَّبَرَاتِ أَمْراً ﴾ .

وسميت كُنُوساً لأنها تجري في البروج ثم تَكُنُسُ أى تستتر كما تَكُنُسُ الظباء ، وكُنُوساً لاستقامتها ورجوعها . وقيل الخُنُوس والْكُنُوس منها خمسة ، دون الشمس والقمر . وسميت كُنُوساً لأن الخُنُوس في كلام العرب الانقباض . وفي الحديث الشريف ١٠ " الشيطان يُوسُوس للعبد ، فإذا ذكر الله تعالى خُنَسَ " أى انقبض ورجع . فيكون في الكوكب بمعنى الرجوع . وكُنُوساً من قول العرب كَنَسَ الظبي إذا دخل الكناس ، وهو مقترده . ويكون في الكوكب اختفاءه تحت ضوء الشمس . وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها .

§ فقالوا في زحل : زَحَلُ فلان إذا أبطأ ، وبذلك سمي هذا الكوكب لبطئه في السماء . ١٥ وقيل الزَّحَلُ والزَّحِيلُ الحقد وهو في طبعه . وهذا الكوكب عند المفسرين هو المعنى بقول الله عز وجل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

(١) الدحل الذى بمعنى الحقد بالذال المعجمة ولم يذكره أحد من أئمة اللغة في الراى . فهو اشتباه على الناقل .

والذى " فى اللسان " أنه سمي بذلك لبعده .

§ وقالوا في المشتري : إنه إنما سُمِّيَ بذلك لحسنه ، كأنه اشترى الحسن لنفسه . وقيل لأنه نجم الشراء والبيع ، ودليل الأموال ، والأرباح .

§ وقالوا في المريخ : إنه مأخوذ من المَرِخ (وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا) فسمي بذلك لأحمراره . وقال آخرون المريخ سهم لاريش له إذا رمى به لا يستمر في ممره . وكذلك المريخ ، فيه آلتواء كثير في سيره وحكمه ، فشبه بذلك .

§ وقالوا في الشمس : إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية وثلاثة سفلية ، سميت بذلك لأن الواسطة التي في المحنة تسمى "شمسة" .

§ وقالوا في الزهرة : إنها مشتقة من الزاهر . وهو الأبيض النير من كل شيء . ﴿١٥﴾

§ وقالوا في عطارد : إنه النافذ في الأمور ، ولهذا سُمِّيَ بالكاتب . وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع ما يلابسه ويقارنه . ١٠

§ وقالوا في القمر : إنه مأخوذ من القمرة ، وهي البياض ، والأقمر الأبيض .

§ والقُرس تسمى هذه الكواكب بلغتها "كيوان" ، ويعنون به زحل ، و"تير" ، ويعنون به المشتري (وبعضهم يسميه "البرجيس") ، و"بهرام" ، ويعنون به المريخ ، و"مهر" ، ويعنون به الشمس ، و"أناهيد" ، ويعنون به الزهرة (وبعضهم يسميها : "بيدخت") ، و"هرمس" (ويعنون به عطارد) ، و"ماه" (ويعنون به القمر) . ١٥

§ وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال :

لازلت تَبْقَى وَتَرْقَى لِلْعَلَا أَبَدًا * مادامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاقِ أَحْكَامُ !

مَهرٌ ، وَمَاهٌ ، وَكِوَانٌ ، وَتِيرٌ مَعًا * وَهَرْمِسٌ ، وَأَنَاهِدٌ ، وَبَهْرَامُ !

وقال أبو إسحاق الصابى :

نَلِ الْمُنَى فِي يَوْمِكَ الْأَجُودِ ، * مُسْتَنْجِحًا بِالطَّالِعِ الْأُسْعَدِ !
وَأَرْقَ كَمْزُقِي زُحَلٍ صَاعِدًا * إِلَى الْمَعَالِي أَشْرَفِ الْمُقْصِدِ !
وِفَضِّ كَفَيْضِ الْمُشْتَرَى بِالنَّدَى * إِذَا أَعْتَلَى فِي أَفْقِهِ الْأَبْعَدِ !
وَزِدْ عَلَى الْمَرِيخِ سَطَوًا بَمَنْ * عَادَاكَ مِنْ ذِي نُخْوَةٍ أَصِيدِ !
وَأَطْلُعْ كَمَا تَطْلُعُ شَمْسُ الضُّحَى * كَالسَّفَةِ لِلْحَنَدِيسِ الْأَسْوَدِ !
وُخِذْ مِنَ الزُّهْرَةِ أَفْعَالَهَا * فِي عَيْشِكَ الْمُسْتَقْبَلِ الْأَرْغَدِ !
وَصَادِ بِالْأَقْلَامِ فِي جَرِيهَا * عُمَاطِرَ الْكَاتِبِ ذَا السُّودِ !
وَبَاةٍ بِالْمَنْظَرِ بَذَرِ الدُّجَى * وَأَفْضَلُهُ فِي بَهْجَتِهِ وَأَزْدِ !

وقد آخِضَ كُلُّ كَوْكَبٍ مِنْ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ بِقَوْلٍ . سَنَذَكُرُ مِنْ ذَلِكَ مَا تَقُومُ بِهِ
الْحُجَّةُ ، وَيَنْهَضُ بِهِ الدَّلِيلُ مِنَ الْكُتُبِ وَالسَّنَةِ ، وَمَا يُثَمِّلُ بِهِ مِمَّا فِيهِ ذِكْرُهَا ، وَمَا وَرَدَ
فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَوْصَافِ وَالتَّشْبِيهَاتِ : نَظْمًا وَنَثْرًا مِمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ مَطَالَعَتِي لِكُتُبِ
الْفَضْلَاءِ وَتَصَانِيفِهِمْ وَدَوَاوِينِهِمْ . وَعَدَلْتُ عَنْ أَقْوَالِ الْمُتَنَجِّمِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ سُوءِ الطَّوِيلَةِ
وَقَبِيحِ الْإِعْتِقَادِ : لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ لِلنَّجُومِ فِي الْوُجُودِ تَأْثِيرَاتٍ وَأَفْعَالًا . أَعَاذَنَا اللَّهُ
تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ !

١٥

٢ - ذَكَرَ مَا قِيلَ فِي الشَّمْسِ

(وَالشَّمْسُ هِيَ النَّيِّرُ الْأَعْظَمُ)

وقد ذهب بعض المفسرين لكتاب الله تعالى إلى أن نور الشمس والقمر في سائر
السموات بديل قول الله عز وجل ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ .

وجاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفاؤهما إلى الأرض" وفي حديث آخر "وجوههما إلى العرش وأقفاؤهما إلى الأرض". وفي حديث آخر "إن الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمن".

§ وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حَمِيَّة. ومعنى حَمِيَّة ذات حَمَاة. وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أى إلى موضع قرارها، لأنها تجرى إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ "للمستقر" لها أى هي دائبة السير ليلاً ونهاراً. وهي قراءة شاذة.

١٠ وقد قال الله تعالى ﴿وَنَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِيَيْنِ﴾ وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها تجرى لمستقر لها تحت العرش، فتختر ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتى يُؤذَنَ لها في الطلوع. ويوشك أن يقال لها: أرجعي من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها.

١٥ وذهب وهب بن منبه إلى أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة ملكٌ، يجترونها في السماء ودونها البحر المسجور في موج مكفوف كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما على وجه الأرض من شيء حتى الجبال والصخور. وروى عن كعب أنه قال: "خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار".

٢٠ (١) هذا الرأي هو الذي استقر عليه علماء الفلك أخيراً، بعد التحقيق والتدقيق. فلهذا درصاحبه! فإنه، وإن كان قد خالفه فيه الدهماء، لكنه قد أقتره الراسخون في العلم الآن.

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۖ وَالسَّراج لا يكون إلا من نار ۖ وهما مضيآن لأهل السماوات ۖ كما يضيآن لأهل الأرض ۖ وقد تقدم الدليل على ذلك ۖ

٥ ٣ — ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الشمس

يقال : أشهر من الشمس . أحسن من الشمس . أدل على الصبح من الشمس .

ومن أنصاف الأبيات :

- * وهل شمس تكون بلا شعاع ؟ * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل *
 * ولو لم تغب شمس النهار، لملأت * الشمس تامة والليل قواد *
 * الشمس طالعة إن غيب القمر * ورُبما تنكسف الشمس *
 * والشمس تحط في المجرى وترتفع * إذا الشمس لم تغرب، فلا طلع البدر *

ومن الايات قول الطائي :

فإني رأيت الشمس زِيدَتْ حَبَّةً * إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بَسْرَمَد.

وقال علي بن الجهم .

والشمس لولا أنها محجوبة * عن ناظريك لما أضاء الفرقد .

وقال أبو تمام :

وإن صريح الرأي والحزم لأمرئ * إذا بلغت الشمس ، أن يتحولا .

وقوله :

وكلُّ كُسُوفٍ في الدَّرَارِي شَنِيعَةٌ ، * وليَكُنَّ في الشَّمْسِ والبَدَرِ أَشْنَعُ .

وقوله أيضا :

أَعِنْدَكَ الشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَنَازِلِهَا ، * وَأَنْتَ مُشْتَغِلُ الْإِلْخَاطِ بِالْقَمَرِ ؟
وقال البُحْتَرِيُّ :

كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامِيَ ، * وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشَّعَاعُ .

وقال ابن الرومي :

وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ : إِنْ هِيَ لَمْ تُتَلَّ * فَالْدَفْءُ مِنْهَا وَالضِّيَاءُ يُنَالُ .

وقال أيضا :

كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا * حَتَّى تُغْشَى الْأَرْضُ بِالظُّلَمِ .

وقال أيضا :

كَالشَّمْسِ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ مَحَلُّهَا ، * وَشِعَاعُهَا فِي سَائِرِ الْآفَاقِ .

وقال العباس بن الأحنف :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ . * فَعَزَّ الْفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلًا !

وقال أبو عبيد البكري :

وَالشَّمْسُ يُسْتَغْنَى ، إِذَا طَلَعَتْ ، * أَنْ يَسْتَضَاءَ بَغْرَةَ الْبَدْرِ .

وقال أبو الطيب المتنبي :

كَالشَّمْسِ لَا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ * مَنَفَعَةً عِنْدَهُمْ وَلَا جَاهًا .

وقال ابن أنسك البصري :

وهَبَكَ كالشَّمْسِ فِي حُسْنٍ أَلَمْ تَرَهَا * يُفَرِّقُ مِنْهَا إِذَا مَالَتْ إِلَى الصَّرَرِ؟

وقال ابن عَبَّاد :

فَقُلْتُ : وَشَمْسُ الضُّحَى تُحْتَمَى * إِذَا بَسَطَتْ فِي المَصِيفِ الأَذَى.

وقال ابن مسعويه الخالدي :

لَا يُعْجِبَنَّكَ حُسْنُ القَصْرِ تَنْزِلُهُ * فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي مَنَازِلِهَا.

وقال أبو الفتح البستي :

فَالْحَرُّ حَرُّ عَزِيزِ النَّفْسِ حَيْثُ ثَوَى ، * وَالشَّمْسُ فِي كُلِّ بَرْجٍ ذَاتُ أَنْوَارِ.

٤ — ذكر ما جاء في وصف الشمس وتشبيهها

§ من ذلك قول الوزير المهلبی :

الشَّمْسُ فِي مَشْرِقِهَا قَدْ بَدَتْ * مُنِيرَةً لَيْسَ لَهَا حَاجِبٌ.

كَأَنَّهَا بَوْدَقَةٌ أُحْمِيَتْ ، * يُحَوِّلُ فِيهَا ذَهَبٌ ذَائِبٌ.

وقال ظافر الحداد :

أُنْظُرْ لِقَرْنِ الشَّمْسِ بَارِغَةً * فِي الشَّرْقِ تَبْدُو ثَمَّ تَرْتَفِعُ !

كَسَيِّكَةِ الزَّجَاجِ ذَائِبَةً * حَمْرَاءَ يَنْفُخُهَا فَتَتَّسِعُ.

وقال أبو هلال العسكري :

وَالشَّمْسُ وَاضِحَةٌ الجَيْنِ كَأَنَّهَا * وَجْهَ المَلِيحَةِ فِي الحِمَارِ الأَزْرَقِ !

وكانها عند أنيساط شعاعها * تبرد يذوب على فروع المشرق !
وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي :

أوما ترى شمس الأصيل علية * تزداد من بين المغارب مغربا ؟
مالت لتخجب شخصها فكانها * مدت على الدنيا ملاء مذهباً !

§ ومما وصفت به — وقد قابلت القمر — قول الشاعر :

أما ترى الشمس، وهي طالعة، * تمنع عنا إدامة النظر ؟
حمراء صفراء في تلونها * كأنها تشتكي من السهر،
مثل عروس غداة ليلتها * تمسك مرآتها من القمر.

وقال مؤيد الدين الطغراني، عفا الله عنه ورحمه :

وكانما الشمس المنيعة إذ بدت، * والبدر يمنح للغيب وما غرب،
متحاربان : لذا مجن صاغه * من فضة، ولذا مجن من ذهب.

§ ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزوال والغروب قول أعرابي .

محبأة : أما إذا الليل جنها * فتخفى وأما في النهار فتظهر.
إذا أنشق عنها ساطع الفجر وأنجلي * دجى الليل وأنجاب الحجاب المستر
وألبس عرض الأفق لونا كأنه * على الأفق الغربي ثوب معصفر
عليها دروع الزعفران، يسوبه * شعاع تاللا فهو أبيض أصفر:
ترى الظل يطوى حين تبدو وتارة * تراه إذا زالت عن الأرض ينشر.
فأفنت قرونا، وهي في ذاك لم تزل * تموت ونحيا كل يوم وتُنشر!

وقال آخر:

وبدا لنا تُرْسٌ من الذَّهَبِ الذي * لم يُنْتَرَعْ من مَعْدِنٍ بتَعَمُّلٍ .
مِرْآةٌ نُورٌ لم تُشْنِ بِصِيَاغَةٍ * كَلَّا وَلَا جُلِيْتُ بِكَفِّ الصَّيْقَلِ .
تَسْمُوْا إِلَى كَيْدِ السَّمَاءِ كَأَنَّهَُا * تَبْغِي هُنَاكَ دِفَاعَ أَمْرِ مُعْضَلِ .
حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ إِلَى حَيْثُ أَتَيْتُ * وَقَفْتُ كَوْقَمَةِ سَائِلٍ عَنْ مَنَزَلِ .
ثُمَّ آنَسْتُ تَبْغِي الْحُدُورَ كَأَنَّهَُا * طَيْرَ أَسَفٍ مَخَافَةً مِنْ أَجْدَلِ .

§ ومما وصفت به ، وقد قابلت الغيم ، قول ابن المعتز :

تَظَلُّ الشَّمْسُ تَرْمُقُنَا بِطَرْفٍ * خَفِيَ لِحْظُهُ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ .
تُحَاوِلُ فَتَقُ غَيْمٍ وَهوَ يَأْبَى * كَعَيْنٍ يُحَاوِلُ نَيْلَ بَكْرِ .

وقال آخر :

وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَرْنُو مِنْ بَعِيدٍ * رُنُو الْبَكْرِ مِنْ خَلْفِ السُّتُورِ .

وقال محمد بن رشيقي :

فَكَأَنَّ الشَّمْسَ بِكَرٍّ حُجِبَتْ * وَكَأَنَّ الْغَيْمَ سِتْرٌ قَدْ سَتَرَ^(١) .

هـ — ذكر شيء مما وصفت به على طريق الذم

١٥ فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن عمير ، وقد سئل عنها فقال : مُظْهَرَةٌ لِلدَّاءِ ، مَثْقَلَةٌ
لِلْهَوَاءِ ، مَبْلَاةٌ لِلثَّوْبِ ، جَالِبَةٌ لِلْهَبِ .

وقال آخر : الشَّمْسُ تَشْجِبُ اللَّوْنَ ، وَتَغَيِّرُ الْعَرَقَ ، وَتُرْحِي الْبَدْنَ ، وَتُثِيرُ الْمِرَّةَ .
إِذَا أَحْتَجَمْتَ فِيهَا ، أَمْرَضَتْكَ ؛ وَإِنْ أَطَلْتَ النَّوْمَ فِيهَا ، أَفْلَجَتْكَ ؛ وَإِنْ قُرْبْتَ مِنْهَا ،
صَرَتْ زَنْجِيًّا ، وَإِنْ بَعَدْتَ عَنْهَا ، صَرَتْ صَقِيلًا .

٢٠ (١) كذا بالأصل ولعل يد النسخ حرفته عن "سدل" كما هو ظاهر .

وقال ابن سينا الملك :

لا كانت الشمس ! فكم أصدأت * صفحة خد كالحسام الصَّقيْل !
وكم وكم صدت بَوَادِي الكَرَى * طيف خيالٍ جاءني عن خَلِيل !
وأعدمتني من نُجُوم الدُّجَى * ومنه روضا بين ظلِّ ظليل !
تكذب في الوعد ، وبرهانه * أن سراب القفر منها سايِل .
وهي إذا أبصرها مبصر * حديد طرف ، راح عنها كليل .
يا علة المَهْمُوم ، يا جلدة المَجْمُوم ، يا زفرة صبَّ نجيل !
يا قرحة المشرق عند الضحى ، * وساحة المغرب عند الأصيل !
أنت عجوز ، لم تبرجت لي ، * وقد بدا منك لعاب يسيل ؟

وقال التيفاشي ، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

في خلقة الشمس وأخلاقها * شتى عيوب ستة تُذكر .
رمداء ، عَمَشاء ، إذا أصبحت ، * عمياء عند الليل ، لا تبصر .
ويغتدي البدر لها كالسفا * وجرمها من جرمه أكبر .
حرورها في القيظ لا تنق * ودفوها في القرر مستحققر .
وخلقتها خلق المليك الذي * ينكث في العهد ولا يصبر .
ليست بحسنة ، وما حسن من * يحسر عنه اللُحْظ لا يبصر ؟

وقال أبو الطيب المتنبي :

تُسوّد الشمس منا بيض أوجها * ولا تُسوّد بيض العذر واللمم .
وكان حالهما في الحكم واحدة * لو اختصمنا من الدنيا إلى حكم .

٦ - ذكر ما قيل في الكسوف

رُوى أن الشمس كُسفت في عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووافق ذلك موت إبراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ، وَإِنْهُمَا لَا يَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا حَتَّى يَكْشِفَ مَا بِكُمْ".

وقال محمد بن هاني في الكسوف .

هي الحوادثُ لا تُبْقَى ولا تَدْرُ! * ما لِلْبَرِيَّةِ مِنْ مَحْتُمِهَا وَزَرٍ!
لو كان يُنْجَى عُلوُّ من بَوَائِقِهَا، * لم تُكْسَفِ الشَّمْسُ بل لم يَخْسَفِ الْقَمَرُ!

٧ - ذكر أسماء الشمس اللغوية

١٠

ولاشمس أسماء نطقت بها العرب . فمنها: دُكَاءُ، والجارية، والجَوْنَةُ، والغَزَالَةُ،
واللَّاهَةُ^(١)، والضَّحَى، والضَّحْ، ويُوْح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشرْق، وحنَّاد،
والعين، والمؤوِّبة، والسَّراج .

(١) الذي في كتب اللغة أن اللاهة اسم للحيّة . وأما الشمس فاسمها إلهة مثله وأليهة . فلعل ما هنا

تصحيح من النسخ .

٨ — ذكر عباد الشمس

قال الشهرستاني في كتابه المترجم "بالممل والنجل": إن عبدة الشمس طائفة من الهنود يسمون الديكينية^(١) أى عباد الشمس، ومذهبهم مذهب الصابئة، وتوجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبية عليها. ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة، وأن لها نفسا وعقلا، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكون الموجودات السفلية. وهى ملك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء. ومن سنتهم أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاص بنوه باسمه ووقفوا عليه ضياعا، وله سدة وقوام. فتأتى هذه الطائفة إلى البيت، ويصلون فيه ثلاث كرات. ويأتى أصحاب العلل والأمراض فيصومون له، ويصلون، ويدعون، ويستشفون به.

٩ — ذكر ما قيل في القمر

(وهو النير الثانى)

ذهب وهب بن منبه أن القمر موضوع على عجلة فى فلك، والملك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجزها ثلثائة وستون ملكا إلى ناحية المشرق، وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم، وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة.

ويقال: إن القمر كان كالشمس فى الضياء. فلم يكن يعرف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمر عليه بجناحه، فمر عليه، فبحاه. فهو ما ترى فيه من السواد.

(١) الذى فى الشهرستانى طبع لوندرة: "الديكينية". وهو الأقرب للصواب ويقول مترجمه الألمانى

العلامة هاربردكرانه ولعله من "ديناكرت" ومعناه «صانع النهار».

وبهذا القول فسر قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ .

قالوا: ولا يستمى قمرًا إلا بعد مضي ثلاث ليال من آستهلاله . والأقمر هو الأبيض .

١٠ - ذكر ما قيل في القمر

- (من آستهلاله إلى انقضاء الشهر وأسماء لياليه)
- قالوا : وللقمر من أول الشهر إلى آخره خمس حالات ، ولياليه عشرة أسماء .
- § أما حالاته الخمس :

فالأولى : المحاللية ، وهي خروجه من تحت شعاع الشمس وظهوره في الغرب في أول الشهر .

- الثانية : أن يفضل فيه النور على الظلمة ، وذلك في الليلة السابعة من الشهر .
- الثالثة : الاستقبال ، وهو كونه في البرج السابع من بروج الشمس ، ويسمى الامتلاء
- لامتلاء القمر فيه نورا ، وذلك في الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، ويسمى القمر فيها
- بدرًا لجماله ، ويسمى بذلك لامتلأه ، وقيل لمبادرته الشمس بالطلوع ، وتسمى الليلة
- التي قبلها (وهي الثالثة عشرة) ليلة السواء لاستواء القمر فيها ، وقيل : لاستواء ليالها
- ونهارها في الضياء ، وهي ليلة التمام .

١٥

الرابعة : أن تفضل الظلمة فيه على النور ، وذلك في الليلة الثانية والعشرين من الشهر .

الخامسة : المحاقية ، وهي مُدَّة آستتاره بُسُباع الشمس ؛ ويسمى ذلك أيضا سِراراً ، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين ، ويمكن أن يغيب ثلاث ليال لا يرى ويهَل في اليوم الرابع ، ويسمى حينئذ قمرًا لاهللاً ؛ والشمس تعطيه من نورها كل ليلة ما يستضيء به نصف سُبُع قُرْصه حتَّى يكمل ، ثم يُسَلِّبُه من الليلة الخامسة عشرة ، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتَّى لا يبقى فيه نور فيستتر . ٥

وَأما أسماء ليلاليه ، فإنه يقال لأوَّل ثلاثة منها غُرَر ، والثانية شُهَب ، والثالثة زُهَر ، والرابعة بُهْر ، والخامسة بِيض ، والسادسة دُرْع ، والسابعة حَنَادِس ^(١) ، والثامنة ظُلم ، والتاسعة دَادٍ ، والعاشر ليلتان منها يحاق وليلة سِرار ، ويسمّون الليلة الثامنة والعشرين الدَّجَاء ، والليلة التاسعة والعشرين الدَّهْمَاء ، والليلة المُوفِيَّة ثلاثين اللَّيْلَاء ، ويسمّونها ليلة البراء لتبرئ القمر من الشمس . ١٠

١١ - ذكر أسماء القمر اللغوية

وللقمر أسماء نطقت بها العرب . فمنها : القمر ، والباهر ، والبدر ، والطّوس ، والجلم ، والغاسق ، والوبّاص ، والزّبرقان ، والمنشّق ، والواضح ، والباحور ، والأبرص ، والزّمهرير . ومنه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ وقول بعض العرب . ١٥

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزّمهرير ما ظهر .

(١) الذي في اللسان والقاموس : ان الظلم ، ثلاث ليال يلبين الدرع . والحنادس ، ثلاث ليال بعد الظلم . ويؤيده ما في الصحاح : ان الحندس الليل الشديد الظلمة . وقد ذكر ابن سيدة هذه الأسماء في المخصص (ج ٩ ص ٣٠ - ٣١) وأوردها على هذا الترتيب . وعليه فصواب العبارة هكذا : (والسادسة درع ، والسابعة ظلم ، والثامنة حنادس الخ) اه .

(٢) الذي في كتب اللغة : ان الوضع القمر ، فعله تحريف من الناصخ .

ومن أسمائه : السَّيَّارُ، والسَّاهُور .
 § والفَتْحُ ضوؤه ، والأَخْذُ مَنَزَلُهُ ^(١) . وكذلك الوَكْسُ ، وهي المنزلة التي يُكْسَفُ فيها .
 والهالَة دارُته .

١٢ - ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر القمر

يقال في أمثالهم :
 أضيّع من قمر الشتاء ! قيل لأنه لا يجلس فيه .
 إن يبيع عليك قومك ، لا يبيع عليك القمر .
 ويقال : أضوا من القمر ، وأتم من البدر .

ومن أنصاف الأبيات :

١٠ * أريها السَّهْمَا وتُرِينِي الْقَمَرَ * لا تَخْرُجُ الْأَقْمَارُ مِنْ هَالَاتِهَا *
 * هكذا الْبَدْرُ فِي الظَّلامِ يُوافِي * كذا كُسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ *

ومن الأبيات قول الطائي :

١٥ إنَّ الْهَالَالَ إِذَا رَأَيْتُ نُمُوهُ * أَيْقَنْتُ أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا .
 وقال ابن أبي البغلة ، والبيت الثاني لابن بحر :
 الْمَرْءُ مِثْلُ هَالَالٍ حِينَ تُبْصَرُهُ * يَبْدُو ضَعِيفًا ضَعِيلًا ثُمَّ يَنْتَشِقُ .
 « يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَاتَ أَغْقَبَهُ * كَرُّ الْحَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ » .

وقال أبو الفرج البغيا :

سَتَخْلُصُ مِنْ هَذَا السَّرَارِ وَأَيْمًا * هَالَالٌ تَوَارَى فِي السَّرَارِ فَمَا خَلَصَ !

(١) عبارة اللسان في مادة (اخ ذ) : ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة في منزل منها اء .

١٣ - ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتز في الهلال:

وَأَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزُورِقٍ مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولُهُ مِنْ عَنبر!

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلي:

وَرُبَّ صُبْحٍ رَقَبَانُهُ، وَقَدْ طَلَعَتْ * بَقِيَّةُ الْبَادِرِ فِي أُولَى بَشَائِرِهِ!

كَأَنَّمَا أَذْهَمُ الْإِظْلَامِ خِينَ نَجَا * مِنْ أَشْهَبِ الصُّبْحِ، أَلْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ!

وقال آخر:

قَدْ أَتَقَضَّتْ دَوْلَةُ الصَّيَامِ وَقَدْ * بَشَّرَ سُقْمُ الْهِلَالِ بِالْعِيْدِ!

يَتَلَوُّ الثُّرَيَّا كِفَاغِيرَ شَرِّهِ * يَفْتَحُ فَاهُ لِأَكْلِ عُنُقُودِ!

وقال أبو هلال العسكري:

فِي هِلَالٍ كَأَنَّهُ حَيَّةُ الرَّمْلِ أَصَابَتْ عَلَى الْيَفَاعِ مَقِيلًا .

بَاتَ فِي مِعْصَمِ الظَّلَامِ سَوَارًا * وَعَلَى مَفَرِّقِ الدُّجَى إِكْلِيلًا .

وقال آخر:

وَالْجَوْ صَافٍ وَالْهِلَالُ مُشَنَّفٌ * بِالزُّهْرَةِ الزَّهْرَاءِ نَحْوَ الْمَغْرَبِ .

كَصَحِيفَةٍ زَرْقَاءَ فِيهَا نُقْطَةٌ * مِنْ فِضَّةٍ مِنْ تَحْتِ نُونٍ مُدْهَبِ .

وقال آخر:

قُلْتُ لَمَّا دَنَتْ لِمَغْرِبِهَا الشَّمْسُ وَلاَحَ الْهِلَالُ لِلنُّظَارِ :

أَقْرَبُ الشَّرْقِ صُنُوهُ الْغَرْبَ دِينًا * رَأَى فَأَعْطَاهُ الرَّهْنَ نِصْفَ سَوَارِ .



وقال أبو العلاء المعري :

ولاح هلالٌ مثلُ نُونٍ أجادهَا * بدُوبِ النُّصارِ الكاتبُ ابنُ هلال .

وقال آخر :

وكانَ الهِلالُ نُونٌ لِحَيْنٍ * غَرِقتُ في صَحيفةٍ زرقاء .

وقال أبو عاصم البصريّ من شعراء اليتيمة :

رأيتُ الهِلالَ ، وقد أهدقتُ * نُجومُ الثُّرَيَّا لِكِي تَسْبِقَهُ .

فَشَبَّهَتْهُ وَهُوَ في إثْرِهَا * وبينَهُمَا الزُّهرةُ المَشْرِقةُ ،

بَقَوسٍ لِرامٍ رمى طائِراً * فَاتَّبَعَ في إثْرِه بُنْدُقه .

وقال آخر :

ولاح لَنَا الهِلالُ كَشَطْرِ طَوْقٍ * على لَبَاتٍ زرقاءِ اللَّباسِ .

وقال الواو الدمشقيّ رحمه الله :

وكانَ الهِلالُ تحتَ الثُّرَيَّا * مَلِكٌ فَوْقَ رأسِهِ إكْلِيلُ !

وقال إبراهيم بن محمد المراديّ ، من شعراء الأُمُودَج ، ملغزاً فيه :

دَعُذَا ! وَقُلْ لِلنَّاسِ : ما طَارِقٌ ، * يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا ولا يَتَّقِي ؟

ليس لَهُ رُوحٌ على أَنَّهُ * يَرْكَبُ ظَهَرَ الأَدْهَمِ الأَبْلَقِ .

شَيْخٌ رَأَى آدَمَ في عَصِرِهِ * وَهُوَ إلى الآنَ بَخْدٍ نَقِي .

ومَدَّ وَسَطَ السَّجَنِ مع قَوْمِهِ * لا يَنْبَرِي من نَهْجِهِ الضَّيِّقِ .

هَذَا وَيَمْشِي الأَرْضَ في لَيْلَةٍ * أَعْجَبَ بِهِ من مُوتَقِي مُطَلَقِ .

- فتارةً يَنْزِلُ تَحْتَ الثَّرَى * وتارةً وَسَطَ السَّمَاءِ يَتَقَى .
 وتارةً يُوجَدُ فِي مَغْرِبٍ * وتارةً يُوجَدُ فِي الْمَشْرِقِ .
 وتارةً تَحْسَبُهُ سَائِحًا * يَسْرِي بِسَاطِئِ الْبَحْرِ كَالزُّورِقِ .
 وتارةً تَحْسَبُهُ وَهَوًى * أَسْتَارِهِ وَالْبَعْضُ مِنْهُ بَقِيَ ،
 ذُبَابَةٌ مِنْ صَارِمٍ مُرْهَفٍ * بَارِزَةٌ مِنْ جَفْنِهِ الْمُطْبَقِ .
 يَذْنُو إِلَى عِرْسٍ لَهُ حُسْنُهَا * يَخْتَطِفُ الْأَبْصَارَ بِالرُّوَقِ .
 حَتَّى إِذَا جَامَعَهَا يَرْتَدِي * بِحُلَّةٍ سَوْدَاءَ كَالْمُحْرِقِ .
 وَهُوَ عَلَى عَادَتِهِ دَائِمًا * يُجَامِعُ الْأَثَى وَلَا يَتَّقِي .
 ثُمَّ يَجُوبُ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِهَا * مُشْتَمِلًا فِي مُطْرِفِ أَرْقِ .
 حَتَّى إِذَا قَابَلَهَا ثَانِيًا * تَشْكُو بِالرُّمَحِ فِي الْمَفْرِقِ .
 وَبَعْدَ ذَلِكَ تُلِيسُهُ حُلَّةً * يَا حُسْنَهَا فِي لَوْنِهَا الْمُوْتَقِ !
 بِخُسْمِهِ مِنْ ذَهَبٍ جَامِدٍ * وَجِلْدُهُ صَنِيعَ مَنْ الرِّبْقِ .
 وَهُوَ إِذَا أَبْصَرْتَهُ هَكَذَا * أَمْلَحَ مِنْ صَاحِبَةِ الْقُرْطَقِ .

وقال ابن المعتز:

- نَظَرْتُ فِي يَوْمٍ لَذَّةٍ عَجَبًا * وَافَى بِهِ لِلشُّعُودِ مِقْدَارُ .
 يَقَابِلُ الشَّمْسَ فِيهِ بَدْرٌ دُجَى * يَأْخُذُ مِنْ نُورِهَا وَيَمْتَارُ .
 كَصَيْرِفِيَّ يَرُوحُ مُتَقِدًّا * فِي كَفِّهِ دِرْهَمٌ وَدِينَارُ .

وقال عبد الله بن علي الكاتب :

كَشَفَ الْبَدْرُ وَجْهَهُ لَتَامٍ ، * فَوُجُوهُ النُّجُومِ مَسْتَتِرَاتُ .
وَكَاثَ الْبَدْرِ التَّمَامَ عَرُوسُ ، * وَكَأَنَّ النُّجُومَ مُسْتَنْقِبَاتُ .

١٤ - ذكر شيء مما قيل فيه على طريق الذم

٥. حكى أن أعرابيا رأى رجلا يُقْبُ الملال . فقال له : ماترغب فيه ، وفيه عيوب لو كانت في الحمار لَرَدَّ بها؟ قال : وما هي ؟ فقال : إنه يهدم العمر ، ويقرب الأجل ، ويحل الدين ، ويقْرِض الكنان ، ويشجب اللون ، ويفسد اللحم ، ويفضح الطارق ، ويدل السارق .

- ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام في ضوءه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل ، ويهيج عليه الزكام والصُّدَاعُ ؛ وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة - ١٠ - في ضوءه ، تغيرت طعومها وروائحها .

وقال آبن الرومي :

- رُبَّ عَرِيضٍ مُتَرِّدٍ عَنْ قَبِيحٍ * دَلَّسَتْهُ مُعْرِضَاتُ الْهَجَاءِ .
لَوْ أَرَادَ الْأَدِيبُ أَنْ يَهْجُو الْبَدَّ * رَأَى رَمَاهُ بِالْخُطَّةِ الشَّنْعَاءِ .
قال : يَا بَدْرُ أَنْتَ تَغْدِرُ بَالِئًا * رَأَى وَتُزْرِي بَزُورَةَ الْحَسَنَاءِ .
كَلَّفَ فِي شُحُوبٍ وَجْهَكَ يَحْكِي * نُكَّأَ فَوْقَ وَجْنَةٍ بَرَصَاءِ .
يَعْتَرِيكَ الْحَقُّ ثُمَّ يُحْلِيكَ شَيْبَةُ الْقَلَامَةِ الْجَنَاءِ . ١٥

وَيْلِكَ النَّقْصَانُ فِي آخِرِ الشَّهْرِ * فَيَمْحُوكَ مِنْ أَدِيمِ السَّمَاءِ .
فَإِذَا الْبَدْرُ نِيلَ بِالْهَجْوِ، هَلْ يَا * مَنْ ذُو الْفَضْلِ أَلْسَنَ الشُّعْرَاءِ ؟
لَا لِأَجْلِ الْمَدِيحِ، بَلْ خِيفَةَ الْمَهْجُو * أَخَذْنَا جَسَوائِرَ الْخُلَفَاءِ !
هذا ما أمكن إيرادَه في القمر، فلنذكر خبر عُبَاد القمر .

١٥ - ذكر عُبَاد القمر

قال الشهرستاني: عُبَاد القمر طائفة من الهنود يسمون الحندر بكنية^(١)، أى عُبَاد القمر . يزعمون أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، ومنه نُضْج الأشياء المتكوّنة واتصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، وهو تلو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه ؛ ومن سَتَتهم أنهم آتخذوا صنما على عجلة تجرّه أربعة^(٢)، وبيده جوهرة ؛ ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتّى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم ؛ فإذا آسَتهل الشهر علّوا السُّطوح، وأوقدوا الدُّخَن، ودعّوا عند رؤيته، ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة . وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، أخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر .

(١) في الشهرستاني طبع لوندرة : "الحندريكنية" . وأفادنا مترجمه إلى الألمانية أن "چندراكا"

معناه القمر في لغتهم .

(٢) الذي في الشهرستاني : صنما على صورة عجل وبيد الصنم الخ .

١٦ — ذكر ما قيل في الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمى المتحيرة. ثلاثة منها علوية
تعلو أفلاكها فللك الشمس ، وهى : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، وأثنان سفلية
فلكهما تحت فللك الشمس ، وهى : الزهرة ، وعطارد .

- وسميت هذه الكواكب المتحيرة لأنها ترجع أحيانا عن سمت مسيرها بالحركة
الشرقية ، وتنبع الغربية . فهذا الارتداد فيها شبه التحير .

١٧ — ذكر عباد الروحانيات

(وما آحتجوا به فى سبب عبادتهم لها^(١))

- وعباد الروحانيات هم الصابئة . يقال : صبا الرجل إذا مال وزاغ .
- ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثنان .
- وكانت الصابئة تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره
وأحكامه ، إلى متوسط ، ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لاجسمانيا .
- وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا
ياكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب ، يماثلنا فى الصورة والمادة .

- قالوا : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ .

وقالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإلنا يتقرب إليه
بالموسطات المقربين لديه ، وهم الروحانيون المقدسون المطهرون ، جوهر افعلا وحالة .

(١) نقل المؤلف هنا بعض عبارات الشهرستاني فى الملل والنحل مع تقديم وتأخير (أنظر ص ٢٠٣ من
طبعة الأب كرتون الانكليزى فى لندرة سنة ١٨٤٢ — ١٨٤٦) .

أما الجوهر فهم المقدّسون عن الموادّ الجسديّة، المبرّؤون عن القوى الجسدانيّة، أى مترهون عن الحركات المكانيّة، والتغيّرات الزمانيّة ؛ قد جلبوا على الطهارة ، وفطروا على التقديس والتسبيح ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

وإنما أرشدنا إلى هذا معلّمنا الأوّل ، عاذيّمون . وهرّمس . فنحن نتقرب إليهم ، وتتوكل عليهم ، وهم أربابنا ، وآلهتنا ، ووسائلنا ، وشفعاؤنا عند ربّ الأرباب ، وإله الآلهة . فالواجب علينا أن نظهر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعيّة ، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانيّة والغضبّيّة ، حتّى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيّات . فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ، ونعرض أحوالنا عليهم ، ونصبأ في جميع أمورنا إليهم . فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ، ورازقنا ورازقهم . وهذا التطهير والتهذيب ليس إلا بآكتسابنا ، ورياضتنا ، وفطامنا لأنفسنا عن دنيّات الشهوات ، باستمداد من جهة الرّوحانيّات ؛ والاستمداد هو التضرّع والابتهال بالدعوات ، وإقامة الصلوات ، وبذل الزكوات ، والصيام عن المطعومات والمشروبات ، وتقريب القرابين والذبايح ، وتبخير البخورات ، وتعزيم العزائم . فيحصل لنفوسنا استعداد أو استمداد من غير واسطة ، بل يكون حكما وحكم من يدعى الوحي واحدا .

قالوا : والأنبياء أمثالنا في النوع ، وأشكالنا في الصورة ، ومشاركونا في المادّة . يأكلون مما نأكل ، ويشربون مما نشرب ، ويساهموننا في الصورة . أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ، وبأية مزية لهم لزم مشايعتهم ؟ ﴿وَلَيْنُ أَطْعَمُ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ .

قالوا : وأما الفعل ، فالروحانيّات هم الأسباب المتوسّطون في الاختراع ، والإيجاد ،

وتصرف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية .

§ فمنها — مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها ، وهى هياكلها ، فلكل روحانى هيكل ، ولكل هيكل فلك . ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل الذى آختص به نسبة الروح إلى الجسد . فهو ربه ومديره ومدبره .

٥

وكانوا يسمون الهياكل أربابا (وربما يسمونها آباء) ، والعناصر أمهات .

ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها أنفعالات فى الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات فى المركبات فتتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية ، مثل أنواع النبات والحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانى كل ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحانى جزئى . فمع جنس المطر ملك ، ومع كل قطرة ملك .

١٠

§ ومنها — مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجوّ مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والتلوج والبرد والرياح ، وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ، وما يحدث فى الجوّ من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُرح وذوات الأذنان والهالة والمجزة ، وما يحدث فى الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلى غير ذلك .

١٥

§ ومنها — متوسطات القوى السارية فى جميع الموجودات ، ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات ، حتى لا ترى موجودا ما خاليا عن قوة وهداية ، إذا كان قابلا لها . قالوا : وأما الحالة ، فأحوال الروحانيات من الرّوح ، والريحان ، والنعمة ، واللذة ، والراحة ، والبهجة ، والسرور فى جوار رب العالمين ، كيف تخفى ؟ ثم طعامهم وشرابهم

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد ، وأنسهم بذكر الله وطاعته ، فمن قائم وراكع وساجد ، ومن قاعد لا يريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة ، ومن خاشع بصره لا يرفع ، ومن ناظر لا يغمض ، ومن ساكن لا يتحرك ، ومتحرك لا يسكن ، وكروبي^(١) في عالم القبض ، وروحاني في عالم البسط ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ .

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحاني والمحض والبشرية النبوية ، ليس هذا موضع إيرادها .

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل ، تلو ما ذكرناه من عباد الروحانيات ومحتجاتهم !

١٨ - ذكر بيوت الهياكل

(وأما كنها ونسبتها إلى الكواكب)

﴿٢٣﴾

قالوا : ثم لم تقتصر الصابئة على التقرب إلى الروحانيات بأعيانها ، والتلق بذواتها حتى آتخذوا أصناما على هيئة الكواكب السبعة ، وجعلوا لها بيوتا ، وسموا البيوت بالهياكل ، وجعلوا الهياكل بمنزلة الأفلاك للكواكب . وعظموا هذه الأصنام التي صنعوها ، وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ما يريدون .

وحكى المسعودي في كتابه المترجم "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زحل ، وإنما طال بقاء هذا البيت على مرور الدهور ، معظما في سائر العصور ، لأن زحل تولاه : إذ من شأنه الثبوت .

(١) الكروبيون سادة الملائكة المقربون .

(٢) راجع الثمرستاني طبعة كرتن (ص ٤٣٠ - ٤٣١) .

ومن البيوت المشهورة^(١) :

§ بيت على رأس جبل أصفهان، يسمى مارس^(٢)، ثم آتخذ بعض ملوك المجوس بيت نار؛

§ وبيت ببلاد الهند؛

§ وبيت ببلخ، بناه منوشهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدائنه يسمونه برمك، وإليه تنسب البرامكة؛

§ وبيت عُمدان باليمن، بناه الضحاك على اسم الزهرة؛

§ وبيت بُرغانة، على اسم الشمس، يعرف بكاسات^(٣)، بناه كاوس أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد بالله^(٤)؛

§ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل^(٥) بن يافث، وقيل بناء بعض ملوك الترك^(٦).

§ وحكى غير المسعودى أن البيت الأول الكعبة. ويذكرون أن إدريس (عليه السلام) أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل؛ والبيت

(١) وراجع الشهرستاني (ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٢) في الشهرستاني : فارس.

(٣) من مدن خراسان.

(٤) في الأصل : مكاس [وهو خطأ من النسخ، والتصويب عن المسعودى وعن الشهرستاني].

(٥) في الشهرستاني أنه المعتصم.

(٦) في بعض نسخ المسعودى : شوبل (بالسين المهملة).

(٧) انظر الباب الرابع والستين من مروج الذهب، ففيه تفصيل لما أورده النويرى هنا بغاية التلخيص.

الثاني وهو بيت المزيخ، يزعمون أنه كان بصور من الساحل الشامي؛ والبيت الثالث وهو بيت المشتري، كان بدمشق بناء جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموي؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية إلى وقتنا هذا؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمنبج وخرب؛ والبيت السادس بيت عطارد، وكان بصيدا من الساحل الشامي وخرب؛ والبيت السابع وهو بيت القمر، كان بحزان؛ وهو بيت الصابئة الأعظم.

الباب الخامس

من القسم الأول من الفن الأول

١ - في الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم في ذلك أن هذه الكواكب معلقة في سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور.

وقال آخرون: إنها معلقة بأيدي ملائكة. وفسر بهذا القول قوله تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾. يقال آنتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة.

وهذه الكواكب في سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز، لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

(١) زالت هذه الآثار الآن.

وقال قتادة : خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة : جعلها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها في البر والبحر . فمن تأول غير هذا فقد أخطأ .
قالوا : وإنما سميت بالثوابت ، وإن كانت متحركة لأنها ثابتة الابعاد على الأبد ، لا يقرب أحدها من الآخر ، ولا يبعد عنه ، ولا يزيد ، ولا ينقص ، ولا تتغير عن جهاتها . لأنها تتحرك بحركتها الطبيعية حول قطبي العالم . ولهذا سميت ثابتة . وهي في فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة . ودليل ذلك أن للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه .

٢ — ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الكواكب

يقال : أنأى من كوكب ، أبعد من مناط النجم ، أهدى من النجم .

ومن أنصاف الأبيات :

* وَأَيْنَ نَزِيلُ الْأَرْضِ عِنْدَ الْكَوَاكِبِ ؟ * وَأَيْنَ الثَّرِيَّا مِنْ يَدِ الْمُتَنَاوِلِ ؟ *
* وَالْكَوْكَبُ النَّحْسُ يَسْقِي الْأَرْضَ أَحْيَانًا *

ومن الأبيات قول أبي تمام عفا الله عنه :

كَالنَّجْمِ إِنْ سَافَرْتَ كَانَ مُوَابِكًا * وَإِذَا حَطَّطَتِ الرَّحْلَ كَانَ جَلِيسًا .

وقال أبو نؤاس :

أَيْنَ النَّجُومُ الشَّائِتَا * تُمْنِ الْأَهْلَةَ وَالْبُدُورَ ؟

وقال آخر :

وَكُنَّا فِي أَجْمَاعِ كَالْثُرَيَّا ، * فَصِرْنَا فُرْقَةً كَبَنَاتِ نَعَشِ !

وقال آخر:

كالفرقدين إذا تأمل ناظر، * لم يعل موضع فرق من فرق.

وقال الوزير أبو الفتح البستي:

وللنجم من بعد الرجوع استقامة * وللشمس من بعد الغروب طلوع.

وقال بحظة:

مثل الذي يرجو البلو * غ إلى الكواكب وهو مقعد.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلا، * عمرك الله! كيف يلتقيان؟

هي شامية إذا ما استهلت، * وسهيل إذا استهل يمانى.

وقال آخر:

وكل أخ مفارقة أخوه، * لعمر أبك، إلا الفرقدان!

٣ — ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ابن حجاج في المجرة:

يا صاحبي استيقظا من رقة * تزي على عقل اللبيب الأكيس!

هذي المجرة والنجوم كأنها * نهر تدفق في حديقة ترجس!

وقال آخر:

وكانت المجرة جدول ماء * نور الأنحوان في جانبيه.

وقال المهذب بن الزبير فيها :

وترى المجرة والنجوم كأنها * تسقى الرياض بمجدول ملآن .
لو لم يكن نهراً، لما امت به * أبداً نجوم الحوت والسرطان .

وقال أبو هلال العسكري :

تبعدو المجرة منجراً ذوائبها * كالماء ينسأح أو كالآيم ينساب .

وقال هشام بن إلياس في الجوزاء :

فكأنما جوزاؤه في غربها * يضاء ساجحة بركة زئبق .
وكأنما أومت ثلاث أنامل * منها تقول : إلى ثلاث نلتقى !

وقال آخر :

وكان الجوزاء لما استقلت * وتدلت ، سرادق ممدود .

وقال العلوى فيها أيضا :

ها إنها الجوزاء في أفقها * واهية ناعسة تسحب .
نطاقها واه لدى أفقها * ينسل منها كوكب كوكب .

وقال ابن وكيع فيها :

قم فأسقني صافية * تهتك جنح الغسق !
أما ترى الصبح بدا * في ثوب ليل خلق ؟

(١) الآيم ، والآن : ضرب من الحيات . (عن النوادر في اللغة) .

أَمَا تَرَى جَوْزَاءَهُ * كَأَنَّهَا فِي الْأَفْقِ،
مِنْطَقَةً مِنْ ذَهَبٍ * فَوْقَ قَبَاءٍ أَزْرَقِ؟

وقال كعب الغنوي :

وقد مَالَتِ الْجَوْزَاءُ حَتَّى كَانَتْهَا * فَسَاطِيطُ رَكَبٍ بِالْعَالَاةِ نُزُولُ.

وقال امرؤ القيس في الثريا :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ * تَعَرَّضَ أَشْيَاءُ الْوِشَاحِ الْمُنْفَصِّلِ.

وقال ابن الطَّثَرِيَّةِ :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ كَانَتْهَا * جُحَانٌ وَهِيَ مِنْ سِلْكِكِهِ، فَتَبَدَّدَا.

وقال المبرِّد :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ، * يَرَاهَا حَدِيدُ الْعَيْنِ سِتَّةَ أَنْجُمِ.

عَلَى كَبِيدِ الْجُرْبَاءِ وَهِيَ كَانَتْهَا * جَبِيرَةٌ دُرٌّ رُكِبَتْ فَوْقَ مِعْصَمِ.

وقال عبد الله بن المعتز :

فَنَاوَلْنِيهَا، وَالثُّرَيَّا كَأَنَّهَا * جَنَى نَرْجِسٍ حَيًّا النَّدَامَى بِهَا السَّاقِي.

وقال أيضا :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا فِي أَوَانِحِ لَيْلِهَا * تَنْفُتُحُ نَوْرٍ أَوْ لِحَامٍ مَفْضُضُ.

وقال السلامي، شاعر اليتيمة فيها :

فَسَمَوْنَا، وَالْفَجْرُ يَضْحَكُ فِي الشَّرِّ * قِيَالَيْنَا مُبَشِّرًا بِالصَّصْبَاحِ.

وَالثُّرَيَّا كَرَايَةً أَوْ لِحَامٍ * أَوْ بَنَانٍ أَوْ طَائِرٍ أَوْ وَشَاحٍ،
وَكَأَنَّ النُّجُومَ فِي يَدِ سَاقٍ * يَتَهَادَى تَهَادَى الْأَقْدَاحِ.

وقال ابن المعتز :

وَلَا حَتَّ إِسَارِيهَا الثُّرَيَّا كَأَنَّهَا * عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ قُرْطٌ مُسَلْسَلٌ.

وقال أبو نضلة :

وَتَأَمَّلْتُ الثُّرَيَّا * فِي طُلُوعٍ وَمَغِيبِ.
فَتَخَيَّرْتُ لَهَا التَّشْبِيهَ فِي الْمَعْنَى الْمَصِيبِ.
وَهِيَ كَأَنَّ فِي شُرُوقٍ * وَهِيَ قُرْطٌ فِي غُرُوبِ.

وقال آخر :

﴿٢٥﴾

كَأَنَّ الثُّرَيَّا هَوْدَجٌ فَوْقَ نَاقَةٍ * يَسِيرُ بِهَا حَادٍ مَعَ اللَّيْلِ مُزْعِجُ،
وَقَدْ لَمَعَتْ بَيْنَ النُّجُومِ كَأَنَّهَا * قَوَارِيرُ فِيهَا زَيْتُ يَتَرَجَّحُ.

وقال ابن سكرة الهاشمي :

تَرَى الثُّرَيَّا، وَالْغَرْبُ يَجْذِبُهَا * وَالْبَدْرُ يَهْوِي وَالْفَجْرُ يَنْفَجِرُ،
كَفِّ عَرُوسٍ لَاحَتْ خَوَاتِمُهَا * أَوْ عَقْدَ دُرٍّ فِي الْبَحْرِ يَنْتَثِرُ.

وقال محمد بن الحسن الحاتمي :

وَحِلْتُ الثُّرَيَّا كَفِّ عَدْرَاءَ طِفْلَةٍ * مُحْتَمَّةٍ بِالْأُذُنِ مِنْهَا الْأُنَامِلُ.
تَحِيلَتِهَا فِي الْجَوِّ طَرَّةَ جَعْبَةٍ * مُلَوَّكِيَّةٍ لَمْ تَعْتَلِقْهَا حَمَائِلُ.
كَأَنَّ نَبَالَ سِتَّةٍ مِنْ لَالٍ * يُوَافِي بِهَا فِي قُبَّةِ الْأَفْقِ نَابِلُ.

وقال أحمد بن إبراهيم الضبيّ، شاعر اليتيمة :

خَلَّتْ الثَّرِيَا إِذْ بَدَتْ * طَالَعَةً فِي الْحِنْدَسِ :
مُرْسَلَةً مِنْ لُؤْلُؤٍ * أَوْ بَاقَةً مِنْ نَرْجَسِ

وقال أبو العلاء المعريّ في سهيل :

وَسُهَيْلٌ كَوْجَنَةُ الْحَبِّ فِي أَلَلُو * نَ وَقَلْبُ الْمُحِبِّ فِي الْخَفَقَانِ .
مُسْتَبْدًا كَأَنَّهُ الْفَارِسُ الْمُعَلَّمُ يُبْدُو مُعَارِضَ الْفُرْسَانِ .

وقال عبد الله بن المعتز :

وَقَدْ لَاحَ لِلسَّارِي سُهَيْلٌ كَأَنَّهُ * عَلَى كُلِّ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ رَقِيبُ !

وقال الشريف بن طباطبا :

وَسُهَيْلٌ كَأَنَّهُ قَلْبُ صَبٍّ * فَاجَأَتْهُ بِالْخَوْفِ عَيْنُ الرَّقِيبِ .

وقال أبو عبادة البُحْتَرِيُّ :

كَأَنَّ سُهَيْلًا شَخْصٌ ظَمَانٌ جَانِحٌ * مِنْ اللَّيْلِ فِي نَهْرٍ مِنَ الْمَاءِ يَكْرَعُ .

وقال ابن طباطبا :

كَأَنَّ سُهَيْلًا، وَالتُّجُومُ أَمَامَهُ * يُعَارِضُهَا ، رَاجِعُ أَمَامَ قَطِيعِ .

وقال الشريف الرضيّ في الفرقدين :

وَهَبَّتْ لَضَوْءِ الْفَرْقَدَيْنِ نَوَاطِرِي * إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ .
كَأَنَّهُمَا الْفَانِ قَالَ كِلَاهُمَا * لِشَخْصٍ أَخِيهِ : قُلْ فَإِنِّي سَامِعُ !

وقال آخر:

قُلْتُ لِلْفَرْقَدَيْنِ وَاللَّيْلِ مُرْخٍ * سِتْرَ ظُلُمَائِهِ عَلَى الْآفَاقِ:
إِيقَا مَا بَقِيَتْهُمَا سَوْفَ يُرْمَى * بَيْنَ شَخْصَيْكُمَا بَنَهُمُ الْفِرَاقِ!

وقال القاضي التنوخي:

وأشقر الجوق قد لاحت كواكبُه * فيه كدرٌ على الياقوت منثور. ٥

وقال القاضي الفاضل، عبد الرحيم من رسالة:

”سِرْنَا، وروضة السماء فيها من الزهر زهرًا، ومن الحجرة نهرًا، والليل كالبنفسج تخلله
من النجوم أقاح، أو كالزنج شعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواقب
لأمعزس لها دون الصباح، وسهيل كالظمان تدثي إلى الأرض ليشرب، أو الكريم
أنف من المقام بدار الدل فتغرب. فكأنه قبس تتلاعب به الرياح، أو زينة قدمها ١٠
بين يدي الصباح، أو ناظر يغضه الغيظ ويفتحه، أو معنى يغمضه الحسن ثم يشرحه،
أو صديق لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيب على المواقب مواركب، أو فارس
يحمي الأعقاب، أو داع به إليها وقد شردت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق
المضروب، أو الهودج المنسوب، أو الشجرة المنورة، أو الخبر المصورة. والثريا قد هم
عنقودها أن يتدثي، وجيش الليل قد هم أن يتوتلي“.

القسم الثاني

من الفن الأول في الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب



الباب الأول

من القسم الثاني من الفن الأول

١ — في السحاب، وسبب حدوثه، وفي الثلج والبرد

والسحاب من الآثار العلوية .

روى أبو الفرج بن الجوزي بإسناد يرفعه إلى عبيد ابن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتقُم الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتَمَجِّه في السحاب، ثم يَمْرِيه فيَدْرُكها تَدْرُ اللقحة . ١٠

وقد روى في الأثر أن الرياح أربع : ريح تَقُم، وريح تُثِير، فتجعله كَسَفًا، وريح تَوَلِّف، فتجعله رُكَّامًا، وريح تُمَطِّر .

وروى عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : إن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحابا، وينزل عليه المطر فتتمخض به الرياح كما تتمخض التَّوَج بولدها . وروى عن عكرمة (رضي الله عنه) أنه قال : يُنزل الله الماء من السماء السابعة ١٥

فتقع القطرة على السحاب مثل البعير ، والسحاب للطير كالغربال ينزل منه بقدر .
ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض .

وقال الزمخشري في تفسيره : السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم
من يزعم أنه يأخذ من البحر . ويؤيد ذلك قوله عز وجل ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ .

٢ — ذكر ما قيل في ترتيب السحاب

(وأسمائه اللغوية وأصنافه)

قال أبو منصور ، عبد الملك بن محمد الثعالبي في فقه اللغة ، ينقله عن أئمتها :
أول ما ينشأ السحاب ، فهو نشء .

فإذا آنسحب في الهواء ، فهو السحاب . ١٠

فإذا تغيرت وتغممت له السماء ، فهو الغمام .

فإذا كان غيم ينشأ في عرض السماء فلا تبصره ، وإنما تسمع رعده ، فهو العقر .

فإذا أطل وأظلم السماء ، فهو العارض .

فإذا كان ذا رعد وبرق ، فهو العراض .

فإذا كانت السحابة قطعاً صغاراً متدانياً بعضها من بعض ، فهي النمرة . ١٥

فإذا كانت متفرقة ، فهي القرع .

فإذا كانت قطعاً متراكمة ، فهي الكرفئ (واحدتها كرفئة) .

فإذا كانت قطعاً كأنها قطع الجبال ، فهي قلع ، وكنهور (واحدتها كنهورة) .

فإذا كانت قطعاً رقاقاً ، فهي الطخارير (واحدتها طخور) .

- فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلَةٌ .
- فإذا كانت سوداء، فهي طَخِيَاءُ، ومُتَطَخِطَخَةٌ .
- فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُحَيَّلَةٌ .
- فإذا غَاظَ السحاب وركب بعضه بعضا، فهو المُكَمَّهَرُ .
- فإذا ارتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ .
- فإذا تقطع في أقطار السماء وتلبَّدَ بعضه فوق بعض، فهو الْقَرْدُ .
- فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبَّقَ، فهو الْعَمَاءُ، والعَمَايَةُ، والطَّخَاءُ، والطَّخَافُ، والطَّهَاءُ .
- فإذا اعتراض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الْحَيُّ .
- فإذا عَنَ، فهو الْعَنَانُ .
- فإذا أظلمت الأرض، فهو الدَّجَنُ .
- فإذا أسودَّتْ وتراكب، فهو الْمُحْمَوِمِيُّ^(١) .
- فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الرَّبَابُ .
- فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الْعِفَارَةُ .
- فإذا تدلَّى ودنا من الأرض مثل هُدْبِ القَطِيفَةِ، فهو الْهَيْدَبُ .
- فإذا كان ذا ماء كثير، فهو الْقَنِيفُ .
- فإذا كان أبيض، فهو الْمُزْنُ، والصَّبِيرُ .
- فإذا كان لرعده صوتٌ، فهو الْهَزِيمُ .

(١) اسم فاعل من أحجم الشيء، إذا أسودَّ . يوصف به نحو السحاب والبال .

- فإذا اشتدَّ صوتُ رعدِهِ، فهو الأَجَشُّ .
 فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصَّرَادُ^(١) .
 فإذا كان ذا صوتٍ شديدٍ، فهو الصَّيَّبُ .
 فإذا أدمرق ماءهُ، فهو الجَهَامُ (وقيل بل الجَهَامُ الذي لا ماء فيه) .

٣ — ذكر ما قيل في ترتيب المطر

قال الثعالبي رحمه الله: أخفُّ المطر وأضعفه الطَّلُّ، ثم الرِّذَاذُ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ ومثله الرِّكُّ، ثم الرَّهْمَةُ .

ويقال أيضا: أَوْلَهُ رَشٌّ وَطَشٌ . ثم طَلٌّ وَرَذَاذٌ، ثم نَضْحٌ وَنَضْحٌ، وهو قَطْرٌ بين قَطْرَيْنِ، ثم هَطْلٌ وَتَهْتَانٌ، ثم وَايِلٌ وَجُودٌ .

٤ — ذكر ما قيل في فعل السحاب والمطر

- يقال إذا أتت السماءُ بالمطر اليسير الخفيف^(٢) : حَفَشَتْ، وَحَشَكَتْ .
 فإذا استمرَّ قَطْرُهَا، قيل : هَطَلَتْ، وَهَتَتَتْ .
 فإذا صَبَّتِ الْمَاءَ، قيل : هَمَعَتْ، وَهَضَبَتْ .
 فإذا ارتفع صوتُ وَقْعِهَا، قيل : أَنَهَلَتْ، وَاسْتَهَلَّتْ .

(١) في فقه اللغة بعده : فإذا كان خفيفا تسفره الريح فهو الرِّبْرَجُ، وبعده فإذا كان ذا صوت الخ .
 (٢) كذا في فقه الثعالبي وعبارة اللسان : حَفَشَتْ السَّمَاءُ تَحْفَشُ حَفْشًا : جاءت بمطر شديد ساعة ثم أفلعت .
 ومثله حَشَكْتَ وَأَغَبْتَ فَالْحَفَشَةُ وَالْحَشْكَةُ وَالْغَبِيَّةُ بمعنى واحد .

فإذا سال المطرُ بكثرة، قيل : آنسكب، وأنبعق .
 فإذا سال يركب بعضه بعضا، قيل : آنعنجر، وأنعنجج .
 فإذا دام أياما لا يُقَالع، قيل : أنجم، وأغبط، وأدجن .
 فإذا أقلع، قيل : أنجم، وأفصم، وأفصى .

٥ — ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب : أول ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء، فأسمه الخريف . ثم يليه الوسمي ،
 ثم الربيع ، ثم الصيف ، ثم الحميم .
 وقيل المطر الأول هو الوسمي ، ثم يليه الولي ، ثم الربيع ، ثم الصيف ، ثم الحميم .

٦ — ذكر أسماء المطار اللغوية

قال الثعالبي :
 إذا أحيا الأرض بعد موتها، فهو الحيا .
 فإذا جاء عقيب المحل أو عند الحاجة إليه، فهو الغيث .
 فإذا دام مع سكون، فهو الديمة . والضرب فوق ذلك قليلا، والهطل فوقه .
 فإذا زاد، فهو الهتلان، والهتان، والتهتان .
 فإذا كان القطر صغارا كأنه شدر، فهو القطقط .
 فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي الرهمة .
 فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهي الغيبة، والحفشة، والحشكة .

- فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهي الدَّهَابُ، والهَمِيمَةُ^(١).
- فإذا كان المطر مستمرا، فهو الودق.
- فإذا كان صخيم القطر شديد الوقع، فهو الوابل.
- فإذا أنبعق بالماء، فهو البعاق.
- فإذا كان يروى كل شيء، فهو الجود.
- فإذا كان عاما، فهو الجدا.
- فإذا دام أياما لا يُقْلَع، فهو العين.
- فإذا كان مسترسلا سائلا، فهو المرثعن.
- فإذا كان كثير القطر، فهو الغدق.
- فإذا كان شديد الوقع كثير الصوب، فهو السَّحِيقَةُ^(٢).
- فإذا كان شديدا كثيرا، فهو العز، والعباب.
- فإذا جرف ما مر به، فهو السَّحِيقَةُ^(٢).
- فإذا قشرت وجه الأرض، فهي السَّاحِيَةُ.
- فإذا أثرت في الأرض من شدة وقعها، فهي الحَرِيصَةُ.
- فإذا أصابت القطعة من الأرض وأخطأت الأخرى، فهي النُقْصَةُ.
- فإذا جاءت المطرة لما يأتي بعدها، فهي الرَّصْدَةُ، والعِهَادُ نحو منها.

(١) في فقه الثعالبي: الهيمة. بإسقاط الميم الأولى وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس.

(٢) نقل صاحب اللسان في مادة (س ح ف) عن الأصمعي: (إن السحيفة بالقاء، المطرة الحديدية التي

تجرف كل شيء. . . والسحيفة بالقاف، المطرة العظيمة القطر الشديدة الوقع القليلة العرض) وهو

عكسي ما نقله النويري عن الثعالبي.

فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الوليُّ.

فإذا رجع وتكرر، فهو الرجْعُ.

فإذا تتابع، فهو اليعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعَاتٍ، فهي الشَّائِبُ.

٧ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبرد من غب المطر. أرق من دمع الغمام. أسرع من السيل إلى الخدور. أطنى من السيل. أغشم من السيل. أمضى من السيل. يذهب يوم الغيم ولا يُشعر به. قد بلغ السيل الزبى. اضطره السيل إلى معطشه. أرنيها نمره، أريكمها مطره. سبق سيله مطره. قبل السحاب أصابني الوكف.

ومن أنصاف الأبيات :

* هل يُرِنجى مطرٌ بغيرِ سحابٍ * وأقولُ الغيثُ طلٌّ ثم ينسكبُ *
* سحابُهُ صيفٌ عن قريبٍ تقشعُ * فذكر كما دَرَّ السَّحابُ على الرِّعدِ *
* أسرعُ السَّحبِ في المسيرِ الجَهمُ * ومن يسدُّ طريقَ العارضِ المَطلِ ؛ *
* سحابٌ عدائي فيضُهُ وهو صيبٌ * يحسبُ الممطرُ أن كلَّ مطرٍ *

* سأل به السَّيلُ وما يَدْرِى بهِ *

ومن الأبيات قول الطائي :

وكذا السَّحَابُ، قَلَمَّا تَدْعُو إِلَى * معروفيها الرُّقَادَ ما لم تَبْرِقِ .

وقال البحتري عفى عنه :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْعَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ * مَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ فِي إِبَانِهِ .



وقال أبو الطيّب :

لَيْتَ الْغَمَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ * يُزِيلُهُنَّ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدِّيمُ !

وقال كثير :

كَلَّا أَبْرَقْتُ يَوْمًا عِطَاشًا عَمَامَةً . * فَلَمَّا رَجَوَهَا، أَقْشَعْتُ وَتَجَلَّتْ .

وقال آخر :

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَظْهَأُ ! * إِنَّ هَذَا لَوْصَمَةٌ فِي السَّحَابِ !

وقال آخر :

وَاللَّهِ يُنْشِئُ سَحَابًا تَطْمَئِنُّ بِهِ النَّفْسُ مِنْ قَبْلِ بَلِّ الْأَرْضِ بِالْمَطَرِ .

١٠

٨ — ذكر شيء مما قيل في وصف السحاب والمطر

قال أبو تمام الطائي :

سَحَابُهُ صَادِقَةٌ الْأَنْوَاءِ * تَجْرُ أَهْدَابًا عَلَى الْبَطْجَاءِ .

تَجْمَعُ بَيْنَ الضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ : * بَدَتْ بِنَارٍ وَثَلَّتْ بِمَاءِ .

وقال أبو عبادَةَ الْبَحْتَرِيُّ عفا الله تعالى عنه :

١٥

ذَاتِ أَرْتِجَاسٍ بِحَيْنِ الرَّعْدِ * مَجْرُورَةَ الدَّيْلِ صَدُوقِ الْوَعْدِ ،

مَسْفُوحَةِ الدَّمْعِ بَغَيْرِ وَجْدٍ * لَهَا نَسِيمٌ كَنَسِيمِ الْوَرْدِ ،

وَرَنَّةٌ مِثْلُ زَيْبِ الْأَسَدِ * وَلَمْعٌ بَرَقَ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ .
جاءتُ بها رِيحُ الصَّبَا مِنْ نَجْدٍ * فَانْتَثَرَتْ مِثْلَ انْتِثَارِ الْعُقْدِ .
وَراحتِ الْأَرْضُ بِعَيْشِ رَغْدٍ * مِنْ وَشْيِ أَنْوَارِ الثَّرَى فِي بُرْدِ .
كَأَنَّمَا غُذِرَتْهَا فِي الْوَهْدِ * يَلْعَبْنَ تَرْحَابًا بِهَا بِالرَّيْنِ .

٥ وقال أبو الحسن عليّ بن القاسم القاشاني من شعراء اليتيمة عفى عنه :

إِذَا الْغُيُومُ أَرْجَحْنَ بِاسِقُهَا * وَحَفَّ أَرْجَاءُهَا بِوَارِقُهَا ،
وَعَبَّيْتُ لِلثَّرَى كَتَائِبُهَا * وَأَنْتَصَبْتُ وَسْطَهَا عَقَائِقُهَا ،
وَجَلَّجَلُ الرِّعْدُ بَيْنَهَا خَفِي * خَفَقَ طُبُولُ أَحْ خَافِقُهَا ،
وَأَبْتَسَمَتْ فَرَحَةً لَوَامِعُهَا * وَأَخْتَلَفَتْ عِبْرَةً حَمَائِقُهَا ،
وَقِيلَ : طُوبَى لِبَلَدَةٍ تُنَجَّتْ * بِجَوِّ أَكْثَافِهَا بِوَارِقُهَا .
أَيُّ نَعْمَاءٍ لَا تُحْلَلُ بِهَا؟ * وَأَيُّ بَأْسَاءٍ لَا تُفَارِقُهَا ؟

١٠

وقال القاضي الشُّنُوحِيّ :

سَحَابٌ أَتَى كَالْأَمْنِ بَعْدَ تَخَوُّفٍ * لَهُ فِي الثَّرَى فِعْلُ الشِّفَاءِ بِمُدْنَفٍ .
أَكْبَّ عَلَى الْآفَاقِ إِنْجَابَ مُطَرِّقٍ * يُفَكِّكُ أَوْ كَالنَّادِمِ الْمُتَلَهِّفِ .
وَمَدَّ جَنَاحَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ جَانِحًا * فَرَّاحَ عَلَيْهَا كَالْغُرَابِ الْمُرْفَرِفِ .
غَدَا الْبَرْقُ بَحْرًا زَانِحًا وَأَنْتَنَى الضُّحَى * بِظُلْمَتِهِ فِي ثَوْبٍ لَيْلٍ مُسَجِّفِ .
فَعَبَّسَ عَنْ بَرَقٍ بِهِ مُتَبَسِّمٍ * عُيُوسَ بَخِيلٍ فِي تَبَسُّمٍ مُعْتَفِ .
تُحَاوِلُ مِنْهُ الشَّمْسُ فِي الْجَوِّ مُحَرِّجًا * كَمَا حَاوَلَ الْمَغْلُوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَفِ .

١٥

وقال ابن الرومي :

سَحَابٌ قِيسَتْ بِالْبِلَادِ فَأُفِيَتْ * غَطَاءٌ عَلَى أَعْوَارِهَا وَنُجُودِهَا .
حَدَّثَهَا النِّعَامُ مُقْبِلَاتٍ فَأَقْبَلَتْ * تَهَادَى رُويْدَا سَيْلَهَا كُرْكُودِهَا .

وقال أبو هلال العسكري :

وَبَرَقَ سَرَى، وَاللَّيْلُ يُحْيِي سَوَادَهُ * فَقُلْتُ : سِوَارُ فِي مَعَاصِمِ أَسْمَرَا !
وَقَدْ سَدَّ عَرْضَ الْأَفْقِ غَيْمٌ تَحَالَهُ * يَزُرُّ عَلَى الدُّنْيَا قَمِيصًا مَعْنَبَرَا .
تَهَادَى عَلَى أَيْدِي الْحَبَائِبِ وَالصَّبَا * نَحْرُقِ مِنَ الْفَتَيَانِ نَارَعَ مُسْكِرَا .
تَحَالَ بِهِ مِسْكًا وَبِالْقَطْرِ لَوْلَا * وَبِالرَّوْضِ يَأْقُوتًا وَبِالْوَحْلِ عَنَبَرَا .
سَوَادُ غَمَامٍ يَبْعَثُ الْمَاءَ أَيْضًا * وَغُرَّةُ أَرْضٍ تُثَبِّتُ الزَّهَرَ أَضْفَرَا .
أَتَتْكَ بِهِ أَنْفَاسُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ * كَمُقْطَعَةِ رَعْنَاءٍ تَسْتَأْفِقُ عَسْكَرَا .
فَالْقَى عَلَى الْغُدْرَانِ دُرْعًا مُسَرَّدَا * وَأَهْدَى إِلَى الْقَيْعَانِ بُرْدًا مُحَبَّرَا .
تَحَالَ الْحَيَا فِي الْجَوْدِ دُرًّا مَنْظَمًا * وَفِي وَجَنَاتِ الرُّوْضِ دُرًّا مَنْثَرَا .
وَأَقْبَلَ نَشْرُ الْأَرْضِ فِي نَفْسِ الصَّبَا * فَبَاتَ بِهِ ثَوْبُ الْمَهْوَاءِ مُعْطَرَا .
إِذَا مَا دَعَتْ فِيهِ الرُّعُودُ فَأَسْمَعَتْ * أَجَابَ حُدَاةً وَأَسْتَهَلَ فَأَغْزَرَا .
وَيَبْكِي إِذَا مَا أَصْحَكَ الْبَرْقُ سِنَّهُ * فَيَجْعَلُ نَارَ الْبَرْقِ مَاءً مُفَجَّرَا .
كَأَنَّ بِهِ رُودَ الشَّبَابِ خَرِيدَةً * قَدْ اتَّخَذَتْ ثَنَى السَّحَابَةِ مِعْجَرَا .
فَتَغْرُ يُرِينَا مِنْ بَعِيدٍ تَبَلُّجًا * وَدَمَعٌ يُرِينَا مِنْ بَعِيدٍ تَحَدُّرَا .

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَائِي :

سَارِيَّةٌ ذَاتُ عُبُوسٍ بَرَقِيهَا * يَضْحَكُ وَالْأَجْفَانُ مِنْهَا تَهْمَلُ .
تَكْلَّةٌ دَكَّاءٌ فِي حَاشِيَةٍ * فِيهَا طِرَازٌ مُدْهَبٌ مُسَلْسَلُ .
إِذَا دَنْتَ عِشَارُهَا، صَاحَ بِهَا * قَاصِفٌ رَعْدٌ وَحَدَّثَهَا الشَّمَالُ .

وقال عبد الله بن المعتز :

وَمُرْنَةٌ جَادٌ مِنْ أَجْفَانِهَا الْمَطَرُ : * فَالرَّوْضُ مُنْتَظِمٌ وَالْقَطَرُ مُسْتَثَرٌ .
تَرَى مَوَاقِعَهُ فِي الْأَرْضِ لَائِحَةً * مِثْلَ الدَّرَاهِمِ تَبْدُو ثُمَّ تَسْتَثَرُ .

وقال أيضا :

مَا تَرَى نِعْمَةَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ * ضِيقٌ وَشُكْرُ الرِّيَاضِ لِلْأَمْطَارِ ؟
وَكَاَنَّ الرَّبِيعَ يَحُلُّ عَرُوسًا * وَكَأَنَّ مِنَ قَطْرِهِ فِي نِشَارِ !

وقال ابن عوف الكاتب في إطباق الغيم وقربه :

فِي مُرْنَةٍ أَطْبَقَتْ فَكَادَتْ * تُصَاغُ التُّرْبُ بِالْغَمَامِ .

وقال آخر :

تَبَسَّمتِ الرِّيحُ ، رِيحُ الْجَنُوسِ * بِ فِيهَا هَوًى غَالِبًا وَادِّكَارًا .
وَسَاقَتْ سَحَابًا كَمِثْلِ الْجِبَالِ * إِذَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ فِيهِ ، أَنَارًا .
إِذَا الرَّعْدُ جَلَجَلَ فِي جَانِبَيْهِ * رَوَى النَّبَاتَ وَأَرَوَى الصَّحَارَى .
تَطَالِعُنَا الشَّمْسُ مِنْ دُونِهِ * طَلَاعَ فَتَاةٍ تَخَافُ أَشْتِهَارًا ،
تَخَافُ الرَّقِيبَ عَلَى نَفْسِهَا * وَتَحْذَرُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَغَارَا .
فَتَسْتُرُ غُرَّتَهَا بِالْجَمَا * رِطُورًا ، وَطُورًا تُزِيلُ الْجَمَارَا .

فَلَمَّا رَأَاهُ هُبُوبُ الْجَنُوبِ * بِ وَأَنْهَمَرِ الْمَاءُ فِيهِ أَنْهَمَارًا ،
تَبَسَّمَتِ الْأَرْضُ لَمَّا بَكَتْ * عَلَيْهَا السَّمَاءُ دُمُوعًا غِزَارًا !
وقال الأسعد بن بليطة من شعراء الذخيرة :

لَوْ كُنْتُ شَاهِدَنَا عَشِيَّةَ أَمْسِنَا ، * وَالْمُزْنَ تَبْكِينَا بَعِيْنِي مُدْنِبِ ،
وَالشَّمْسُ قَدْ مَدَّتْ أَدِيمَ شُعَاعِهَا * فِي الْأَرْضِ تَجَنُّحُ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَذْهَبِ ،
خَلَّتِ الرِّذَاذُ بُرَادَةً مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ غُرِبَتْ مِنْ فَوْقِ نِطْعٍ مُذْهَبِ !

وقال أبو عبد الله محمد بن الحياط من شعرائها :

رَاحَتْ تُدَكِّرُ بِالنَّسِيمِ الرَّاحَا * وَطَفَاءُ تَكْسِرِ لِلْجُنُوحِ جَنَاحَا .
أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدَتْ * مِنْ بَرَقِهَا ، كَيْ تَهْتَدِي ، مِصْبَاحَا .
وَكَأَنَّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحَابِهَا * حَادٍ إِذَا وَنَتْ السَّحَابُ ، صَاحَا .
جَادَتْ عَلَى التَّلَاعَاتِ فَأَكْتَسَتِ الرُّبَا * حُلَلًا أَقَامَ لَهَا الرَّيِّعُ وَشَاحَا .

وقال ابن برد الأصغر الأندلسي من شعرائها :

وَمَا زِلْتُ أَحْسَبُ فِيهِ السَّحَابَ ، * وَنَارُ بَوَارِقِهَا تَلْتَهَبُ :
بَحَاتِي تَوْضَعُ فِي سَيْرِهَا * وَقَدْ قُرِعَتْ بِسِيَاطِ الدَّهَبِ .



ومما ورد في وصفها نثرا

§ قال بعض الأندلسيين من رسالة :

ثم أرسل الله الرياح من كوائنها ، وأخرجها من خزائنها ، فجرت ذيوها ، وأجرت
خيولها ، خافقة بنودها ، متلاحقة جنودها ، فأثارت الغمام ، وقادته بغير زمام ،
وأنشأت بحرية من السحاب ، ذات أتراب وأصحاب ، كثيرا عددها ، غزيرا مددها ،

فبَشَّرْتُ بِالْقَطْرِ كُلِّ شَائِمٍ ، وَأَنْذَرْتُ بِالْوَرْدِ كُلِّ حَائِمٍ ، وَالرَّيْحُ تَنْثُنًا ، وَالْبَرْقُ يَحْتُنًا ،
 كَأَنَّهُ قَضِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ لِسَانٌ مِنْ لَهَبٍ ؛ وَلِلْسَحَابِ مِنْ ضَوْءِ الْبَرْقِ هَادٍ ، وَمِنْ
 صَوْتِ الرَّعْدِ حَادٍ ؛ وَالرَّيْحُ تَوْسِعُ بِلُحْمَتِهَا سَدَاها ، وَتُسْرِعُ فِي حَيَاكَتِهَا يَدَاها . فَلَمَّا
 أَلْتَحَمَ فَتْقُها ، وَالتَّامَ رَتْقُها ؛ وَآمَتْدَتْ أَشْطَانُها ، وَآتَسَعَتْ أَعْطَانُها ؛ وَأَنْفَسَحَتْ
 أَجْنَابُها ، وَأَنْسَدَلَتْ أَطْنَابُها ؛ وَتَهَدَّلَ نَحْلُها ، وَتَمَخَّضَ حَمْلُها ؛ وَمَدَّتْ عَلَى آفَاقِ
 السَّمَاءِ نِطَاقَها ، وَزَرَّتْ عَلَى أَعْنَاقِ الْجِبَالِ أَطْوَاقَها ، كَأَنها بِنَاءٌ عَلَى الْجَوْ مَقْبُوبٍ ،
 أَوْ طَبَقٌ عَلَى الْأَرْضِ مَكْبُوبٍ ؛ تَمْشِي مِنَ الثَّقَلِ هَوْنًا ، وَتَسْتَدْعِي مِنَ الرَّيْحِ عَوْنًا ؛
 وَمَخَايِلُها تَقْوَى ، وَعَارِضُها أَحْوَى . فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهَا بِالْأَنْحَادِ ، وَأَنْزَلَ مِنْهُ الْوَدْقَ
 بِمَقْدَارٍ ، أَرْسَلَتْ الرَّيْحَ خُيُوطَ الْقَطْرِ مِنْ رُودِ السَّحَابِ ، وَأَسْبَلَتْها إِسْبَالَ
 الذَّوَابِ . فَدَرَّتْ مِنْ خَلْفٍ مَضْرُورٍ ، وَثَرَتْ طَلَّها نَثْرُ الدَّرُورِ . ثُمَّ أَنْخَرَقَ جَيْها ،
 وَأَنْبَثَقَ سَيْها ؛ وَصَارَ الْخَيْطُ حَبْلًا ، وَالطَّلُّ وَبَلًا . فَالْسَّحَابُ يَتَعَلَّقُ ، وَالْبَرْقُ يَتَأَلَّقُ ؛
 وَالرَّعْدُ يَرْتَجِسُ ، وَالْقَطَرُ يَنْجَسُ ؛ وَالنَّقْطُ تَتْرَافِي طَبَاقًا ، وَتَتَبَارِي آتِصَاقًا ؛ فَيَرِدُّفُ
 السَّابِقُ الْمَصْلَى ، وَيَتَصَلُّ التَّابِعُ بِالْمَوْلَى ؛ كَمَا يَقَعُ مِنَ الْمُنْخُلِ الْبُرٌّ ، وَيَنْتَثِرُ مِنَ النِّظَامِ الدَّرُّ ؛
 بِخَيْبِ السَّمَاءِ تُسْقِطُها ، وَأَكْفُ الْعُذْرَانِ تَلْقُطُها ؛ وَالْأَرْضُ قَدْ فَتَحَتْ أَفْوَاهُها ،
 وَجَرَعَتْ أَمْوَاهُها . حَتَّى أَخَذَتْ رِيَّها مِنَ الْمَطَرِ ، وَبَلَّغَتْ مِنْهُ غَايَةَ الْوَطَرِ ، خَنَى مِنْ
 الرَّعْدِ تَسْبِيحَها ، وَطَفِئَتْ مِنَ الْبَرْقِ مَصَابِيحُها ، وَحَسَرَتْ السَّمَاءُ نِقَابَها ، وَوَلَّتْ الْمَطَرُ
 أَعْقَابَها ؛ وَحَكَتْ فِي رَدِّها طَلْقَ السَّابِقِ ، وَهَرَبَ الْآبِقُ .

§ ومن رسالة محمد بن شرف القيرواني :

برئ عليل البرئ ، وأثرئ فقير الثرى ، وتاريخ ذلك أنصرام ناجر ، وقد بلغت القلوب^(١)

(١) رجب أو صفر . وكل شهر من شهور الصيف (فاموس) . ٢٠

الحناجر، مجازةً أحمرت لها خضرة السماء، وأغبرت مرآة الماء، حتى أنهل طالع وشي،
وتلاه تابع ولي، دنا فأسف، ووَكَّفَ فما كَفَّ. فهاقَى مسكوبا قَطْرُهُ، محجوبا شمسهُ
وبدرُهُ، وجلبت عروسُ الشمس، معتذرةً عن مغيبها بالأمس. فعندها مُزَّق عن
الدقعاء صحيحُ إهابها، وأخترن دُرَّ البر في أصداف ترابها. فما مرَّت أيام إلا والقيعان
مسنَدسه، والآكام مطوَّسه.

٥
لا ومن رسالة لأبي القاسم، محمد بن عبد الله بن أبي الجلد في وصف مطر بعد قحط:

قال: لله تعالى في عباده أسرار، لا تُدرِكها الأفكار، وأحكام، لا تتألفها الأوهام.
تختلف والعدل مُتَّفِق، وتفترق والفضل مجتمع مُتَّسِق. ففى مَنَحها نفائس المأمول،
وفى مَحْنها مَدَاوِسُ العقول^(١). وفى أَشْء فوائدها حدائق الإنعام رائقه، وبين أرجاء سرائرها
بوارق الإعذار والإنذار خافقه. وربما تفتحت كرائم النوائب، عن زَهَرات المواهب.
وأنسكبت غمام الرزايا، بنفحات العطايا. وصدع ليل اليأس صبحُ الرجاء، وخلع
عامل البأس إلى الرخاء. ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدير العزيز القدير!

ولما ساءت بتثبط الغيث الظنون، وأنقبض من تبسط الشك اليقين، وأسترابت
حياض الوهاد، بعهود العهاد، وتأهبت رياض النجاد، لبرود الحداد، وأكتحلت
أجفان الأزهار، بإثمد النقع المثار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حُلِّ الديمة المِدرار،
أرسل الله بين يدي رحمة ريحا بليلة الجناح، مُحْيِلة النَّجَاح، سريعة الإلقاح. فنظمت
عقود السحاب، نظم السَّحاب، وأحكمت برود الغمام، رائقة الأعلام. وحين ضربت
تلك المُخَيِّلَةُ فى الأفق قبابها، ومدت على الأرض أطنابها، لم تلبث أن أنهت رواقها،

(١) جمع مَدَوَس [أى مصاقل العقول].

وَأَنْبَتِكَ وَشَيْكَاً نِطَاقُهَا ، وَأَنْبَرْتَ مَدَامُهَا تَبْكِي بِأَجْفَانِ الْمُشْتَاكِ ، غَدَاةَ الْفِرَاقِ ، وَتَحْكِي
بَنَانَ الْكَرَامِ ، عِنْدَ أُرْيَحِيَّةِ الْمَدَامِ ، فَاسْتَغْرَبْتَ الرِّيَاضَ ضَحْكَاً بَيْكَاً ، وَأَهْتَرَّ رُفَاتِ النَّبَاتِ
طَرَباً لِتَغْرِيدِ مُكَاً ، وَأَكْتَسَتْ ظُهُورُ الْأَرْضِ مِنْ بَيْضِ إِنْائِهَا ، خُضْرَ مُلَائِهَا . فَكَأَنَّ
صِنْعَاءَ قَدْ نَشَرَتْ عَلَى بَسِيطِهَا بَسَاطاً مُؤَوِّفَاً ، وَأَهْدَتْ إِلَيْهَا مِنْ زَخَارِفِ بَرِّهَا وَمَطَارِفِ
وَشَيْهَا أَنْطَافَا وَتَحْفَا . وَخُيِّلَ لِلْعُيُونِ أَنْ زَوَاهِرِ النُّجُومِ ، قَدْ طَلَعَتْ مِنْ مَوَاقِعِ التُّخُومِ ،
وَمِبَاهِمِ الْحَسَانِ ، قَدْ وَصَلَتْ بِأَقْتِرَارِ الْغَيْطَانِ . فَيَا بَرْدَ مَوْجِعِهَا عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ !
وَيَا خُلُوصَ رِيحِهَا إِلَى غُلْلِ النُّفُوسِ الصَّوَادِ ! كَأَنَّمَا أَسْتَعَارَتْ أَنْفَاسَ الْأَحْبَابِ ، أَوْ تَرَشَّفَتْ
شَنْبَ الثَّنَائِيَا الْعَذَابِ ، أَوْ تَحَمَّلَتْ مَاءَ الْوِصَالِ ، إِلَى نَارِ الْبَلْبَالِ . أَوْ سَرَتْ عَلَى أُنْدَاءِ
الْأَسْحَارِ وَرِيحَانِ الْآصَالِ . لَقَدْ تَنَبَّهَ لِلصَّنْعِ الْجَلِيلِ ، مِنْ خِلَالِ دِيمِهَا تَنْفَسَ وَنَصُولِ ،
وَتَمَكَّنَ لِلشُّكْرِ الْجَمِيلِ ، مِنْ ظِلَالِ نِعْمِهَا مَعْرَسَ وَمَقِيلِ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ مَا أَنْسَكَبَ
قَطْرًا ، وَأَنْصَدَعَ فَجْرًا ، وَتَوَقَّدَ قَبَسٌ ، وَتَرَدَّدَ نَفْسٌ ، وَهُوَ الْكَفِيلُ تَعَالَى بِإِتْمَامِ النِّعْمِ .
وصلة أسباب الحياة والحيا بعزته !

§ وقال الوزير أبو عمرو الباجي في مثل ذلك :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَايَا وَاقِعَةً بِالْعَدْلِ ، وَعَطَايَا جَامِعَةً لِلْفَضْلِ ، وَنِعْمًا يَبْسُطُهَا إِذَا شَاءَ
إِنْعَامًا وَتَرْفِيهَا ، وَيَقْبِضُهَا مَتَى أَرَادَ إِلَهَامًا وَتَنْبِيهَا ، وَيَجْعَلُهَا لِقَوْمٍ صَالِحًا وَخَيْرًا ،
وَلَا تَحْرِيحَ فِسَادًا وَضَيْرًا . ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ
وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ . وَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَمْتَسَاكِ السُّقْيَا ، وَتَوَقُّفِ الْحَيَا ، مَا رِيْعَ بِهِ
الْأَمْنُ ، وَأَسْتُطِيرَ لَهُ السَّاكِنُ ، وَرَجَفَتْ الْأَكْبَادُ فَزَعًا ، وَذَهَلَتْ الْأَلْبَابُ جَزَعًا ،
وَأَذَكَّتْ ذُكَاؤُهَا حَرَّهَا ، وَمَنْعَتْ السَّمَاءُ دَرَّهَا ، وَأَكْتَسَتْ الْأَرْضُ غُبْرَةً بَعْدَ خُضْرَةٍ ،
وَلَبَسَتْ شُحُوبًا بَعْدَ نَضْرَةٍ ، وَكَادَتْ بُرُودُ الرِّيَاضِ تُطْوِي ، وَمُدُّودُ نِعَمِ اللَّهِ تُزْوِي ؛

ثم نشر الله تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح مَنته ، وأزاح مِحنته . فبعث الرياح
لَوَاقِحَ ، وأرسل الغمام سَوَافِحَ ، بماء يتدفق ، ورَواءَ غَدَقَ ، من سماء طبق . آسَتهل جفنها
فَدَمَعَ ، وسمح دمعها فهِمَعَ ، وصاب وبلها فتقع . فاستوفت الأرض رِيًّا ، واستكملت
من نباتها أُنثاء وريًّا ، فزينة الأرض مشهوره ، وحلّة الزهر منشوره ، ومِنَّة الرب
موفوره ، والقلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه ضاحكة إثر عبوسها ، وآثار الجزع
ممحوه ، وسُور الشكر متلوّه ، ونحن نستريد الواهب نعمة التوفيق ، ونستهديه في قضاء
الحقوق إلى سواء الطريق ، ونستعيد به من المِنَّة أن تعود فتنه . والمنحة أن تصير
محنه ! والحمد لله رب العالمين !

معين التارح لأهل التارح

٩ - ذكر شيء مما وصف به الثلج والبرد

قال أبو الفتح كشاجم :

الثلجُ يسقطُ أم لحين يُسبكُ ، * أم ذا حصي الكافور ظلّ يفترقُ ؟
راحت به الأرض الفضاء كأنها * في كل ناحية بثغر تضحك !
شابت ذوائبها فبين صححها * طربا وعهدى بالمشيب ينسك !
وتردت الأشجار منه ملاءة * عما قليل بالرياح تهتك !

(٣٢)

وقال أيضا :

ثلج وشمس وصوب غادية * فالأرض من كل جانب غره !
باتت ، وقيعانها زبرجدة . * فأصبحت قد تحولت دُرّه !
كانها والثلوج تضحكها * تعار من أحبه ثغره !
شابت فسرت بذاك وأتهجت * وكان عهدى بالشيبي يستكره !

١٥

وقال الصاحب بن عباد :

أَقْبَلَ التَّلَجُّ فِي غَلَائِلِ نَوْرِ * تَهَادَى بِلَوْلُو مَنَشُورِ !
فَكَأَنَّ السَّمَاءَ صَاهَرَتِ الْأَرْضَ * ضَ فَصَارَ النَّارُ مِنْ كَافُورِ !

وقال النيرى :

أَهْدَى لَنَا بَرْدًا يَلُوحُ كَأَنَّهُ * فِي الْجَوْحِ لَآلِيٍّ لَمْ يُثَقِّبْ ،
أَوْ تَغَرُّ حَوَاءِ اللَّائِيَاتِ تَبَسَّمَتْ * عَنْ وَاضِحٍ مِثْلِ الْأَقَاحِيِّ أَشْنَبِ !

الباب الثاني

من القسم الثاني من الفن الأول

في النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قزح

(١) فأما النيازك، فهو ما يرى من الذوائب المتصلة بالشهب والكواكب .

روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لجماعة من الأنصار : "ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به ؟ قالوا : يا رسول الله ، كنا نقول إذا رأيناها يرمى بها : مات ملك ، ولد مولود . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تعالى كان إذا قضى في خلقه أمرا سمعه الملائكة فيسبحون ، فيسبح من تحتهم لتسبيحهم ، فيسبح من تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحون ، ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم ثم يسبحون ، فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا ، للأمر الذي كان . فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف . ثم يأتون

به الكُهَّانَ ، فيصيبون بعضا ، ويُخطئون بعضا . ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يُقَدِّفون بها ، فانقطعت الكهانة ، فلا كهانة اليوم .

والشهب التي يُقَدِّف بها الشياطين غير النجوم الثابت التي منها البروج والمنازل لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ .

وقال بعض الشعراء :

وَكَوَّكِبٍ نَظَرَ الْعَفْرِيَّتَ مُسْتَرِقًا * لَسَّمْعٍ فَأَنْقَضَ يَدُكِي إِثْرَهُ لَهَبِهِ
كِفَارِسٍ حَلَّ مِنْ تَيْبِهِ عِمَامَتَهُ * وَجَرَّهَا كُلُّهَا مِنْ خَلْفِهِ عَذَبَهُ

وكتب ابن الحرون إلى صديق له ، وقد كثير أنقضا الكواكب ، وذلك في أيام المتوكل على الله :

- ١٠ . أما بعد . فإن الفلك قد تفرى عن شهب ثواقب ، كنيران الحُباحِب ، مُتَقَدَّة كشرر الزنود ، وشعل زُبر الحديد ، مازجها عرض حمرة البهرمان ، وصفرة العقيان^(١) . فهي كأرسل جرادٍ منتشر ، وهشيم دَرَّتْهُ رِيحٌ صرصرٌ ، في سُرعة الكف ، ووحى لحِظِ الطُرف .

(ب) وأما الصواعق ، فهي ما قاله الزمخشري في تفسيره : الصاعقة قصفة

- ١٥ . من رعد ينقض معها شقعة من نار .

وقالوا : إنها تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه . وهي نار لطيفة حديدة لا تتركب شيء إلا أتت عليه ، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود . على أنها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليها .

(١) العقيان الذهب .

وقال صاحب كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر" في كتابه :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكيس ، ولا تُحرق الكيس ؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال . قال : وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته ، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه .
و ربما عرض لها عند أنطفائها في الأرض برد ويس ، فتكون منها أجرام حجرية ،
أو حديدية ، أو نحاسية . وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شيء .

(ج) وأما الرعد وما قيل فيه . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ .
قال المفسرون : الرعد ملك موكل بالسحاب ، معه كرم من حديد ، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله . فكلمة خالف سحاب ، صاح به فزجره . فالذي يُسمع هو صوت الملك .

وقال الزمخشري في تفسيره : الرعد الذي يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب تضطرب وتتنفض إذا حدثها الريح فتصوت عند ذلك .

وأما صوت الرعد ، تقول العرب : رعدت السماء .

فإذا ازداد صوتها ، قيل : آرتجست .

فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، وقعقت .

فإذا بلغت النهاية ، قيل : جالجت ، وهدهدت .

(١) عبارة فقه اللغة : (فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ودوت . فإذا زاد واشتد ، قيل : قصفت ،

وقعقت . فإذا بلغ النهاية الخ) اهـ .

المثل

رُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ . (البخيل المتكبر) .

(د) وأما البرق وما قيل فيه ، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى إلى أنه ضَرْبُ الْمَلِكِ الَّذِي هُوَ الرَّعْدُ لِلْسَّحَابِ مِخْرَاقٌ مِنْ حَدِيدٍ . وروى عن مجاهد : إن الله عز وجل وكل بالسحاب مَلَكًا . فالرعد قَعْقَعَةٌ صَوْتُهُ ، والبرق سَوْطُهُ ^(٢) .

وأما ترتيبه في لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسم ، وذلك بقدر ما يريك سواد الغيم من بياضه :
أَنْكَلَّ أَنْكَلًا .

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير ، قيل : أَوْشَمَتِ السَّمَاءُ . ومنه قيل : أَوْشَمَ النَّبْتُ إِذَا أَبْصَرَتْ أَوَّلَهُ .

فإذا برق برقًا ضعيفًا ، قيل : خَفَا .

فإذا لمع لمعًا خفيفًا ، قيل : لَمَحَ ، وَأَوْمَضَ .

فإذا تشقق ، قيل : أُنْعَقَ أَنْعَاقًا .

فإذا ملا السماء وتكشفت وأضطرب ، قيل : تَبَوَّجَ .

فإذا كثر وتتابع ، قيل : أُرْتَعَجَ .

فإذا لمع وأطمع ثم عدل ، قيل له : حُلِبَ .

(١) في الأصل نغفة : . وهو محرف عن قعقة بالقاف كما يقتضيه السياق .

(٢) في الأصل صوته . وهو محرف عن سوطه وهو مخراق الحديد الذي ذكر في السطر الذي قبله .

المثل :

”ليس في البرق اللامع مُسْتَمْتَعٌ“ .

ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكري ، عفا الله عنه :

والرعدُ في أرجائه مُتَرَنِّمٌ * والبرقُ في حافاتِه مُتَلَهَّبٌ .

كالبُلق تَرَحَّحَ ، والصَّوارمُ تُتَنَضَّى * والجو يَنَسِمُ ، والأناملُ تَحْسَبُ .

وقال آخر :

إذا وَنَتِ السُّحُبُ الثَّقَالُ وَحَثَّهَا * من الرعد حادٍ ليس يُبْصِرُ أَكْمَهُ ،

أحاديثُه مُسْتَمَوِلَاتٌ وَصَوْتُهُ * إذا آنخضت أصواتهن مَقَهَقُهُ ،

إذا صاح في آثارهن حَسِبْتَهُ * يجاوبُهُ من خَلْفِهِ صاحِبٌ لَهُ .

وقال ابن الدقاق الأندلسي :

أرى بارقًا بالأبلق الفَرْدُ يَوْمِضُ * يَذْهَبُ أَكْثَافُ الدُّجَى وَيُقِضُّضُ .

كَأَنَّ سُلَيْمَى مِنْ أَعَالِيهِ أَشْرَفَتْ * تَمَدَّنَا كَفًّا خَضِيْبًا وَتَقِيضُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

ويومَ بَءَى بَرْقُهُ أَشَقَّرَا * يُطَارِدُ مِنْ مُرْنِهِ أَشْهَبَا :

تَرَى الْأَرْضَ فِيهِ وَقَدْ فُضِّضَتْ * وَوَجْهَ السَّمَاءِ وَقَدْ ذُهِبَا !

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي ، شاعر الذخيرة :

ولما تَجَلَّى اللَّيْلُ وَالْبَرْقُ لَامِعٌ * كَمَا سَلَّ زَنْجِيٌّ حُسَامًا مِنَ التَّبَرِّ ،

وَبِتُّ سَمِيرَ النِّجْمِ وَهُوَ كَأَنَّهُ * عَلَى مِعْصَمِ الدُّنْيَا جَبَائِرُ مِنْ دُرٍّ .

وقال محمد بن عاصم ، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أضَاءَ بِوَادِي الْأَثَلِ وَاللَّيْلُ مُظْلِمٌ * بَرِيقٌ كَحَدِّ السَّيْفِ ضَرَجَهُ الدَّمُ .
إِذَا الْبَرْقُ أَجْرَى طَرْفَهُ فَصْهِيلُهُ * إِذَا مَا تَفَرَّى رَعْدُهُ الْمُتَرَنَّمُ .
فَشَبَّهَتْهُ إِذْ لَاحَ فِي غَسَقِ الدُّجَى * بِأَسْنَانِ زَنْجِيٍّ بَدَتْ تَتَبَسَّمُ .

٣٤

وقال أيضا :

وَالْبَرْقُ يَضْحَكُ كَالْحَبِيبِ وَعِنْدَهُ * رَعْدٌ يُحِشُّ كَالرَّقِيبِ مَقَالَهُ !

وقال آخر :

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ غَدَا مَوْهِنًا * خَفِيَ كَغَمَزِكَ بِالْحَاجِبِ .
كَأَنَّ تَأَلَّفَهُ فِي السَّمَاءِ * يَدَا كَاتِبٍ أَوْ يَدَا حَاسِبٍ .

وقال عبد الله بن المعتز ، يشير إلى سحابة :

رَأَيْتُ فِيهَا بَرْقَهَا مُنْذُ بَدَتْ * كَمَثَلِ طَرْفِ الْعَيْنِ أَوْ قَلْبٍ يُحِبُّ .
ثُمَّ حَدَّثَتْ بِهَا الصَّبَا حَتَّى بَدَا * فِيهَا إِلَى الْبَرْقِ كَأَمْثَالِ الشُّهُبِ .
تَحْسَبُهُ فِيهَا إِذَا مَا أَنْصَدَعَتْ * أَحْشَاؤُهَا عَنْهُ شُجَاعًا يَضْطَرِبُّ .
وَتَارَةً تُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ * أَبْلَقُ مَالِ جُلَّةٍ حِينَ وَثَبُ .
حَتَّى إِذَا مَا رَفَعَ الْيَوْمُ الضُّحَى * حَسِبْتَهُ سَلَاسِلًا مِنَ الذَّهَبِ .

قوله شجاعا يضطرب مأخوذ من قول دُعبل :

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ أَحْرَ اللَّيْلِ مُنْصَبٍ * خَفِيَ كَبُطْنِ الْحَيَّةِ الْمُتَقَلِّبِ .

وقال أيضا :

مَا زِلْتُ أَكْلَأُ بَرْقًا فِي جَوَانِبِهِ * كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ تَحْبُو ثُمَّ تَحْتَطِفُ .
بَرْقٌ تَجَاسَّرَ مِنْ حَفَّانٍ لَامِعِهِ * يَقْضِي اللَّبَانَةَ مِنْ قَلْبِي وَيَنْصَرِفُ .

(هـ) وأما قوس قزح وما قيل فيه . قالوا : وإنما سمي بذلك لتلوّنه .
وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) يكره أن يسميه قوس قُزَحَ ، ويسميه قوس
الله ، ويقول : قُزَحُ اسم الشيطان .

وزعم القدماء في علة تلوّنه وتكوّنه ، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق
عليه نور بعض الكواكب أنصبغ ذلك الجزء ، وأنعطف منه الضوء إلى ما يليه من
الهواء ، كالحمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نورها ، وأنعطف منه ألوان
مختلفة إلى ما يقرب منها . وحمرة وصفرتها من قبل الرطوبة واليبس .

قالوا : وقياس ذلك النار ، فإنها إذا كانت من حطب رطب ، كان لونها أحمر
كدرًا ، فإن كانت من حطب يابس ، كان لونها أصفر صافيا .

وقال آخرون : القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته ، حتى يمكن أن ترسم
فيه دائرة الشمس كما ترسم الأشباح في المرايا ، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار
الرطب فيتولد ، فيكون منها تلك الألوان . وإنما توجد دائرة على الناظر ، لأن الشمس
أبدا تكون في قفاها ، ولذلك تُرى في مقابلة الجهة التي تكون فيها الشمس ، فترى
في المغرب إذا كانت الشمس في المشرق ، وترى في المشرق إذا كانت في المغرب .

وزعم بعض القدماء أن أثر القوس غير حقيق ، وإنما هو تخيل لا وجود له
في نفسه . وقال إن إدراكه على نحو إدراك صورة الإنسان في المرأة من غير أن تكون
منطبعة على الحقيقة فيها ولا قائمة بها . وذلك بحسب غلظ الحس الباصر ، وهو لا يرى
إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل ، إذ ذاك يكون كالمرآة مؤديا للبصر على نحو تأدية
البُور ، إذا جعل وراءه شيء غير مشف . ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده ،

كما لا يكون عن البُور وحده ، ولا عن غير المُشف وحده . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الوأواء، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ بَدَا قَوْسُ الْغَمَامِ بِهِ * وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ وَالْبَرْقُ خَلَّاسُ !
كَأَنَّهُ قَوْسُ رَامٍ وَالْبُرُوقُ لَهُ * رَشَقُ السَّهَامِ وَعَيْنُ الشَّمْسِ بُرْجَاسُ .

(٢٥)

وقال سعيد بن حميد القيرواني، رحمة الله عليه :

أَمَا تَرَى الْقَوْسَ فِي الْغَمَامِ وَقَدْ * تَمَقَّ فِيهِ الْمَوَاءُ نُورًا ؟
حَكِي الطَّوَاوِيسَ وَهِيَ جَاعِلَةٌ * أَذْنَابَهَا لِإِيَّاهِ اسْتَارًا .
أَخْضَرُ فِي أَحْمَرَ عَلَى يَقَقٍ * عَلَى وَشَاحِ السَّحَابِ قَدْ دَارًا .
كَأَنَّمَا الْمُزْنُ وَهِيَ رَاهِبَةٌ * شَدَّتْ عَلَى الْأَفَقِ مِنْهُ زُنَارًا .

وقال ظاهر الدين الحريري . شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أَلَسْتَ تَرَى الْجَوْ مُسْتَعِيرًا * يُضَاحِكُهُ بَرْقُهُ الْخُلْبُ ؟
وَقَدْ بَاتَ مِنْ قُزَحٍ قَوْسُهُ * بَعِيدًا وَتَحْسَبُهُ يَقْرُبُ ؟
كَطَائِفٍ عَقِيقٍ وَفَيْرُوزَجٍ * وَبَيْنَهُمَا آخِرُ مَذْهَبُ .

وقال سيف الدولة بن حمدان، من أبيات :

وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارِفًا * عَلَى الْجَوِّ دُكَّاءَ وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ .
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَصْفَرٍ * عَلَى أَحْمَرَ فِي أَخْضَرٍ وَسَطُ مُبَيِّضٍ .
كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلٍ * مُصْبَغَةٍ، وَبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ .

وقال عبد المحسن الصوري، عفا الله تعالى عنه :

تَأْمَلِ الْجَوَّ تَرَى وَالْيَا * قَدْ وَلِيَ الْعَهْدَ عَلَى السَّحْبِ !
سَارَ، وَقَوْسُ اللَّهِ تَاجٌ لَهُ ، * رَكْضًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ !

الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الأول

١ - فِي أُسْطَقْسِ^(١) الْهَوَاءِ

رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنَّهُ قَالَ : ”الرَّيْحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَعَالَى ،
تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ . فَلَا تَسْبُوْهُمَا ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا ، وَاسْتَغِيثُوا بِاللَّهِ مِنْ
شَرِّهَا“ . أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي سَنَنِهِ .

وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ الرِّيحَ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ : رَحْمَةً
وَعَذَابٍ ، وَيَنْقَسِمُ كُلُّ قَسْمٍ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . وَلِكُلِّ قَسْمٍ أَسْمٌ . فَأَسْمَاءُ أَقْسَامِ قَسْمِ
الرَّحْمَةِ : الْمُبَشِّرَاتُ ، وَالنُّشُرُ ، وَالْمُرْسَلَاتُ ، وَالرُّخَاءُ . وَأَسْمَاءُ أَقْسَامِ قَسْمِ الْعَذَابِ :
الْعَاصِفُ ، وَالْقَاصِفُ (وَهُمَا فِي الْبَحْرِ) ، وَالْعَقِيمُ ، وَالصَّرَصَرُ (وَهُمَا فِي الْبَرِّ) .
وَقَدْ جَاءَ الْقُرَّاءُ بِكُلِّ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ .

٢ - ذَكَرَ مَا قِيلَ فِي حَدِّ الْهَوَاءِ

قَالَ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ أَبُو عَلِيٍّ بْنُ سِينَا فِي حَدِّهِ : الْهَوَاءُ حَرَمٌ بَسِيطٌ ، طَبَاعُهُ أَنْ
يَكُونَ حَارًّا رَطْبًا مَشْفَاً مَتَحَرِّكًا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي تَحْتَ كُرَةِ النَّارِ الَّتِي فَوْقَ كُرَةِ
الْأَرْضِ وَالْمَاءِ .

(١) كَلِمَةٌ مَعْرَبَةٌ عَنِ الْيُونَانِيَّةِ مَعْنَاهَا : الْعَنْصَرُ .

وقال إبقراط : إنَّ تغيير حالات الهواء هو الذى يغير حالات الناس مرة إلى الغضب ، ومرة إلى السكون ، وإلى الهم والسرور ، وغير ذلك . وإذا آستوت حالات الهواء ، آستوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان ، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف الهواء ، إذا برد مرة ، وسخن مرة ، خرج مرة الزرع نضيجا ، ومرة غير نضيج ، ومرة قليلا ، ومرة كثيرا ، ومرة حارًا ، ومرة باردًا ، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم . وإذا آستوى واعتدل الهواء ، خرج الزرع معتدلا ، فأعتدلت بذلك الصور والمزاجات . قال : والعلة فى تشابه التُّرك ، هو أنه لما آستوى هواء بلادهم فى البرد آستوت صورهم وتشابهوا .

وقال : إن الرياح تقلب الحيوان حالا إلى حال ، وتصرفه من حر إلى برد ، ومن يس إلى رطوبة ، ومن سرور إلى حزن ، وإنها تغير ما فى البيوت من أصناف المأكول كالتمر ، والعسل ، والسمن ، والشراب ، فتسخنها مرة ، وتبردها أخرى ، وتصلبها مرة ، وتيسبها مرة . وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها ، وإذا تغير الهواء ، تغير بتغيره كل شيء .

وقال : إن الجنوب إذا هبت ، أذابت الهواء وبرّدتة ، وسخنّت البحار والأنهار . فكل شيء فى رطوبة تغير لونه وحالاته . وهى ترخى الأبدان والعصب ، وتورث الكسل ، وتحدث ثَقَلًا فى الأسماع ، وغشاوة فى الأبصار . وأما الشَّمَال فإنها تصلب الأبدان ، وتصحح الأدمغة ، وتحسن اللون ، وتصفى الحواس ، وتقوى الشهوة والحركة ، غير أنها تهيج السعال ، ووجع الصدر .

وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء : أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق ، تغير الورد ، وتناثر الورق ، وتشقق القنيط ، وتسخن الماء ، وأسترخت الأبدان ، وتكثر الهواء .

وزعم آخرون من القدماء : أن الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمي ريح الصَّبا .

قيل : سميت ريح الصَّبا ، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها . والصَّبو المِيل . وجاء في بعض الآثار : ما بعث نبي إلا والصَّبا معه ، وهي الريح التي سُخِّرَت لاسليمان (عليه السلام) غدوها شهر . أي من أول النهار إلى الزوال . ورواحها شهر ، أي من الزوال إلى المغرب . كان يغدو من تدمر من بلاد الشام فيقيل في إصطخر من بلاد فارس ، ويبيت بكابل من بلاد الهند .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال ” نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهلِكَت عاد بالدَّبور ” .

وإذا تموج من الجنوب إلى الشمال ، سمي ريح الجنوب ، وهي الريح التي أهلك الله عز وجل بها عاداً .

وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في القرن الخامس من كتابنا هذا .

وإذا تموج من الشمال إلى الجنوب ، سمي ريح الشمال .

وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شمالية أخذت إلى الجنوب ، وغربية أخذت إلى المشرق للطف الهواء في هاتين الجهتين ، .

والعرب تُحب الصَّبا لوقتها ، ولأنها تجيء بالسحاب . والمطر فيها والخصب .

وهي عندهم أيمانية .

٣ - ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبي في فقه اللغة :

- إذا وقعت الرياح بين ريحين ، فهي النجاء .
 فإذا وقعت بين الجنوب والصبأ ، فهي الحرْبَاء .
 فإذا هبَّت من جهات مختلفة ، فهي المتناوِحة .
 فإذا كانت لينةً ، فهي الرِّيدَانَةُ .
 فإذا جاءت بنفَسٍ ضعيف وروح ، فهي النَّسيمُ .
 فإذا كان لها حنين كحنين الإبل ، فهي الحَنُونُ .
 فإذا ابتدأت بشدَّة ، فهي العاصف ، والسيَّوج .
 فإذا كانت شديدة ولها زَفْرَفَةٌ وهي الصوت ، فهي الزَّفْرَافَةُ .
 فإذا آسَنت حتى تَقْلَع الخيام ، فهي المَهْجُوم .
 فإذا حرَّكت الأغصان تحريكاً شديداً أو قَلَعَت الأشجار ، فهي الزَّعْزَاع ، والزَّعْزَعَانُ ،
 والزَّعْزَعُ .
 فإذا جاءت بالخصباء ، فهي الخاصِبةُ .
 فإذا دَرَجَتْ حتى ترى لها ذيلاً كالرَّسَن في الرمل ، فهي الدَّرُوج .
 فإذا كانت شديدة المرور ، فهي التَّوُوج .
 فإذا كانت سريعة ، فهي المُجْفِل ، والجافِلَةُ .
 فإذا هبَّت من الأرض كالعمود نحو السماء ، فهي الإِعْصَار .
 فإذا هبَّت بالغبرة ، فهي الهَبْوة .

(١) عبارة الثعالبي . فإذا ابتدأت بشدَّة . فهي النابغة . فإذا كانت شديدة ، فهي العاصف الخ .

- فإذا حَلَّتِ المُوَرَّ وجرَّت الذيل، فهي المَوجاء .
 فإذا كانت باردةً، فهي الحَرْجَف، والصَّرَصَر، والعَرِيَّة .
 فإذا كان مع بَرْدِها نَدَى، فهي البَلِيل .
 فإذا كانت حارةً، فهي الحَرُور، والسَّمُوم .
 ٥ فإذا كانت حارة وأتت من قِبَل اليمَن، فهي الهَيِّف .
 فإذا كانت باردةً شديدة تَحْرِق البيوت، فهي الحَرِيق^(١) .
 فإذا ضُعِفَتْ وجرت فُويَق الأرض، فهي المُسْفِسَفَة .
 فإذا لم تُلقَح شَجَرًا ولم تحمل مطرا، فهي العَقِيم . (وقد نطق بها القرآن) .

٤ — فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

- ١٠ يقال : الرياح الحواشك : المختلفة الشديدة . البوارح : الشمال الحارة في الصيف .
 الأعاصير : التي تهب بالغبار . المعصرات : التي تأتي بالأمطار . المبشرات : التي تهب
 بالسحاب والغيث . السوافي : التي تسفي التراب .

٥ — ذكر ما يُمَثَّل به مما فيه ذكر الهواء

- يقال :
 ١٥ أخَفَّ من النسيم . أسرع من الرِّيح . ريحهما جَنُوب (يضرب للتصافين) . هو ساكن
 الريح (إذا كان حلياً) . قد هبَّت ريحه (إذا قامت دولته) .
 ومن أنصاف الأبيات .

- * إن كنتَ رِيحاً فقد لاقَيْتَ إعصاراً * * وبعضُ القولِ يذهبُ بالرياح *
 * تجرى الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ * * لو كنتَ رِيحاً كانتِ الدُّبُورُ *

(١) في اللسان أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها حُرِقَتْ . أما تَوَا الفاعل بها . ٢٠

ومن الأبيات :

إذا هبَّت رياحُكَ، فأغتنمها. * فإن لكلَّ خافقةٍ سُكُونُ !

وقال آخر :

وكلُّ ريحٍ لها هُبُوبٌ * يوما فلا بدَّ من رُكُودٍ.

وقال آخر :

والريحُ ترجعُ عاصفاً * من بعد ما ابتدأت نسيما.

وقال أبو تمام، عفا الله عنه :

إن الرياح إذا ما أعصفت، قصفت * عيدانَ نَجْدٍ ولم يعبانَ بالريم.

وقال ابن الرومي، رحمة الله عليه :

لا تُطْفِئَنَّ جَوَى بلوِّمٍ إنه * كالريح تُغري النَّارَ بالإحراق .

٦ — ذكر ما جاء في وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتز، رحمة الله عليه :

وتَسِيمُ يُبَشِّرُ الأرضَ بالقَطْرِ كذيلِ الغلالةِ المَبْلُولِ.

ووجوهُ البلادِ تَنْتَظِرُ الغَيْثَ آنتظارَ المحبِّ ردَّ الرسولِ.

وقال ابن الرومي :

حَيْثُكَ عَنَّا شَمَّالٌ طَافَ طائِفُها * تَحْيَاةٌ، بَخَرَتْ رَوْحاً وَرَيْحَانَا.

هَبَّتْ شُخَيْرًا فَنَاجَى الغُصْنُ صاحِبَه * سِرًّا بِهَا، وتنادى الطيرُ إعلانا.

وَرُقٌ تُغْنِي عَلَى خُضِرٍ مُهَدَّلَه * تَسْمُو بِهَا وتَسِمُ الأرضُ أحيانا.

يُحَالُ طَائِرُهَا تَشْوَانٌ مِنْ طَرَبٍ * والغصنُ مِنْ هَزْهِ عِطْفِيهِ تَشْوَانَا.

وقال أيضا :

كَأَنَّ نَسِيمَهَا أَرْجُ الْخُزَامِي * وَلَاهَا بَعْدَ وَسْمِي وَلِي.
هَدِيَّةٌ شِمَالٍ هَبَّتْ بِلِيلٍ * لِأَفْنَانِ الْغُصُونِ بِهَانِي.
إِذَا أَنْفَاسُهَا نَسَمَتْ تُخَيِّرًا * تَنْفَسَ كَالشَّجَى لَهَا انْخَلِي.

وقال آخر :

وَأَنْفَاسٌ كَأَنْفَاسِ الْخُزَامِي * قَبِيلَ الصُّبْحِ بَلَّتْهَا السَّمَاءُ.
تَنْفَسَ نَشْرُهَا تَحَرًّا بِخَاءَتْ * بِهِ تَحَرِّيَّةَ الْمَسْرَى رُخَاءُ.

وقال إسحاق الموصلي :

يَا حَبْدًا رِيحُ الْجَنُوبِ إِذَا جَرَتْ * فِي الصُّبْحِ وَهِيَ ضَعِيفَةُ الْأَنْفَاسِ !
قَدْ حُمِلَتْ بَرْدَ النَّدَى وَتَحَلَّتْ * عَبَقًا مِنْ الْجَنَاجَاتِ وَالْبَسْبَاسِ !^(١)

(١) في الأصل بالإهمال وهو من إهمال النسخ . فقد ورد في مادة (ج ث ث) من لسان العرب :
« الجنجاث شجر أصفر مُرٌ طيب الريح تستطيه العرب وتكثر ذكره في أشعارها » . وقال أبو حنيفة
الدينوري إنه من أحرار الشجر وهو أخضر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء كأنها زهرة العرقة طيبة
الريح . وقال ابن البيطار : أول ما رأيته بساحل نيل مصر في أعلاده في صحاريه بمقربة من ضيعة
هناك ، تسمى شاهورة ، وهي على طريق الطرانة . وقال داود في تذكروته إنه يسمى باليونانية
نرديسبون .

(٢) في اللسان : « البسباس نبات طيب الريح » . وهو المعروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي « الراز يانج »
وبهذا الاسم كان يعرف في الأندلس والمغرب ولا يزال معروفًا به إلى اليوم في قطر الجزائر واسمه
السرياني « برهايا » ويعرف في مصر والشام باسم « الثمار » ومنه نوع برى ينبت بالقيروان ويسميه
أهلها « قزاج » .

وقال آخر :

إذا خلا الجو من هواء ، * فعيثهم غمة وبؤس .
فهو حياة لكل حي ، * كأن أنفاسه نفوس .

وقال ابن سعيد الأندلسي :

الريح أقود ما يكون لأنها * تبدى خفايا الردف والأعكان^(١) .
وتمثل الأغصان بعد علوها * حتى تمبل أوجه الغدران .
وكذلك العشاق يتخذونها * رسلا إلى الأحباب والأوطان .

وقال آخر :

أيا جبال نعان بالله خليا * سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها .
أجد بردها أو تشفى منى حرارة * على كيد لم يبق إلا صميمها .
فإن الصبا ريح إذا ما تنفست * على كيد حراء ، قلت همومها .

وقال ابن هتيميل اليمنى :

هبت لنا سحرا . والصبح ملثم . * والليل قد غاب فيه الشيب والمهرم .
سقيمة من بنات الشرق أضعفها * عن قوة السير ، لما هبت ، السقم .
فبلغت بلسان الحال قائلة * ما لم يبلغه يوما إلى فم ،
سرا لغانية تسرى إلى به * من النسيم رسول ليس يتهم .
أصافح الريح إجلالا لما حملت * إلى من ريح برديها وأستلم .

(١) واحده عكنة بالضم ، وهي ما تلتى من لحم البطن سينا .

الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الأول

١ - في أسطقس النار وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران

حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض
وجج، نزل جبل أبي قبيس. فأنزل الله إليه مَرَّحَتَيْنِ من السماء، فحك إحداهما بالأخرى
فأورياً نارا. فلهذا سمي الجبل بأبي قبيس . .

ويدل على أن النار من الشجر، قوله عز وجل : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ .

والعرب تقول: "في كل شجر نار، وأستجد المَرُخ والعفار". لأنهما أسرع اقتداحا .
قال الله عز وجل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ .
وقال أصحاب الكلام في الطبائع : إن الله عز وجل جمع في النار الحركة،
والحرارة، واليبوسة، واللطافة، والنور . وهي تفعل بكل صورة من هذه الصور
خلاف ما تفعل بالأخرى .

فبالحركة تعلى الأجسام، وبالحرارة تسخن، وباليبوسة تجفف، وباللطافة تنفذ،
وبالنور تضيء ما حولها .

(١) أنظر في كتاب الحيوان للملاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار . وهي مما يجب الوقوف عليه
والإحاطة به من الوجهة العلمية والفلسفية . أما من حيث اللغة والأدب فيراجع ما ورد في كتاب
« سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » للنفثاني باختصار صاحب لسان العرب . وهو موجود
بالمكتبة المصرية في « دار الكتب المصرية » ومحل الشاهد هو الباب الثامن من ص ٣٩١ إلى ص ٢٣٤

ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان . فلا يحتاج إليها شيء سواه ،
وليس به عنها غنى في حال من الأحوال .
ولهذا عظمتها المجوس^(١) ، وقالوا : إذ أفردتنا بنفعها ، فنمرددها بتعظيمها . على أنهم
يعظمون جميع ما فيه منفعة على العباد ، فلا يدفنون موتاهم في الأرض ، ولا
يستنجون في الأنهار .

٢ — ذكر أسماء النار

(وأحوالها في معالجتها وترتيبها)

أما أسمائها ، فمنها :

النار ، والصَّلاء ، والسَّكن ، والضَّرمَةُ ، والحرق ، والحمدَةُ (وهو صوتُ آلتهاها) ،
والخدمَةُ ، والجحيم ، والسَّعير ، والوَحى .

وأما تفصيل أحوالها ومعالجتها وترتيبها ، فقد قال الثعالبي في فقه اللغة :

إذا لم يُخرج الزُّندُ النارَ عند التَّدح . قيل : كَجَا يَكْبُو .

فإذا صَوَّت ولم يخرج . قيل : صَلَدَ يَصْلِدُ .

فإذا أخرج النار . قيل : وَرَى يَرَى .

فإذا ألقى الإنسان عليها ما يحفظها ويُدَكِّمها ، تقول : شَيَعْتَهَا وَأَثَقَبْتُهَا .

فإذا عالجها لتلتهم^(٢) ، قال : حَضَّأْتُهَا وَأَرْتُهَا .

فإذا جعل لها مَدْهَبًا تحت القدر ، قال : سَخَّوْتُهَا .

(١) guébres. mages. عند الفرنسيين . والمجوس لفظ مشتق من "موغ" و "مغ" ومعناه النور في اللغة الطورانية .

(٢) في فقه الثعالبي : وَأَرَشْتُهَا بالشَّيْنِ وعِبَارَةُ القَامُوسِ في مادة (ارش) وتَارِيشُ النار تَأْرِيشُهَا .

فإذا زاد في إيقادها وإشعالها، قال : أَجَّثَهَا .

فإذا آسَتْ تَأَجَّجَهَا ، فهي جاحمة ^(١) .

فإذا طَفِئَتِ البتَّةُ ، فهي هامدةٌ .

فإذا صارت رمادا ، فهي هابيةٌ .

والله تعالى أعلم .

٣ - ذكر عباد النار

(وسبب عبادتها وبيوت النيران)

§ أول من عبد النار قابيلُ بنُ آدم .

وذلك أنه لما قتل أخاه هابيلَ هرب من أبيه إلى اليمن ، فجاءه إبليس لعنه الله ، وقال له : إنما قيلُ قُربانُ هابيلَ وأكلته النارُ لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فأنصب أنت أيضا نارا تكون لك ولِعقبِكَ ، فبنى بيت نار .
فهو أول من نصب النار وعبدها .

§ وأول من عظمها من ملوك الفرس ، جم . وهو أحد ملوك الفرس الأول ، عظمها ودعا الناس إلى تعظيمها ، وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب . لأن النور عنده أفضل من الظلمة .

§ ثم عُبِدَت النار بالعراق ، وأرض فارس ، وكرمان ، وسجستان ، وخراسان ، وطبرستان ، والجلال ، وأذربيجان ، وأران ، وفي بلاد الهند ، والسند ، والصين .

(١) عبارة فقه اللغة بعده : (فإذا سكن لها ولم يُطفأ حرها فهي خامدة) وبعده فإذا طَفِئَتِ البتة الخ

§ ونُبَيَّ في جميع هذه الأماكن بيوت للنيران ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى .

§ ثم انقطعت عبادة النيران من أكثر هذه الأماكن إلا الهند . فإنهم يعبدونها إلى يومنا هذا . وهم طائفة تدعى الإكنواطرية ^(١) . زعموا أن النار أعظم العناصر حرماً ، وأوسعها حيزاً ، وأعلىها مكاناً ، وأشرفها جوهرًا ، وأنورها ضياءً وإشراقاً ، وألطفها جسمًا ، ويكاتبها وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع ، ولا نور في العالم إلا بها ، ولا نمو ولا انعقاد إلا بمزاجتها .

وعبادتهم لها أن يحفروا أخدوداً مربعاً في الأرض ويحشوا النار فيه ، ثم لا يدعون طعاماً لذيذاً ، ولا شراباً لطيفاً ، ولا ثوباً فاخراً ، ولا عطرًا فائحاً . ولا جوهرًا نفيساً ، إلا طرحوه فيها : تقرباً إليها ، وتبركاً بها . وحترموا إلقاء النفوس فيها ، وإحراق الأبدان بها ، خلافاً للجماعة أخرى من زهاد الهند .

§ وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها . يعظمون النار لجوهرها تعظيماً بالغاً ، ويقدمونها على الموجودات كلها .

§ ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صاغين ، يستنون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس صدر عن صدر مجرم . وسنتهم الحث على الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضدادها ، وهي : الكذب ، والحسد ، والحقد ، والكفاح ، والحرص ، والبغى ، والبطر . فإذا تجرد الإنسان عنها ، تقرب من النار .

(١) أفادنا المترجم الألماني لكتاب الملل والنحل أن هذه الكلمة مأخوذة من "أجنيترا" وهي النار

المقدسة (أي التي تتأجج إكراماً للإله أجنى .)

٤ — وأما بيوت النيران

(ومن رسمها من ملوك الفرس)

قال المسعودي :

§ أقول من حكي ذلك عنه أفريدون الملك . وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، [وهم] معتكفون على عبادتها . [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها . فأخبروه بأشياء آجئتبت نفسه إلى عبادتها] ^(١) وأنها واسطة بين الله تعالى وبين خلقه . وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكرها له . وجعلوا للنور مراتب وقوانين [وفرقوا بين طبع النار والنور] وزعموا أن الحيوان يحتذبه النور ، فيحرق نفسه : كالقراش الطائر بالليل فما لطف جسمه ، يطرح نفسه في السراج فيحرقها . وغير ذلك مما يقع في صيد الليل من الغزلان ، والوحش ، والطير ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج في الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة في الليل ، فإنهم يجعلون السراج حوالى المركب ، فيثب السمك من الماء إليها . وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك .

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى نخراسان ، فحملت . فاتخذ لها بيتا بطوس . [وآخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة] ^(٢) . وبيتا آخر بسجستان كواكر ، كان آخذ بهمن بن إسفنديار بن يستاسف بن يهراسف .

(١) الزيادة عن المسعودي .

(٢) سماء الشهرستاني : "قبازان" (ص ١٩٧) .

(٣) سماء الشهرستاني : "كركرا" (ص ١٩٧) .

§ وبيت آخر ببلاد الشير و الرآن . كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان ، وقيل إنه صادف هذا البيت ، وفيه نار معظمة فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة .

§ وبيت آخر للنار يقال له كوسجة^(١) : بناه كيخسرو الملك .

§ وقد كان بقومس بيت نار معظم لا يدرى من بناه ، يقال له حريش^(٢) . ويقال إن الإسكندر لما غاب عليها ، تركها ولم يطفئها .

§ وبيت نار آخر يسمى كنگدز . بناه سياوش بن كاوس الجبار ، وذلك في زمن لبثه بشرق الصين مما يلي البركة .

§ وبيت نار بمدينة أرجان من أرض فارس ، بناه قمار .

§ وبيت بأرض فارس آتخذ في أيام يهراسف^(٣) .

§ فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت .

§ ثم آتخذ زرادشت بعد ذلك بيوتا لايران . فكان مما آتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان . وبيت بمدينة نسا والبيضاء من أرض فارس . وقد كان زرادشت أمر يستأسف الملك بطاب نار كان يعظمها^(٤) جم فطلبت ، فوجدت بمدينة خوارزم . فنقلها يستأسف إلى مدينة دارايجورد من أرض فارس والمجوس تعظم هذه النار مالا تعظم غيرها من النيران والبيوت وللفرس بيت نار

(١) سماء الشهرستاني : "تكملة" (ص ١٩٧) .

(٢) سماء الشهرستاني : "بجريد" (ص ١٩٧) .

(٣) هو هراسب .

(٤) في الشهرستاني : كشتاسف .

(٥) هو الملك جمشيد .

بإصطخر فارس، يعظمه المجوس . كان في قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن آسپنديار وجعلته بيت نار . ثم نقلت عنه النار فخرّب ... وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم آتخذ دارا بن دارا . وفي مدينة جور من أرض فارس ... بيت بناء أردشير بن بابك ... وقد كان أردشير بنى بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس . وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناء سابور الجنود آبن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية . ولم يزل هذا البيت إلى خلافة المهدي . وكان سابور أشرط على الروم بقاء هذا البيت ... و بأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام . بنته بوران بنت كسرى أبرويز، الملكة ، بالموضع المعروف ^(٢) بأسنبا . وبيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس . والذي ذكرناه هو المشهور منها ^(٣) .

٥ - ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا .

١ - نار المزدلفة . توقد حتى يراها من دفع من عرفة . وأول من أوقدها قصى بن كلاب .

٢ - نار الأستسقاء . كانت الجاهلية الأولى، إذا نتابعت عليهم الأزومات ، وأشتد الجذب، واحتاجوا إلى الأمطار . يجمعون لها بقراً . معالقة في أذناها وعراقيها

(١) في الشهرستاني : توران .

(٢) في المسعودي : استنبا . وفي الشهرستاني : إسفينا .

(٣) هذا الباب كله منقول عن مروج الذهب (أنظر طبعة باريس ج ٤ ص ٧٢ - ٨٦) .

السَّلْعُ^(١) والعُشْرُ^(٢)، ويصعدون بها إلى جبلٍ وعَرٍ، ويشعلون فيها النار، ويَضْجُونَ بالدعاء والتضرع. وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث^(٣). وفي ذلك يقول الوديك الطائي :

لَادَرَّ دَرَّ رَجَالٍ خَابَ سَعْيُهُمْ * يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ بِالْعُشْرِ!
أَجَاعِلُ أَتْ بَيْثُورًا مُسَلَّعَةً * ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ؟
وقال أمية بن أبي الصلت :

وَيَسُوقُونَ بِاقْرِ السَّهْلِ لِلطَّو * دِ مَهَازِيلَ حَشِيَّةً أَنْ تَبُورًا.
عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي بَكْرِ الْأَذ * نَابٍ مِنْهَا، لِيَكِي تَهْبِجَ النَّحُورًا.
سَلْعٌ مَا وَمِثْلُهُ عُشْرٌ مَا * عَائِلٌ مَا وَعَالَتِ الْبَيْثُورًا.

٣ — نار الزائر والمسافر . ويسمونها نار الطرد . وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص ، أوقدوا خاتمه نارا ودعوا عليه . ويقولون في الدعاء : أبعده الله وأبْحَقْه ! وأوقدوا نارا إثره . قال الشاعر :

وَجَهَّةٌ قَوْمٍ قَدْ أَتَوْكَ وَلَمْ تَكُنْ * لِتُوقِدَ نَارًا خَلْفَهَا لِلتَّنْدِمِ .

(١) قال العلامة الدكتور أوغست هفتر الألماني والأب المحقق الفاضل لويس شيخو اليسوعي في حاشية صفحة ٣٦ من كتاب النبات والشجر للأصمعي الذي عنيا بتحقيقه وطبعه في بيروت سنة ١٩٠٨ ، مانصه : السَّلْعُ نبات . وقيل شجر مر . وقيل أنه سم . له ورقة صغيرة شاكّة كأن شوكتها زغب . وهو بقلة تنفرش كأنها راحة الكلب .

(٢) قال الفاضلان المذكوران في ذلك الموضع أيضا مانصه : ” قيل إن العشر من كبار شجر العضاء وهو ذو صمغ حلو وحرّاق مثل القطن . يتمدح به . وهو عريض الورق . يخرج من شعبه ومواقع زهره سكر فيه شئ ، من المرارة يقال له سكر العشر . ويخرج له نفاخ كشفاشق الجبال . وله نور كالديفلى ، مشرق حسن النظر . وله ثمر : L. Aselepias gigantea, Le., Aselepiade: Forsk., Calotropis procera: Forsk. ”

(٣) أما الإفريخ والأمر فكان في هذا العصر فإنهم يستنزلون الغيث باطلاق المذافع لاحداث الدوى والضجيج والالتهاب في الجو .

- والجمّة : الجماعة يمشون في الدم ، وفي الصلح . ومعنى هذا البيت : لم تتدم على ما أعطيت في الجمالة عند كلام الجماعة ، فتوقد خلفهم نارا كي لا يعودوا .
- ٤ — نار التحالف . كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عليها ، فيذكرون منافعتها ، ويدعون الله بالحُرمان والمنع من منافعتها على الذي ينقض العهد ، ويطرحون فيها الكبريت والملح . فإذا فرقت هؤل على الخالف . قال الكميّ :
- ٥ هُمُ خَوْفُونِي بِالْعَمَى هَوَّةَ الرَّدَى * كَمَا شَبَّ نَارَ الْحَالِفِينَ الْمُهَوَّلُ .
وقال أوس بن حجر :
- إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ ، صَدَّ بِوَجْهِهِ * كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمُهَوَّلِ حَالِفٌ .
- ٥ — نار الغدر . كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره ، أوقدوا له نارا بمنى ، أيام الحج على الأخشب (وهو الجبل المطل على منى) . ثم صاحوا : هذه غدر فلان .
- ١٠ قالت امرأة من هاشم :
- فَإِنْ نَهَلِكُ فَلَمْ نَعْرِفْ عُنُقُوقًا * وَلَمْ تُوقَدْ لَنَا بِالْغَدْرِ نَارُ .
- ٦ — نار السلامة . وهي نار توقد للقادم من سفره ، إذا قدم بالسلامة والغنيمة . قال الشاعر :
- يَا سُلَيْمِي أَوْقِدِي النَّارَ * إِنَّ مَنْ تَهْوِينَ قَدْ زَارَا .
- ١٥ ٧ — نار الحرب . وتسمى نار الأهبة والإنذار . توقد على يفاع ، فتكون إعلاما لمن بعد . قال ابن الرومي :
- لَهُ نَارَانِ : نَارُ قَرَى وَحَرْبٍ . * تَرَى كَلِمَتَيْهِمَا ذَاتَ آتِهَابٍ .
- ٨ — نار الصيد . يوقدون بها اصيد الطباء ، لتعشى أبصارها .

٩ — نار الأسد . كانت العرب توقدها إذا خافوه ، فإن الأسد إذا عاين النار حذق إليها وتأقلمها .

١٠ — نار السليم . توقد للدوغ ، والمجروح ، ومن عضه الكلب الكلب حتى لا يناموا فيشتد بهم الألم . قال النابغة :

يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ النَّارِ سَلِيمُهَا * لِحُلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ .

٥

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حلّ النساء ويتركونه سبعة أيام .

١١ — نار الفداء . وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبّوا قبيلة وخرجت إليهم السادات في الفداء وفي الاستيهاب ، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن .
وأما في الظلمة فيخفي قدر ما يحبسون من الصنفى لأنفسهم . وقدر ما يجودون به ، وما يأخذون عليه الفداء . فيوقدون لذلك النار . قال الشاعر :

١٠

نِسَاءُ بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أَوَارَةٍ * عَلَى النَّارِ إِذْ تُجْلَى لَهُ فَتَيَاتُهَا .

١٢ — نار الوسم . كانوا يقولون للرجل : ما نارك ؟ (في الاستخبار عن الإبل)
أو ما سمّتك ؟ [فيقول] : حياط ، أو علاط ، أو حلقة ، أو كذا ، أو كذا .

حكى أن بعض اللصوص قرب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتى إلى بعض الأسواق . فقال له بعض التجار : ما نارك ؟ وإنما سأله عن ذلك ، لأنهم كانوا يعرفون ويتم كل قوم بكرم إبلهم من لؤمها . فقال :

١٤

تَسْأَلُنِي الْبَاعَةَ : مَا نِجَارُهَا ، * إِذْ زَعَزَعُوهَا فَسَمَتْ أَبْصَارُهَا ؟
وَكُلُّ دَارٍ لِأَنْاسٍ دَارُهَا ! * وَكُلُّ نَارٍ الْعَالَمِينَ نَارُهَا !^(١)

(١) يقول العرب في أمثالهم : " كل نجار إبل نجارها " وشرطه الثاني " ونار إبل العالمين نارها " بضم يون

المثل للخلط الذي فيه كل لون من الأخلاق وليس له رأى يشبه عليه .

١٣ — نار القرى . وهي من أعظم مفاسخ العرب . كانوا يوقدون فيها في ليالي الشتاء ، ويرفعونها لمن يلمس القرى . فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع ، كان أنحر . وهم يتمادحون بها ، قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بِكُلِّ وادٍ * إذا النيرانُ ألبستِ القنعا .

وقال إبراهيم بن هرمة :

إذا ضلَّ عنهم ضيفُهم ، رَفَعُوا له * من النار في الظلِّماء أُلويةً حُمرا .

١٤ — وكانت للعرب نار عظيمة تسمى نار الحرّتين . وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسي . وكانت حرّة ببلاد عبس ، تسمى حرّة الحدثان .

- ١٥ روى عن ابن الكلبي أنه قال : كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، لا تمر بشيء إلا أحرقتة . وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً فخرج بهم نحوها ، ومعه درة حتى انتهى إلى طرفها ، وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير فأحاط بهم ، فقالوا : هلكت والله أشياخ بني عبس آحر الدهر ! فقال خالد كلاً ! وجعل يضرب ذلك العنق بالدرّة ويقول : ” بدءاً بدءاً ، كلّ هدي الله يؤدّي ! أنا عبد الله خالد بن سنان ! “ فما زال يضربه حتى رجع ، وهو يتبعه والقوم معه كأنه تُعبانٌ يملك حجارة الحرّة حتى انتهى إلى قليب ، فأنساب فيه وتقدم عليه ، فمكث طويلاً . فقال ابن عم خالد ، يقال له عروة بن شب : لا أرى خالدًا يخرج إليكم أبدا ! فخرج ينطف عرقاً ، وهو يقول : زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج . فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن .

وفي هذه النار يقول الشاعر :

نكار الحرّتين لها زفيرٌ * يُصمُّ مَسامِعَ الرجل السميع .

٦ - ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية . فمنها :

§ نار البرق . وقد وصفها بعض الأعراب فقال :

نَارُ نَجْدٍ لِلْعِيدَانِ نَضْرَتَهَا * وَالنَّارُ تُشْعِلُ عِيدَانًا فَتَحْتَرِقُ

إشارة إلى أن النار تُحْرِقُ العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث .

§ نار المَعِدَةِ . وهي التي تهضم الطعام، وهي كخار الحياة، ونار الغريزة، وقوتها مادة للصحة، كما أن ضعفها سبب للعدة .

§ نار الحمى . وقد قيل : النيران ثلاثة : نار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار الآخرة، ونار تأكل وتشرب، وهي نار الحمى، تأكل اللحم وتشرب الدم، ونار تأكل ولا تشرب، وهي نار الدنيا .

ومن النيران المجازية :

§ نار الشوق، نار الشره، نار الشباب، نار الشراب .

قال شاعر يمدح بعض الملوك :

وَقِيَتْ نَارَ الْجَحِيمِ يَا مَلِكُ، * أَرْبَعُ نِيرانِهِ لَهُ نَسَقُ !

نَارُ شَبَابٍ تَرُوقُ نَضْرَتُهَا، * وَنَارُ رَاحٍ كَأَنَّهُ شَفَقُ،

وَنَارُ سُلْطَانِهِ، تَقَارِبُهَا * نَارُ قَرَى لَا تَرَالُ تَأْتَلَقُ،

٧ - ذكر النيران التى يضرب المثل بها

يُضْرَبُ المثل :

§ بنار الحُبَّاحِبِ . وهى نار لبخيل كان يوقدها . فإذا آستضاء بها إنسان . أطفأها .

وقيل : إنها النار التى تُورِيها الخيل بسنابكها من الحجارة . قال الله تعالى : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ . وقال النابغة :

❖ وَيُوقِدْنَ بِالصَّفَّاحِ نَارَ الحُبَّاحِبِ ❖

وهذا المثل يضرب لما لا منفعة فيه ولا حاصل له .

§ نار الغَضَى . يضرب بها المثل فى الحرارة . وهى جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود .

§ نار العَرْفَجِ . هى نار تنقد سريعا . قال قتيبة بن مسلم لعمر بن عباد بن الحصين :
”لَسَوْدُ أَسْرَعَ إِلَيْكَ مِنَ النَّارِ فِي بَيْسِ الْعَرْفَجِ“ . إذا أَلْتَهَبَتْ فِيهِ النَّارُ آتَتْشَرْتَ ١٠

وتسمى نار الزُّحْفَتَيْنِ ، لأن العَرْفَجَ إذا آتَتْشَرَتْ فِيهِ النَّارُ عَظُمَتْ وَآسْتَفَاضَتْ .
فمن كان بالقرب منها زحف عنها ، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها . فيحتاج الذى
زحف عنها أن يزحف إليها . فلا يزال المصطفى بها كذلك ، فلذلك سميت نار الزحفتين .

§ نار الحَلْفَاءِ . يضرب بها المثل فى سرعة الانتقاد ، كما قيل :

فما ظَنُّكَ بِالْحَلْفَاءِ ❖ أَدْنَيْتَ لَهُ نَارًا .

١٥

وفى سرعة الانطفاء ، كما قيل : نار الحَلْفَاءِ ، سريعة الانطفاء .

٨ — ذكر ما جاء منها على لفظ أفعل

يقال :

آكل من النار؛ أحر من النار؛ أحر من الجمر؛ أحسن من النار؛ أسرع من شرارة في قصباء .

ويقال :

فلان وارى الزناد؛ ورئت بك زنادى؛ فلان ثاقب الزناد؛ فلان كاي الزناد؛ صلدت زناده؛ فلان ما يضطلى بناره؛ هو القابس العجلان؛ هما زندان في وعاء .

ومن أنصاف الأبيات :

* والنار قد يُجْهِدُهَا النَّافُ * * كَلْتَمِسِ إِطْفَاءَ نَارٍ بِنَافٍ *

* والجمر يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَيَحْمَدُ * * كَذَا كُلُّ نَارٍ رُوْحَتْ تَتَوَجَّجُ *

* هيهات تُكْتَمُ فِي الظَّلامِ مَسْأَلُ *

ومن الأبيات قول علي بن الجهم :

وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَكْنُونَةٌ * لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُثْرَها الْأَزْنَدُ

وقال آخر :

وَالنَّارُ بِالماءِ الَّذِي هُوَ ضَرْبُهَا * تُعْطَى النَّضَاجُ، وَطَبْعُهَا الإِحْرَاقُ .

وقال آخر :

وَالكَاتِمُ الْأَمْرِ لَيْسَ يَخْفَى * كَالْمَوْقِدِ النَّارِ بِالْيَفَاحِ .

وقال آخر :

لَا تَنْتَبِعْ كُلُّ دُخَانٍ تَرَى، * فَالنَّارُ قَدْ تُوقَدُ لِلْمَكَى .

وقال أبو تمام :

لولا أَشْتَبَعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ، * مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ .

وقال آخر :

وَفَتِيلَةُ الْمَصْبَاحِ تُحْرِقُ نَفْسَهَا * وَتُضِيءُ السَّارَى ، وَأَنْتَ كَذَا كَا .

٩ — ذكر ما قيل في وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتز، غفر الله له :

كَأَنَّ الشَّرَارَ عَلَى نَارِهَا * وَقَدْ رَأَى مِنْظَرَهَا كُلَّ عَيْنِ .

سُحَالَةُ تَبْرِ إِذَا مَا عَمَلَا ، * فَأَمَّا هَوَى فَفَتَاتُ الْجُحَيْنِ .

أخذه العسكري فقال :

أَوْقَدْتَ بَعْدَ الْهُدُوءِ نَارًا * لَهَا عَلَى الطَّارِقِينَ عَيْنُ .

شَرَارُهَا إِنْ عَلَا نُضَارُ ، * لَكِنَّهُ إِنْ هَوَى جُلَيْنُ .

وقال السري الرفاء :

وَالْتَهَبَتْ نَارُنَا، فَمَنْظَرُهَا * يُغْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ .

إِذَا رَمَتْ بِالشَّرَارِ فَاطْرَدَتْ * عَلَى دُرَاهَا مَطَارِدُ اللَّهَبِ ،

رَأَيْتَ يَاقُوْتَةَ مُشَبَّكَةً * تَطِيرُ عَنْهَا قُرَاضَةُ الذَّهَبِ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

حَمْرَاءُ نَازَعَتِ الرِّيَّاحَ رِدَاءَهَا * وَهَنًا وَزَاحَمَتِ السَّمَاءَ بِمَنْكِبِ .

ضَرَبَتْ سَمَاءً مِنْ دُخَانٍ فَوْقَهَا ، * لَمْ تَدْرِ مِنْهَا شُعْلَةٌ مِنْ كَوْكَبِ .

وَتَتَفَحَّتْ عَنْ كُلِّ تَفْحَةٍ جَمْرَةٌ * بَاتَتْ لَهَا رِيحُ الشَّمَالِ بِمَرْقَبِ .

قَدْ أُلْهِبَتْ فَتَذْهَبَتْ فَكَأَنَّمَا * شَقْرَاءُ تَمْرُحُ فِي عَجَاجِ أَكْهَبِ^(١) .

(١) الكهبة لون ليس بخالص في الحجرة . وهو في الحجرة خاصة (صحاح الجوهري) .

وقال أبو الفتح كُشَّاجِمُ :

كأَنَّمَا النَّارُ وَالرَّمَادُ وَقَدْ * كَادَ يُوَارِي مِنْ نُورِهَا النُّورَا :
وَرَدَّ جَنَى الْقَطَافِ أَحْمَرُ قَدْ * ذَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَكْثَفُ كَافُورَا .

وقال تاج الملوك بن أيوب :

أَمَّا تَرَى النَّارَ وَهِيَ تُضَرِّمُ فِي * أَحْشَاءِ كَانُونِهَا وَتَلْتَمِبُ ؟
كَأَنَّمَا النَّحْمُ فَوْقَهَا قُضِبَ * مِنْ عَنَبٍ وَهِيَ تَحْتَهُ ذَهَبُ .

وقال أبو مروان بن أبي الحِصَال :

لَأَبْنَةُ الزَّيْدِ فِي الْكَوَانِينِ جَمْرٌ * كَالدَّرَارِيِّ فِي دُجَى الظُّلَمَاءِ .
خَبَّرُونِي عَنْهَا وَلَا تَكْتُمُونِي ، * أَلَدَيْهَا صِنَاعَةُ الْكِيمِيَاءِ ؟
سَبَكْتَ حُمَمَهَا صَفَائِحَ ثَبَرٍ * رَصَعَتْهَا بِالنِّمَضَةِ الْبِيضَاءِ .
كَلَّمَا رَفَرَفَ النَّسِيمُ عَلَيْهَا * رَقَصَتْ فِي غِلَالَةِ حُمْرَاءِ .

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجي :

وَكَأَنَّهَا وَالرَّيْحُ عَابِثَةٌ بِهَا * تُزْهِى قَرَقُصٌ فِي قَمِيصِ أَحْمَرِ .

وقال أبو هلال العسكري :

نَارٌ تَلْعَبُ بِالسُّمُوفِ كَأَنَّهَا * حُلَّتْ مُشَقَّقَةً عَلَى حُبْشَانِ .
رَدَّتْ عَلَيْهَا الرِّيحُ فَضَلَّ دُخَانُهَا * فَأَتَتْ بِهِ سُبُجًا عَلَى عَقِيَانِ .
فَالْحَوْثُ يَضْحَكُ فِي آبِيضَاضِ شَرَائِرٍ * مِنْهَا وَيَعْيِسُ فِي أَسْوَدَادِ دَخَانِ .

وقال ابن أبي الحِصَال :

﴿٤٣﴾

وَعُوجُوا عَلَى يَاقُوتَةٍ ذَهَبِيَّةٍ * يَهِيمُ بِهَا الْمَقْرُورُ بِالسَّيَرَاتِ^(١).
إِذَا مَا أَرْتَمْتَ مِنْ خَمِيمِهَا شَرَارَهَا * رَأَيْتَ نُجُومَ اللَّيْلِ مُنْكَدِرَاتٍ.

وقال سيف الدولة بن حمدان :

كَأَنَّمَا النَّارُ وَالرَّمَادُ مَعَا * وَضَوْءُهَا فِي ظِلَامِهِ يُحْجَبُ :
وَجَنَّةٌ عَذْرَاءٌ مَسَهَا تَحْجَلُّ * فَاسْتَتَرَتْ تَحْتَ عَنَبٍ أَشْهَبَ .

وقال آخر :

فَحُمُ كَيَوْمِ الْفِرَاقِ تُشْعِلُهُ * نَارُ كَارِ الْفِرَاقِ فِي الْكَدِ .
أَسْوَدُ قَدْ صَارَتْ تَحْتَ حُمْرَتِهَا * مِثْلَ الْعُيُونِ أَكْتَحَنَ بِالرَّمَدِ .

وقال أبو طالب المأموني :

مَا تَرَى النَّارَ كَيْفَ أَسْقَمَهَا الْقُرُفُ فَأُضْحَتْ تَخْبُو وَطَوْرًا تَسْعَرُ ؟
وَعَدَا الْجَمْرُ وَالرَّمَادُ عَلَيْهِ * فِي قَيْصٍ مُدْهَبٍ وَمُعْنَبَرٍ ؟

وقال أبو فراس الحمداني :

لِلَّهِ بَرْدٌ مَا أَشَدَّ وَمَنْظَرٌ مَا كَانَ أَجْجَبُ !
جَاءَ الْغَلَامُ بِنَارِهِ * هَوَجَاءَ فِي خَمٍّ تَلَهَّبُ .
فَكَأَنَّمَا جَمَعَ الْحُلَى * فَمُحْرَقٌ مِنْهُ وَمُدْهَبُ .
ثُمَّ أَنْطَفَتْ فَكَأَنَّمَا * مَا بَيْنَنَا نَدٌّ مُعْشَبُ .

(١) السَّيَرَةُ : الغداة الباردة .

١٠ — ذكر شيء مما قيل في الشمعة والشمعدان
(والسراج والقنديل)^(١)

١ — أما الشمعة، فمن جيد ما قيل فيها قول الأرجاني :

- تمت بأسرار ليسل كان يُخفيها * وأطلعت قلباً للناس من فيها .
قلب لها لم يرعنا وهو مكتوم * إلا برقية نار من تراقيها .
سقيمة لم يزل طول اللسان لها * في الحى ينجى عليها ضرب هاديها .
غريقة في دموع ، وهي تُحرقها * أنفاسها بدوام من تالفيها .
تنفست نفس المهجور إذ ذكرت * عهد الخليط فبات الوجد يبيها .
يُخشى عليها الردى مهما ألم بها * نسيم ريح إذا وافى يحياها .
بدت كنجم هوى في إثر غفيرة * في الأرض فاشتعلت منه نواصياها .
نجم رأى الأرض أولى أن ييؤأها * من السماء ، فأمسى طوع أهليها .
كأنها غرة قد سال شادخها * في وجه دهاء يرهها تجليها .
أوضرة خلقت للشمس حاسدة * فكلمها حجب ، قامت تحاكيها .
وحيدة كشابة الرشح هازمة * عساكر الليل إن حلت بواديها .
ما طنبت قط في أرض مخيمة * إلا وأقبر للأبصار داجيها .

(١) مما يجب التنبيه إليه ان "سورج" و "سرج" معناهما الشمس في اللغة الهندية عن السنسكريتية (أنظر القاموس الهندى الانكليزى تأليف فوربس) .

(٢) في اللغة اللاتينية Candella وفي الفرنسية Chandelle بمعنى الشمعة وعنها Candélabre .

و يقول علماء الافرنج ان اختراع الشمع للاستضاءة مما توصل اليه الغاليون وعلى ذلك يكون الأصل افرنجياً ثم نقله العرب لمعنى المصباح المعروف بالقنديل .

لَهَا غَرَائِبُ تَبْدُو مِنْ مَحَاسِنِهَا ، * إِذَا تَفَكَّرْتَ يَوْمًا فِي مَعَانِيهَا .
 كَصُعْدَةٍ فِي حَشَا الظَّالِمَاءِ طَاعِنَةٍ * تَسْقِي أَسَافِلَهَا رِيًّا أَعَالِيهَا .
 فَالْوَجْنَةُ الْوَرْدُ إِلَّا فِي تَنَاوُلِهَا * وَالْقَامَةُ الْغُصْنُ إِلَّا فِي تَنَنِّيهَا .
 صَفْرَاءُ هِنْدِيَّةٍ فِي اللَّوْنِ إِنْ نُعِتَتْ ، * وَالْقَدُّ وَاللَّيْنُ إِنْ أُمِّمَتْ تَسْبِيحُهَا .
 فَالْهِنْدُ تَقْتُلُ بِالنَّيِّرَانِ أَنْفُسَهَا * وَعِنْدَهَا أَنَّ ذَاكَ الْقَتْلَ يُحْيِيهَا .
 قَدْ أَثْمَرَتْ وَرْدَةً حُمْرَاءَ طَالِعَةٍ * تَحْجِي عَلَى الْكَفِّ إِنْ أَهْوَيْتَ تَحْنِيهَا .
 وَرَدُّ نَشَاكُ بِهِ الْأَيْدَى إِذَا قُطِفَتْ ، * وَمَا عَلَى غُصْنِهَا شَوْكٌ يُوقِيهَا .
 مَا إِنْ تَرَأَى تَبَيَّتُ اللَّيْلَ سَاهِرَةً * وَمَا بِهَا غُلَّةٌ فِي الصَّدْرِ تُطْفِئُهَا .
 صَفْرَاءُ غَلَا ئُلُهَا ، حُمْرٌ عَمَائُهَا ، * سَوْدٌ ذَوَائِبُهَا ، بَيْضٌ لِيَالِيهَا .
 تُحْيِي اللَّيَالَى نُورًا ، وَهِيَ تَقْتُلُهَا . * بئسَ الْجَزَاءُ لِعَمْرِ اللَّهِ تَحْزِينُهَا !
 قُدَّتْ عَلَى قَدِّ ثَوْبٍ قَدْ تَبَطَّنَا * وَلَمْ يُقَدِّرْ عَلَيْهَا الثَّوْبَ كَاسِيَهَا .
 غَرَاءُ فِرْعَاءُ مَا تَنْفَكُ قَالِيَةً * تَقْصُ لِمَتَهَا طَوْرًا وَتَقْلِيهَا .
 شَبَاءُ شَعْنَاءُ لَا تُكْسِي غَدَائِرَهَا * لَوْ أَنَّ الشَّيْبَةَ إِلَّا حِينَ تُبْلِيهَا .
 قَنَاءُ ظَلَمَاءَ لَا تَنْفَكُ يَأْكُلُهَا * سِنَانُهَا طَوَّلَ طَعْنٍ أَوْ يُسْطِئُهَا .
 مَفْتُوحَةُ الْعَيْنِ تُغْنِي لَيْلَهَا سَهْرًا ، * نَعَمْ ، وَإِفْنَاؤُهَا إِيَّاهُ يُغْنِيهَا .
 وَرُبَّمَا نَالَ مِنْ أَطْرَافِهَا مَرَضٌ * لَمْ يُشْفِ مِنْهُ بَغِيرَ الْقَطْعِ مُشْفِيهَا .

وقال آخر :

بَيْضَاءُ أَصْحَكَتِ الظَّلَامَ فَرَاعَهَا * فَبَكَتْ وَأَسْبَلَتِ الدَّمُوعَ بَوَادِرَا .
 جَفَّتْ دُمُوعُ جُفُونِهَا فَكَأَنَّهَا * كُسِيَتْ مِنَ الطَّلَعِ النَّضِيدِ ضَفَائِرَا .

وقال ابو القاسم المطرّز من أبيات :

وللشُمُوعِ عِيُونٌ كَلَّامٌ نَظَرَتْ تَظَلَّمَتْ مِنْ يَدَيْهَا أَنْجُمُ الْغَسَقِ .
من كلِّ مُرْهَفَةِ الْأَعْطَافِ كَالْغُصْنِ التَّمِيَّادِ لَكِنَّهُ عَارٍ مِنَ الْوَرَقِ .
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْهَا وَهِيَ وَادِعَةٌ تَبْلَى ، وَعِدَشْتُهَا مِنْ ضَرْبَةِ الْعُنُقِ !

وقال آخر :

جاءتْ يَحْسُمُ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ تَبْكِي وَتَشْكِي الْهَوَى وتَلْتَهَبُ .
كَأَنَّهَا فِي أَكْغَفٍ حَامِلِهَا رُوحُ جَلِينٍ سِنَانُهُ ذَهَبُ .

وقال محمد بن أبي الثبات ، شاعر اليتيمة :

وَمَجْدُولَةٌ مِثْلَ صَدْرِ الْقَنَاةِ تَعْرِتْ ، وَبَاطِنُهَا مُكْتَئِسِي .
لَهَا مُقَلَّةٌ هِيَ رُوحٌ لَهَا ، وَتَأْجُّ عَلَى الرَّأْسِ كَالْبُرْنِيسِ .
إِذَا غَازَلَتْهَا الصَّبَا حَرَّكَتْ لِسَانًا مِنَ الذَّهَبِ الْأُمْلَسِ .
وَتَنْجُ مِنْ حَيْثُ مَا أَلْقَحَتْ ضِيَاءٌ يُجَلِّي دُجَى الْحِنْدِسِ .
فَتَحْنُ مِنَ النُّورِ فِي أَسْعَدٍ ، وَتِلْكَ مِنَ النَّارِ فِي أُنْجُسِ !

وقال آخر :

وَرَشِيقَةٌ بِيضَاءُ تُطَالِعُ فِي الدُّجَى صُبْحًا وَتَشْفِي النَّاطِرِينَ بِدَائِهَا .
شَابَتْ ذَوَائِبُهَا أَوَانُ شَبَابِهَا ، وَأَسْوَدَ مَفْرِقُهَا أَوَانُ فَنَائِهَا .
كَالْعَيْنِ : فِي طَبَقَاتِهَا وَدُمُوعِهَا وَبَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا وَضِيَائِهَا .

وقال صاحب بن عباد :

وَتَمْعَةٌ قَدَّمَتْ إِلَيْنَا : تَجْمَعُ أَوْصَافَ كُلِّ صَبٍّ :
صُفْرَةٌ لَوْنٌ ، وَذَوْبٌ جِسْمٌ ، * وَفَيْضٌ دَمْعٌ ، وَحَرٌّ قَلْبٌ .

وقال السري الرفاء :

مَفْتُولَةٌ مَجْدُولَةٌ * تَحْكِي لَنَا قَدَ الْأَسَلِ .
كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَتَى * وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ .

ومما ورد في وصفها نثرا .

من رسالة لابن الأثير الجزري جاء منها :

وكان بين يدي شمعَةٌ تَعْمُ مَجْلِسِي بِالْإِينَاسِ . وَتَغْنِي بِوُجُودِهَا عَنْ كَثْرَةِ الْجَلَّاسِ ،
وكانت الريحُ تَتَلَعَّبُ بِشُعْبِهَا ، وَتَدُورُ عَلَى قُطْبِ لَمَبِّهَا ، فَطَوَّارًا تَقِيْمُهُ فَيَصِيرُ أُنْمُسًا ،
وَطَوَّارًا يُنْمِلُهُ فَيَصِيرُ سِلْسِلَةً ، وَتَارَةً تُجَوِّفُهُ فَيَصِيرُ مُدْمِنَةً ، وَتَارَةً تَجْعَلُهُ ذَا وَرَقَاتٍ فَيَمِثِلُ
سُوسَنَةً ، وَآوَنَةً تَنْشُرُهُ فَيَبْسُطُ مِنْدِيلًا ، وَآوَنَةً تُلْقِيهِ عَلَى رَأْسِهَا فَيَسْتَدِيرُ كَلِيلًا .

ومن رسالة أخرى له :

وكانت الريحُ تَتَلَعَّبُ بِلَهَبِهَا لَدَى الْحَادِمِ فَتَشْكِلُهُ أَشْكَالًا . فَتَارَةً تُبْرِزُهُ نَجْمًا ، وَتَارَةً
تُبْرِزُهُ هِلَالًا ، وَلَرُبَّمَا سَطَعَ طَوْرًا كَابِلُ النَّارِ فِي تَضَاعِيفِ أَوْرَاقِهَا ، وَطَوْرًا كَالْأَصَابِعِ
فِي أَنْضُمَامِهَا وَأَقْتِرَاقِهَا .



§ وقال سيف الدين المشد في الفانوس :

وَكَأَنَّمَا الْفَانُوسُ فِي غَسَقِ الدُّجَى * دَنَفٌ بَرَاهُ سَقْمُهُ وَسَهَادُهُ .
حُنَيْتٌ أَضَالِعُهُ وَرَقٌّ أَدِيمُهُ * وَجَرَتْ مَدَامِعُهُ وَذَابَ فُؤَادُهُ .

٢ - ومما قيل في السراج .

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال . جاء منها :

عذرا إليك أيُّدَكَ اللهُ ! فإني خططت والنوم مُغَارِلُ ، والقرُّ نازلُ ، والريح تلعب
بالسراج ، وتصول عليه صَوْلَةُ الْحَجَّاجِ ، فطورا تبرزه سنانا ، وتحركه لسانا ، وآوِنُهُ
تَطْوِيهِ جُنَّابُهُ ، وأخى تنشره دَوَابُهُ ، وتارة تقيمه إبرة لُحْبُ ، وتعطفه بُرَّةٌ ذهبُ ،
وحينا تقوسه حاجب فتات ، ذات غمزات ، وتسلمه على سليطه ، وتدليه على
خايطه ، وربما نصبتَه أُذُنَ جَوَادٍ ، ومسختَه حَدَقَ جَرَادٍ ، ومشقتَه حروف برق ،
بكفٍّ ودقٍّ ، ولثمت بسناه قِنْدِيلُهُ ، وألقت على أعطافه مَنْدِيلُهُ ، فلاحظ منه للعين ،
ولا هداية في الطرس لليدين .

٣ - رسالة القنديل والشمعدان .

١٠

من إنشاء المولى الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني ،
سمعتها من لفظه ، وقرأتها عليه ، وأجاز لي روايتها عنه . وهي الموسومة "زهرة الحنان ،
في المفارقة بين القنديل والشمعدان" .

ابتدأها بأن قال :

الحمد لله الذي أنار حَالِكِ الظُّلُمَاءِ ، بأنوار بدر السماء ، وحلّى جيدها ، بعقود النجوم ،
وحرس قشيدتها ، بيهام الرجوم ، وجعلها عبرة للاستبصار ، ونزهة للأبصار ، غشاؤها
لَا زَوْرُدٌ مَكْلَلٌ بِضَارٍ ، أو أقاحى خميلة تفتحت فيها أزرارُ الأزهار ، تهدي السارى
بسواريتها ، وتزري بالدرر أنوار دراريها ، كرع في نهر مجرتها النسران ، ورتع في مراعي
رياضها الفرقدان .

١٥

أحمدته على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان، ولا يؤدى واجب حقها إنسان بحمدا
يجلب إلى الحامد أنواع الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان.

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظلمة الوجود . وأظهر
بظهوره أفعال الركوع والسجود ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله الوافين بالعهود .
وعلى أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاة وسلاما دائمين إلى اليوم الموعود !

وبعد فإن فنون الاداب كثيرة الشعوب . متباينة الأسلوب ؛ طالما تلاعب
الأديب بفنونها بين جدٍّ ومجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون . وكنت بحمد الله
من هو قادر على إبراز مُلحج الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب ؛ فتَمَثَّل في خاطري
المفاخرة بين الشمعدان والقنديل، ولا بد من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل ؛
لأنهما آلتا نور، ونديما سرور ؛ طالما مزقا جِلْبَاب الدجى بأضوائهما، وحسما مادة
الظلمة بأنوارهما ؛ وطلعا في سماء المجالس بدورا، وأنجلا نور الرياض لما أصدرنا من
جوهرهما نورا . سما كل واحد منهما إلى أنه الأصل، وأن بمدحه يحسن الفصل
والوصل ؛ وأنه الجوهرة اليتيمه، والبدرَةُ التي ليست لها قيمة ؛ سارت بحاسنه ركائب
الركبان، ونُظمت في جيد مجده قلائدُ العُقيان .

فأحببت أن أنظمهما في ميدان المناظرة ليبرز كل واحد منهما خصائصه الواضحه،
ويُظهِرَ نقائص صاحبه الفاضحه ؛ وليتسنى غارب الاستحقاق بالفضيله . ويؤكد في تقرير
فضائله الراجحة دليله ؛ مع أنه لا تقبل الدَّعَاوى إلا بالبرهان . وإعمرى لقد قيل قديما :
من تحلى بغير ما هو فيه . فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الإِمْتِحَانِ .

فأتلع الشمعدان جيداً للطاولة ، وعرض سَمَهْرِيَّهَ الجينيِّ للناضله . وقال :

❦ اِسْتَنْتَ الْفِصَالُ حَتَّى الْقَرَعَى ❦

لستَ بنديم المملوك في المجالس . كلاً ولا الروضة الغناء للمجالس ! طالما أهدقتُ
 بي عساكرُ النظر . ووقفت في استحسان هياكل رؤية الأبصار ، وحملتُ على الرؤوس
 إذا عُلِّقَتْ بأذنانك . وجليتُ كحلاء المرفهات إذا أسود وجهك من دُخانك .

فنضض لسان القنديل نضضة الصل . وارتفع ارتفاع البازي المِطْل . وقال :

إن كان فخر نجالسة السلاطين . فأفتخاري بنجالسة أهل الدين ! ، طالما طلعتُ
 في أفق المحراب نجما أزداد علواً . وأزدانت الأماكن المقدسة بشموس أنوارى حُلاباً
 جمع شكل مجموع العناصر . فعلى مثل تُعَقِّدُ الخناصر . يحسبني الرأى جوهرة العقد
 الثمين . إذا رأى أصفرار لونك كصُفْرة الحزين . ولقد علوتك في المجالس زماناً ، ومن
 صبر على حر المشقة ارتفع مكاناً .

فنظر إليه الشمعدان مُغَضَّباً . وهم بأن يكون عن جوابه منجماً . وقال :

أين ثمنك من ثمنى . ومسكنك من مسكنى ؟ صفائح الإبريز ، فلذا سموت
 عليك بالتبريز ، تنزه العيون في حمائل الذهبية . وتسرى النفوس ببزوغ أنوارى الشمسية
 ولا يملكنى إلا من أوطنته السعادة مهادها ، وقربت له الرياسة جياها . ولقد نفعتُ
 في الصحة والسَّتم . وأزدادت قيمتى إذا نقصت في القيم . إن أنقصت عُراك
 فلا تُشْعَبُ ، ولا تعاد إلى سبك نار فتصب وتُقلَّبُ ؛ لست من قُرسان مناظرى ،
 ولا من قُرْءاء مفاخرى .

فالتفت القنديل آلتات الضرغام ، وفوق إلى قرينه سهام الملام . وقال :

أنت عندى كشُّعَالِه ، لآمحاله بطالك العنقود ، فأبرزت أنواع الحقود ، وأين الثريا من يد المتناول ؟ أم أين السها من كف المتناول ؟ تالله إنك فى صرفك بصُفرك مغلوط ! لقد خُصِصْتُ بالعلو وخُصِصْتُ بالهَبُوط . ترى باطنى من ظاهرى مشرقا ، وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا بخديث سيادتى مُسَلَّسَل ، وتاج فضائى بجواهر العلو مكلَّل . فليحظه الشَّمْعَدَان بطرف طرفه ، وأرسل فى ميدان المناظرة عِنان طرفه . وقال :

إن أفتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية اختصاصك به ليس له أبهة مزيد بطالم إلا القَتَام وأنحطت القُرسَان ، ومكث الجمر وسمَا الدُّخَان ، ولقد صَيَّرَكَ كنظر المشنوق خاله ، وكضوء الشَّهْدَاة دُبَالَه ، وأنت الخليق بما قيل :

❖ وَقُلِّبْ بِلَا لُبٍّ ، وَأُذُنٌ بِلَا سَمْعٍ ❖

وسلاسلك تشعر بعقلك ، وعلوك ينبئ عن غلو إسقاط كمثلك ، عادات التبر كُفَّة يكفُّه ، ووزنته إذ كان فيه خفه ، فأصبح لمنأخرى الجليله ، وأستمع مناقبى الجميله . أطارِد جيوش الظُّلَمَاء برمى ، وأمزق أثواب الديحور بصبحى ، جمع عاملى بين طلع النخل ، وحلاوة النحل ، يتلو سورة النور لسانى . ويقوى فى مصادمة عساكر الليل البهيم جَنَانى ، أسامر المليك خلوه ، ويستجلى من محاسنى أحسن جلوه .

ولله درّ القائل :

أُنْظِرْ إِلَى شَمْعِدَانٍ شَكُّهُ نَجَبٌ ❖ كَرُوضَةٍ رَوَّضَتْ أَزْهَارَهَا السُّحُبُ .

يُطَارِدُ اللَّيْلَ رُحٌّ فِيهِ مِنْ وَرَقٍ ❖ سَسَنَانُهُ لَهَبٌ مِنْ دُونِهِ الدَّهَبُ .

فمثل هذه المناقب تتلى ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجلى .

فأضرم نار تبيينه ، في أحشاء قرينه . فعندها قال القنديل :

لقد أطلت الافتخار بحاسن غيرك ، لما وقفت في المناظرة ركائب سيرك ، فأشكر
اليـد البيضاء من شمـعك ، وأحرص على معرفة قيمتك ووضعك ، وأما افتخارك بتلاوة
سورة النور ، فأنا أحق بها منك إذ محلى الجوامع ، والفرقان فارق بيني وبينك مع أنه
ليس بيننا جامع ، ففضيلتي فيه بينه ، وآية نوري في سورة النور مبيته ، فأقطع مواد
البحاجة ، وأقرأ الآية المشتملة على الزجاجة ، يظهر لك من هو الأعلى ، ومن بالافتخار
الأولى ، بتخالي درة علقت في الهواء ، أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء .

ولله درّ القائل :

قنـديـانـا فاق بأنوارـه * نور رياض لم تزل مـزهـرة .
دُبالة فيه إذا أوقدت * حكمت بحسن الوضع نيلو فـرة .

١٠

لا يحل الأقداء خاطري ، ولا يغتم مشاهدي وناظري ، فأنا خلاصة السبك ، والتبر
الذي لا يفتقر إلى الحك ، اشتقاق أسمك من النحوس ، ومن حريمك تقام هياكل
الفلوس ، لقد عرّضت نفسك للنبيه ، وأنعمت عليك مواد الأمانيه ، مع أن الحق
أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من ضوء المصباح ، والآن غصصت بريقك ، وخفيت
لوامع برؤوقك ، فهذه الشهباء والحلّبه ، وهذه ميادين المناضلة رخبه .

١٥

فأر الشمعدان في الجواب ، وجعل ما أبداه أولا فصل الخطاب .

فقال القنديل :

لا بد من الإقرار بأن قدحى المعلى ، وأنى عليك بالتقديم الأولى ، وأن مقامى العالى ،
ونورى المتوالى .

فقال الشمعدان :

لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك ، وكونك الكوكب الدرّي الذي قُصّر
عن بلوغك باعُ مثيلك .

٥ بفتح الشمعدان للّسّم ، وترفع عن آستيطان مواطن الإثم ؛ وشرع يُبدى شعائر
الخصوع ، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ؛ وقال :

لولا حِمِيَّةُ النفوس ، ما تَجَمَّلت بمفاخرنا صفحات الطروس ؛ ولولا القال والقليل ،
ما صَمَّمنا معرض التمثيل ؛ ولكن أين صفاؤك من كدرى ، وأين نظرك من نظرى ؛
خصلك الله بنوره ، وذكرك في فرقانه وزبوره .

فَعِنْدَهَا تَهَلَّت أسارير القنديل ، وتبسّم فرحا بالتعظيم والتبجيل . وقال :

١٠ حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف ، وإظهار محاسن الأوصاف ؛ ففضلك لا يبارى ،
ووصفك لا يجارى ؛ يحسبك الرأى حميلة نور تفتّحت أزهارها ، وحديقة نرجس أطردت
أنهارها ؛ تُسرّ بك النفوس ، وتدار على نضارتك الكؤوس ؛ وإن اللائق بحالنا طى
بساط المنافسة ، وإنحداد شرر المقابسه ؛ والاستغفار فيما فرط من كلامنا ، والرجوع
إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا .

١٥ ونقول :

الأصل فيما نقلناه عدمه ، فقد حَفَى كل واحد منا في إبراز معانيه قَلَمُهُ . ونسأل الله
أن تدوم لنا نِعْمُهُ ، ويتعاهدنا في المساء والصباح كرمه ! بمنه وجوده وكرمه ! آمين !

القسم الثالث من الفن الأول

في الليالي والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

١ - في الليالي والأيام

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : خلق الله الخلق في ظلمة .
(وروى : في عَمَاء) ثم رش عليهم من نوره .

وهذا يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور .

- ١ . وروى أن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) سئل عن الليل ، أكان قبل
أو النهار؟ قال : رأيتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا، هل كان بينهما إلا
ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار .

والذي ورد في القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله (عز وجل)
بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور .

- ٢ . ويروى أن الله (عز وجل) لما خلق السماء والأرض ، وقع ظل السماء على الأرض
فأظلمت ، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا .

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين : ليلا ، ونهارا . بفعل حصة الليل للقمر ، وحصة النهار للشمس . فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما ، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة .

فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنسانيّ — وعلم أنه لا غنى له عن حركته للعاش نهارا وسكونه للراحة ليلا — أمر جبريل فأمرّ جناحه على القمر فجاء نوره . فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو ، وصار الليل مظلماً ، والنهار مبصراً .

وروي أيضا أن الله (عز وجل) خلق حجاباً من ظلمة مما يلي المشرق ، ووكل به ملكاً يقال له سراهيل . فإذا آنقضت مدة النهار ، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة وأستقبل بها المغرب ، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعى الشفق . فإذا غاب الشفق ، بسط كفه فطبق الدنيا ظلمة . فإذا آنقضت مدة الليل ، قبض كفه على الظلمة ، إصبعا بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام ، حتى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب . وذلك من أشراط الساعة . والله أعلم !

٢ — ذكر ما قيل في الليل وأقسامه

الليل طبيعيّ ، وشرعيّ .

أما الطبيعيّ ، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها .

وأما الشرعيّ ، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثاني ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ .

§ والليل ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة ، لها أسماء وضعتها العرب ، وهي :

الشاهد، ثم الغسق، ثم العتمة، ثم الفحمة، ثم الموهن، ثم القطع، ثم الجوشن،
ثم العبكة، ثم التبشير، ثم الفجر الأول، ثم الفجر الثاني، ثم المعتريض.^(١)
هذا ما ذكره ابن النحاس في وصف صناعة الكتاب.

وحكى الثعالبي في فقه اللغة — عن حمزة الأصفهاني، قال : وعليه عهده — أسماء
غير هذه، وهي :

الجهمة، والشفق، والغسق، والعتمة، والسدفة، والزلة، والزلفة، والبهرة،
والسحر، والفجر، والصبح، والصبح.

فصل

وقد عبّر بالليالي عن الأيام، كقول الله عز وجل : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾،
وقوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشِيرٍ﴾. فعبر عن الأيام بالليالي، لأن كل ليلة تتضمن يوماً.

٣ — ذكر الليالي المشهورة

من الليالي المشهورة :

§ ليلة البراءة. وهي ليلة النصف من شعبان، قيل سميت بذلك لأنها براءة لمن يحييها،

§ ليلة القدر. والصحيح أنها في مفردات العشر الأخير من شهر رمضان،

§ وليلة الغدير. وهي ليلة الثامن عشر من ذى الحجة.

(١) كذا بالأصل والذي في كتب اللغة بهذا المعنى "الهنكة"، فلعل ما هنا تحريف من النسخ.

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى لا في اللسان ولا في القاموس ولا في مستدرک شارحه. وهذا هو الذي دنا الثعالبي لجعل العهدة على حمزة الاصفهاني.

§ وليلة الهرير. وهي ليلة من ليالى صَفَّين، قُتِلَ فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب معاوية (رضى الله عنه) ؛

§ وليلة الخُلَعاء. وهي ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحان القَيْنِيّ عند دَيْرانية، فأكل طَفَيْشَلَهَا^(١) بلحم الخنزير، وشرب نحرها، وزنى بها، وسرق كساءها ؛
§ وليلة النابغة. يُضْرَبُ بها المثل في الخوف ؛

§ وليلة المتوكل. تضرب مثلاً في موت نتج من سرور، لأنه قُتِلَ في مجلس أنسه، على ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى .

٤ — ذكر ما يُمَثَّلُ به مما فيه ذكر الليل

يقال :

١٠ أطفئ من الليل . أطفئ من ليل على نهار . أحيّر من الليل . أستتر من الليل . أظلم من الليل . أندى من ليلةٍ ماطرة .

ويقال :

الليل أخفى للويل . الليل نهار الأريب . الليل طويل وأنت مُقَمَّر . الليل وأهضام الوادى . الليل أعور (لأنه لا يُبْصِرُ فيه) .

ويقال :

١٥

أَتَخَذَ اللَّيْلَ جَمَلًا . شَمَّرَ ذِيلاً ، وَأَدْرَعَ لَيْلًا . أَمْرُ نَهَارٍ قُضِيَ بِلَيْلٍ .

(١) نوع من المرق (قاموس) . وقال ابن الخشاب في تفسير ألقاظ الكتاب المنصوري للرازي مانعه :

طَفَيْشِيل (هذا الضبط) طعام يُتَّخَذُ من الحبوب كالباقليّ والحَصّ ونحوهما (عن تكملة المعجمات العربية لدوزي) .

ومن أنصاف الأبيات :

* الليل حُبْلَى ليس تَدْرِي ما تَلِدُ * * ما أَقْصَرَ اللَّيْلَ على الرَّاقدِ ! *

* ما أَشَبَّهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ! * * وَلَيْلُ الْحُبِّ بلا آخر *
 * إِحدى لِياليكِ فَهَيْسَى هَيْسَى ! * * فَإِنَّكَ كاللَّيْلِ الذي هو مُدْرِكِي *

ومن الأبيات :

٥ إن اللَّيْلَى لم تُحْسِنْ إلى أَحَدٍ * إلا أَسَاءَتْ إليه بَعْدَ إِحْسَانِ .

* * *

وَاللَّيْلَى كما عَهِدَتْ حَبَالِي * مُقَرَّبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ .

* * *

١٠ أَمَا تَرَى اللَّيْلَ والنَّهَارَ * جَارَيْنِ لَا يُقَيَّانَ جَارًا ؟

وقال حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ * إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَمَنَّى !

وقال أبو حية التَّمِيرِي :

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، * تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا .

١٥ ٥ — ذكر ما قيل في وصف الليل وتشبيهه

قد أكَثَرَ الشعراء في وصف الليل بالطَّوِّ، والقَصَرِ . وذكروا سببَ الطَّوْلِ الهُمُومَ
 وسببَ القَصْرِ السُّرُورَ .

ولهذا أشار بعض الشعراء في قوله :

٢٠ إِنَّ اللَّيْلِيَّ لِلْأَنَامِ مَنَاهِلُ * تُطَوَّى وتُنْشَرُ بينها الْأَعْمَارُ .

فَقِصَارُهُنَّ مع الهُمُومِ طَوِيلَةٌ ، * وَطَوَالُهُنَّ مع السُّرُورِ قِصَارُ .

وقال آخر :

إِنَّ التَّوَّاصِلَ فِي أَيَّامِهِ قِصْرٌ ، * كَمَا التَّهَاجُرُ فِي أَيَّامِهِ طَوْلٌ .
فَلَيْسَ يَعْرِفُ تَسْهِيدًا وَلَا رَمَدًا * جَفَنُ بَرُؤِيَةٍ مِنْ يَهْوَاهُ مَشْغُولٌ .

وقال ابن بسّام :

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي * أَنْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورُ .
لَيْلٌ كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَزُرْ ، * طَالَ ، وَإِنْ زَارَتْ ، فَلَيْلٌ قَصِيرٌ .

❦

أصله من قول علي بن الخليل :

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي * أَنْ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَعُولُ .
لَيْلٌ كَمَا شَاءَتْ قَصِيرٌ إِذَا * جَادَتْ ، وَإِنْ صَدَّتْ ، فَلَيْلٌ طَوِيلٌ .

وقال آخر :

أَخُو الْهَوَى يُسْتَطِيلُ اللَّيْلَ مِنْ سَهْرٍ ، * وَاللَّيْلُ فِي طَوْلِهِ جَارٍ عَلَى قَدَرِهِ .
لَيْلُ الْهَوَى سَنَةٌ فِي الْهَجَرِ مَدْنُهُ ، * لَيْكَنَّهُ سَنَةٌ فِي الْوَصْلِ مِنْ قِصَرِهِ .

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

لَا أَسْأَلُ اللَّهَ تَغْيِيرًا لِمَا صَنَعْتُ : * نَامْتُ وَقَدْ أَسْهَرْتُ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا .
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقَدُهَا * وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا .

٦ — وَأَمَّا مَا وَصَفَ بِهِ مِنَ الطَّوْلِ

قال الخبّاز :

وَلَيْلٌ كَوَاكِبُهُ لَا تَسِيرُ * وَلَا هُوَ مِنْهَا يُطِيقُ الْبَرَّاحَا .
كَيَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي طَوْلِهِ * عَلَى مَنْ يَرِاقِبُ فِيهِ الصَّبَّاحَا .

وقال ابن المعتز :

مالي أرى الليل مُسِيلاً شَعْرًا * عَنْ غُرَّةِ الصُّبْحِ غَيْرَ مَفْرُوقِ .

وقال بشار :

خَلِيلِي ! مَا بَالُ الدُّجَى لَا يُزَحِّحُ ، * وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَصَّحُ ؟
أَضَلَّ النَّهَارُ الْمُسْتَدِيرَ طَرِيقَهُ ؟ * أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ ؟

وقال الرِّفَاء :

أَلَا رَبَّ لَيْلٍ يَتُّ أَرَعَى نُجُومَهُ * فَلَمْ أَغْتَمِضْ فِيهِ وَلَا اللَّيْلُ أَعْمَضَا .
كَأَنَّ الثَّرِيَّا رَاحَةً تَشْبُرُ الدُّجَى * لَتَعْلَمَ طَالَ اللَّيْلُ لِي أَمْ تَعَرَّضَا .
عَجِبْتُ لِلَّيْلِ بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ * يُقَاسُ بِشَبْرِ كَيْفَ يُرَجَى لَهُ أَنْقِضَا ؟

وقال محمد بن عاصم :

أَقُولُ ، وَاللَّيْلُ دُجَى مُسْبِلٌ * وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ بِهِ مُثَلٌّ :
يَاطُولُ لَيْلٍ مَا لَهُ أَنْحَرُ * مِنْكَ ، وَصُبْحٌ مَا لَهُ أَوَّلُ !

وقال التنوخي :

وَلَيْلَةٌ كَأَنَّهَا قُرْبُ أَمَلٍ * ظَلَامُهَا كَالدَّهْرِ مَا فِيهِ خَلَلٌ .
كَأَنَّهَا الْإِصْبَاحُ فِيهَا بَاطِلٌ * أَزْهَقَهُ اللَّهُ بِحَقٍّ ، فَبَطَلٌ .
سَاعَاتُهَا أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ النَّوَى * وَلَيْلَةُ الْمَجَرِّ وَسَاعَاتُ الْعَدَلِ .
مَوْصَدَّةٌ عَلَى الْوَرَى أَبْوَابُهَا * كَالنَّارِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ دَخَلَ .

وقال أبو محمد ، عبد الله بن السيّد البطليوسي :

تَرَى لَيْلَنَا شَابَتْ نَوَاصِيهِهِ كِبَرَةً * كَمَا شَبَّ ، أَوْ فِي الْجَوَّارِ وَضُ نَهَارٍ ؟
كَأَنَّ اللَّيَالِي السَّيْعَ فِي الْأَفْقِ جُمِعَتْ * وَلَا فَصْلَ فِيمَا بَيْنَهَا بِنَهَارٍ .

وقال الشريف البياضي :

أقول لصحبي والنجوم كأنها ، * وقد رككت في بحر حنديسها غرقا :
أرى ثوب هذا الليل لا يعرف الليل ! * فهل أرين للصبح في ذيله فتقا ؟

وقال أيضا :

أقول وللدجى عمر مديد * وآخره يرد إلى معاد .
وقد ضلت كواكبها ، فظلت * حيارى ما لها في الأفق هادي :
لعل الليل مات الصبح فيه ، * فلازم بعده لبس الحداد .

وقال آخر :

أما لظلام ليلى من صباح ؟ * أما للنجم فيه من برّاح ؟
كأن الأفق سدّ ، فليس يرجى * به نهج إلى كل النواحي .
كأن الشمس قد مسخت نجومًا * تسير مسير رواد طلاح .
كأن الصبح مهجور طريد ، * كأن الليل مات صريع راج .
كأن بنات نعش متن حزنا ، * كأن النسر مكسور الجناح .

وقال آخر :

يا ليلة طالتي على عاشق ، * منتظرة للصبح ميعادا !
كادت تكون الحول في طولها ، * إذا مضى أولها ، عادا .

وقال ابن الرومي :

رب ليلى كأنه الدهر طولا * قد تناهى فليس فيه مزيد .
ذو نجوم كأنهم نجوم الشيب ليست تزول ، لكن تزيد .



وقال أبو الأحنف :

حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثًا * أَوْ صِفُوهُ ، فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَ .

وقال بشار :

طَالَ هَذَا اللَّيْلُ بَلْ طَالَ السَّهَرُ ! * وَلَقَدْ أَعْرِفُ لَيْلِي بِالْقَصَرِ .

لَمْ يَطُلْ حَتَّى دَهَانِي فِي الْمَوَى * نَاعِمُ الْأَطْرَافِ فَتَّانُ النَّظَرِ .

فَكَأَنَّ الْمَجْرَ شَخْصَ مَاثِلٍ * كُلَّمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ نَقَرَ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

يَا لَيْلَ وَجَدِ نَجْدٍ * أَمَا لِطَيْفِكَ مَسْرَى ؟

وَمَا لِدَمْعِي طَافِقٌ * وَأَنْجُمُ الْجَوِّ أَسْرَى ؟

وَقَدْ طَمَأَ بِحَرْ لَيْلٍ * لَمْ يُعْقِبِ الْمَدَّ جُزْرًا .

لَا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فِيهِ * غَيْرَ الْمَجْرَةِ جَسْرًا .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَلَيْلٍ كَانَ الدَّهْرَ أَفْضَى بَعْمَرِهِ * جَمِيعًا إِلَيْهِ ، فَاتَهَى فِي آيَتِدَائِهِ .

يُحَدِّثُ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضًا بِطُولِهِ ، * وَلَمْ يَمُضْ مِنْهُ غَيْرُ وَقْتِ عِشَائِهِ .

وقال إبراهيم ولد ابن لنكك البصري ، شاعر اليتيمة :

وَلَيْلَةٍ أَرْقَنِي طَوْلَهَا * فِتْنَهَا فِي حَيْرَةِ الذَّاهِلِ .

كَأَنَّمَا أَشْتَقُّتُ لِإِفْرَاطِهَا * فِي طَوْلِهَا مِنْ أَمَلِ الْجَاهِلِ .

وقال امرؤ القيس :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ مُرْخٍ سُدُولِهِ * عَلَى بَأْنَوَاعِ الْهُمُومِ لَيْتَلِي .

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ * وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلْكَلِي :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ، أَلَا أَنْجِلِي * بِصُبحٍ ! وما الإصباحُ منك بأمثل !
فيا لك من ليلٍ كأت نُجومه * بأمراسٍ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلٍ .

وقال آخر :

أُرَاقِبُ في السَّماءِ بناتٍ نَعِيشُ ؛ * ولو أَسْطِيعُ ، كُنْتُ لهنَّ حادى .
كأَنَّ اللَّيْلَ أَوْتَقَ جانِبَهُ * وأوسَطَهُ بأمراسٍ شِدَادٍ .

وقال أنحرم بن حميد :

وليلٍ طَوِيلٍ الجانِبَيْنِ قَطَعْتُهُ * على كَمَدٍ ، والدَّمْعُ تُجْرِي سَواكِبُهُ .
كُواكِبُهُ حَسَرَى عليه كأنها * مُقَيَّدَةٌ دُونَ المَسِيرِ كَواكِبُهُ .

وقال ابن الرقاع :

وكانَ لَيْلَى حينَ تَغْرِبُ شَمْسُهُ * بِسِوَادٍ آخَرَ مثْلِهِ مَوْصُولُ .
أَرعى النُّجُومَ ، إِذا تَغَيَّبَ كَوْكَبُ ، * أَبْصَرْتُ آخَرَ كالسَّراجِ يَحُولُ .

وقال آخر :

ما لِنُجُومِ اللَّيْلِ لا تَغْرُبُ ؟ * كأنَّها مِنْ خَلْفِها تُجْذَبُ !
رَواكِدٌ ما غارَ في غَرَبِها * ولا بَدَأَ مِنْ شَرْقِها كَوْكَبُ .

وقال سعيد بن حميد :

يا لَيْلُ ، بَلْ يا أَبَدُ ! * أَنائِمُ عَنْكَ غَدُ ؟
يا لَيْلُ لو تَلَقَى الَّذِي * أَلْقَى بِها أو تَجِدُ ،
قَصَّرَ مِنْ طُولِكَ أو * ضَعَّفَ مِنْكَ الجَلْدُ !

وقال سيف الدين المشد :

مات الصَّباحُ بَلِيلٍ * أَحْيَيْتُهُ حِينَ عَسَسَ .
لو كَانَ فِي الدَّهْرِ صَبْحٌ * يَعِيشُ ، كَانَ تَنْفَسُ .

٧ — أما ما وصف به من القصر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس :

وَلَيْلَةٌ إِحْدَى الدِّالِي الزُّهْرِ ، * قَابَلْتُ فِيهَا بَذْرَهَا بِبَذْرِي .
لَمْ تَكُ غَيْرَ شَفَقٍ وَفَجْرٍ ، * حَتَّى تَوَلَّتْ وَهِيَ بِكُرِّ الدَّهْرِ .

وقال الشريف الرضي :

يَا لَيْلَةً كَادَ مِنْ تَقَاصُرِهَا * يَعْتُرُ فِيهَا الْعِشَاءُ بِالسَّحَرِ .

وقال آخر :

يَا لَيْلَةً جَمَعْتَنَا بَعْدَ فُرْقَتِنَا * فَبِتُّ مِنْ صُبْحِهَا لَمَّا بَدَأَ فَرَقَا .
لَمَّا خَلَوْتُ بِأَمَالِي بِهَا ، قَصُرْتُ * وَكَادَ يَسْبِقُ فِيهَا بِفُحْرِهَا الْغَسَقَا .

وقال آخر :

يَا رَبَّ لَيْلٍ سُرُورِ خِلْتُهُ قِصْرًا * يُعَارِضُ الْبَرْقَ فِي أَفْقِ الدُّجَى بَرَقًا .
قَدْ كَادَ يَعْتُرُ أَوْلَاهُ بِأَخْرِهِ * وَكَادَ يَسْبِقُ مِنْهُ بِفُحْرِهِ الشَّفَقَا .

وقال القاضي السعيد بن سناء الملك :

يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ ، بَلْ يَا لَيْلَةَ الْعُمْرِ ! * أَحْسَنْتِ ، إِلَّا إِلَى الْمَشْتَاكِ ، فِي الْقَصْرِ .
يَا لَيْتَ زَيْدَ بِحُكْمِ الْوَصْلِ فِيكَ لَنَا * مَا طَوَّلَ الْهَجْرُ مِنْ أَيَّامِكَ الْأَنْحَرِ .

أوليت نَجْمَكِ لم تَقْفُلْ رِكائبُهُ ، * أوليت صُبْحَكَ لم يَقْدُم من السَّفر .
 أوليت لم يَصْفُ فَيْكَ الشَّرْقُ من غَبَشٍ ، * فذلك الصَّفْو عِنْدِي غَايَةُ الكَدَر .
 أوليت كُلاً من الشرقيين ما آتَسَمَاء ، * أوليت كُلاً من النَّسْرَيْنِ لم يَطِر .
 أوليت كُنْتَ كما قد قال بعضهم : * "لَيْلَ الضَّرِيرِ فُصِّحِي غَيْرُ مُنْتَظَر" .
 أوليت بَخْرَكَ لم يَنْفُرْ به رَشْيٌ ، * أوليت شَمْسَكَ ما جَارَتْ عَلَى قَمَرِي .
 أوليت قَلْبِي وطَرْفِي تحتَ مِلْكِ يَدِي * فردتُ فيه سَوَادَ القلبِ والبَصِير .
 أوليت أَلْقَى حَبِيبِي سَحَرُ مُقْلَتِهِ * عَلَى العِشَاءِ فَأَبْقَاهَا بِلَا سَحَرِ .
 أوليت كنت سألتيه مُسَاعِدَةً * فكان يَحْبُوكِ بالتَكْحِيلِ والشَّعَرِ .
 كأنها حينَ وَلَّتْ قَمْتُ أَجْذِبُهَا * فَأَتَقَدَّ في الشَّرْقِ منها الثَّوْبُ من دُبُرِ .
 لا مَرَحَبًا بِصَبَاحٍ جَاءَنِي بَدَلًا * من غُرَّةِ النَّجْمِ أو من طَلْعَةِ القَمَرِ !

١٠

وقال عبد الله بن المعتز :

يا لَيْلَةً ما كانَ أَطْيَبَها سِوَى قِصْرِ البَقَاءِ !
 أَحْيَيْتُهَا فَأَمَّتُهَا * وَطَوَّيْتُهَا طَى الرِّدَاءِ .
 حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَتَلَوُّ البَدْرَ في أَفْقِ السَّمَاءِ .
 فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا * قَدَحَانِ من نَحْمِرٍ وَمَاءِ .

١٥

وقال المهلهي :

قد قَصَرَ اللَّيْلُ عِنْدَ الْفَتْنَةِ * كَأَنَّ حَادِي الصَّبَاحِ صَاحَ بِهِ .

وقال آخر :

كأَنَّمَا اللَّيْلُ رَاكِبٌ فَرَسًا * مِنْهَزِمًا وَالصَّبَاحُ فِي طَلَبِهِ .

٨ — اما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسي :

رُبَّ لَيْلٍ عَمَرْتُهُ * فَيْكَ خَالٍ مِنَ الْفِكْرِ .
كَثُرَتْ حَوْلَهُ الْجُجُ * لُ وَسَارَتْ بِهِ الْغُرُ .

وقال أبو بكر الصنوبري :

يَا لَيْلَةً طَلَعْتُ بِأَسْعَدِ طَالِعٍ * تَاهَتْ عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ السَّاطِعِ .
بِحَاسِنٍ مَقْرُونَةٍ بِحَاسِنٍ * وَبَدَائِعِ مَوْصُولَةٍ بِبَدَائِعِ .
ضَوْءُ الشَّمُوعِ وَضَوْءُ وَجْهِكَ مَارِجًا * ضَوْءُ الْعَقَارِ وَضَوْءُ بَرَقِ لَامِعِ .
فَكَأَنَّمَا أَلْقَى الدُّجَى جُلْبَابَهُ * وَأَرَاكَ جُلْبَابَ النَّهَارِ السَّاطِعِ .

٩ — أما ما وصف به من الظلمة

قال الله عز وجل : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ . فهذه أتم أوصاف الظلمة .

وقال مضر بن ربيعي :

وَلَيْلٍ يَقُولُ النَّاسُ فِي ظُلُمَاتِهِ : * سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْعُيُونِ وَعُورُهَا
كَأَنَّ لَنَا مِنْهُ بَيْوتًا حَصِينَةً * مُسَوَّحٌ أَعَالِيهَا وَسَاحٌ كُسُورُهَا

وقال أبو تمام :

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنَحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا * قَدْ أَكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِأَيْمِدِ

(١) جمع مسح بكمز فسكون وهو اللساء يتخذ من الشعر .

وقال أبو نواس :

أَيْنَ لِي : كَيْفَ صِرْتُ إِلَى حَرِيمِي ، * وَجَفَنُ اللَّيْلِ مُكْتَحِلُ بَقَارِ
وقال العلوي الأصفهاني :

وَرَبَّ لَيْلٍ بَاتَتْ عَسَاكِرُهُ * تَحْمِلُ فِي الْجَوْسُودِ رَايَاتِ
لَامِعَةٍ فَوْقَهَا أَسْتَتُّهَا * مِثْلَ الْأَزَاهِيرِ وَسَطَ رَوْضَاتِ

ومن رسالة لابي عبدالله بن أبي الخصال . جاء منها :

والليل زنجي الأديم ، تبرى النجوم ، قد جَلَلْنَا سَاجَهُ ، وأغرقتنا أمواجهُ بـ فلا مجال
لِللَّحْظِ ، ولا تعارف إلا باللفظ ، ولو نظرت فيه الزرقاء لا كتحت ، ولو خضبت به
الشَّيْبَةُ مَا نَصَلَتْ .

١٠ - ومما قيل في تباشير الصباح

قال أبو محمد العلوي :

كَأَنَّ أَخْضِرَارَ الْجَوْ صَرَحَ مَرْدٌ * وَفِيهِ لَالٍ لَمْ تُشَنَّ بِثُقُوبِ .
كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ صُبْحِهِ * سَوَادُ شَبَابٍ فِي بَيَاضِ مَشْيَبِ .

وقال أبو علي بن لؤلؤ ، الكاتب :

رُبَّ بَخْرِ كَطَلْعَةِ الْبَدْرِ جَلَّى * جُنَحَ لَيْلٍ كَطَلْعَةِ الْمَجْرَانِ ،
زَارَ فِي حُلَّةِ السَّبْزَةِ فَوَثَّ اللَّيْلُ عَنْهُ فِي حُلَّةِ الْغُرْبَانِ .

وقال الخالديان :

وَكَأَنَّما الصُّبْحُ الْمُنِيرُ وَقَدْ بَدَأَ * بَازُ أَطَارٍ مِنَ الظَّلَامِ غُرَابًا .

(١) الباز لغة في البازي . (عن الجوهرى) ، واختارنا ذلك لأنه منقول عن كلمة فارسية هي "باز" . وتركبة
"طوغان" وهو نوع من الصقور وأشد الجوارح تكبرا وأضيقها خلقا . يوجد بأرض الترك ويؤخذ للصيد .

وقال النظام البلخي . من شعراء الخريدة :

فَلَا حَ الصَّبْحُ مَبْتَسِمَ الشَّيَا ٠ وَطَارَ اللَّيْلُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ .
يَطِيرُ غُرَابٌ أَوْ كَارِ الدِّيَاحِ ٠ إِذَا مَا حَلَّ بَارِئُ الصَّبَاحِ .

وقال تميم بن المعز :

وَكَأَنَّ الصَّبَاحَ فِي الْأُفُقِ بَارُ ٠ وَالْدُّجَى بَيْنَ مَحَلِّهِ غُرَابٌ .

وقال ابن وكيع :

غَرَدَ الطَّيْرُ فَنَبَّهَ مِنْ نَعَسٍ . ٠ وَأَدْرُ كَأْسَكَ فَالْعَيْشُ خُلَسَ !
سَلَّ سَيْفُ الْفَجْرِ مِنْ غَمْدِ الدُّجَى ٠ وَتَعَرَّى الصَّبْحُ مِنْ ثَوْبِ الْغَلَسِ .
وَأَنْجَلَى فِي حُلَّةٍ فَضَّيَّةٍ ٠ مَا بَهَا مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ دَنَسٍ .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ غُصَّ بِالْدُّجَى ٠ وَفِي الشَّرْقِ مِنْ ثَوْبِ الصَّبَاحِ دَلَائِلُ ،
تَوَهَّمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ بَحْرٌ أَخْوَضُهُ ٠ وَأَنَّ الَّذِي يَبْدُو مِنَ الشَّرْقِ سَاحِلُ .

وقال أسعد بن بليطة الأندلسي :

بَحَرْتُ بِمَسِّكَ الدُّجَى كَأَفْوَرَةِ السَّحَرِ ٠ فَغَابَ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْهُ فِي الطَّرَرِ ،
صَبَحٌ يَفِيضُ وَجَنَحُ اللَّيْلِ مُنْغَمِسٌ ٠ فِيهِ كَمَا غَرِقَ الزُّبْجِيُّ فِي هَرَرِ .
قَدْ حَارَ بَيْنَهُمَا فِي بَرَزَخٍ قَمَرٌ ٠ يُلُوحُ كَالشَّنْفِ بَيْنَ الْخَدِّ وَالشَّعَرِ .

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي :

بِتْنَا كَأَنَّ حَدَادَ اللَّيْلِ شَمَلْتَنَا ٠ حَتَّى بَدَا الصَّبْحُ فِي ثَوْبٍ سَحُولِ .
كَأَنَّ لَيْلَتَنَا ، وَالصَّبْحُ يَتَّبِعُهَا ، ٠ زُجْجَةً هَرَبَتْ قُدَّامَ رُومَى .

وقال أبو نؤاس :

فَقُمْتُ وَاللَّيْلُ يَحُلُّهُ الصَّبَاحُ، كَمَا * جَلَا النَّبَسُ عَنْ غُرِّ الثَّنِيَّاتِ.

وقال عبد الله بن المعتز :

قَدْ أَغْتَدَى وَاللَّيْلُ فِي جَانِبِي * كَالْحَبَشِيِّ فَرَّ مِنْ أَصْحَابِي.
وَالصُّبْحُ قَدْ كَثَّرَ عَنْ أَنْيَابِي * كَأَنَّمَا يَضْحَكُ مِنْ ذَهَابِي.

وقال السري :

وَشَرَّدَ الصَّبْحُ عَنَّا اللَّيْلَ فَاتَّضَحْتُ * سَطُورُهُ الْبَيْضُ فِي آيَاتِهِ السُّودِ.

وقال أبو فراس :

مَدَدْنَا عَلَيْنَا اللَّيْلَ، وَاللَّيْلُ رَاضِعٌ * إِلَى أَنْ تَرَدَّى رَأْسُهُ بِمَشِيبِ.
بِحَالِ تَرَدُّ الْحَاسِدِينَ بَغِظْهُمْ * وَتَطَرَّفَ عَنَّا عَيْنَ كُلِّ رَقِيبِ.
إِلَى أَنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ * مَبَادِي نُصُولٍ فِي عِذَارِ خَضِيبِ.

وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة :

وَأَسْتَهَلَّتْ لِمَصْرِعِ اللَّيْلِ وَرُقًى * ثَا كَلَاتٍ، حَدَادُهَا التَّطْوِيقُ.
فَتَضَاكَتْ شَامِتًا وَكَأَنَّ الصَّبْحَ جِيبٌ عَلَى الدَّجَى مَشْقُوقُ.

وقال أبو بكر الصنوبري :

وَلَيْلَةٌ كَالرَّفْرِفِ الْمُعْلِمِ * مُحْفُوفَةِ الظُّلَمَاءِ بِالْأَنْجَمِ.
تَعَلَّقَ الْفَجْرُ بِأَرْجَائِهَا، * تَعَلَّقَ الْأَشْقَرُ بِالْأَدْهَمِ.

وقال السلامي، شاعر اليتيمة :

وَقَدْ خَالَطَ الْفَجْرُ الظُّلَامَ كَمَا آتَى * عَلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ وَرَدٍ وَأَدْهَمِ.

وعَهْدِي بِهَا ، وَاللَّيْلُ سَاقٍ وَوَصَلْنَا * عَفَّارٌ ، وَقُوَهَا الْكَأْسُ أَوْكَأُسُهَا الْقَمُ .
إِلَى أَنْ بَدَرْنَا بِالنَّجُومِ ، وَغَرِبُهَا * يَفْضُ عُقُودَ الدَّرِّ وَالشَّرْقُ يَنْظُمُ .
وَنَبَّهْتُ فِتْيَانَ الصَّبُوحِ لِلدَّةِ * تَلُوحُ كَدِينَارٍ يُغَطِّيهِ دِرْهُمُ .



ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم اليبساني . عفا الله عنه . جاء منها :

”فلما قضى الليل نحبّه . وأرسل الصباح على دُهمه شُبهه بشمر الليل إزاره ، ووضع
النجم أوزاره ، ونزح بالطيف طارداً ، وظل وراء الصبح ناشداً ، وبخر الفجر نهر
النهار ، وآسرتد البنفسج وأهدى البهار ، فمواكب الكواكب منهزمه ، وغرّة الفجر
كغرة مولاي مبتسمه“ .



ومما يدخل في هذا الباب ، ما حكى أن بعض الأعراب تزوج بأربع نسوة ، فأراد
أن يختبر عقولهن .

فقال لإحداهن : إذا دنا الصبح فأيقظيني . فلما دنا الصبح ، قالت له : قم ،
فقد دنا الصبح ! فقال : وما يدريك ؟ قالت : غارت صغار النجوم وبقى أحسنها
وأضوؤها وأكبرها . وبرد الحلي على جسدي ، وآستلذذت بأستنشاق النسيم . فقال
لها : إن في ذلك دليلاً .

ثم بات عند الثانية ، فقال لها مثل مقالته للأولى . فلما دنا الصبح ، أيقظته .
فقال لها : وما يدريك ؟ قالت : ضحكت السماء من جوانبها ، ولم تبق نابتة إلا فاحت
روائحها . وعيني تطالبنى بإغفاءة الصباح . فقال لها : إن في ذلك دليلاً .

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، أيقظته . فقال لها : وما يدريك ؟ فقالت : لم يبق طائر إلا غرد، ولا ملبوس إلا برد، وقد صار للطرف فى الليل مجال، وليس ذلك إلا من دنو الصباح . فقال لها : إن فى ذلك لدليلا .

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح ! فقال لها : وما يدريك ؟ قالت : أبت نفسى النوم، وطلبنى فمى بالسواك وأحتجت إلى الوضوء . فقال لها : أنت طالق، فإنك أقبحهن وصفا .

١١ - ذكر ما قيل فى النهار

والنهار طبعى، وشرعى .

فالطبعى زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه فى المغرب . والشرعى ما بين انفجار الفجر الثانى إلى غروب الشمس .
والفجر بخران : الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل، والفجر الصادق بياض مستطير .

§ وقد وضعت العرب لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهى :
الدُّرُورُ، ثم البُزُوعُ، ثم الضُّحى، ثم الغَزَالَةُ، ثم الهاجرة، ثم الزَّوَالُ، ثم الدُّلُوكُ،
ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصُّبُوبُ، ثم الحُدُورُ، ثم الغُروبُ .
ويقال أيضا : البُكُورُ، ثم الشُّرُوقُ، ثم الإِشْرَاقُ، ثم الرَّأْدُ، ثم الضُّحى، ثم المُتَوَعُ،
ثم الهاجرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْرُ، ثم الطَّفْلُ، ثم العِشَى، ثم الغُروبُ .
ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس .

وحكى الثعالبي في كتاب فقه اللغة — عن حمزة بن الحسن — قال: وعليه عهدتها :
الشروق، ثم البكور، ثم الغدوة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهيرة، ثم الرواح،
ثم العصر، ثم القصر، ثم الأصيل، ثم العشي، ثم الغروب.

§ وكانت العرب العاربة تُسمى أيام الأسبوع بأسماء غير هذه التي تتداولها الناس
في وقتنا هذا، وهي :

”أَوَّلُ“ وهو الأحد ”أَهْوَنُ“ وهو الاثنين ”جَبَّارُ“ وهو الثلاثاء ”دُبَّارُ“
وهو الأربعاء ”مُؤْنِسُ“ وهو الخميس ”عَرُوبَةُ“ وهو الجمعة ”شِيَارُ“ وهو السبت.
نظم ذلك شاعر فقال :

أَوْمَلُ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي * لِأَوَّلِ أَوْ لِأَهْوَنَ أَوْ جَبَّارِ،
أَوْ التَّالِي دُبَّارَ وَإِنْ أَفْتَتَهُ * مُؤْنِسُ أَوْ عَرُوبَةَ أَوْ شِيَارِ.



١٢ — ذكر الأيام التي خُصَّت بالذكر

منها :

§ الأيام المعلومات . وهي عشر ذى الحجة . وفيها يوم التروية . وهو اليوم الثامن
سمى بذلك لأنهم يرتبون من الماء لما بعده ، لأن منى لا ماء بها .

§ الأيام المعدودات . هي أيام التشريق . وعدتها ثلاثة بعد يوم النحر . سميت
بذلك لأنهم كانوا يشترقون فيها لحوم الأضاحي في الشمس والهواء ، لئلا تفسد .

§ أيام العجوز . ويقال فيها الأيام الأعجاز . وهي سبعة : أولها السادس والعشرون
من شباط من شهور الروم ، والخامس من برمهات من شهور القبط . وهي لا تخلو
من رياح وبرد . وسميت بالعجوز : لأنها في حِجْرِ الشتاء .

§ يوم عبيد ، مَثَلٌ لليوم المنحوس . كان عبيد بن الأبرص قد تصدّى للنعمان في يوم يؤسه الذي لا يُفْلَحُ مَنْ لقيه فيه ، كما لا يَحْيَبُ مَنْ لقيه في يوم نعيمه ، قال أبو تمام :

مَنْ بَعْدَ مَا ظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّهُ ۖ سَيَكُونُ لِي يَوْمٌ كِيَوْمِ عَبِيدٍ .

§ يوم المطر . يضرب مثلاً في كفر النعمة . وذلك أنه حكى عن المعتمد على الله آبن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية في مجلس أنس ، والزمان فيه قَيْطٌ . فتمنّت عليه غيا ومطرا . فأمر بجامر العنبر والعود والنَّد ، حتى آنعقد الدخان كالضباب ، ثم أمر برش صحن المجلس بماء الورد من أعلاه . وحصل بينهما بعد ذلك نبوة ، فقالت له : مارأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قَطُّ ! فقال لها : ولا يوم المطر^(١) ؟ صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله : إِنْهَنْ يَكْفُرَنَّ الْعَشِيرَ .

§ يوم عاشوراء . وهو اليوم العاشر من المحرم . ورد في فضله أحاديث كثيرة . ويقال إن نوحا (عليه السلام) ركب السفينة فيه فصامه وأمر من معه بصومه . وصحّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هاجر ، رأى اليهود في المدينة صياما في هذا اليوم . فسألهم عنه ، فقالوا : هذا اليوم الذي نجّى الله تعالى فيه موسى وبني إسرائيل ، وأغرق فرعون وقومه . فنجحنا نصومه شكرا لله تعالى . فقال (عليه الصلاة والسلام) : أنا أحقُّ بأنحى موسى . ثم أمر مناديا فنادى : مَنْ أَكَلَ فَلْيُمْسِكْ ، وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ فَلْيَصُمْ !

وفيه قُتِلَ الحسين بن عليّ (رضى الله عنهما) .

(١) راجع رواية أوفى في نفح الطيب للقرى وقد سماه "يوم الطين" . (ص ٢٨٧ ج ١ طبعة ليدن) .

١٣ - ذكر أيام أصحاب المثلث

§ يوم الجمعة، للسامين . وسبب اتخاذهم له أنه اليوم الذي أتم الله فيه خلق العالم، وأوجد فيه أبا البشر آدم (عليه السلام) وفيه قُبِضَ ، وفيه يكون النفخ في الصور، وفيه الصَّعَقُ، وفيه الساعة التي لا يُصَادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له .

§ يوم السبت، لليهود . وَحُجَّتْهُمْ عَلَى اتِّخَاذِهِمْ لَهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبْتَدَأَ خَلْقَ الْعَالَمِ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَفَرَّغَ مِنْهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأَنَّ يَوْمَ السَّبْتِ يَوْمٌ فَرَاغٌ وَدَعَا . ولهم في ذلك أقوال كثيرة .

§ يوم الأحد، للنصارى . ذكر في سبب اتخاذهم له أن الله (سبحانه وتعالى) أَبْتَدَأَ فِيهِ بِخَلْقِ الْأَشْيَاءِ .

١٤ - ذكر ما يُمَثِّلُ به مما فيه ذكر النهار

يقال :

أطول من يوم الفراق . أضوأ من نهار . أنور من وضح النهار .

ويقال :

يَذْهَبُ يَوْمُ الْحَمِّ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ . مَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بَسِيرًا . مَنْ يَرِ يَوْمًا يُرِ بِهِ . يَوْمُ السُّرُورِ قَصِيرٌ . الْيَوْمَ نَحْمَرُ وَغَدًا أَمْرٌ . الْيَوْمَ عَيْشٌ وَغَدًا خَيْشٌ . الْيَوْمَ فِعْلٌ وَغَدًا ثَوَابٌ . يَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا . لِكُلِّ قَوْمٍ يَوْمٌ .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يَخْفَى عَلَى النَّاسِ النَّهَارُ * وفي اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ مُعْتَبَرٌ *

ومن الأبيات :

وَأَلَهُ مَا أَمَكْنَ يَوْمَ صَالِحٍ * إِنَّ يَوْمَ الشَّرِّ لَا كَانَ عَتِيدًا !

وقال آخر :

أَمَامَ ! لَا أَدْرِي ، وَإِنْ سَأَلْتِ : * مَا نُسَكُّ يَوْمَ جُمُعَةٍ مِنْ سَبْتٍ .

وقال آخر :

وَأَيَّامُ ! الشُّرُورِ مُقَصَّصَاتٌ * وَأَيَّامُ الشُّرُورِ تَطِيرُ طَيْرًا .

وقال آخر :

لَا تَحْمَلَنَّ هُمُومَ أَيَّامٍ عَلَى * يَوْمٍ ، لَعَلَّكَ أَنْ تُقْصَرَ عَنْ غَدِهِ .

١٥ - ذكر شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر ، يصفه بالقصر :

ويوم سُرُورٍ قَدْ تَكَامَلَ وَصْفُهُ * سِوَى قِصَرٍ ، لَا عِيبَ فِيهِ سِوَاهُ !
وَعَهْدِي بِهِ كَالرُّمْحِ طَوَّلًا ، فَعِنْدَمَا * هَزَزْنَاهُ لِلَّهِوَ الْتَقَى طَرْفَاهُ .



وقال آخر :

بِأَبِي مَنْ نَعِمْتُ مِنْهُ بِيَوْمٍ ، * لَمْ يَزَلْ لِلشُّرُورِ فِيهِ نُمُو !
يَوْمٌ لَهُوَ ، قَدْ الْتَقَى طَرْفَاهُ * فَكَأَنَّ الْعَشَى فِيهِ غُدُو .

وقال آخر :

لَمْ يَنْتَشِرْ فَلَقُ الْإِصْبَاحِ مِنْ قِصَرٍ * فِيهِ إِلَى أَنْ طَوَاهُ فَيَلْقَى الْغَسَقُ .
وَلَمْ يَكُنْ مُلْتَقَى جَفْنِي أَنْحَى رَمْدٍ * كَلْتَقَى طَرْفِيهِ : الصُّبْحُ وَالشَّفَقُ .
وَمَا تَنَاوَلْتُ فِيهِ الرِّطْلَ مُصْطَطِحًا * إِلَّا أَعَادَتْهُ مِنِّي كَفُّ مُغْتَبِقِي .

وقال آخر :

لِلَّهِ يَوْمٌ مَّسْرَةٌ * أَضَوًّا وَأَقْصَرُ مِنْ دُبَالَةٍ !
لَمَّا نَصَبْنَا لِلْنِّفَى * فِيهِ بِأَشْرَاكِ حَبَالَهُ ،
طَارَ النَّهَارُ مَرَوَّعًا * فِيهِ وَأَجْفَلَتِ الْغَزَالَةُ !

وقال آخر :

حُثَّ الْكُذُوسُ ! فَذَا يَوْمٌ بِهِ قِصْرٌ ، * وَمَا بِهِ مِنْ تَمَامِ الْحُسْنِ تَقْصِيرُ .
صَحَّوْا وَغَيْمٌ ، يَرُوقُ الطَّرْفَ حُسْنُهُمَا : * فَالْصَّاحُوفُ فَيُرْزَجُ ، وَالْغَيْمُ بَلُورُ .

وقال آخر :

وَيَوْمَ حَكَلَى الْغَايَاتِ سَلْبَتُهُ * حُلَى الرَّبَا حَتَّى آتَنَتْنِي وَهُوَ عَاطِلُ .
سَبَقَتْ إِلَيْهِ الشَّمْسُ ، وَالشَّمْسُ غَضَّةٌ * وَصَبَغُ الدَّجَى مِنْ مَفْرِقِ الْفَجْرِ نَاصِلُ .



ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسي :

الْيَوْمُ يَوْمٌ بَكَتْ أَمْطَارُهُ ، وَضَحِكَتْ أَزْهَارُهُ ، وَتَقَنَعَتْ شَمْسُهُ ، وَتَعَطَّرَ نَسِيمُهُ ،
وَعِنْدَنَا بُلْبُلٌ هَزَجَ ، وَسَاقٍ غَنَجَ ، وَسَلَافَتَانِ : سَلَافَةُ إِخْوَانٍ ، وَسَلَافَةُ دِنَانٍ ، قَدْ
تَشَاكَلْنَا فِي الطَّبَاعِ ، وَأَزْدَدَوْجَانَا فِي إِثَارَةِ السَّرُورِ . فَأَنْحَرِقْ إِلَيْنَا سُرَادِقَ الدَّجَنِ تَجِدُ
مَرَّأَى لَمْ يَحْسُنْ إِلَّا لَكَ ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِكَ .

ومن كلامه أيضا :

لَمْ نَلْتَقِ مِنْذُ عَرَيْنَا مَرْكَبَ اللَّهِو ، وَأَخْلَيْنَا رَبْعَ الْأَنْسِ ، وَقَصَصْنَا جَنَاحَ الطَّرَبِ ،
وَعَبَسْنَا فِي وُجُوهِ اللَّذَاتِ . فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَخِيفَ إِلَى مَجَاسٍ قَدْ تُسِيخَتْ فِيهِ الرِّيحُ

بالدواوين، والمجامر بالمحابر، والأطباق، بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛
وَأَسْتَمَاعُ الْأَوْتَارِ، بِأَسْتَمَاعِ الْأَخْيَارِ، وَبَسْمِجِ الْبَلَابِلِ، بِبَسْمِجِ الرِّسَائِلِ؛ كَأَنَّ أَشْمَذَ
لِذَهْنِكَ، وَأَرْشَدَ لِرَأْيِكَ .

١٦ - ذكر شيء مما وصفت به الآلات

الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهل هذا الفن لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلون بها
على معرفة ماضى من ذلك وما بقى، ولتحرير المواقيت: كالْأَصْطِرْلَابِ، وَالطَّرْجَهَارَةِ
وَالْبِنْكَامِ .

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما نقف
عليه . ١٠

١ - فأما الْأَصْطِرْلَابُ وما قيل فيه .

فقال أبو طالب، عبد السلام المأمونى :

وشبيه بالشمس يَسْتَرِيقُ الْأَنْشَوَارَ مِنْ نُورِ حُرْمِهَا فِي خَفَاءِ .
فَتَرَاهُ أَذْرَى وَأَعْلَمَ مِنْهَا ، * وهو فى الأرض، بالذى فى السماء .

وقال أيضا : ١٥

وعالم بالغيب من غير ما * سَمِعَ، وَلَا قَلْبَ، وَلَا نَاضِرَ !
يُقَابِلُ الشَّمْسَ فَيَأْتِي بِمَا * صُمِّنَا مِنْ خَيْرِ حَاضِرِ .
كَأَنَّهَا نَاجَتْهُ لَمَّا بَدَأَ * لِعَيْنِهَا بِالْفِكْرِ وَالْخَاطِرِ .
وَأَلْهَمَّتْهُ عِلْمَ مَا يَحْتَوِي * عَلَيْهِ صَدْرُ الْفَلَكِ الدَّائِرِ .

وقال أبو إسحاق الصابى ، وقد أهداه فى مهرجان إلى مخدمه :

أهدى إليك بنو الآمال واجتهدوا * فى مهرجانٍ جديدٍ أنت تُبليسه .
لكنَّ عبدك إبراهيم ، حين رأى * سموَّ قدرِكَ عن شَىءٍ يُساميه .
لم يرض بالأرض يهديها إليك فقد * أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه !

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز :

أفضل ما استصحب النبل فلا * يُعدّل به فى المقام والسفر ،
حرم إذا ما التمت قيمته * جلّ عن التبر وهو من صُفر .
مُختصر وهو إذ تفتّشه * عن ملج العلم غير مختصر .
دو مُقلة تستير ما رمقت * عن صائب اللحظ صادق النظر .
تحمّله وهو حامل فلكا * لو لم يدر بالنبات لم يدر .
مسكنه الأرض وهو يُبئنا * عن جلّ ما فى السماء من خبر .
أبدعه ربُّ فكرةٍ بعدت * فى اللطف عن أن تُقاس بالفكر .
فاستوجب الشكر والثناء به * من كلّ ذى فطنةٍ من البشر .
فهو لذى اللب شاهدٌ عجب * على اختلاف العقول والفطر .

وكتب أبو الفرج البغاء يصف أطرلابا أهداه فقال :

آثرتك — أيدك الله — يبرهان الحكمة ونسبها ، ومدار الفلسفة وقطبها ، ومُرشد الفكر
ومناره ، وميزان الحسن ومِعاره ، ونافى الشك ومُزيله ، وشاهد الأثير ودليله ، ومصوّر
الحكمة ومُثلها ، ومقسم البروج ومعدّلها ، وموقف النجوم ومسيرها ، وجامع الأقاليم
ومدبرها ، ومرآة الحيك ، وصورة الفلك ، وأمين الكواكب ، وحدّ المشارق والمغارب ،
مما اخترعت العقول تسطيحه ، وأتقن الحُساب تصحيحه ، وتمارت الفطن

في ترتيبه ، وأصطلحت الحكماء على تركيبه ، فأوضحت بالنقش تقسيمه ، وأبانت بالكتابة رُسومه ، إلى أن شافها بالارتفاع على بعد مسافته ، وحصر متفرق الأمور في خرق عضادته ، وأحتوى على قطري الشمال والجنوب ، وأطلع باللفظ على خفيات الغيوب ، الملقب بالاصطرلاب ، الفاصل بين الخطأ والصواب .

وقال أبو نصر الكاتب فيه :

قطب الزمن ومداره ، وميزان الفلك ومياريه ، وأساس الحكمة وموضوعها ، وتفصيل الفطنة ومجموعها ، الناطق في صمته ، المؤفي على نعته ، مظهر السر المكنون ، المخبر بما كان وما يكون ، ذو شكل مقمر مستدير ، ولون مشمس مستنير ، ومنطقة محيطة بأجزائه ، وخطوط معدلة على أعضائه ، وكتابة مطبقة بتدويره ، ورموز بأحده بضميره ، متقابل الأهداف ، متكامل الأوصاف ، بحجرة مسكونه ، وصفائح مصونه ، وقد موموق ، وباب مطروق ، للعلم فتحه ورتاجه ، وعليه طريقه ومنهجه ، إذا أنتصب قال حميد ، وإذا اضطجع عي فلم يفد ، صفري الانتساب ، ذهبي الإهاب ، يخترق الأنوار من نقابه ، ويستخدم الشمس في حسابه ، يجمع الشرق والغرب في صفحته ، ويستتره الحامل في راحته ، رافعه ينظر من تحته ، وأخباره تسند عن خريته .

٢ — وما قيل في طرجهارة .

قال أبو الفتح كشاجم يصفها :

رُوح من الماء في جسم من الصُفْرِ * مؤلف باطيف الحس والفكر .

(١) هي من الآلات التي تعرف بها الساعات . ولهم آلات أخرى في هذا المعنى مثل صندوق الساعات ،

دبة الساعات ، الرخامة ، المكحلة ، اللوح (أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبع ليدن ص ٢٣٥) .

- له على الظاهر أجفانٌ مُحَجَّرَةٌ * وَمُقَلَّةٌ دَمْعُهَا جَارٍ عَلَى قَسَدٍ .
 تُنْشَأُ لَهُ حَرَكَاتٌ فِي أَسَافِهِ * كَأَنَّهَا حَرَكَاتُ الْمَاءِ فِي الشَّجَرِ .
 وَفِي أَعَالِيهِ حُسَابٌ مُفَصَّلَةٌ * لِلنَّاطِرِينَ بِأَلَا ذِهْنٍ وَلَا نَظَرٍ .
 إِذَا بَكَى ، دَارَ فِي أَحْشَاءِهِ فَلَكُ * خَافِي الْمَسِيرِ ، وَإِنْ ، لَمْ يَبْكْ لَمْ يَدُرْ .
 وَمُخْرِجٌ لَكَ بِالْأَجْزَاءِ الْطَفَهَا * مِنَ النَّهَارِ ، وَقَوْسُ اللَّيْلِ فِي السَّحَرِ .
 مُتَرَجِّمٌ عَنْ مَوَاقِيْتٍ يُحْصِرُنَا * عَنْهَا فَيُوجِدُ فِيهَا صَادِقَ الْخَبَرِ .
 تُقْضَى بِهِ الْخَمْسُ فِي وَقْتِ الْوُجُوبِ وَإِنْ * غُطِّيَ عَلَى الشَّمْسِ أَوْ غُطِّيَ عَلَى الْقَمَرِ .
 وَإِنْ سَهَرْتُ لِأَسْبَابٍ تُؤَرِّقُنِي * عَرَفْتُ مَقْدَارَ مَا أَلْقَى مِنَ السَّهَرِ .
 مُحَدِّدٌ كُلَّ مِيقَاتٍ ، تَخَيَّرَهُ * ذَوُو التَّخْيِيرِ لِلْأَسْبَابِ وَالسَّفَرِ .

الباب الثاني

١٠

من القسم الثالث من القرن الأول

في الشهور والأعوام

- نذكر في هذا الباب الشهور العربية ، وأشتقاقها ، والشهور العجمية ، ودخول بعضها
 في بعض ، والسنين القمرية ، والشمسية ، والنسب ، ومعناه ، وما يجري هذا المجرى ، مما
 لمناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته . وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومنته ! .

١٥

١ - ذكر الشهور وما قيل فيها

- الشهر إما طبيعي ، وإما اصطلاحى .
 فالطبيعى هو مدة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى .

وقال آخرون : هو عود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأول .

وأما الاصطلاح ، فهو مدة قطع الشمس مقدار برج من بروج الفلك . وذلك ثلاثون يوما ، وثلاث عُشر يوم بالتقريب . وهذا مذهب الروم ، والسريان ، والفُرس والقبط . والله (سبحانه وتعالى) أعلم !

٢ - ذكر الأشهر العربية



(وما يختص بها من القول)

والأشهر العربية قسمان : قسم غير مستعمل ، وهو الذي وضعته العرب العاربة ؛ وقسم مستعمل ، وهو الذي وضعته العرب المستعربة . وكلا القسمين موضوع على الأشهر القمرية .

١٠ فإما القسم غير المستعمل ، فهو أسماء كانت العرب العاربة أصطلحوا عليها ، وهي : مؤتمر ، ناجر ، خَوَان ، صوان (ويقال فيه : بُصَان) ، رُثى ، أَيْدَة ، الْأَصَمُّ ، عَادِل ، نَاطِل ، واغِلُّ ، وَرْنَة ، بُرْك .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة . والذي ذكرناه منها هو المشهور ، ويدل عليه قول الشاعر :

بمؤتمِرٍ وناجرٍ آبتدأنا * وبالخَوَانِ يتبعه البَصَانُ
ورُثَى ثُمَّ أَيْدَة تليهِ * تعودُ أَصَمُّ صَمَّ به السَّنَانُ
وعادله وناطله جميعاً * وواغله فهم غُرَرُ حِسَانُ
وورْنه بعدها بُرْك فتمت * شهورُ الحول يعقدها البَنَانُ .

§ وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة :

المَحْرَمُ، صَفَرُ، الرَّيْبَعَانِ، الْجَمَادِيَانِ، رَجَبٌ، شَعْبَانُ، رَمَضَانُ، شَوَّالٌ، ذُو الْقَعْدَةِ،
ذُو الْحِجَّةِ .

- قيل : وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت في كل شهر، فسمى الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرم محرمًا : لأنهم أغاروا فيه . فلم ينجحوا، فحرموا القتال فيه، فسموه محرمًا . وسموا صفرًا : لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات . وقيل : لأنهم كانوا يغيرون على الصفرية، وهي بلاد . وشهر ربيع : لأنهم كانوا يُحْصِبُونَ فيها بما أصابوا في صفر، والربيع الحُصْبُ . والجماديان : من جمد الماء، لأن الوقت الذي سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامدا فيه لبرده . ورجب : لتعظيمهم له . والترجيب التعظيم . وقيل : لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب . وهي أنامل الأصبع الوسطى . وقيل : إن العود رجب النبات فيه أى أخرجه، فسمى بذلك . وكذلك تشعب العود في الشهر الذى يليه، فسمى شعبان . وقيل : سمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمى رمضان، أى شهر الحر . مشتق من الرضاء . وشوال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع . وذو القعدة : لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم . وذو الحجة، لأن الحج اتفق فيه، فسمى به .

ويقال إن أول من سماها بهذه الأسماء، كلاب بن مرة .

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سرّد، وهى : ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وواحد فرد، وهو رجب .

هذا ما رواه الأصمعي عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم. وأختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة أشهر في سنة واحدة. وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهي : شهر ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان^(١).

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها.

٣ — وأما شهور اليهود

فأسماءها :

تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

٤ — وأما الشهور العجمية

فإنها شمسية. وهي أقسام، بحسب الأعم التي تنسب إليهم.

فمنها الشهور القبطية، وتنسب لدقلايانوس. وكل شهر منها ثلاثون يوما. وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسا في آخر شهر منها، وهي :

توت، باب، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمها، برمودة، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى.

وأول توت يكون النوروز. وفي أول يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهي أربعون يوما باردة تؤذن بالشتاء. وفي الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهي أيام حارة تؤذن بالصيف.

٢٠ (١) أى لا يقال: ربيع الأول، ربيع الثاني، رجب، رمضان. بل يضيفون إلى كل منها لفظة "شهر".

§ ومنها شهور السريان والروم . وهما متفقان في العدد والدخول . والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطس . وهو قيصر . وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين ، ومنها ما يوفيها . ومنها ما يزيد عليها . وفيها يقول الكيزاني :

شهور الروم ألوان : * زيادات ونقصان .
فأشهرتهم الثاني : * وأيلول ونيسان .
ثلاثون . ثلاثون . * سبوء . وحريران .
وأشباط ثمان بعشده عشرين له شأن .

والسبعة التي تركها . كل شهر منها يزيد يوما .

ووضع لها بعض المغاربة ضابطا . وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها في أربع كلمات . وهي : "فأز رجل ختم بحج" . وجمعها آخر في مثل ذلك فقال : "غاب عنك زيد حج" . فما كان معجما فهو أحد وثلاثون يوما . وما كان مهملا فهو ثلاثون . والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون .

وأول سنة السريان تشرين الأول . ودخوله رابع بابه . ويوافق أكتوبر من شهور الروم . وهو أحد وثلاثون يوما . ثم تشرين الثاني . ودخوله في الخامس من هاتور ، ويوافقته نومبر من شهور الروم . وهو ثلاثون يوما . ثم كانون الأول ، ودخوله في الخامس من كيهك . ويوافقته دجنبر من شهور الروم . وهو أحد وثلاثون يوما .

(١) هو القيصر الروماني المشهور . نقلا عن اللاتينية Augustus . ولكن العرب حينما عربوا الشهر المعروف باسمه اكتفوا بقوهم أغسطس (August) للتمييز بين اللغتين . وأما نحن في هذه الأيام فقد تركنا هذا الفارق ونقول في تسمية هذا الشهر "أغسطس" أيضا .

(٢) Novembre . ونقول في مصر الآن نوفمبر .

(٣) Décembre . ونقول في مصر الآن ديسمبر .

ثم كانون الثاني، ودخوله في السادس من طوبه، ويوافقته ^(١) يناير من شهور الروم، وهو أول سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوما، ثم شباط، ودخوله في السابع من أمشير ويوافقته فبراير من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يوما وربع يوم، ثم آذار، ودخوله في الخامس من برمات، ويوافقته مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم نيسان، ودخوله في السادس من برمودة، ويوافقته أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما، ثم أيار، ودخوله في السادس من بشنس، ويوافقته مايو من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم حزيران، ودخوله في السابع من يؤونة، ويوافقته يونيو من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما، ثم تموز، ودخوله في السابع من أبيب، ويوافقته يوليو من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم آب، ودخوله في الثامن من ^(٢) مسرى، ويوافقته أغسطس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما، ثم أيلول، ودخوله في الرابع من توت، ويوافقته ^(٣) ستنبر من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما، ^(٤)



§ ونظم بعض الشعراء أرجوزة في مداخلة الشهور، فقال :

وإن حَفِظْتَ أَشْهُرَ السُّرْيَانِ * وَكُنْتَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى بَيَانِ .
وَرُمْتَ مِنْهَا عَمَلَ الْمَنَازِلِ * فَإِنَّهَا مَعْلُومَةُ التَّدَاخِلِ .

١٥

(١) Janvier . ونقول في مصر الآن يناير . (وقد كان عربيه المرحوم رفاعه بك بقوله : "ينويه")

غير ان هذا الاصطلاح لم يعمل به .

(٢) Février . ونقول في مصر الآن فبراير (مع الإشباع) .

(٣) أنظر حاشية رقم (١) من صفحة ١٦٠

(٤) نقول الآن في مصر "سبتمبر" مجازة للنطق الفرنسي الحديث Septembre . على أنهم يقولون

٢٠

"ست" عند ما يريدون السبعة Sept بإهمال حرف الباء، فإذا أرادوا السبعين لقضوا بالباء .

أيلول يبدو رابعاً من توت * هذا بحكم النظر المتيقن .
وهكذا تشرين وهو الأول * من بابة أربعة تكمل .
أول تشرين الأخير يدخل * ومن هاتور خمسة يارجل .
أول كانون وأعني الأول * وخامس من كيهك تعديلاً .
أول كانون الأخير سادس * من طوبة فيها يقيس القائن .
ومن شباط أول يوافي * سابع أمشير بلا خلاف .
أول آذار حساب صادق * من برمهاث خامسا يوافق .
برمودة سادسه وأول * نيسان وفق ليس عنه معدل .
أول أيار بغير لبس * يوافق السادس من بشنس .
بثونة وافق منه سابعه * أول حزيران لما يتابعه .
أول تموز على الترتيب * يدخل في السابع من أيب .
أول آب ثامن من مسرى ، * العلم بالمرء اللبيب أحرى .

وقال بعض الشعراء في مثل ذلك :

متى تشأ معرفة التداخل * من أول الشهور في المنازل .
فعد من توت بلا تطويل * أربعة فهي آبتدا أيلول .
وبابة كذاك من تشرين * الأول السابق في السنين .
والخامس المعدود من هاتور * أول تشرينهم الأخير .
أول كانون بغير دلسه * إذا نقصت من كيهك خمسة .
وطوبة إن مرة منه ستة * أذاك كانون الأخير بغتته .

- ومن شباط أول يوافق * سابع أمشير، حساب صادق .
 أول آذار إذا جعلته * لبرمهاث خامسًا وجدته .
 أول نيسان لدى التجريد * السادس المعدود من برمود .
 ومثله أيّار مع بشنس * واحدة مقرونة بخمس .
 أما حزيران فيحسبونه * من أول السابع من بؤونه .
 كذلك السابع من أبيب * أول تموز بلا تكذيب .
 أول آب عند من يحصل * ثامن مسرى ذاك ما لا يحل .



§ وأما شهور الفرس، فهى موافقة لشهور القبط فى العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون يوما، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء، ويسمونها الاندركاه . ولكل يوم من أيام الشهر اسم خاص، يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به . فأسماء المشهور منها : افريدون ماه (وهو رأس سنتهم) . أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، برم ماه، مهر ماه، أبان ماه، ادر ماه، دى ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه . ويعنون بقولهم "ماه" القمر .



المثل — قول بعض الشعراء :

شهور ينقضين وما شعرنا * بأنصاف لهن ولا سرار

٥ - ذكر ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من اختلاف الأئم في ابتدائها وانتهائها، والفرق بين السنة والعام
 § أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون "سنة جَدْبٌ" و "عامٌ خَضْبٌ". قال
 الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ . وقال تعالى :
 ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعِصْرُونَ ﴾ .

والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمى واحد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَيْتَ
 فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ .
 § والسنة طبيعية ، وأصطلاحية .

فالتبعية قمرية : وأولها استهلال القمر في غرة المحرم ، وانسلاخها بسرايه
 في ذى الحجة . وهي اثنا عشر شهرا . وعدد أيامها ثلثائة يوم وأربعة وخمسون يوما .
 ونحوه وسدس يوم تقريبا . ويتم من هذا الخمس والسادس في ثلاث سنين يوما ،
 فتصير السنة في الثالثة ثلثائة وخمسة وخمسين يوما . ويبقى شيء يتم منه ومن خمس
 اليوم وسدسه المستأنف في السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما
 عند تمام ثلاثين سنة . وتسمى تلك السنين كجائس العرب .

وأما السنة الاصطلاحية فإنها شمسية ، وعدد أيامها عند سائر الأئم ثلثائة يوم
 وخمسة وستون يوما وربع يوم . فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف
 يوم وربع يوم وثمان يوم وخمسا من خمس يوم .

ويقال : إنهم كانوا في صدر الإسلام يُسقطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة
 عربية سنة ، ويسمونها الأزدلاف . لأن كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتان

وثلاثون سنة شمسية تقريبا . وذلك لتجرزهم من الوقوع فى النسيء الذى أخبر الله عز وجل أنه زيادة فى الكفر . وهذا الأزدلاف هو الذى نسميه فى عصرنا هذا بين كتاب التصرف " التحويل " . لأننا نحول السنة الخراجية إلى الهلالية ، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان .

٥ § وسنة العالم — على ما آتفق عليه المنجمون — هى من حين حلول الشمس رأس الحمل ، وهو الاعتدال الربيعى . ومنهم من يجعل أولها من حين حلول الشمس رأس الميزان ، وهو الاعتدال الخريفى .

§ وأبتداء سنة القبط قطع الشمس اثنتى عشرة درجة من السنبلة ، وأبتدؤا بفعل ذلك فى زمن أغسطس ، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الزيجات .

١٠ § وأما الفُرس ، فأول سنتهم عند حلول الشمس أول نقطة من الحمل^(١) .

§ وأما السُريانيون ، فأول سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ست عشرة درجة .

٦ — ذكر النسيء ومذهب العرب فيه

يقال إن عمرو بن لُحى ، وهو نخاعة — ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعى — هو أول من كَسَأَ الشهور ، وبحر البحيرة ، وسَيَّبَ السائبة ، وجعل الوصيلة ، والحامى . وهو أول من دعا الناس إلى عبادة هُبَل ، قدم به معه من هيت .

ومعنى النسيء أنهم يُنْسِئُونَ المحرم إلى صَفَر ، ورجب إلى شعبان .

(١) وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن .

وكان جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة ، وكانوا يتحرّجون فيها من القتال . وكانت قبائل منهم يستدبحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام ، حرموا مكانه شهرا من أشهر الحل ، ويقولون نُبِئَ الشهر .

وحكى ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أول من نَسَأَ الشهور على العرب ، وأحلّ منها ما أحلّ ، وحرم ما حرم ، القامس .
وهو حذيفة بن قثيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة .

ثم قام بعدد ولده عباد ، ثم قام بعد عباد ابنه قلع ، ثم قام بعد قلع ابنه أمية ، ثم قام بعد أمية ابنه عوف ، ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة ، وعليه ظهر الإسلام . فكانت العرب إذا فرغت من حجها ، اجتمعت عليه بمنى ، فقام فيها على جبل ، وقال بأعلى صوته : « اللهم إني لا أخاف ولا أعاف ، ولا مرد لما قضيت ! اللهم إني أحملت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم . وقع اتفاقهم على شئ الغارات فيه) وأنسأته إلى العام القابل (أي أخرت تحريره) وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى ! »
وكانوا يحلون ما أحلّ ، ويحرمون ما حرم .

وفى ذلك يقول عمرو بن قيس بن جندل الطعان ، من أبيات يفتخر :
أَلَسْنَا النَّاسِيْنَ عَلَى مَعَدٍّ • شُهُورَ الْحِلِّ ، نَجْعَلُهَا حَرَامًا ؟

وحكى السهيلي في كتابه المترجم " بالروض الأنف " أن نسيء العرب كان على ضربين : أحدهما تأخير المحرم إلى صفر لحاجاتهم إلى شئ الغارات وطلب الثأر ، والثاني تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية . فكانوا يؤخرونه في كل عام

(١) في اللسان : " أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء " .

أحد عشر يوماً حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة . حج بالناس أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فوافق حجه في ذى القعدة ، ثم حج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في العام القابل فوافق عود الحج إلى وقته في ذى الحجة كما وضع أولاً . فلما قضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حجه ، خطب فكان مما قال في خطبته (صلى الله عليه وسلم) : ” إِنَّ الزَّمانَ قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض “ . يعنى أن الحج قد عاد في ذى الحجة .

٧ — ذكر السنين التي يضرب بها المثل

يُضْرَبُ المثل :

§ بعام الجراد . كان سنة ثمان من الهجرة .

١٠ § عام الحزن . وهى السنة التي مات فيها أبو طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وخديجة (رضى الله عنها) وهى سنة عشر من الهجرة ، وكان موتها بعده بثلاثة أيام وقيل بسبعة .

١٥ § عام الرمادة . كان سنة ثمانى عشرة من الهجرة . فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . أصاب الناس فيه قحط حتى صارت وجوههم فى لون الرماد من الجوع . وقيل : كانت الريح تَسْفِي تراباً كالرماد لشدة يَبْس الأرض ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى ” التاريخ “ .

§ عام الرُعاف . كان سنة أربع وعشرين من الهجرة ، سُمي بذلك لكثرة ما أصاب الناس فيه من الرُعاف .

§ عام الجماعة . كان سنة أربعين من الهجرة . فيه سَلَّمَ الحسن بن عليّ (رضي الله عنهما) الخلافة لمعاوية ، فاجتمعت الكلمة فيه .

§ عام الجُحَاف . كان سنة ثمانين من الهجرة ، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمل .

§ عام الفقهاء . وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة . فيها مات عليّ بن الحسين زين العابدين ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رضي الله عنهم) وسعيد بن المسيّب ، وعروة بن الزبير ، وعطاء بن يسار ، وسعيد بن زيد بن ثابت . وفيه قَتَلَ الحجاج بن يوسف الثقفيّ سعيد بن جبير .

§ سَنَيَاتُ خَالِد . يُضْرَبُ بها المثلُ في الجذب . وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبي مطير . كان قد تولّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتّى أَجْلَى أهل البوادي .

§ سنة عشر ومائة . مات فيها قرينان في الزهد : الحسن البصري ومحمد بن سيزين ، وقرينان في الشعر : جرير والفرزدق .

§ سنة ست وخمسين وثلثمائة . مات فيها جماعة من الملوك ، وهم : شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان ، ومعز الدولة بن بويه ، وكافور الأخشيدى صاحب مصر . ويقفور ملك الروم ، وأبو عليّ محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدولة آبن حمدان ممدوح المتنبي ، والحسن بن فيرزان صاحب أذربيجان .

الباب الثالث

من القسم الثالث من القرن الأول

١ — في الفصول وأزممنتها

وفصول السنة أربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . ولكل فصل منها ثلاثة بروج ، وثلاثة أشهر ، وسبع منازل ، وموافقة من الطبائع الأربع .

١ — فأما فصل الربيع ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حار رطب . ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل ، والثور ، والجوزاء . وهذه البروج عندهم تدل على الحركة . وله من السن الطفولية والحداثة . ومن الرياح الجنوب ، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ، ومن القوى القوة الجاذبة ، ومن الأخلاط الدم ، ومن الكواكب القمر والزهرة ، ومن المنازل بعض الفرغ المقدم والفرغ المؤخر ، والرشاء ، والسرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، وبعض الحقعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوما .

١٠ وحلول الشمس في الثاني عشر من آذار ، ويوافق مآرس من شهور الروم ، وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط ، وفي العشرين من آسفندار ماه من شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل ، اعتدل الليل والنهار ، وصار كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة . ثم يأخذ النهار في الزيادة ، والليل في النقصان .

وفي هذا الفصل تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء . فيطلع النبات وتزهو الأشجار وتورق ، ويهيج الحيوان للسفاد ، وتذوب الثلوج ، وتنبع العيون ، وتسيل الأودية .

(١) أي برج الحمل الذي هو أول فصل الربيع .

ذكر ما قيل في وصف فصل الربيع وتشبيهه نطا ونثرا .

فمن ذلك ما قاله الصنوبري :

ما الدَّخْرُ إِلَّا الرَّبِيعُ الْمُسْتَنْيرُ إِذَا * جاءَ الرَّبِيعُ ، أُنَاكَ النُّورُ والنُّورُ .
فَالْأَرْضُ يَا قُوَّتُهُ ، وَالْجَوُّ لُؤْلُؤُهُ ، * وَالنَّبْتُ فَيَرْوِجُ ، وَالْمَاءُ بَلُورُ .

وقال آخر :

إِشْرَبْ هَنِيئًا قَدْ أَتَاكَ زَمَانُ * مُتَعَطِّرًا ، مُتَهَلِّلًا ، نَشْوَائُ !
فَالْأَرْضُ وَشْيٌ ، وَالنَّسِيمُ مَعْتَبِرٌ ، * وَالْمَاءُ رَاحٌ ، وَالطَّيْورُ قِيَانُ .

وقال الشعالي :

أَظُنُّ الرَّبِيعَ الْعَامَ قَدْ جَاءَ زَائِرًا * فَنِي الشَّمْسِ بَزَائِرًا ، وَفِي الرِّيحِ عَطَّارًا .
وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تُوَاكِهَ وَجْهَهُ * وَتَقْضَى بَيْنَ الْوَشْيِ وَالْمِسْكِ أَوْطَارًا .

وقال آخر :

وَفَصَّلَ فَصْلُ الرَّبِيعِ الرِّيَاضَ * عَقُودًا وَرَصَعَ مِنْهَا حُلِيًّا .
وَفَانَحَرَ بِالْأَرْضِ أَفَقَ السَّمَاءِ * فَحَلَّى الثَّرَى بِنُجُومِ الثُّرَيَّا .

وقال الحسن بن وهب :

طَلَعَتْ أَوَائِلُ لِلرَّبِيعِ فَبَشَّـرَتْ * نَوَّرَ الرِّيَاضَ بِجَدَّةٍ وَشَبَابِ !
وَعَدَا السَّحَابُ يَكَادُ يُسَحِّبُ فِي الثَّرَى * أَذْيَالَ أَنْتَمِ حَالِكِ الْجَلْبَابِ .
فَتَرَى السَّمَاءَ إِذَا أَجَدَّ رَبَابُهَا * فَكَأَنَّمَا التَّحَفَتْ جَنَاحُ غُرَابِ .
وَتَرَى الْغُصُونِ إِذَا الرِّيحُ تَنَاحَتْ * مُلْتَفَّةً كَتَعَانُقِ الْأَحْبَابِ .

وقال بعض فضلاء أصفهان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العباد

الأصفهاني في الحريدة :

أما بعد . فإن الزمان جَسَدٌ وفصلُ الربيع رُوحُه ، وسِرّ حكمة إلهية وبه كَسَفُهُ
ووضوحُه ؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنهل جَمٌّ وهو نَمِيرُه وصافيه ب ودَوْحَة
خَصِرَة وهو يَنْعُها وجَنَاهَا ، وألفاظ مجموعة وهو نَتيجَتُها ومعناها ؛ فمن لم يَسْتَهوَ طباعه
نَسِيمُ هوائه ، ولم يُدرك شَمَاءَ دَائِه في صَمَاءِ دَوَائِه لم يَذُقْ لِعَظَمِ حَيَاتِه نَعْمًا ، ولم يجد
لخفّض حظه من أيامه رفعا .

٢ — وأما فصل الصيف ، فإن طبيعته الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول
الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشباب ؛ ومن الرياح الصبأ ؛
ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القوّة الماسكة ؛ ومن
الأخلاق المِرّة الصفراء ؛ ومن الكواكب المِزِيخ ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض
الحقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة والطرف والجهة (وهي أربعة عشر يوما) والحرّاتان
وبعض الصّرفة . وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد
أيامه ثلاثة وتسعون يوما ، ويوافقه ينير من شهور الروم ؛ وفي العشرين من ثوونه ، وإذا
حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في التقصان . والله أعلم .

١٥ ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظما ونثرا

فمن ذلك ما قاله ذو الرمة :

وَهَاجِرَةٌ حَرَّهَا وَأَقِيدُ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي .
تَلُوذُ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَافُهَا * لِيَأْذَ الْغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ .
وَيَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حَرَبًاوُهَا * كَمَا يَسْجُدُ الْقَسُّ لِلرَّاهِبِ .

وقال مسكين الدارمي .

وهَاجِرَةٌ ظَلَّتْ كَأَنَّ ظِبَاءَهَا * إِذَا مَا اتَّقَتْهَا بِالْقُرُونِ سُجُودُ .
تَلُوذُ لِسُؤْبُوبٍ مِنَ الشَّمْسِ فَوْقَهَا * كَمَا لَأَذَ مِنْ حَرِّ السِّنَانِ طَرِيدُ .

وقال ابن الفقيسي :

٥ في زَمَانٍ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِحَرٍّ ، * وَيَذِيبُ الْجُسُومَ لَوْ كُنَّ صَخْرًا .
لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَعَتْ شَمْسُهُ وَقَارِبَ ظُهْرًا .
وَيَوِّدُ الْغَضْنَ الضَّيْرُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى .

وقال أيضا :

١٠ يَا لَيْلَةً بَثَّ بِهَا سَاهِدًا * مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَفَرَطِ الْأَوَارِ .
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِمٌ * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي أَسْتَتَارُ .
وَكَيْفَ لَا أُحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاؤُهَا بِالشَّهْبِ تَرْمِي الْجَمَارِ ؟

وقال آخر :

وَيَوْمَ سُمُومٍ خَلْتُ أَنَّ نَسِيمَهُ * ذَوَاتُ سُمُومٍ لِلْقُلُوبِ لَوَادِغُ ،
ظَلَمْتُ بِهِ أَشْكُو مُكَابَدَةَ الْهَوَى * فَكُوزِي مَلَأَنُ وَمَائِي فَارِغُ .

١٥ وقال محمد بن أبي الثياب ، شاعر اليتيمة :

وَهَاجِرَةٌ تَشْوِي الْوُجُوهَ كَأَنَّهَا * إِذَا لَفَحَتْ خَدَيَّ نَارٌ تَوْحَجُ .
وَمَاءُ كُلِّ زَيْتٍ مِلْحٌ كَأَنَّهُ * يَوْجِدِي يَغْلِي أَوْ يَهْجِرُكُ يُنْجُجُ .

وقال الثعالبي :

٢٠ رَبِّ يَوْمٍ هَوَاؤُهُ يَتَلَطَّى * فَيُحَاكِ فُؤَادَ صَبٍّ مُتِّمٍ .
قُلْتُ إِذْ صَكَ حُرُّهُ وَجْهِي : * "رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ" !

ومما وصف به من النثر قول بعضهم :

أَوْقَدَتِ الظَّهِيرَةُ نَارَهَا ، وَأَذَكَّتْ أَوَارَهَا ، فَأَذَابَتْ دِمَاجَ الضَّبِّ ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ ، هَاجِرَةً كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ الْعُشَّاقِ ، إِذَا أَشْتَعَلَتْ بَنِيرَانِ الْفِرَاقِ ، حَرَّ تَهْرُبَ لَهُ الْحَرَبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَتَسْتَجِيرُ بِمَتْرَاكِ الرُّمَسِ لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشٌ ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ سِرْجٌ وَلَا خَيْشٌ ، فَهُوَ كَقَلْبِ الْمُهْجُورِ ، أَوْ كَالْتَنُورِ الْمُسْجُورِ .

٣ - وَأَمَّا فَصْلُ الْخَرِيفِ - فَإِنَّ طَبْعَهُ بَارِدٌ يَابِسٌ ، وَدُخُولُهُ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْمِيزَانِ وَالْعَقْرِبِ وَالْقَوْسِ .

وهذه البروج تدل على الحركة ، وله من السن الكهولة ، ومن الرياح الشمال ، ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ، ومن القوى القوة الهاضمة ، ومن الأخلاط الميرة السوداء ، ومن الكواكب زحل ، ومن المنازل بعض الصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانيان والقلب وبعض الشولة ، وعدد أيامه تسعة وثمانون يوماً ، ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول ، ويوافقته تسع من شهور الروم ، وفي الثامن عشر من توت .

وفي هذا الفصل يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتضرم الثمار ، ويغير وجه الأرض ، ويصفى ورق الشجر ، وتهزل البهائم ، وتموت الحوام ، وتنجحر الحشرات ، وتطلب الطير المواضع الدفئة ، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة .

ويقال : فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين .

والله أعلم .

(١) هكذا بالأصل وفي صبح الأعشى تلج .

ذكر ما قيل في وصف فصل الخريف وتشبيهه نظماً ونثراً .

فمن ذلك ما قاله الصنوبري ، عفا الله عنه :

ما قضى في الربيع حقَّ المسرِّا * ت مضيع زَمَانُهُ في الخريف .
نحْنُ منه على تَلَقَّى شِتَاءٍ * يُوجِبُ الْقَصْفَ أَوْ وَدَاعَ مَصِيفٍ .
في قَيْصٍ من الزمان رَقِيقٍ * ورداءٍ من المَوَاءِ خَفِيفٍ .
يَرْعُدُ المَاءُ منه خوفاً إذا ما * لَمَسَتْهُ يَدُ النَّسِيمِ الضَّعِيفِ .

وقال عبد الله بن المعتز :

طَابَ شَرْبُ الصَّبُوحِ في أيلولِ ! * بَرَدَ الظِّلُّ في الضُّحَى والأَصِيلِ !
وَحَبَّتْ جَمْرَةُ المَوَاجِرِ عَنَّا ، * وَأَسْتَرَحْنَا من النهار الطَّوِيلِ .
وَنَخْرَجْنَا من السَّمُومِ إلى بَرٍّ * دِ نَسِيمٍ ، وطيب ظلِّ ظَلِيلِ ،
وَشَمَالٍ تبشِّرُ الأرضَ بالقَطْرِ كذيلِ الغِلَالَةِ المِبلُوبِ .
فكأنَّا نزداد قُرْباً إلى الجنةِ في كلِّ شارقٍ وأصيلِ .
وَوُجُوهُ البَقَاعِ تَنْتَظِرُ الغَيْثَ أَنْتَظَارَ الحُبِّ رَدَّ الرُّسُولِ .
تَبْتَغِي غُلَّةً لَتَعْمَلَ رَوْضًا * بكثيرٍ من الحَيَا أو قَلِيلِ .

وقال آخر :

إِشْرَبْ على طيبِ الزمانِ فقد حَدَا * بالصَّيْفِ من أيلولَ أَسْرَعُ حَادٍ .
وَأَشْتَمْنَا بالَّلِيلِ بَرَدَ نَسِيمِهِ * فارتاحتِ الأرواحُ في الأجسادِ .
وأفالك بالأنْدَاءِ قُدَّامَ الحَيَا * فالأَرْضُ للأَمْطارِ في أَسْتَعْدَادِ .
كم في ضَمَائِرُهَا من رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ ماءٍ أو قَرَارَةٍ وَادٍ .
تَبْدُو إذا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِه * فكأنما كَانَا على مِيعَادِ .

وقال آخر :

لا تَصْغَ لِلْوَمِ إِنَّ اللَّوْمَ تَضْلِيلُ * وَأَشْرَبُ فِي الشَّرْبِ لِلْأَحْزَانِ تَحْلِيلُ .
فَقَدْ مَضَى الْقَيْظُ وَاجْتَنَّتْ رَوَاحِلُهُ ، * وَطَابَتِ الرَّاحُ لِمَا آلَ أَيْلُولُ .
وليس في الأرض نبتٌ يَسْتَكِي رَمَدًا * إلا وَنَظَرُهُ بِالطَّلِّ مَكْحُولُ .

وقال آخر يذمه :

خُذْ بِالتَّدَثُّرِ فِي الْخَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ ، وَنَسِيمُهُ خَطَافُ .
يَجْرَى مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى نِفَاقِهَا * إِصْدِيقِهَا "وَمِنَ الصَّدِيقِ يُخَافُ" !

ومما وصف به من الذر :

قال أبو إسحاق الصابى يصفه :

١٠ الخريفُ أصحُ فصولِ السنة زمانا ، وأسهلُها أوانا ، وهو أحدُ الاعتدالين ، المتوسطين
بين الانقلابين ، حينُ أبدتِ الأرضُ عن ثمرتها ، وصرَّحتْ عن زينتها ، وأطلقت
السماءُ حوافِلَ أنوائها . وتَأَذَّنَتْ بانسكابِ مائها ، وصارتِ المواردُ كُتُومَ المَبَّارِدِ ،
صَفَاءً مِنْ كَدَرِهَا ، وَتَهَدُّبًا مِنْ عَكْرِهَا ، وَأَطْرَادًا مَعَ نَفْحَاتِ الْمَوَاءِ ، وَحَرَكَاتِ الرِّيحِ
الشَّجْوَاءِ ، وَآكَتَسَتِ الْمَاشِيَةُ وَبَرَّهَا الْقَشِيبُ ، وَالطَّائِرُ رِيشَهُ الْعَجِيبُ .

وقال ابن شبل :

١٥ كُلُّ مَا يَظْهَرُ فِي الرَّبِيعِ نُوَّارُهُ ، فِي الْخَرِيفِ تُجْتَنَى ثِمَارُهُ ، فَهُوَ الْحَاجِبُ أَمَامَهُ ،
وَالْمُطَرِّقُ قُدَّامَهُ .

وقال ضياء الدين ابن الأثير الجزري عن الخريف يفتخر على فصل الربيع :

أنا الذي آتَى بَذْهَابِ السَّمُومِ ، وَإِيَابِ الْغُيُومِ . وَأَعْتَصَارِ بَنَاتِ الْكُرُومِ ، وَنِكَائِ أَلْوَانِ
المشروب والمطعموم ، وفي يترقرق صفاء الأنهار . فتشبهه القوابلُ بالأسحار ، وأيامي

هى الذهبيات وتلك نسبة كريمة النّجار؛ ومن ثمّ راقى ما لا تزال أمّهاته حوامل ،
وأوراقه نواضر وغيرها ذوايل ، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل .
ولقد أنصف من قال :

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيفِ مِنْ فَخْرٍ * عَلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ وَأَيُّ فَخْرٍ !
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وَعَقِيبَ حَرٍّ .

٥

؛ — وأما فصل الشتاء ، فإن طبعه بارد رطب ، ودخوله عند حلول الشمس
رأس الجدى والدلو والحوت .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشيخوخة ؛ ومن الرياح التّبور ؛
ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ؛ ومن القوى القوّة الدافعة ؛
ومن الاخلاط البلغم ؛ ومن الكواكب المشتري وعطارد ؛ ومن المنازل بعض الشولة
والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد باع وسعد السعود وسعد الأخبية وبعض
الفرغ المقدم ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما .

ويكون حلول الشمس برأس الجدى فى الثالث عشر من كانون الأوّل ، ويوافقته
دجنبر من شهور الروم ؛ وفى السابع عشر من كيهك من شهور القبط . وإذا حلت
الشمس ببرج الجدى يشتدّ البرد ، ويخشن الهواء ، ويتساقط ورق الشجر ، وتنجح
الحيوانات ، وتضعف قوى الأبدان ، وتكثر الأنواء ، ويظلم الحق ، وتصير الدنيا كأنها
عجوز هريمة قد دنا منها الموت .

وروى عن عليّ (رضى الله عنه) أنه قال : ”توقّوا البرد فى أوّله ، وتلقّوه فى آخره ،
فإنه يفعل فى الأبدان كفعله فى الأشجار : أوّله يُحْرِقُ ، وآخره يُورِقُ“ .

١٥

ذكر ما قيل في وصف فصل الشتاء وتشبيهه .

فمن ذلك ما قاله جرير شاعر الحماسة :

في لَيْلَةٍ منْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةِ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ فِي ظُلُمَائِهَا الطُّنْبَا .
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يَلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا .

وقال ابن حكيما البغدادي :

إِلْبَسَ إِذَا قَدِمَ الشَّتَاءُ بُرُودًا * وَأَفْرُشَ عَلَى رَغَمِ الْحَصِيرِ لُبُودًا .
الرَّيْقُ فِي اللَّهَوَاتِ أَصْبَحَ جَامِدًا * وَالْدَّمْعُ فِي الْأَمَاقِ صَارَ بُرُودًا .
وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْهَوَا * عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودًا .
وَتَرَى عَلَى بَرْدِ الْمِيَاهِ طُيُورَهَا * تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّافُودًا .
يَا صَاحِبَ الْعُودَيْنِ لَا تُهْمِلْهُمَا * أَوْ قَدْ لَنَا عُودًا ، وَحَرَّكَ عُودًا !

وقال آخر :

وَيَوْمُنَا أَرْوَاهُ قَرَّةً * تُحْمَسُ الْأَبْدَانُ مِنْ قَرَصِهَا .
يَوْمَ تَوَدُّ الشَّمْسُ مِنْ بَرْدِهِ * لَوْ جَرَّتِ النَّارُ إِلَى قُرْصِهَا !

وقال عبد الله بن المعتز :

قَدْ مَنَعَ الْمَاءُ مِنَ الْمَلِيسِ * وَأَمَكْنَ الْجَمْرُ مِنَ الْمَسِّ .
فَلَيْسَ نَلْقَى غَيْرَ ذِي رِعْدَةٍ ، * وَمُسْلِمٌ يَسْجُدُ لِلشَّمْسِ !

وقال آخر :

لَيْسَ عِنْدِي مِنْ آلَةِ الْبَرْدِ إِلَّا * حُسْنُ صَبْرِي ، وَرِعْدَتِي ، وَقُنُوعِي .
فَكَأَنِّي لِشِدَّةِ الْبَرْدِ هَرٌّ * يَرْقُبُ الشَّمْسَ فِي أَوَانِ الطَّلُوعِ .

٦٥

وقال ابن سكرة الهاشمي ، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

قيل : ما أعددت للبر * د وقد جاء بشده ؟
قلت : دراعة برد * تحتها جبة رعدة .

وقال أبو سعيد المخزومي :

إذا كنت في بلدة نازلاً * وحل الشتاء حلول المقيم ،
فلا تبرزن إلى أن ترى * من الصحو يوماً صحيح الأديم .
فكم زلقة في حواشي الطريق * ترد الثياب بخزي عظيم !
وكم من لئيم غداً راكباً * يحب البلاء لماش كريم !

وقال صاحب بن عباد :

أثى ركبت فكف الأرض كاتبة * على ثيابي سطوراً ليس تنكث .
فالأرض محبرة ، والحبر من لثقي * والطرس ثوبي ، ويمني الأشهب القلم .

وقال أبو علي كاتب بكر شاعر اليتيمة :

يا بلدة أسأمني بردها * وبرد من يسكنها للقلق .
لا يسلم الشاتي بها من أذى * من لثقي ، أودمقي ، أوزلق .

ومما وصف به ثرا قول بعضهم :

إذا حلت الشمس برج الجدى مد الشتاء رواقه ، وحل نطاقه ، ودبت عقارب
البرد لأسبه ، ونفع مدخور الكسب كاسبه .

ومن رسالة لابن أبي الخصال ، جاء منها :

الكلب قد صالح خيشومه ذنبه ، وأنكر البيت وطنبه ، وألتوى ألواء الحباب ،
وآستدار آستدارة الغراب ، وجلده الجليد ، وضر به الضرب وصعد أنفاسه الصعید ،

فخاه مباح، ولا هير يره ولا نباح، والنار كالصديق، أو كالرحيق، كلاهما عتقاء مغرب،
أونهم مغرب.

وقال بعضهم :

برد يُغير الألوان، وينشف الأبدان، ويجمد الريق في الأشداق، والدَّمع في الآفاق،
بردٌ حال بين الكلب وهريره، والأسد وزئيره، والطير وصفيره، والماء ونحريره .
وقيل لبعضهم : أى البرد أشد؟ فقال : إذا دمت العينان، وقطر المنخران،
وتلجلج اللسان، وأصططت الأسنان .

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة فقال :

عِنْدِي فِي وَصْفِ الْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ * مَقَالَةٌ تُغْنِي اللَّيْلَ مَنَعَةً .

ذكر ما قيل في فصل الصيف

١٠

أَمَّا الْمَصِيفُ، فَاسْتَمِعْ مَا فِيهِ * مِنْ فِطْنٍ يُفْهِمُ سَامِعِيهِ .
فصل من الدهر إذا قيل حضر، * أذْكَرْنَا بِحَرِّهِ نَارَ سَقَرٍ .
يَظَلُّ فِيهِ الْقَلْبُ مُقْشَعِرًا، * وَالْأَرْضُ تَشْكُو حَرَّ الْمِضْرَا .
أَوَّلُهُ فِيهِ نَدَى مُنْعَص * كَأَنَّهُ عَلَى الْقُلُوبِ يَقْنِصُ .
يَلْصَقُ مِنْهُ الْجِلْدُ بِالثِّيَابِ * وَيَعْلَقُ التُّرَابُ بِالْأَنْوَابِ .
حَتَّى إِذَا مَا طَرَدَتْهُ الشَّمْسُ * وَفَرِحَتْ بِأَنْ يَزُولَ النَّفْسُ .
فَتَحَّتِ النَّارُ لَنَا أَبْوَابَهَا * وَشَبَّ فِيهَا مَالِكُ شَهَابَهَا .
حَرٌّ يَحِيلُ الْأَوْجُهَ الْغُرَانَا * حَتَّى تُرَى الرُّومُ بِهِ حُبْشَانَا .
يَعْلُو بِهِ الْكَرْبُ وَيَشْتَدُّ الْقَلْقُ * وَتَنْضَحُ الْأَبْدَانُ فِيهِ بِالْعَرَقِ .

١٥



تُبْصِرُهُ فَوْقَ الْقَمِيصِ قَدْ عَلَا * حَتَّى تَرَى مُبَيَّضَهُ مُصَنَدَلَا .
 إِنْ كَانَ رَنًّا، زَادَ فِي تَمْزِيْقِهِ * أَوْ مُسْتَجِدًّا ، جَدَّ حَبْلَ زِيْقِهِ .
 ثُمَّ يُعِيدُ الْمَاءَ نَارًا حَامِيَةً * يَزِيدُ فِي كَرْبِ الْقُلُوبِ الصَّادِيَةِ .
 شَارِبُهُ يَكْرَعُ فِي حَمِيمٍ * كَأَنَّهُ مِنْ سَاكِنِي الْجَحِيمِ .
 يُنْسِيهِ مَا يَلْقَى مِنَ اللَّتَابِ * أَنْ يَتَّحِدَ اللَّهُ عَلَى شَرَابِهِ .
 حَتَّى إِذَا أَعْيَا، أَتَقَضَى نَهَارُهُ * وَأُرخِيَتْ مِنْ لَيْلِهِ أَسْتَارُهُ ،
 تَحَرَّكَتْ فِي جُنْحِهِ دَوَاهِي * سَارِيَةٌ ، وَأَنْتَ عَنْهَا لَاهِي .
 مِنْ عَقَرٍ يَسْعَى كَسْعَى اللَّصِّ * سِلَاحُهَا فِي إِثْرِهِ كَالشَّصِّ .
 وَحَيَّةٌ تَنْفُثُ سُمًّا قَاتِلًا * تُزَوِّدُ الْمَلْسُوعَ حَتْفًا عَاجِلًا .
 تُبْصِرُ مَا يَجْلِدُهَا مِنَ الرَّقْشِ * كَوْجَنَةٍ مُصْفَرَّةٍ فِيهَا تَمَشُّ .
 لَوْ نَهَشَتْ بِالنَّابِ مِنْهَا الْحِضْرَا * لَنَثَرَتْ مِنْهُ الْحَيَاةَ نَثْرَا .
 فَلَا تَقُلْ إِنْ جَاءَ يَوْمًا أَهْلًا * فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَضْلًا .

ذكر ما قيل في فصل الخريف

حَتَّى إِذَا زَالَ ، أَتَى الْخَرِيفُ : * فَصَلَّ بِكُلِّ سَوَاءٍ مَعْرُوفُ .
 أَهْوَنُهُ يَسْرِعُ فِي حَلِّ الْجَسَدِ * وَهُوَ كَطَبْعِ الْمَوْتِ يَبْسُ وَبَرْدُ .
 يَمْنَحِي عَلَى الْأَجْسَامِ مِنْ آفَاتِهِ ، * وَأَرْضُهُ قَرْعَاءُ مِنْ نَبَاتِهِ .
 لَا يُمَكِّنُ النَّاسَ اتِّقَاءَ شَرِّهِ * وَلَا خِلَافَ بَرِّهِ وَحَرِّهِ .
 تُبْصِرُهُ مِثْلَ الصَّبِيِّ الْأَرَعِينِ * مِنْ كَثْرَةِ الْعُشَاقِ وَالتَّلَوْنِ .
 فَانَتْ مِنْهُ خَائِفٌ عَلَى حَذَرٍ * لِأَنَّهُ يَمْزُجُ بِالصَّغْنِ الْكَدَرُ .

أَحْسَنُ مَا يَهْدِي لَكَ النَّسِيَا * يَقْلِبُهُ فِي سَاعَةِ سَمُومَا .
وهو على المعدود من ذُنُوبِهِ * خَيْرٌ مِنَ الصَّيْفِ عَلَى عُيُوبِهِ .

ذكر ما قيل في فصل الشتاء .

حَتَّى إِذَا مَا أَقْبَلَ الشِّتَاءُ ، * جَاءَتْكَ مِنْهُ عُمَّةٌ عَمِيَاءُ .
لَوْ أَنَّهُ رُوحٌ ، لَكَانَ قَدَمًا * أَوْ أَنَّهُ شَخْصٌ ، لَكَانَ جَهْمًا .
يَلْقَاكَ مِنْهُ أَسَدٌ يَزِيرُ * لَهُ وَعِيدٌ وَلَهُ تَحْذِيرُ .
تَأْتِيكَ فِي أَيَّامِهِ رِيَّاحُ * لَيْسَ عَلَى لَاعِنِهَا جُنَاحُ .
حَرَاكُهَا لَيْسَ إِلَى سُكُونٍ * تَضُرُّ بِالْأَسْمَاعِ وَالْعُيُونُ .
يَحْدُثُ مِنْ أَفْعَالِهَا الزُّكَامُ * هَذَا إِذَا مَا فَاتَكَ الصُّدَامُ .
ثُمَّ يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمٌ * كَأَنَّهُ خَصَمٌ أَنَا مُلَازِمٌ .
يَقْطَعُنَا بَعْضًا عَنِ الطَّرِيقِ * وَعَنْ قَضَاءِ الْحَقِّ لِلصَّدِيقِ .
وَرَبَّمَا نَحَرَ عَلَيْكَ السَّقْفُ ، * فَإِنْ عَفَا عَنْكَ أَنَاكَ الْوَكُفُ .
وَإِنْ أَرَدْتَ فِي النَّهَارِ الشُّرْبَا * فِيهِ ، فَقَدْ قَاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبَا .
وَأَحْتَجَّتْ أَنْ تُوقِدَ فِيهِ نَارًا * تُطِيرُ نَحْوَ الْحَدَقِ الشَّرَارَا .
يَتْرُكُ مُبَيَّضَ الثِّيَابِ أَرْقَطَا * يَحْكِي السَّعِيدَى لَكَ الْمُنْقَطَا .
وَبَعْدَ ذَا تُسَدِّدُ النِّقَابَا * مِنْ خَوْفِهِ وَتُعَلِّقُ الْأَبْوَابَا .
نَعَمْ ، وَتُرْجِي دُونَهُ السُّتُورَا * حَتَّى تَرَى صَبَاحَهُ دَيْمُجُورَا .
وَإِنْ أَرَدْتَ الشُّرْبَ فِي الظَّلَامِ * عَاقَكَ عَنْ تَتَاوُلِ الْمَدَامِ .
حَسْبُكَ أَنْ تَنْدَسَ فِي اللَّحَافِ * مِنْ خَشْيَةِ الْبَرْدِ عَلَى الْأَطْرَافِ !
وَرَعْدُهُ يَشْغُلُ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ * وَيُؤْثِرُ النَّوْمَ وَيَسْتَحْلِي الْكَسَلَ .

حَتَّى إِذَا جِئْتَ إِلَى الرُّقَادِ * نِمْتَ عَلَى فَرْشٍ مِنَ الْقَتَادِ .
 إِنَّ الْبَرَاعِيَّ عَذَابٌ مُرْعَجٌ * لِكُلِّ قَلْبٍ وَلِحَالِدٍ يَنْضَجُ .
 لَا يَسْتَلْذِ جِلْدُكَ الْمَضَاجِعَا * كَأَنَّمَا أُفْرِشَهُ مَبَاضِعَا .
 تَنَحَّ فَضَالًا فَوْقَ مَا ذَمَّتْهُ * لَوْ أَنَّهُ يَظْهَرُ لِي، قَتَلْتُهُ .
 حَتَّى إِذَا مَا هُوَ عَنَّا بَابَا * وَزَالَ عَنَّا بَعْضُهُ، لَا كَانَا !

ذكر ما قيل في فصل الربيع

جَاءَ إِلَيْنَا زَمَنُ الرَّبِيعِ * بَغَاءَ فَصْلٍ حَسَنٍ الْجَمِيعِ .
 لِبَرْدِهِ وَحَرِّهِ مَقْدَارٌ * لَمْ يَكْتَنِفْ حَدَّهُمَا إِكْثَارٌ .
 عُدِّلَ فِي أَوْزَانِهِ حَتَّى آعَدَدَلْ * وَحَمِدَ التَّفْصِيلُ مِنْهُ وَالْجُمْلُ .
 نَهَارُهُ فِي أَحْسَنِ النَّهَارِ * فِي غَايَةِ الْإِشْرَاقِ وَالْإِسْفَارِ .
 تَضَحَكُ فِيهِ الشَّمْسُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ * كَأَنَّمَا فِي الْأَفْقِ جَامٌ مِنْ ذَهَبٍ .
 وَلَيْلُهُ مُسْتَطَلَفُ النَّسِيمِ * مُقَوِّمٌ فِي أَحْسَنِ التَّقْوِيمِ .
 لِبَدْرِهِ فَضْلٌ عَلَى الْبُدُورِ * فِي حُسْنِ إِشْرَاقٍ وَفَرِطِ نُورٍ .
 بِكَامَةِ الْبَلُورِ فِي صَفَائِهَا * أَذَابَتِ الْجَرَادَ فِي تَقَائِهَا .
 كَأَنَّمَا إِذَا دَنَتْ مِنْ بَدْرِهِ * جَوَزَاؤُهُ قَبْلَ طُلُوعِ بَجْرِهِ .
 رُومِيَّةٌ حَلَّتْهَا زَرْقَاءُ * فِي الْجِيدِ مِنْهَا دُرَّةٌ بَيَضَاءُ .
 هَذَا وَكَمْ تَجْمَعُ مِنْ أُمُورٍ * إِطْرَاءُ مُطْرِيهَا مِنَ التَّقْصِيرِ .
 فِيهِ تَظَلُّ الطَّيْرُ فِي تَرْثَمٍ * حَازِقَةٌ بِاللَّحْنِ لَمْ تُعَالِمِ .
 غَنَاؤُهَا دُوْعُجْمَةٍ لَا يَفْهَمُهَا * سَامِعُهُ وَهُوَ عَلَى ذَا يَغْرِمُهَا .
 مِنْ كُلِّ دُبْسَى لَهُ رَيْنٌ * وَكُلِّ قُمَرَى لَهُ حَيْنٌ .

فِي قُرْطِقٍ أُعْجِلَ أَنْ يُورَدَا * خَاطَ لَهُ الْخِيَّاطُ طَوَقًا أَسْوَدَا .
 تُبَصِّرُهُ مِنْهُ عَلَى الْحِزْوِمِ * كَمَثَلِ عَقْدِ سَبَجٍ مَنُظُومِ .
 هَذَا وَفِيهِ لِلرِّيَاضِ مَنَظَرُ * يُفْشِي الثَّرَى مِنْ سِرِّهِ مَا يُضْمِرُ .
 سِرُّ نَبَاتٍ حُسْنُهُ إِعْلَانُهُ * إِذَا سَوَاهُ زَانَهُ كَتَمَانُهُ .
 فِيهِ ضُرُوبٌ لِنَبَاتِ الْغَضِّ (١) * يَحْكِي لِبَاسَ الْجُنْدِ يَوْمَ الْعَرَضِ .
 مِنْ نَرَجِسٍ أبيضَ كَالثُّغُورِ * كَأَنَّهُ مَخَاقِقُ الْكَافُورِ .
 وَرَوْضَةٍ تُزْهِرُ مِنْ بَنَفْسَجٍ * كَأَنَّمَا أَرْضُ مِنَ الْفَيْرِ وَزَجِ .
 قَدْ لَبِستُ غَلَالَةً زَرْقَاءَ * وَكَأَيْدَتِ بِلُونَهَا السَّمَاءُ .
 يَضْحَكُ مِنْهَا زَهْرُ الشَّقِيقِ * كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ الْعَقِيقِ .
 مُضْمَنَاتٍ قِطْعًا مِنَ السَّبَجِ * قَدْ أَشْرَقَتْ مِنْ أَحْمَرَارٍ وَدَجَجِ .
 كَأَنَّمَا الْمُحْمَرُّ فِي الْمُسَوَّدِ * مِنْهُ إِذَا لَاحَ عُيُونُ الرُّمْدِ .
 وَأَرَمَ بَعَيْنَيْكَ إِلَى الْبَهَارِ * فَإِنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَزْهَارِ .
 كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ مِنْ عَسَجَدٍ * قَدْ سُمِرَتْ فِي قُضْبِ الزَّبْرَجَدِ .
 فَانْهَضْ إِلَى اللَّهِوِ وَلَا تَخْلَفِ * فَلَسْتُ فِي ذَلِكَ بِالْمُعْنَفِ .
 وَأَشْرَبَ عُقَارًا طَالَ فِينَا كَوْنُهَا * يَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ الْمَزَاجِ لَوْنُهَا .

+ +
 دُونَكَ هَذِي صِفَةُ الزَّمَانِ * مَشْرُوحَةٍ فِي أَحْسَنِ التَّبْيَانِ !
 وَأَرْضٌ بِتَقْلِيدِي فِيمَا قُلْتُهُ * فَأَتَى أَدْرَى بِمَا وَصَفْتُهُ .

(١) لعله للنبات بالتعريف .

الباب الرابع

من القسم الثالث من القرن الأول

في ذكر مواسم الأُمم وأعيادها، وأسباب آتخاذهم لها، وما قيل في ذلك

والذي أوردّه في هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتي للكتب الموضوعة فيه، وتقلته منها لما تعذر على مَنْ ألتقاه مِنْ فِيهِ. وضمته أعياد المسلمين، والفُرس، والنصارى، واليهود.

مَعِينُ التَّارِيخِ لأهل التَّارِيخِ

١ - ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة آثان: عيد الفطر، وعيد الأضحى. والسبب في آتخاذهما، ما روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أنه قَدِمَ المدينة، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن الله (عز وجل) قد بدلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى". فأول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة. وفيها كان عيد الأضحى.

وعيد آبتدعته الشيعة، وسموه عيد الغدير. وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبي (صلى الله عليه وسلم) على بن أبي طالب (رضى الله عنه) يوم غدير خم. والغدير على ثلاثة أيام من الجحفة بَسْرَةِ الطَّرِيق. قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثير ماتت بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجدٌ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم). واليوم الذي آبتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذي الحجة، لأن المؤاخاة كانت

(١) في صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤٠٧) ثلاثة أميال، وفي المعجم [بينه وبين الجحفة ميلان].

فيه في سنة عشرة من الهجرة، وهي حجة الوداع. وهم يُحْيُونَ ليلتها بالصلاة، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال. وشعارهم فيسه لبس الحديد، وعق الرقاب، وبرّ الأجانب، والذباح.

وأول من أحدثه معز الدولة أبو الحسن علي بن بويه، على ما ذكره إن شاء الله تعالى في أخباره في سنة اثنتين وخمسين وثلثائة.

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد واتخذوه من سنتهم، عمل عوام السنة يوم سرور نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين وثلثائة. وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام. وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغار هو وأبو بكر الصديق (رضي الله عنه). وأظهروا في هذا اليوم الزينة، ونصب القباب، وإيقاد النيران.

٢ - ذكر أعياد الفرس

وأعياد الفرس كثيرة جدًا. وقد صنف علي بن حمزة الأصفهاني فيها كتابا مستقلا ذكر فيه أعيادهم، وسبب اتخاذهم لها، وسنن ملوكهم فيها. وقد رأيت أن أقتصر على المشهور منها، وهي ثلاثة أعياد: النيروز، والمهرجان، والسدق.

١ - فأما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلها. يقال إن أول من اتخذ جمشيد أحد ملوك الفرس الأول. ويقال فيه جمشاد، ومعنى جم القمر، وشاد الشعاع والضياء، وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن طهومت لما هلك، ملك بعده جمشاد. فسمى اليوم الذي ملك فيه نوروز، أي اليوم الجديد.

ومن الفرس من يزعم أن النيروز اليوم الذي خلق الله (عز وجل) فيه النور، وأنه كان معظّم القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك بالدوران.

ومدته عندهم ستة أيام، أولها اليوم الأول من شهر أفريدون ماه، الذي هو أول شهور سنتهم. ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير، لأن الأكلسة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصهم.

- وحكى ابن المقفع أنه كان من عاداتهم فيه أن يأتي الملك من الليل رجلاً جميلاً الوجه، قد أرصد لما يفعله. فيقف على الباب حتى يصبح. فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان. فإذا رآه الملك، يقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأى شيء وردت؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، وأسمى المبارك، ومن قبل الله أقبلت، والملك السعيد أردت، وبالهناء والسلامة وردت، ومعى السنة الجديدة. ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة، وشعير، وجلبان، وحمص، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبات) وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديان. فيضع الطبق بين يدي الملك. ثم تدخل عليه الهدايا. ويكون أول من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المعونة، ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع في سلة. فيأكل منه ويطعم من حضره. ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجد فيه ما أخلق من الزمان، وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجود دولته ويصلهم ويفرق فيهم ما حمل إليه من الهدايا.

وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته.

وفي ذلك يقول المعوج:

(١) لم يوجد هذا المصدر في القاموس واللسان بهذا المعنى والمصدر الهن، والتهنئة.

كيف آتَهاجُكَ بالنَّيْزُورِ يَاسَكْنِي؟ * وَكُلُّ ما فِيهِ يَحْكِينِي وَأُحْكِيهِ!
فَنَأْرُهُ كُلْهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْدِي! * وَمَاؤُهُ كَتَّوَالِي عَبْرِي فِيهِ!
وقال آخر:

نَوَّرَ النَّاسَ وَنَوَّرَ * تُ، وَلَيْكُنْ بَدْمَوْعِي!
وَذَكَتْ نَارُهُمْ، وَالنَّارُ ما بَيْنَ ضُلُوعِي!

٢ — وأما المهرجان، فوقعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهر
الشَّريَّان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهر الفرس.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء:

أَحَبُّ الْمَهْرَجَانِ لَأَنَّ فِيهِ * سُرُورًا لِلْمُلُوكِ ذَوِي السَّنَاءِ،
وَبَابًا لِلصَّيْرِ إِلَى أَوَانٍ * تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ.

وهو ستة أيام. ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعودي:
وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمون شهرهم بأسماء ملوكهم.
وكان لهم ملك يسمى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف. فمات في نصف الشهر الذي
يسمونه مهرماه، فسمى ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره "نفس مهر ذهبت" وهذه لغة
الفرس الأول. وزعم آخرون أن "مهر" بالفارسية حَفَاط و "جان" الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ذلك، فقال:

إِذَا مَا تَحَقَّقَ بِالْمَهْرَجَا * نِ مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَعْنَاهُ، غَاظًا.
وَمَعْنَاهُ أَنْ غَلَبَ الْفَرَسُ فِيهِ * فَسَمَّوْهُ لِلرُّوحِ حَقًّا حَفَاطًا.

ويقال إنه إنما حُمِلَ في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم "إدراك الثَّار".

وسبب آتخاذهم له ، أن بيوراسف (وهو الضحاك) ، ويقال له أزدهاق ذوالحيّتين والأفواه الثلاثة ، والأعين الستة ، الداهي الخبيث المتمرد ، لما قتل جمشاد ، وملك بعده ، غير دين المجوسية . وجاء إبليس في صورة خادم ، فقبل منكبيه ، فببت فيهما حيتان ، فكان يُطعمهما أدمغة الناس . فأجحف ذلك بالرعية . فخرج رجل بأصبهان ، يقال له كابي ، ويقال فيه كايان . ودعا الناس إلى قتاله ، فاجتمع له خلق كثير . فشخص الضحاك لقتاله ، فهاب كثرة جمعه وفر منهم . فاجتمع الناس على كابي ليملكوه عليهم ، فأبى ذلك وقال : ما أنا من أهل الملك ، وأخرج صبيا من ولد جمشاد ، يسمى أفريدون وملكه ، فأطاعه الناس فيه وملكوه عليهم .

ونخرج أفريدون في طلب الضحاك ليأخذ ثأر جده فظفر به ، وجعل ذلك اليوم عيدا ، وسماه المهرجان . ويقال إن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك ، أول ملوك الفرس الساسانية .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز :
أَخَا الْفُرْسِ إِنَّ الْفُرْسَ تَعَلَّمَ إِنَّهُ * لِأَطْيَبُ مِنْ نَيْرُوزِهَا مَهْرَجَانُهَا :
لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يَغْمُ هَوَاؤُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسُرُّ زَمَانُهَا .

وكان مذهب الفرس فيه أن يدهن ملوكهم بدهن البان تبركا ، وكذلك عوامهم ، وأن يلبس القصب والوشى ، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليهما ، ويكون أول من يدخل عليه المؤبدان بطبق فيه أترجة ، وقطعة سكر ، ونبق ، وسفرجل ، وعناب ، وتُفاح ، وعنقود عنب أبيض ، وسبع طاقات آس قد زمزم عليها .

ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك .

وكان أردشير، وأنوشروان يأمران بإخراج ما فى خزائهم فى المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرُش، فَتُفَرَّقُ كُلُّهَا فى الناس على مراتبهم، ويقولان : إن الملوك تستغنى عن كسوة الصيف فى الشتاء، وعن كسوة الشتاء فى الصيف، وليس من أخلاقهم أن يُحْبَوُوا كسوتهم فى خزائهم ويساووا العامة فى فعلها .

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عَمَلَتَهُ الفُرُش قبل المهرجان بألفى سنة وخمسمائة سنة .

٣ — وأما السَّدَقُ ، فإنه يعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه . ويسمى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم .

١٠ ويقال فى سبب اتّخاذهم له : إن فراسياب لما ملك، سار إلى بلاد بابل وأكثر فيها الفساد، وخرّب العمران. فخرج عليه دق بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلى بلاد الترك. وكان ذلك فى يوم أبان روز. فاتخذ الفُرُش هذا اليوم عيداً، وجعلوه ثالثاً ليوم النيروز، والمهرجان .

١٥ ويقال أيضاً فى سبب اتّخاذهم له : إن الأب الأول، وهو عندهم كيومرت، لما كل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عرساً أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، وأسّسناه الفُرُش بعده .

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان، ويزيدون فى الولوع بها، حتّى إنهم يلتقون فيها سائر الحيوانات .

وفي ذلك يقول ابن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه :

مَوْلَايَ يَا مَنْ نَدَاهُ يَعْدُو * فَفَاتَ سَبْتًا وَلَيْسَ يُلْحَقُ .
لَيْلَتِنَا حُسْنُهَا عَجِيبٌ * بِالْقَصْفِ وَالْعَزْفِ قَدْ تَحَقَّقُ .
لِنَارِهَا فِي السَّمَاءِ لِسَانٌ * عَنْ نُورِضْوَاءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ .
وَالْجَوْ مِنْهَا قَدْ صَارَ جَمْرًا * وَالنَّجْمُ مِنْهَا قَدْ كَادَ يَحْرِقُ .
وَدِجْلَةٌ أَضْرَمَتْ حَرِيقًا * بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زُورِقٍ .
فَأَوْهَا كُلُّهَا حَمِيمٌ * قَدْ فَارَمَا غَلًا وَبَقَبَقُ .^(٢)

وقال أبو القاسم المطرزي، في سَدَقِ عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران في السَّمِيرِيَّاتِ بِدِجْلَةٍ، وذلك في سنة أربع وثمانين وأربعمائة :

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعُشَاقِ مُضْرَمَةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ .
نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ فَاشْتَبَهَتْ * بِسَدَقَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَقِ !
وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا اللَّيْلَ وَأَصْطَلَحَا * عَلَى الْكَوَاكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِ .
مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطًا مِنْ جَوَاهِرِهَا * مَا بَيْنَ مُجْتَمِعٍ وَارٍ وَمُفْتَرِقٍ .
مِثْلَ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَّهَا نَزَلَتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِلا رَجْمٍ وَلَا حَرَقٍ .
أُنْجِبْ بِنَارٍ وَرِضْوَانٍ يُسَعِّرُهَا * وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرْقٍ !
فِي مَجْلَسِ صَحِيحَتِ رَوْضِ الْحَنَانِ لَهُ * لَمَّا جَلَا ثَغْرُهُ عَنْ وَاضِحٍ يَقَقِ .

(١) كذا في الأصل ولعله « والجو منها يصير جرا » والنجم منها يكاد يحرق « ليستقيم الوزن .

(٢) في الأصول يغلي .

٣ — ذكر أعياد النصارى القبط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيداً: سبعة يسمونها بكارا، وسبعة يسمونها صغاراً. فأما الكبار :

١ — فمنها عيد البشارة . ويعنون بها بشارة غبريال . وهو عندهم جبريل عليه السلام على ما يزعمون أنه بشر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى (عليهما السلام) . وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم .

٢ — ومنها عيد الزيتونة . وهو عيد الشعانين ، وتفسيره التسبيح . يعملونه في سابع أحد من صومهم . وسُتِّمَ فيه أن يخرجوا يسعف النخل من الكنيسة . ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليعقوب في القدس ، وهو الحمار ، ودخوله صهيون وهو راكب ، والناس يسبحون بين يديه ، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ — ومنها الفصح . وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام .

٤ — ومنها خميس الأربعين . ويسميه الشاميون السلاق^(١) . وهو الثاني والأربعون من الفطر . يزعمون أن المسيح عليه السلام تساق فيه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام ، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس .

٥ — ومنها عيد الخميس . وهو العنصرة^{وهو} يعمل بعد خمسين يوماً من يوم القيام يقولون إن روح القدس حلت بالتلاميذ ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس ، فتكلموا بجميع الألسنة ، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

(١) في الأصل السلاق . وفي القاموس [وكُرمَّان عيد للنصارى] وفي صبح الأعشى بغير ياء على الصواب .

٦ — ومنها الميلاد . وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح . يقولون إنه ولد فى يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد . وهم يوقدون فيه المصابيح بالكأس ويزينونها . ويعمل فى التاسع والعشرين من كيهك من شهرهم .

٧ — ومنها الغطاس . ويعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهرهم . ويقولون إن يحيى بن زكريا ، وينعتونه بالمعمدان ، غسل عيسى عليه السلام فى بحيرة الأردن ،
ويزعمون أن عيسى (عليه السلام) لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة . والنصارى يغمسون أولادهم فى الماء فيه ، ووقته شديد البرد .

وأما الأعياد الصغار :

١ — فمنها الختان . ويعمل فى سادس بئونة ، يقولون إن المسيح ختن فى هذا اليوم ، وهو الثامن من الميلاد .

٢ — ومنها الأربعون . وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسى (عليه السلام) مع أمه [الهيكل^(١)] وبارك عليه . ويعمل فى ثامن أمشير من شهرهم .

٣ — ومنها خميس العهد . ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام . وسنتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس . ويزعمون أن المسيح عيسى (عليه السلام) فعل مثل هذا بتلاميذه فى مثل هذا اليوم ، يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفزقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض . وعوام النصارى يسمون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العدس المقشور

(١) الزيادة من صبح الأعشى .

على ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز . ومنها خميس البيض أيضا . ويسميه أهل الأندلس خميس أبريل ، وأبريل شهر من شهور الروم .

٤ — ومنها سبت النور . وهو قبل الفصح بيوم . يقولون إن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس . وليس كذلك ، بل هو من تخیلات فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصغرهم . وقيل إنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح، ويتخیلون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على سائرها شريطا من حديد في غاية الدقة، يدهنونه بدهن اللسان ودهن الزنبق . فإذا صلّوا ، وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح ، فدخل الناس إليه ، وقد أشعلت فيه الشموع . ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسرى عليه، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بسبب الدهن . ١٠

٥ — ومنها حد الحُدود . وهو بعد الفصح بثمانية أيام . يعمل أول أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يجتدون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون في المعاملات، والأمور الدنيوية .

٦ — ومنها التجلي . يقولون : إن المسيح (عليه السلام)، تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِعَ، وتمنّوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا ، وموسى ، فأحضرهما لهم في مصلى بيت المقدس، ثم صعد . ويعمل في ثالث عشر مسرى من شهورهم . ١٥

٧ — وعيد الصليب . وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلاني أنقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية ، وبني كنيسة قسطنطينية العظمى ، وسائر كنائس الشام .

٧٢

وسبب ذلك — على ما نقله المؤرخون — أنه كان مجاورا للبرجان، فضاق بهم ذُرعا من كثرة غاراتهم على بلاده. فهم أن يصانهم ويقزر لهم عليه إتاوة في كل عام ليكفوا عنه . فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فغارت البرجان فهزموهم . فلما أصبح . عمل أعلاما وصور فيها صلبانا، ثم قاتل بها البرجان فهزموهم .

٥

وقيل إنه رأى في المنام صلبانا من نور في السماء، وقائلا يقول له : أعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر . فلما أصبح ، أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤوس أعلامه وقاتل بها فنصر . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول في دين النصرانية ، وأن يقصوا شعورهم . ويحلقوا لحاهم . وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبل يأمرؤنهم بالتعبد بدين النصرانية ، فأعرضوا عنهم ، ومثلوا بهم هذه المثلة نكالا بهم . ففعلوا ذلك تأسيًا بهم . ولما تنصر قسطنطين ، خرجت أمه هيلاني إلى الشام ، فبنت الكائس ، وسارت إلى بيت المقدس . فطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح . على ما يزعمون . وكانت مدفونة في مزبلة . فأخرجت منها ، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُملت إليها ، غلفتها بالذهب وحملتها إلى آبها . وأتخذت يوم رثيتها لها عيدا .

١٥

قال المسعودي : وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول ، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط . وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذي وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة .

وسياتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الروم في فن التاريخ ، وهو في الجزء

٢٠

الثالث عشر من هذا الكتاب .

٤ - ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التى نطقت بها توراتهم خمسة :

- ١ - منها عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا، أى عيد رأس الشهر، وهو أول يوم من تشرين . يتزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا . ويقولون إن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسحاق آبنه عليهما السلام فيه، وفداه بذبح عظيم .
- ٢ - ومنها عيد صوماريا . ويسمى الكبور . وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم، ويقتل من لم يصمه . ومدة الصوم خمس وعشرون ساعة، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين، ويختم بمضى ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر . ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار . وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صام فيها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد، ولا يوم الثلاثاء، ولا فى يوم الجمعة . ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمُحَصَّنات، وظلم الرجل أخاه، ومجد ربوبية الله تعالى .
- ٣ - ومنها عيد المِظْلَة . وهو ثمانية أيام، أولها الخامس عشر من تشرين . وكلها أعياد، واليوم الأخير منها يسمى عرابا، وتفسيره شجر الخلاف . وهو أيضا حج لهم . وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون، والخلاف، وسائر الشجر الذى لا ينشر ورقه على الأرض . ويزعمون أن ذلك تذكّار منهم لإظلال الله تعالى إياهم فى التيه بالغمام .

(١) فى صبح الاغشى [سبعة أيام] .

(٢) فى صبح الأعشى [عرابا] .

٤ - ومنها عيد الفطير . ويسمونه الفصح . ويكون في الخامس عشر من نيسان . وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخير . لأنها عندهم الأيام التي خلاص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه ، فخرجوا إلى التيه ، وجعلوا يأكلون اللحم ، والخبز الفطير ، وهم بذلك فرحون . وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون .

٥ - ومنها عيد الأسابيع ، وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض ، وكل فيها الدين . ويسمى عيد العنصرة ، وعيد الخطاب . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع . يقولون إنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طور سيناء ، وإن من جملة ما خاطبوا به العشر كلمات ، وهي وصايا تتضمن أمرا ونهيا . وهو : من حجوجهم . وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير ، والمظلة . وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطائف ويعملونها بدلا عن المن الذي أنزل عليهم في هذا اليوم ، على ما يزعمون . واتخاذهم لهذا العيد في اليوم السادس من سيوان .

٦ - وعيد الفوز . وهو عيد أحدثوه ، ويسمونه الفوريم . وذكروا في سبب اتخاذهم له أن بختنصر لما أجلي من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم ، أسكنهم مدينة جى ، وهي إحدى مدينتي أصفهان . فلما ملك أردشير بن بابك ، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون . ولليهود يومئذ خبر يسمى بلغتهم مردوخاى . فبلغ أردشير أن له ابنة عم جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها . فطلب تزويجها منه ، فأجابه إلى ذلك . فترجها ، وحظيت عنده ، وصار مردوخاى قريبا منه . فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدا له ، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير . فرتب مع نواب الملك في سائر الأعمال

أن يقتل كل واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعين لهم يوما وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره ، لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام وُلد فيه ، وتوفي فيه . وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم ، وموت موسى (عليه السلام) .

٥. فبلغ مردوخاى ذلك ، فأرسل إلى ابنة عمه يُعلمها بما بلغه ، ويحضها على إعمال الحيلة في خلاصهم . فأعلمت الملك بالحال ، وذكرت له أن الوزير إنما حمّله على ذلك الحسد ، لقرب مردوخاى منه . فأمر بقتل هيمون الوزير ، وأن يكتب أمان لليهود . فاتخذوه عيداً . واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام .

وهذا العيد عندهم عيد سرور ، ولهو ، وخلاعة ، وهدايا يهديها بعضهم لبعض ، ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون ، ويمائون بطن الصورة نخالة ويلقونها في النار حتى تحترق . ١٠

٧ — وعيد الحنكة . وهو أيضا مما أحدثوه . وهو ثمانية أيام ، أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا . وهم يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفي الثانية سراجين ، ويضعف ذلك في كل ليلة إلى ثمان ليال . فيكون في الثامنة ثمانية سُرج . ١٥

وسبب اتّخاذهم لهذا العيد ، أن بعض الجبابرة تغلب على البيت المقدس وقتل من كان فيه من بنى إسرائيل ، وأقتض أبكارهم . فوثب عليه أولاد كاهنهم ، وكانوا ثمانية ، فقتله أصغرهم . فطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا ، وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى ثمان ليال . فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه الحنكة ، وهو مشتق من التنظيف ، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار . ٢٠

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران
وفيه سبعة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

١ — في مبدإ خلق الأرض

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ .

والأرض سبع ، كما أن السموات سبع . والدليل على ذلك قوله عز وجل :
﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ .

وآختلف فيها هل هي سبع متطابقات بعضها فوق بعض ، أو سبع متجاورات ؟
فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبع سموات متطابقات متعاليات ، وسبع أرضين
متطابقات متسافلات ، وبين كل أرض وأرض ، كما بين كل سماء وسماء ، خمسمائة
عام . وفسر بهذا قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ . أى كانت سماء واحدة ففتقناها سبعة .

قيل : ولكل أرض أهل وسكان مختلفو الصور والهيئات ، ولكل أرض اسم خاص .

(١) أى وأرضا واحدة [ولعله سقط من قلم النسخ] .

وزهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرقات لامتطابقات . فجعلوا الصين أرضا ،
ونخراسان أرضا ، والسند والهند أرضا ، وفارس والحبال والعراق وجزيرة العرب أرضا ،
والجزيرة والشام وبلاد إرمينية أرضا ، ومصر وإفريقية أرضا ، وجزيرة الأندلس
وما جاورها من بلاد الجلالقة والأنكبردة وسائر طوائف الروم أرضا .

- ٥ . ويقال : إنها كانت على ماء ، والماء على صخرة ، والصخرة على سنام ثور ، والثور
على كملكم^(١) ، والكمكم على ظهر حوت ، والحوت على الماء ، والماء على الريح ، والريح
على حجاب ظلمة ، والظلمة على الثرى . وإلى الثرى آتقطع علم المخلوقين .
- قال الله تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْهَمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ .
وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرة ، وتحت الصخرة الحوت ، وتحت
الحوت الماء ، وتحت الماء الظلمة ، وتحت الظلمة الهواء ، وتحت الهواء الثرى .
- ١٠ . وقد تقدم في الباب الأول من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزبد .
فلا فائدة في تكراره .

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الأول

- ١٥ . ١ — في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها ، في الاتساع ، والاستواء ، والبعد ،
والغلظ ، والصلابة ، والسهولة ، والحزونة ، والارتفاع ، والانخفاض ، وغير ذلك
قال الثعالبي : في كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسنده إلى أئمة اللغة :

(١) كذا بالأصل ؟

إذا اتسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو نحر، فهي الفضاء والبراز والبراح، ثم الصحراء والعراء، ثم الرهاء والجهراء .

فإذا كانت مستوية مع الاتساع، فهي الحبث والجدد، ثم الصبح والصردح، ثم القاع والقرقر، ثم القرق والصصف .

فإذا كانت مع الاستواء والاتساع بعيدة الأكناف والأطراف، فهي السهب والخرق، ثم السبسب والسملق والملق .

فإذا كانت مع الاتساع والاستواء والبعد لا ماء فيها، فهي القلاة والمهمة، ثم التنوفة والقيفاء، ثم النصف والصرماء .

فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدى فيها لطريق، فهي اليهماء والغطشاء .

فإذا كانت تفضل سالكها، فهي المضلة والمتية .

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهي المجهل والهوجل .

فإذا لم يكن بها أثر، فهي الغفل .

فإذا كانت فقراء، فهي القى .

فإذا كانت تبئد سالكها، فهي البيداء. والمقازة كناية عنها .

فإذا لم يكن فيها شيء من التبت، فهي المرت والمليع .

فإذا لم يكن فيها شيء، فهي المرورة والسبروت والبلقع .

فإذا كانت الأرض غليظة صلبة، فهي الجبوب، ثم الجلد، ثم العزاز، ثم الصيذاء، ثم الجدد .

فإذا كانت صلبة يابسة من غير حصى، فهي الكلد، ثم الجعجاع .

- فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل ، فهى البرقة والأبرق .
 فإذا كانت ذات حصى ، فهى المحصاة والمحصبية .
 فإذا كانت كثيرة الحصى ، فهى الأمعز والمعزاة .
 فإذا آشملت عليها كلها حجارة سود ، فهى الحرة واللابية .
 فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكين ، فهى الحزير .
 فإذا كانت الأرض مطمئنة ، فهى الجوف والغائط ، ثم الهجل والمضم .
 فإذا كانت مرتفعة ، فهى النجد والنشز .
 فإذا جمعت الأرض الارتفاع والصلالة والغلظ ، فهى المتن والصمد ، ثم القف
 والغدغد والقردد .
 ١٠ فإذا كان ارتفاعها مع اتساع ، فهى اليفاع .
 فإذا كان طولها فى السماء مثل البيت ، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع ، فهى التل ؛
 وأطول وأعرض منها الربوة والراية ؛ ثم الأكمة ؛ ثم الزبية ، وهى التى لا يعلوها الماء .
 وبها ضرب المثل فى قولهم : ”بلغ السيل الزبى“ ؛ ثم النجوة ، وهى المكان الذى تظن
 أنه نجاؤك ؛ ثم الصمان ، وهى الأرض الغليظة دون الجبل .
 ١٥ فإذا ارتفعت عن موضع السيل وأنحدرت عن غلظ الجبل ، فهى الخيف .
 فإذا كانت الأرض لينة سهلة من غير رمل ، فهى الرقاق والبرث ؛ ثم الميثاء والدمثة .
 فإذا كانت طيبة التربة كريمة المنبت بعيدة عن الأحساء والنزوز ، فهى العداة .
 فإذا كانت مخيلة للنبت والخير ، فهى الأريضة .
 فإذا كانت ظاهرة لاشجر فيها ولا شئ يختلط بها ، فهى القراح والقرواح .
 ٢٠ فإذا كانت مهيأة للزراعة ، فهى الحقل والمشارة والدبرة .

[فإذا لم تهباً للزراعة ، فهي بور^(١)] .

فإذا لم يصبها المطر ، فهي القل والجُرز .

فإذا كانت غير ممطورة وهي بين أرضين ممطورتين ، فهي الخطيطة .

فإذا كانت ذات ندى ووخامة ، فهي الغمقة .

فإذا كانت ذات سباح ، فهي السبخة .

فإذا كانت ذات وباء ، فهي الوبئة والوبئة .

فإذا كانت كثيرة الشجر ، فهي الشجرَاء والشجرة .

فإذا كانت ذات حيات ، فهي الحوأة^(٢) .

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب ، فهي المسبعة والمدابة .

٢ - ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

قال الثعالبي رحمه الله تعالى :

الصَّعِيد ، تراب وجه الأرض .

والبوغاء ، والدقعا ، التراب الرخو الرقيق الذي كأنه ذرية .

والثرى ، التراب الندى : وهو كل تراب لا يصير طينا لازباً إذا بُل .

المور ، التراب الذي تمور به الرياح .

الهباء ، التراب الذي تطيره الرياح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم

[يلترق لزوقاً^(١)] .

(١) الزيادة من فقه الثعالبي .

(٢) كذا ضبط في فقه اللغة ، وفي اللسان : (وأرض نحاة ونحواة كثيرة الحيات) وهو الأولى لا طراد

هذا الوزن في مثل ذلك .

[والهائي، الذي دَقَّ وارتفع] ^(١) .

السَّافِيَاءُ، التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح .

النَّيْبَةُ، التراب الذي يُخْرِجُ من البئر عند حفرها .

الرَّاهِطَاءُ والدَّامَاءُ، التراب الذي يُخْرِجُهُ اليربوع من جُحْرِه ويجمعه .

الجُرْثُومَةُ، التراب الذي يجمعه النمل عند قريته .

العَفَاءُ، التراب الذي يُعْفَى الآثَارُ . وكذلك العَفَرُ .

الرَّغَامُ، التراب المختلط بالرمل .

السَّمَادُ، التراب الذي يُسَمَّدُ بِهِ النبات . فإذا كان مع السَّرْقِينِ ، فهو الدَّمَالُ .

٧٥

٣ — ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

النَّقْعُ والعَكُوبُ، الغبار الذي يَثُورُ من حوافر الخيل وأخفاف الإبل .

العَجَاجُ، الغبار الذي تُثِيرُهُ الريح .

الرَّهْجُ والقَسْطَلُ، غبار الحرب .

الْخَيْضَعَةُ، غبار المعركة .

العَشِيرُ، غبار الأقدام .

الْمَنِينُ ما تَقَطَّعَ مِنْهُ .

٤ — ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال :

إذا كان الطين حُرًّا يابسًا ، فهو الصَّلْصَالُ .

فإذا كان مطبوخًا ، فهو الفَخَّارُ .

(١) الزيادة من فقه الثعالبي .

فإذا كان علكا لاصقا، فهو اللَّازِبُ .

فإذا غيَّره الماء وأفسده، فهو الحَمَأُ .

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة) .

فإذا كان رطبا، فهو النَّاطَةُ والتُّرْمُطَةُ والطَّثَرَةُ .

فإذا كان رقيقا، فهو الرَّدَاغُ .

فإذا كان تَرْتِطِمَ فيه الدوابُّ، فهو الوَحْلُ . وأشدُّ منه الرَّدْغَةُ والرَّزْغَةُ . وأشدُّ منها
الوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدر على التخلص منها ؛ ثم صارت مثلا لكل شدة يقع
فيها الإنسان .

فإذا كان حُرًّا طيبا علكا وفيه خضرة، فهو الغَضْرَاءُ .

فإذا كان مخلوطا بالتبين، فهو السِّيَاحُ .

فإذا جعل بين اللَّين، فهو المِلَاطُ .

٥ — ذكر تفصيل أسماء الرمال

قال :

العَدَابُ، ما أَسْتَرَقَّ^(١) من الرمل .

الحَبْلُ، ما أَسْتَطَالَ منه .

اللَّبَبُ، ما أَنْحَدَرَ منه .

الحَقْفُ، ما أَعَوَجَّ منه .

الدَّعْصُ، ما أَسْتَدَارَ منه .

(١) في الأصل : ما أَشْتَدَّ . ولكن الذي في القاموس وفقه اللغة : ما أَسْتَرَقَّ .

- العَقْدَةُ، ما تَعَقَّدَ منه .
- العَقَنْقَلُ، ما تراكم منه .
- السَّقَطُ، ما جَعَلَ يَتَقَطَّعُ ويتصل منه .
- النُّهُورَةُ، ما أشرف منه .
- التَّيْهُورُ، ما أَطْمَأَن منه .
- الشَّقِيقَةُ، ما أَتَقَطَّعَ وَغُلِظَ منه .
- الكَثِيبُ والتَّقَا، ما أَحْدَوْدَبَ وَأَنْهَالَ منه .
- العَاقِرُ، ما لَا يُنْبِتُ شيئاً منه .
- الهَدْمَلَةُ، ما كثر شجره منه .
- الأَوْعَسُ، ما سَهَلَ ولان منه .
- الرَّغَامُ، ما لان منه . وليس هو الذي يسيل من اليد .
- الْهَيَامُ، ما لَا يَمَالُكُ أَنْ يُمْسِكَ بِالْيَدِ منه للينه .
- الدَّكَدَاكُ، ما آلتَبَدَ بالأَرْضِ منه .
- العَانِكُ، ما تَعَقَّدَ منه حَتَّى لَا يَقْدِرَ البَعِيرُ عَلَى الْمَسِيرِ فِيهِ .

٦ — ذكر ترتيب كمية الرمل

قال الثعالبي :

- الكثير يقال له العَقَنْقَلُ .
- فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ .
- فإذا نقص، فهو عَوَكَلٌ .

فإذا نقص عنه ، فهو سَقَطٌ .

فإذا نقص عنه ، فهو عَدَابٌ .

فإذا نقص ، فهو آبَبٌ .

وقال في كتابه "الغريب" ^(١) :

إذا كانت الرملة مجتمعة ، فهي العَوَكَلَةُ .

فإذا انبسطت وطالت ، فهي الكَثِيبُ .

فإذا انتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرياح وبقي منه شيء رقيق ، فهو اللَّبَبُ .

فإذا نقص ، فهو العَدَابُ .

٧ - ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال الثعالبي :

المِرْصَادُ وَالنَّجْدُ ، الطريق الواضح ، وكذلك الصَّرَاطُ

وَالْجَادَةُ وَالْمَنْهَجُ وَاللَّقَمُ وَالْحَجَّةُ ، وَسَطُ الطريق وَمُعْظَمُهُ .

وَاللَّاحِبُ ، الطريق المُوَطَّأُ .

الْمَهْيَعُ ، الطريق الواسع .

الْوَهْمُ ، الطريق الذي يَرُدُّ فيه الموارد .

الشَّارِعُ ، الطريق الأعظم .

النَّقَبُ وَالشَّعْبُ ، الطريق في الجبل .

الْحَلُّ ، الطريق في الرمل .

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبي ، وإنما هو كتاب "الغريب المصنف" لأبي عمرو الشيباني ، الموجود منه

نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

الْمَخْرَفُ، الطَّرِيقُ فِي الْأَشْجَارِ . وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : "عَائِدُ الْمَرِيضِ فِي مَخَارِفِ الْجَنَّةِ" .
النَّيْسَبُ، الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ ؛ وَقِيلَ إِنَّهُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَدَقُ الْوَاضِعُ، كَطَرِيقِ النَّمْلِ
وَالْحَيَةِ وَحَمْرِ الْوَحْشِ .
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الأول في طول الأرض ومساقها

ذهب المتكلمون في ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام : ثَلَاثُ عِمْرَانٍ، وَثُلُثُ
خَرَابٍ، وَثُلُثُ بَحَارٍ؛ وَأَنْ مَقْدَارَ الْمَعْمُورِ مِنَ الْأَرْضِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً : تَسْعُونَ
مِنْهَا لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَأَشْنَا عَشَرَ لِلْسُّودَانِ، وَثَمَانِيَةَ لِلرُّومِ، وَثَلَاثَةَ لِلْعَرَبِ، وَسَبْعَةَ
لِلسَّائِرِ الْأُمَمِ . ١٠

وقيل إن الدنيا سبعة أجزاء : ستة منها لِيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَوَاحِدٌ لِسَائِرِ النَّاسِ .
وقيل إن الأرض خمسمائة عام : الْبَحَارُ مِنْهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ، وَمِائَةٌ خَرَابٍ، وَمِائَةٌ عِمْرَانٍ .
وقيل إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ : لِلْسُّودَانِ مِنْهَا أَشْنَا عَشَرَ أَلْفًا،
وَلِلرُّومِ ثَمَانِيَةَ أَلْفِ فَرَسَخٍ، وَلِفَارِسَ ثَلَاثَةَ أَلْفٍ، وَلِلْعَرَبِ أَلْفٌ . ١٥

٧٦

وقال وهب بن منبه : مَا الْعِمَارَةُ مِنَ الدُّنْيَا فِي الْخَرَابِ إِلَّا كَقُسْطَاطٍ فِي الصَّحْرَاءِ .
وقال أَرْدَشِيرُ بْنُ بَابِلَ : إِنَّ الْأَرْضَ أَرْبَعَةُ أَجْزَاءٍ : جُزْءٌ مِنْهَا لِلتُّرْكِ، وَجُزْءٌ لِلْعَرَبِ،
وَجُزْءٌ لِلْفُحُورِ، وَجُزْءٌ لِلْسُّودَانِ .

وقيل : إن الأقاليم سبعة ، والأطراف أربعة ، والنواحي خمسة وأربعون ، والمدائن عشرة آلاف ، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا .

وقال الخوارزمي صاحب الزيج : دور المعمور سبعة آلاف فرسخ ، وهو نصف سدس الأرض ، والجبال ، والمفاوز ، والبحار . والباقي خراب ييباب لا نبات فيه ولا حيوان .

ومثل المعمور بصورة طائر ، رأسه الصين ، والجناح الأيمن الهند والسند ، والجناح الأيسر الخزر ، وصدره مكة والعراق والشام ومصر ، وذنبه الغرب .

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ، وأن دورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل . وذلك جميع ما أحاطت به من بر وبحر .

وإنما علم ذلك وحرر من عبد الله المأمون ، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخبرة بالحساب والنجوم — منهم علي بن عيسى — إلى بَرِيَّةِ سِنْجَار . وتفرقوا من هناك . فذهب بعضهم إلى جهة القطب الشمالي ، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبي ، وسار كل منهم

- في جهته إلى أن وصل غاية ارتفاع الشمس نصف النهار ، وقد زال وتغير عن الموضع الذي اجتمعوا فيه وتفرقوا منه ، مقدار درجة واحدة . وكانوا قد ذرعوا الطريق في ذهابهم ، فنصبوا السهام ، ووتدوا الأوتاد ، وشدوا الحبال . ثم رجعوا وأمتحنوا الذراع ثانية ، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامت وجه بسيط الأرض ستة وخمسين ميلا وثلاثي ميل . (والميل أربعة آلاف ذراع ، والذراع ست قبضات ، والقبضة أربع أصابع ، والإصبع ست شعيرات ، بطون بعضها إلى بعض ، والشعيرة

ست شعرات من شعر الخيل) . فضربت هذه الأميال في جميع درجات الفلك ،
وهي ثلثائة وستون درجة ،نخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل .
فحكم بأن ذلك دور الأرض .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : مسافة طول الأرض من أقصى المشرق
إلى أقصى المغرب نحو من أربعمائة مَرَّحَلَة ، ومسافة عرضها من حيث العمران
الذي من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلى حيث العمران الذي
من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة ، وما بين برارى
يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة .
ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ .

١٠ حكى هذه الأقوال صاحب كتاب "مباحج الفكر ومناهج العبر" رحمه الله .

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفن الأول

١ - في الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود ، طوله من
المغرب إلى المشرق ، وعرضه من الجنوب إلى الشمال . ١٥

١ - فأما الإقليم الأول . فبيدؤه من مشرق أرض الصين إلى مدائن أبوابها .
وهي الأنهار التي تدخل السفن فيها من البحر إلى المدائن الجلييلة ، مثل خانقو وخانقور .^(١)

(١) كذا بالأصل والصواب ، خانجور عن كتاب "تقويم البلدان" لأبي الفدا .

وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبيا من صنعاء ، مثل ظَفَارٍ وحضرموت وعدَن . وفيه من بلد النوبة دُنْقَلَة ؛ ومن بلد السودان غَانَة . ثم ينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من خط الاستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

- ٥ وذهب بعض الناس إلى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء أثنتى عشرة درجة ونصف وربع درجة ، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهائم . وعد فيه بَطْلَيْمُوس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة . وأهل هذا الإقليم سود ، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه .

- ٢ - وأما الإقليم الثانى . فيبتدئ من بلاد الصين ، ويمتد على بعض بلاد الهند الساحلية ، مثل تَانَة^(١) ، وصَيْمُور ، وسَنْدَان ، ومن بلاد السند على المنصورة وديبل ، ثم يبلغ عُثْمَان . ويكون فيه من أرض العرب : نَجْرَان ، وهَجْر ، وجَنْابَة ، ومَهْرَة ، وسَبَا ، وتَبَالَة ، والطائف ، وجُدَّة ، ومَكَّة ، والمدينة ، ومملكة الحبشة ، وأرض البُجَّة ، وأُسْوَان ، وقوص ، والصعيد الأعلى ، وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهى إلى البحر المحيط ؛ وعرضه من غاية الإقليم الأول إلى سبع وعشرين درجة وأثنتى عشرة دقيقة .
- ١٥ وزعم بَطْلَيْمُوس أن فيه أربعائة وخمسين مدينة . وأهله بين السمرة والسواد ، وهو كثير الذهب .

(١) اسم لمدينة ببلاد الهند . قال البيروني : هى على الساحل . والنسبة اليها "تانشى" ومنها الثياب التانشية (أنظر تقويم البلدان) .

(٢) فى معجم ياقوت : جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس ، وهى فى الإقليم الثالث . وفى "تقويم البلدان" (جنابة بلدة قد خرب غالبا ، وهى فرضة لفارس ، وضبطها ابن خلكان بفتح الجيم والمشهور الضم) .

٣ - وأما الإقليم الثالث . فببداؤه من شرق أرض الصين ، وفيه مدينة مملكتها ، حمدان^(١) ، وفيه من بلاد الهند تانش والقنندهار ، ومن بلاد السند المولتان^(٢) وقزدار . ثم يمر ببلاد سجستان ، وكرمان ، وفارس ، وأصبهان ، والأهواز ، والبصرة ، والكوفة ، وأرض بابل ، وبلاد الجزيرة ، والشام ، وفلسطين ، وبيت المقدس ، والقلم ، والتية ، وأرض مصر ، والإسكندرية ، وبلاد برقة ، وإفريقية ، وتأهرت ، وبلاد طنجة ، والسوس ، وينتهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة .

وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة . وأهله سمر .

٤ - وأما الإقليم الرابع . فببداؤه من أرض الصين ، ويمر على التبت والحق ، ثم على جبال قشيمير ، ووخان ، وتل حسان^(٣) ، وكابل ، والغور ، وهرة ، وبلخ ، وطخارستان ، ويمتد إلى الري ، وقم ، وهمدان ، وحلوان ، وبغداد ، والموصل ، وأذربيجان . ويمتد على منبج ، وطرسوس ، والثغور ، وأنطاكية ، وجزيرة قبرس ، وصقلية ، ثم على الزقاق إلى البحر المحيط ، وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى ثمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة .

- ١٥ (١) هكذا بالأصل . ولعل المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم حمدان ببلاد الصين .
 (٢) في الأصول : "كورا" وليس بالسند بل بهذا الاسم . ويرجح أن النساخين حرفوه عن "كردار" . ويقال فيه "قصدار" (أنظر معجم ياقوت) .
 (٣) في ياقوت : والحق وبرجان ، وبذخشان . وهو الصواب .
 (٤) لم نعر على بلدة بهذا الاسم ولعلها محرفة عن "وخش" وهي كما في معجم ياقوت : بلدة من نواحي بلخ . وفي "تقويم البلدان" : أنها بلدة بما وراء النهر في الإقليم الرابع .
 (٥) أي حلوان العراق ، لا حلوان مصر .

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة . وأهله بين السمرة واليباض .

- ٥ - وأما الإقليم الخامس . فببده من أرض الترك المشرفين على ياجوج ومأجوج إلى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، وإسفيجاب^(١)، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبحارى، وخوارزم، وبحر الخزر إلى باب الأبواب، وبرذعة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم . ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الخلافة^(٢)، وبلاد الأندلس، ويتنهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثمانى عشرة دقيقة .

وذكر بطليموس أن فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهله بيض .

- ٦ - وأما الإقليم السادس . فببده من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيماك، والتغزغر، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، والألان، والسريز، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجية^(٣)، وشمال الأندلس، ويتنهي إلى البحر المحيط، وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة . وزعم بطليموس أن فيه ثلاثا وثلاثين مدينة، وهو كثير الإمداد والثلوج . وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور .

- ٧ - وأما الإقليم السابع . فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو فى المشرق غياض وجبال يأوى إليها طوائف من الترك كالمتموحشين . ويمر على بلاد البجناك، ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، ويتنهي إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية

(١) هى المشهورة أيضا باسم : إسفيجاب .

(٢) أهل جليقية بشمال الأندلس .

(٣) أى فرنسا .

الإقليم السادس إلى ثمة خمسين درجة ونصف . وفيه الأرض المحفورة ، وهي وهدة لا يقدر أحد أن ينزل إليها ، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعدها . يسكنها أمة من الناس لا يدري من هم . وإنما علم أنها معمورة برؤية الدخان فيها نهاراً ، والنار ليلاً . يشقها نهر يجري ، والعمارة محيطة به .

٥ وزعم بطليموس أن فيها ثلاثاً وعشرين مدينة . وأهل هذا الإقليم بيض صهب الشعور .

وما بقي من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه . يسكنه طوائف من الناس ، هم بالبهائم في الخلق والخلق أشبه منهم بنى آدم .

٢ — ذكر ما يمثل به مما فيه ذكر الأرض

يقال :

أحمل من الأرض . أكتّم من الأرض . أصبر من الأرض . آمن من الأرض .
أوثق من الأرض . أوطأ من الأرض . أحفظ من الأرض . أكثر من الرمل .
أظلم من الرمل . أعطش من الرمل . أوجد من التراب .

ويقال :

١٥ قتل أرضاً عالمها ، وقتلت أرضاً جاهلها . رماء بين سمع الأرض وبصرها . أخذت الأرض زخارفها . أفق قبل أن يُحفَر ثراك . ابتغوا الرزق في خبايا الأرض .

ومن أنصاف الأبيات :

* الأرض من تربة والناس من رُجل * * وأنى تُمطر الأرض السماء *

ومن الأبيات :

والأَرْضُ لَا تُطْعِمُ مَنْ فَوْقَهَا * إِلَّا لِيَكِيَ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهُ

وقال آخر :

إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ * مِنَ الْبَدْرِ، فَهِيَ الْأَرْضُ . نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ !

وقال آخر :

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضَعًا ، * فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ !

وقال آخر :

يَا أَرْضُ كَمْ وَافِدٍ أَتَاكَ فَلَمْ * يَرْجِعْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَمْ يُؤَبِّ !

٣ - ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل :

وَتِيَهَاءَ مُبْحَالٍ كَانَتْ نَعَامَهَا * بِأَرْجَائِهَا الْقُصُوفُ أَبَاعِرُ هُمْلٍ .

تَرَى لَامِعَاتِ الْآلِ فِيهَا كَأَنَّهَا * رَجَالٌ تَعْرَى تَارَةً وَتَسْرِبُلُ .

وَجَوْزَ فَلَاةٍ لَا يُغْمَضُ رَكْبُهَا * وَلَا عَيْنُ هَادِيهَا مِنَ الْخَوْفِ تَغْفُلُ .

وَكُلُّ بَعِيدِ الْغُورِ لَا يُهْتَدَى لَهُ * بِعُرْفَانِ أَعْلَامٍ وَلَا فِيهِ مَنَهْلُ .

مَلَاعِبُ جَنَّاتٍ كَأَنَّ ثُرَابَهَا * إِذَا أَطْرَدَتْ فِيهَا الرِّيَّاحُ تُغْرِبُلُ .

تَرَى الثُّعْلَبَ الْحَوْلَى فِيهَا كَأَنَّهُ * إِذَا مَا عَلَا نَشْرًا حَصَانٌ مُحَجَّلُ .

وقال ذو الرمة :

وَدَوِيَّةٍ جَرْدَاءَ جَدَاءَ خِيَمَتْ * بِهَا هَبَّوَاتُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ .

سَبَارِيْتُ يَحُلُّو سَمْعٌ مُجْتَازِهَا بِهَا * مِنَ الصَّوْتِ ، إِلَّا مِنْ صِيَاحِ الثُّعَالِبِ .

وقال ذو الرمة :

وهاجرة السراب من الموائى * ترقص في عسافلها الأروم .
تموت قطا الفلاة بها أومًا * ويهلك في جوانبها النسيم .
ملأت بها المقام فأرقتني * هموم لا تنام ولا تنيم .

وقال ضابئ البرجمي :

وداوية تيه يحاربها القطا * على من علاها من ضلول ومهتدى .
مسافهة للعيس ناء نياطها ، * إذا سار فيها ركب ، لم يغرد .

وقال مسلم بن الوليد :

وقاطعة رجل السبيل مخوفة * كأن على أرجائها حد مبرد .
مؤزرة بالآل فيها كأنها * رجال قعود في ملأ معمّد .

وقال الصاحب بن عباد :

وتيهاء لم تطمئئحف وحافر * ولم يدر فيها النجم كيف يغور .
معالمها أن لا معالم بينها ، * وآياتها أن المسير غرور .
ولو قيل للغيث ، أسقها : ما اهتدى لها * ولو ظل ملء الأرض وهو جزور .
تجشمها ، والليل وحف جناحه * كائن سر والظلام ضمير .

وقال الشريف الرضي :

وتؤفة حصباؤها * خلقت لنار القيظ جحرا .
تبدي جنادها الأتئين أسى على المجتاز ظهرا .
وترى بها العصفور متخذًا وجار الضب وكرا .

وقال المتنبي :

مَهَالِكُ لَمْ يَصْحَبْ بِهَا الذُّبُّ نَفْسَهُ * وَلَا حَمَلَتْ فِيهَا الْغُرَابُ قَوَادِمُهُ .

وقال ابراهيم بن خفاجة الاندلسي :

وَمَفَازَةٌ لَا تَجْمَ فِي ظَلَمَائِهَا * يَسْرَى وَلَا فَلَكَ بِهَا دَوَارُ .
تَتَلَهَّبُ الشَّعْرَى بِهَا فَكَأَنَّهَا * فِي كَفِّ زَنْجِي الدُّجَى دِينَارُ .
تُرْمَى بِهَا الْغِيْطَانُ فِيهَا وَالرُّبَى * أَلْ كَمَا يَتَمَسَّجُ التَّيَّارُ .
وَالْقُطْبُ مُلْتَرِمٌ لِمَرْكَرِهِ بِهَا * فَكَأَنَّهُ فِي سَاجِهِ مَسَارُ .
قَدْ لَفَنِي فِيهَا الظَّلَامُ وَطَافَ بِي * ذُبُّ يُلِمُّ مَعَ الدُّجَى زَوَارُ .
طَرَّاقُ سَاحَاتِ الدِّيَارِ مُغَاوِرُ * خَبْتُ لِأَنْبَاءِ السُّرَى غَدَارُ .
يَسْرَى ، وَقَدْ فَضَحَ الدُّجَى وَجْهُ الضِّيَا ، * فِي فَرَوَةٍ قَدْ مَسَّهَا أَقْشَعَرَارُ .
فَعَشَوْتُ فِي ظَلَمَاءَ لَمْ يُقْدَحْ بِهَا * إِلَّا لِمُقْلَتِهِ ، وَبِأَيْ نَارُ .
وَرَفَلْتُ فِي خِلْعٍ عَلَى مِنَ الدُّجَى * عُقِدَتْ بِهَا مِنْ أَنْجُمٍ أَزْرَارُ .
وَاللَّيْلُ يَقْصِرُ خَطْوَهُ ، وَلِرُبَّمَا * طَالَتْ لِيَالِي الرَّكْبِ وَهِيَ قَصَارُ .

وقال آخر :

وَمَجْهُولَةُ الْأَعْلَامِ طَامِسَةُ الصُّوَى * إِذَا عَسَفَتْهَا الْعَيْسُ بِالرَّكْبِ ، ضَلَّتْ .
إِذَا مَا تَهَادَى الرَّكْبُ فِي فُلُوتَاهَا ، * أَجَابَتْ نِدَاءَ الرَّكْبِ فِيهَا فَأُصْدِتْ .

وقال مسعود ، أخو ذى الرمة يصف بُعد فلاة :

وَمَهْمَهُ فِيهَا السَّرَابُ يَلْمَحُ * يَدَّأُبُ فِيهَا الْقَوْمُ حَتَّى يَطْلُحُوا .
ثُمَّ يَظْلَوْنَ كَأَن لَمْ يَبْرَحُوا * كَأَنَّمَا أَمْسَوْا بِحَيْثُ أَصْبَحُوا .

وقال مسلم :

تَجْرِي الرِّيحُ بِهَا مَرْضَى مُوَلَّهَةٌ * حَسْرَى تَلُوذُ بِأَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ .

وقال آخر :

وَدَوِيَّةٌ مِثْلُ السَّمَاءِ قَطَعَتْهَا * مُطَوَّقَةٌ آفَاقُهَا بِسَمَائِهَا .

وقال بعض الاعراب في الآل ^(١) :

كَفَى حَزَنًا أَنِّي تَطَالَلْتُ كَيْ أَرَى * ذُرَى عَالَمِي دَخَّ فَمَا يُرِيَانِ !
كَأَنَّهُمَا ، وَالْآلُ يَنْجَابُ عَنْهُمَا ، * مِنَ الْبُعْدِ عَيْنًا بَرُّقَ خَلْقَانِ .

قال أبو هلال : وهذا من أغرب ما روى من تشبيهات القدماء .

وقال آخر :

وَالْآلُ تَنْزُو بِالصُّوَى أَمْوَاجُهُ * نَزْوَالَقَطَا الْكُذْرَى فِي الْأَشْرَاكِ .
وَالظِّلُّ مَقْرُونٌ بِكُلِّ مَطِيَّةٍ * مَشَى الْمِهَارِ الدُّهْمُ بَيْنَ رِمَاكِ .

وقال ابن المعتز :

وَمَا رَاعَنِي بِالْيَيْنِ إِلَّا ظَعَائِنُ * دَعَوْنَ بُكَائِي ، فَاسْتَجَابَ سَوَاكِبُهُ .
بَدَتْ فِي بَيَاضِ الْآلِ وَالْبُعْدُ دُونَهُ * كَأَسْطُرٍ رَقَّ أَمْرُضَ الْخَطِّ كَاتِبُهُ .

(١) هو طهمان بن عمرو الدارمي ، كما في ياقوت . وأورد القصيدة بتمامها ، وهي ١٥ بيتا . (معجم

البلدان ، مادة دخ) .

الباب الخامس

من القسم الرابع من القرن الأول

١ - في الجبال

قال الله تعالى : ”وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ“ .

- قال المفسرون : خلق الله عز وجل الأرض على الماء فمادت وتكتفت ، كما
تكتفت السفينة ، فأثبتها بالجبال . ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقتا .

- وروى أبو حاتم في كتاب العظمة ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ”إن الله تعالى لما خلق الأرض ، جعلت تميد . فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فعجبت الملائكة من خلق الجبال ، وقالت : يارب هل خلقت خلقا أشد من الجبال ؟ قال : الحديد ، قالت : فهل من خلق أشد من الحديد ؟ قال : النار ، قالت : فهل من خلق أشد من النار ؟ قال : الماء ، قالت : فهل من خلق أشد من الماء ؟ قال : الريح ، قالت : فهل من خلق أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم ، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله “ .

- وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : ”كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض . فبعث الله ريحا فعصفت الماء فأبرز عن حشفة
١٥ في موضع البيت . فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال “ .

فكان أول جبل وُضع ، جبل أبي قبيس . وهو الجبل المطل على الكعبة .
وفي كنيته بأبي قبيس قولان :

- أحدهما — أن آدم كناه بذلك حين آقتبس منه النار التي بين أيدي الناس
٢٠ (وقد تقدم بيان ذلك في الباب الرابع من القسم الثاني من هذا القرن في ذكر النيران) .

الثاني — أنه أضيف إلى رجل من جرهم كان يتعبد فيه، اسمه أبوقبيس .
ويقال فيه أبوقابوس، وشيخ الجبال . وكان من قبل يسمى بالأمين .
وقال محمد بن السائب الكلبي : ” إن الله عز وجل لما خلق الأرض، مادته بأهلها . فضر بها بجبل السراة فاطمأنت “ .

وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا، ويسمى الحجاز . وهو الذي حجز بين تهامة ونجد . فتهامة من جهته الغربية مما يلي البحر، ونجد من جهته الشرقية . وهو آخذ من قعر عدن إلى أطوار الشام^(١) . ويسمى هناك جبل لبنان . فإذا تجاوز اللاذقية ومرر بالثغور، سمي جبل اللكام . ثم يمتد في بلاد الروم إلى بلاد أرمينية، فيسمى هناك حارثا وحويرثا . ثم يمتد إلى بحر الخزر، وفيه ” الباب والأبواب “ .
وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ” ق وَالْقُرْآنِ الْحَمِيدِ “ إنه جبل محيط بالعالم من زمردة خضراء، وإن جبال الدنيا متفرعة عنه .

وقال قوم : إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه، وهو الحجاب الساتر لها عن أعين الناس، في أحد الوجوه المفسر بها قوله تعالى : ” حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ “ .
وقال قوم : إن منه إلى السماء مقدار ميل، وإن الذي يرى من خضرة السماء مكتسب من لونه .

وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة في الدنيا متفرعة عن الجبل الخارج من بلاد الصين، مشرقا ذاهبا على خط مستقيم إلى بلاد السودان مغربا .

(١) في الأصل أطبران، وهو تحريف . والنصحیح عن البكري : أطرار الشام وفيه في موضع آخر ” أطراف بوادي الشام “ ومثل هذا في ياقوت . وأطرار الوادي نواحيه وكذلك أطرار البلاد والطريق واحدها طر . وأطرار البلاد أطرافها . (عن تاج العروس) .

٨٠

وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر في "كتاب الحراج" : وجدت خلف خط الاستواء في الجنوب وقبل الإقليم الأول جبلا تسعة : خمسة منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربعمائة ميل إلى خمسمائة ميل ؛ وجبلا طوله سبعمائة ميل ؛ وجبل القمر، وطوله ألف ميل ؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الأول ؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الثاني .

قال : ومجموع ما عُرِف في الأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا . منها في الإقليم الأول سبعة عشر جبلا ، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون جبلا ، وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا ، وفي الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا .

٢ — ذكر أسماء ما ارتفع من الأرض إلى أن يبلغ الجبل

ثم ما ارتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم، وترتيب ذلك

قال الثعالبي في كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسنده إلى أئمتها :

أصغر ما ارتفع من الأرض التُّبْكَة ؛ ثم الرايِسة أعلى منها ؛ ثم الأَكْمَة ؛ ثم الزُّبْيَة ؛ ثم النَّجْوَة ؛ ثم الرَّيْع ؛ ثم القُف ؛ ثم الهَضْبَة (وهي الجبل المنبسط على الأرض) ؛ ثم القَرْن (وهو الجبل الصغير) ؛ ثم الدُّك (وهو الجبل الذليل) ؛ ثم الضَّاع (وهو الجبل الذي ليس بالطويل) ؛ ثم النِّق (وهو الجبل الطويل) ؛ ثم الطَّود ؛ ثم الباذِخ والشَّاح ؛ ثم الشَّاهق ؛ ثم المُشْمَخِر ؛ ثم الأقود والأخشَب ؛ ثم الأيَّهم ؛ ثم القَهَب (وهو العظيم) ؛ ثم الخُشَام .

(١) في الأصل : الجبل الديك . وقد اعتمدنا ما في القاموس وفقه اللغة أيضا .

٣ - ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبي :

أول الجبل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصل الجبل .

ثم السَّفْح، وهو ذيله .

ثم السَّنْد، وهو المرتفع في أصله .

ثم الكَيْحُ، وهو عَرَضُه .

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به .

ثم الرِّيد، وهو ناحيته المشرفة على الهواء .

ثم العُرْعَرَة، وهي غلظه ومعظمه .

ثم الحَيْد، وهو جَنَاحه .

ثم الرَّعْن، وهو أنفه .

ثم الشَّعْفَة، وهي رأسه .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : يقال من أسماء الجبال : العظيم منها الطَّور،

والطَّود، والكَفَر، والقَهَب، والعمود، والعَلَم، والأرْعَن^(١)، والمُشْمَخِر .

والآيَّهم الطويل، وهو الشَّاحُ، والشَّاهِقُ، والبَازِخُ، والبَاسِقُ، والآقُود .

والأخْشَب، الخَشِن .

والعِقَابُ، الصَّعَاب .

والثَّنَايَا، التي ليست بصَعْبَة .

(١) كذا بالأصل . والذي في القاموس واللسان والمخصص (الرَّعْن أنف الجبل المتقدم أو الجبل

الطويل) فها هنا من تحريف النساخ .

- والهَرَشْمُ، النَّخْرُ .
 والخُشَامُ، جبل طويل ذو أنف .
 والوَزَرُ، والمَلَجَا، والقلعة، ما يُحصَّن فيه .
 والقرن، جبل صغير .
 والضَّلَعُ والدُّكُّ، فيه دِقَّةٌ وأنْحَاءٌ .
 والنيق، الذي لا يُستطاع أن يُرتقى إليه .
 وأعلى الجبل قُلتَه وقُتته ودُؤَابَتُهُ .
 وعُمرُ عُرَّتِهِ، غَلظه .
 والفند، القطعة منه .
 وشَعْفُهُ ومَصَادُهُ، أعلاه .
 والكيحُ والكاح، عُرضه .
 والرَّحْجُ^(١)، ناحيته المُشْرِفة على الهواء .
 والحَضِيضُ، أسفله .
 قال : وصفار الجبال ، اليَقَعُ ، والضَّرْسُ ، والضَّرْبُ والعَنْتِيبةُ^(٢) ، والعُتُوتُ ،
 والأَكَمَةُ، والهَضْبَةُ .
 والذَّرِيحَةُ، ما أنبَسَطَ على وجه الأرض .
 واللَّوْذُ، حِضْنُ الجبل وما يُطِيف به .

(١) في الأصل : الوح بالواو . وهو تصحيف من الناسخ . وقد صححناه اعتماداً على ما في القاموس والمخصص .

(٢) كذا بالأصل ولم نثر عليها في القاموس واللسان والمخصص .

- والرَّيْدُ والرُّيُودُ، نَوَاحِيهِ المَحْدَدَةُ .
والْحَيْدُ، شَاخِصٌ يَتَقَدَّمُ كَالْجَنَاحِ . ومثله الشُّنُوفُ .
والصَّدْعُ والشَّقْبُ، شَقٌّ فِيهِ .
والغارُ والكهفُ، مثل البيوت فِيهِ .
والقُرْدُوعَةُ، الزاوية فِيهِ .
واللَّهَبُ والنَّفَنَفُ والغارُ، مَهْوَاةٌ بَيْنَ جَبَلَيْنِ .
والشُّؤُونُ، خُطُوطٌ فِيهِ .
والمَحْرِمُ، مُنْقَطَعٌ أَنْفُهُ .
والقِرْناسُ، شِبْهُ الْأَنْفِ .
والإِرَمُ، الْعَلَمُ فِيهِ .

٤ — ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي :

- إذا كانت صغيرة، فهي حَصَاة .
فإذا كانت مثل الجَوْزَةِ وصلحت للاستنجاء بها، فهي نَبْلَةٌ . وفي الحديث :
”اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ وَأَعِدُّوا النَّبْلَ“ . يعني عند إتيان الغائط .
فإذا كانت أعظم من الجَوْزَةِ، فهي قُرْزَعَةٌ .
فإذا كانت أعظم منها وصَلَحَتْ لِلْقَذْفِ، فهي مِقْدَافٌ وَرُجْمَةٌ وَمِرْدَاةٌ . ويقال :
إن المِرْدَاةَ، حَجَرُ الضَّبِّ الَّذِي يَنْصِبُهُ عِلَامَةٌ لِحَجَرِهِ .
فإذا كانت مِلءَ الكَفِّ، فهي يَهْيَرٌ .

فإذا كانت أعظم منها، فهي : فِهْر، ثم جَنْدَل، ثم جَلْمَد، ثم صَخْرَة، ثم قَلْعَة . وهي التي تنقلع من عَرْض الجبل . وبها سميت القَلْعَة التي هي الحِصْن .
وقال صاحب كتاب ” الفاجر ” : من أسمائها ، الحِجَارَة ، والجَلْمُود والجَلْمَد الحجر الصُّلب .

٥. والبرِطِيلُ ، الصَّخْرَة العظيمة .

والصَّفْوَانُ ، الأملس .

والرَّضْمَة ، الحجر العظيم .

والآتَانُ ، صخرة في مَسِيل ماء أو حافة نهر .

والإِزَاءُ ، التي عند مهراق الدلو .

١٠. والرُّجْمَة ، ما تطوى به البئر .

والكَذَّانُ ، الرِّخْو .

واليرْمَعُ ، الأبيض الرِّخْو .

والمُدَّقُ والمدَّك والصَّالِيَة ، حجر العطار الذي يسحق عليه العطر .

والفِهْرُ ، ما يملأ الكَفَّ ويُسْحَق به العطر .

١٥. والمِرْدَاةُ ، ما يكسره الحجر .

والمِرْدَاسُ ، ما يُرمَى به في البئر لينظر أفيها ماء أم لا . قال الشاعر :

مَنْ جَعَلَ الْعِدَّ الْقَدِيمَ الَّذِي * أَنْتَ لَهُ عِدَّةُ أَحْرَاسِ ،

إِلَى ظُنُونِ أَنْتَ مِنْ مَائِهِ * مَتَتَّظِرٌ رَجْعَةَ مِرْدَاسِ .

والتَّشْفُ ، حجر تُدَلَّك به الرَّجُلُ في الحَمَّامِ .

٢٠. والتَّقْلُ ، ما كان في طرق الجبال .

- والأُثْفِيَّة ، ما يُنْصَب عليه القدر .
 والقُلَّاعَة ، ما يُرمَى به في المِقْلَاع .
 والظُّرَّان ، حجارة محدّدة يذبحُ بها .
 والصَّفِيح ، مارَقٌ منه وعَرَض .
 والْتَحَافُ ، حجارة عِراض .
 والفَلَك ، قِطْعَة مستديرة وترتفع عما حولها .
 والمُدْمَلَك ، المدقور .
 والكَلِيَت ، حَجَر مستدير يسدّ به وِجَار الضَّبُع .
 والبَلِيَت ^(١) ، التام .
 وقال ابن الأعرابي : القَيْبَلَة ، صخرة على رأس البئر ، والعُقَابان من جنبتيها يعضدانها .
 ومنها المَرَو ، وهي البيض كاللحصى .
 والحَصْبَاء ، الصغار .
 والرَضْرَاض ، نحوها .
 والقَضِيض ، أصغر منها .
 والزَّنَانِير ، واحدها زَنْيَرٌ ، أصغر ما يكون .

(١) كذا بالأصل وعبارة القاموس (والبليت كيگيت لفظا ومعنى) واللسان (والبليت الرجل الزميت) وهو الخليم الساكن القليل الكلام .

٥ — ذكر ما يُمَثَّل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل . يقال :

أثقل من ثهلان . أثقل من نضاد . أثقل من أحد . أصلب من الحجر . أصلب من الجنذل . أقسى من الحجر . أصبر من حجر . أيبس من صخر . أبقى من النقش في الحجر .

ويقال :

رُمي فلان بحجره . ردَّ الحجر من حيث جاءك . وجَّه الحجر وجهة ما ، أى دبر الأمر على وجهه . ألقمه الحجر ، أى جاوبه بجواب مُسكت . رماه بثلاثة الأثافي . أنجد من رأى حَضَنًا (وحَضَنَ جبل بنجد) أى من رآه لم يحتج أن يسأل هل بلغ نَجْدًا أم لا . الليل يُورَى حَضَنًا ، أى يُخْفَى كل شيء حتى الجبل .

ومن أنصاف الأبيات :

* كأنه علم في رأسه نارٌ * _____ * إذا قطعنا علمًا بدا علمٌ *

* قوموا أنظروا كيف تزول الجبال *

(يضرب لموت الرؤساء) .

* جندلتانِ أَصْطَكَا أَصْطَكَا * _____

(يضرب لقرنين يتصاولان) .

ومن الأبيات :

واوبغى جبل يؤما على جبلٍ ، * لَأَنهَدَ مِنْهُ أَعَالِيَهُ وَأَسْفَلَهُ !

تتنائراً لأطوادٍ وهى شوايحٌ * حَتَّى تَصِيرَ مَدَاوِسَ الْأَقْدَامِ .

جُدَّ فَقَدْ تَنَفَّجَرُ الصَّخْرُ * رُةً بِالْمَاءِ الـ_____ زُلَالِ .

٦ - ذكر شىء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموعل بن عاديا :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُهُ مَنْ يُجِيرُهُ * مَنِيعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ !
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَاءُهُ * إِلَى النَّجْمِ فَرَعٌ لَا يُرَامُ طَوِيلُ !

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

وَأُرْعَنَ طَمَاحُ الدُّوَابَةِ بِاذْنِخ * يَطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بَغَارِبُ .
يَصُدُّ مَهَبَ الرِّيحِ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * وَيَزْحَمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بِالْمَنَاكِبِ .
وَقُورٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ * طَوَالَ اللَّيَالِي نَاطِرٌ فِي الْعَوَاقِبِ .
يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ * لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ .
أَصْحَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسٌ صَامِتٌ * فَخَدَّتْنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ .
وَقَالَ : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَاتِكِ * وَمَوْطِنَ أَقْوَاهِ وَمَوْئِلَ تَائِبِ !
وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمَوْوِبٍ * وَقَالَ بَسْفِجِي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبِ !
وَلَا ظَمَ مِنْ نَكْبِ الرِّيَّاحِ مَعَاطِفِي * وَزَا حَمَ مِنْ خُضْرِ الْجَارِ جَوَانِبِي !
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدَى * فَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَائِبِ .
وَمَا غِيَضَ السُّلُوانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا * نَزَفْتُ دُمُوعِي مِنْ فِرَاقِ الْأَصَاحِبِ .
وَأَسْمَعُنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ * يُتَرَجَّمُ عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ .
فَسَلَّى بِمَا أَبْكِي ، وَسَرَّ بِمَا شَجِي ، * وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ .
وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ مَطِيَّتِي : * سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ !

٥

١٠

١٥

وقال أيضا عفا الله عنه :

- وأشرف طمّاح الذّؤابة شايخ * تَمْنَطَقُ بِالْجَوْزَاءِ لَيْلًا ، لَهُ خَصْرٌ .
 وَفُورٍ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي كَأَنَّمَا * يُصَيِّخُ إِلَى نَجْوَى فِي أُذُنِهِ وَقُرٌ .
 تَمَهَّدَ مِنْهُ كُلُّ رُكْنٍ زَكَا بِهِ * فَقَطَّبَ إِطْرَاقًا وَقَدْ صَحَّكَ الْبَدْرُ .
 وَلَا ذَ بِهِ نَسْرُ السَّمَاءِ كَأَنَّمَا * يُحَرِّرُ إِلَى وَكْرٍ بِهِ ذَلِكَ النَّسْرُ .
 فَلَمْ أَدْرِ مَنْ صَمِتَ لَهُ وَسَكِينَةٍ * أَكْبَرَةُ سَنٍّ وَقَرَّتْ مِنْهُ أُمُّ كَبْرٍ .

وقال أيضا يصفه نثرا من رسالة كتبها إلى بعض الرؤساء :

- وكيف لي بقربك ودونك كل علم بادخ ، حجّ الليل عليه رُضَابَهُ ، وصاخفت النجوم
 هَضَابَهُ ، قد ناء بطرفه ، وشمخ بأثفه ، وسال الوقار على عطفه ، قد لاث من غَمَامِهِ
 عِمَامِهِ ، وأرسل من ربابه دُؤَابَهُ ، تُطَرِّزُهَا الْبُرُوقُ الْخَوَاطِفُ ، وتهفوها الرياح
 الْعَوَاصِفُ ، بحيث مده البسيط بساطا ، وضربت السماء قُسطاطا .

الباب السادس

من القسم الرابع من الفن الأول

١ — في ذكر البحار والجزائر

- ١٥ روى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : ” لما أراد الله عز وجل أن
 يُخْلِقَ الْمَاءَ خَلَقَ يَاقُوْتَةَ خَضِرَاءَ وَرَعَفَ مِنْ طَوْحَا وَعَرْضَهَا وَسَمَكُهَا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِ
 الْهِيبَةِ فَصَارَتْ مَاءً يَتَرَقَّقُ لَا يَثْبِتُ فِي ضَحْضَاحٍ . فَمَا يَرَى مِنَ التَّمَوُّجِ وَالْأَضْطِرَابِ
 إِنَّمَا هُوَ آرْتَعَادُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ خَلَقَ الرِّيحَ فَوَضَعَ الْمَاءَ عَلَى مَتْنِهِ ، ثُمَّ خَلَقَ
 الْعَرْشَ وَوَضَعَهُ عَلَى مَتْنِ الْمَاءِ “ . وفسر بهذا قوله عز وجل : ” وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ “ .

٢ — ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر ما نيطش^(١)، ثم بحر الخزر .
فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمى باليونانية أوقيانوس، ويسمى بحر الظلمات،
سمى بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحمله الشمس لأنها لا تطلع عليه . فيغاط
ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته . ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه،
وكثرة أهوائه، لم يعلم العالم من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور .
والذي علم به من الجزائر ستة من جهة المغرب، تسمى جزائر السعادات، والجزائر
الخالدات .

قال أبو عبيد البكري في كتابه المترجم "بالمسالك والممالك": وبإزاء طنجة الجزائر
المسماة باليونانية، قُوطنائس أي السعيدة . وسميت بذلك لأن في شعرائها^(٢) وغياضها كلها
أصناف الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحه، وأن أرضها تحمل الزرع مكان
العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك . وهي متفرقة متقاربة .

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقته إلى جزيرة من هذه الجزائر،
فنزل من فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه
وأشجار اليواقيت كل مستحسن . فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس .
فسألهم ملكها من أين لهم هذا . فأخبروه بأمرهم، فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على
جزيرة منها . وعدمت المراكب لعظم البحر وشدة عصف الريح فلم يرجع منها شيء .

(١) كذا في الأصل ، وفي كثير من كتب الجغرافية العربية : وهو المعروف في كتب الجغرافية العربية

مثل أبي الفدا بيجرأزق ، وعند الأتراك بيجرأزوف .

(٢) الشعراء : الأرض ذات الشجر . ٢٠

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالناس . وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء .

ويقال إن في جهة المشرق مما يلي بلاد الصين ستة جزائر أخرى، تسمى جزائر السيلي . يقال إن ساكنيها قوم من العلويين، وقعوا إليها لما هربوا من بني أمية .

ويقال إن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها في عيش قشيف .

وفي هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة بريطانية، وهي تحاذي جزيرة الأندلس، وأهلها صُهب الشعور، زُرَق العيون .

ومما يلي بلاد إفريقية جزائر يعمُرُها خلق من الفريج، لا يتقادون لبلد، ولا يدينون بدين .

وفيا يلي الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة، يحيط بها سبعة ميل ونحسوف ميلا، وفيها أربع مدائن، في كل مدينة ملك .

وجزيرة برفاعة . يحيط بها أربعة آلاف ميل، وفيها ثلاث مدائن عامرة . والداخل إليها قليل . وهي كثيرة الأنواء والأمطار . وأهلها يحصدون زرعها قبل

جفافه لقلّة طلوع الشمس عندهم، ويجعلونه في بيت ويوقدون النار حوله حتى يحف .

وجزيرة أنقلطرة . فيها مدائن عامرة، وجبال شاهقة، وأودية، وأرض سهلة . والشتاء بها دائم . وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سبعة اثنا عشر ميلا .

وفيه مما يلي الصقالبة جزيرتان : إحداهما جزيرة أمر نانيوس النساء ، لا يسكنها غير النساء فقط . وتسمى الأخرى أمر نانيوس الرجال ، لا يسكنها غير الرجال . وهم في كل عام يجتمعون زمان الربيع ، ويتناحون نحواً من شهر ثم يفترقون . ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام ، وظلمة البحر ، وعظم الأمواج .

٣ — ذكر ما يتفرع من البحر المحيط

يتفرع من البحر المحيط خليجان : أحدهما من جهة المغرب ، ويسمى البحر الرومي . والآخر من جهة المشرق ، ويسمى البحر الصيني ، والهندي ، والتارسي ، واليمني ، والحبشي ، بحسب ما يميز عليه من البلاد . وهما المرادان بقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ . أى لا يبغي هذا على هذا .

والبرزخ أرض بين القَرَمَا التي هي على بحر الروم ، وبين مدينة الْقَلْزَم التي هي على بحر الحبش^(١) ، مسافتها ثلاثة أيام . وقيل : البرزخ إرسال ماء البحر الحلو على ماء البحر الملح ، لأنه مغيض له . فلا سبيل لأحدهما على الآخر ، بل جعل الله بينهما حاجزاً وهو البرزخ .

فأما البحر الرومي وجزائره ، فإن المؤرخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط . ويقولون إن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضاً واحدة يسكنها الإشبان والبربر . وكان بعضهم يُغير على بعض ، والحرب بينهم سجال . فلما

(١) في الأصل بحر فارس . وكان الأصوب أن يعبر باللفظ الذي اختاره لهذا المقام ، وهو البحر الحبشي

ملك الإسكندر، رغب إليه الإشباني فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأى أن يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى. فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا، وعرضه اثنا عشر ميلا. وبني بجانبه سكرين^(١)، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حراسا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائباً عنه في بلاد الإشباني. وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فطما وغطى السكرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادا وطغا على أخرى. حتى إن المسافرين فيه يجبرون أن المراكب في بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين. فعظم طولاً وعرضاً، وصار بحراً^(٢).

١٠ قال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر": وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه في زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلا.

قال: وزعم السالكون فيه أن البحر ربما جزر في بعض الأوقات، فترى القنطرة. قالوا: وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط.

١٥ وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم اللام^(٣). وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.

(١) السكر (بكسر السين) هو ما سد به النهر.

(٢) هو المسمى بحر الزقاق واسمه الآن مجاز جبل طارق.

(٣) لعل المؤلف يشير إلى خليج ليون فهو مشهور بشدة التيار وبصعوبة السلوك.

ومبدأ جريه من البحر الرومي من الإقليم الرابع . فإذا خرج من الرقاق يتر مشرقاً في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يتر بالمغرب الأوسط ، إلى إفريقية ، إلى برقة ، إلى الإسكندرية ، إلى شمال أرض التيه وأرض فلسطين . فيتر بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التي هي فرضة أنطاكية ، وعندها حجز البحر . ومنها يعطف فيتر على العاليا وأنطاليية (وهما فرضتان لبلاد الروم) ، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهي إلى المكان الذي منه خرج . وطوله خمسة آلاف ميل ، وقيل ستة آلاف . وعرضه مختلف : ففي موضع ثمانمائة ميل ، وفي موضع ستمائة ميل ، وفي موضع سبعمائة .

ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة . كانت عامرة بطوائف من الفرنج ، أحرب المسلمون أكثرها بالمغازي في صدر الإسلام . وأجل ما ملك المسلمون منها ، ثم أترع أكثره من أيديهم :

١ - جزيرة الأندلس .

٢ - وجزيرة يابسة . وهي حبال جزيرة الأندلس ، ومسافتها يومان في يوم . وفيها مدينة صغيرة مسورة .

٣ - وجزيرة منرقة ، ومسافتها يومان في نصف يوم . وفيها مدينة عامرة .

٤ - وجزيرة ميورقة . ويقال فيها مايورقة . ومسافتها يومان في يومين ، وبها مدينة .

٥ - وجزيرة رودس ^(١) . وهي حبال بلاد أفرنجة ^(١) . ويحيط بها ثلثمائة ميل . وفيها حصنان .

٢٠ (١) هذا الوصف لا ينطبق على جزيرة رودس ، بل على جزيرة قورسقة التي هي حبال بلاد أفرنجة أي فرنسا ، وهي تابعة لها .

٨٩

٦ - وجزيرة سرديانية . وطولها مائتان وثمانون ميلا ، وعرضها مائة وثمانون ميلا . وفيها ثلاث مدائن كبار . وسكانها قوم من الفرنج متوحشون . وبها معدن فضة .

٧ - وجزيرة صقلية . وهي حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس . وشكلها مثلث . يحيط بها خمسمائة ميل . كثيرة الجبال ، والحصون ، والأمصار ، والأنهار ، والأشجار .

ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر :

بلرمو . وبها يكون الملك ، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الناس منها إلى الخالصة . وهي محدثة . بنيت في أيام القائم ابن المهدي العبيدي في سنة خمس وعشرين وثلثمائة . ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها ، وقطانية . وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذي في الجزيرة . فبنى الأمبرطور مدينة عوضها ، وسماها غشطارة .

ومسيني . وهي على أحد أركان الجزيرة .

وسرقوسة . وهي على الركن الآخر ، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها .

وطرابنش . وهي على الركن الثالث ، والبحر محيط بها . ولها مجاز .

ومن بلاد هذه الجزيرة البرية : والشاقة ، ومازر ، وكر كنت ، ونوطس ، وطبرمين ، وقصريانة ، والنور ، ورغوص ، وغيطة ، وغير ذلك .

وبهذه الجزيرة . (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان ، وهو أظمة يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار ، فتعلو في الهواء ليلا ثم تسقط في البحر ، فتطفو على وجه الماء . ومنها يكون حجر المرو الذي تحك به الأرجل .

٧ — وجزيرة بلونس . ودورها ألف ميل . ولها مجاز إلى البر الطويل ، عرضه ستة أميال . فيها ما يزيد على خمسين مدينة بالقواعد منها خمس عشرة مدينة ، وهي مشهورة عند الفرنج .

٨ — وجزيرة مالطة . وطولها أربعة وعشرون ميلا ، وعرضها اثنا عشر . وفي وسطها مدينة واحدة .

٩ — وجزيرة قوسرة . وفيها مواضع متوحشة .

١٠ — وجزيرة إقريطش . وهي حيال برقة . طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها مائة وثلاثون ميلا . وبها مدينتان : إحداهما تسمى الخندق ، والأخرى تسمى ربح الجبن . وفيها معدن ذهب .

١١ — وجزيرة قُبرُس . وهو أسم النحاس ، لأن بها معدن نحاس . يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل . وفيها من المدن الجليلة ، ليمسون ، والپاف بباء مفخمة ، والماغوصة . وكلها فى البحر . وفى وسط الجزيرة مدينة الأفقسية ، وهى القصبة . وبها يكون متولى الجزيرة .

٤ — ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة ، والآخر يسمى خليج القسطنطينية .

١ — فأما خليج البنادقة . فإنه خليج كبير متسع ليس له فُوّهة . وإنما هو جَوْنٌ له ركان ، سعة ما بينهما سبعون ميلا . يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة . وهى ذوات حصون وقلاع ممتنعة .

ومبدؤه من شرق بلاد قلورية عند مدينة تسمى أذرنت^(١)، ومنتهاه بلاد إيكلاية^(٢).
ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل. وفيه ست جزائر، ثلاثة منها
في ضفة، وثلاثة في أخرى، بها مدن عامرة. وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة
لا ساكن بها.

٢ — وأما خليج القسطنطينية. ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة
لجزيرة رودس، وسعتها غلوة سهم. ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفها
في برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها.
ويتم هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلا إلى أن ينتهي إلى القسطنطينية
فتكون في غربيه، يحيط بجهتين منها.

١٠ — وهي مدينة عظيمة مشهورة. وعرض البحر عندها أربعة أميال.
ثم يمتد ستين ميلا حتى ينصب في بحر ما نيطش. وهو بحر سوداق. وعرض
فوهته هناك عشرة أميال. وفي موضع أقل، وفي موضع أكثر.
فهذا البحر الرومي وجزائره وما تفرع منه.
والله أعلم.

(١) في الأصل أكدنت وهو تحريف لمدينة أذرنت قال في نزهة المشتاق: خليج البنادقيين ومبدؤه من شرق
بلاد قلورية . . . من عند أذرنت . . . وينتهي طرفه إلى بلاد إيكلاية.

(٢) في الأصل آنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية التي ذكرها الإدريسي في هذا الموضع.

ه - وأما بحر الهند وجزائره

فببدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء . ويجرى إلى جهة الغرب ،
فيجتاز ببلاد الواق ، وبلاد سُفالة الزنج ، ثم ببلاد الزنج حتى يصل إلى بلاد بربرا ،
وهناك حجزه .

- وأما الشرق : فببدؤه من لوقين ، وهي أول مرافئ الصين ، ثم بخانقو قُرْضَة
الصين العظمى ، ثم إلى سَمَنْدُور من بلاد الهند ، ثم إلى حارَين ، إلى قَنْدَرِينَه ،
إلى تَانَه ، إلى سَندابور ، إلى بَرُوص (ويقال بَرُوج ، وإليها ينسب القماش البرُوجي) ،
إلى صَمُور ، إلى سَنْدَان ، إلى سَوَاتَرَة ، إلى كَنْبَايَة . (وإليها ينسب القماش الكَنْبَايَتي) ،
إلى دَيْيَل (وهي أول مرافئ السند) ، ثم إلى سَرون ، ثم إلى التَّيز من بلاد مُكَرَّان ،
وهي أحد ركني الخليج الفارسي . والركن الآخر يسمى رأس الجُمُحَة : وهو جبل
خارج في البحر ، ومن هناك يسمى بحر اليمن ، ثم يمتد على ظَفَارٍ ، ثم على الشَّحْر ساحل
بلاد مَهْرَة ، ثم على شُرْمَة وَلَسْعَا (ساحلي بلاد حضر موت) ، ثم على أَيْيَن ، ثم على عَدَن ،
ثم المَخْنَق ، ثم العارة ، ثم يمتد إلى باب المندب .

(١) قال البيروني مانصه : (في كتاب تحقيق ما للهند ص ١٠٣ سطر ٧) جزيرة الوقواق من جملة قير .
وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كره . وس الناس تصيح ولكن قير قوم ألوانهم الى البياض
قصار القدود على صور الأتراك ودين الهندود مخرمي الآذان وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان
والناس فيهم أرغب ويحلب منهم الآبنوس الأسود وهو لب شجرة تاق حواشيا فأما الملعع والشوحت
والصندل الأصفر فن الزنج . ١٥

(٢) لعل المقصود : قنابيل (وقد ذكرها ياقوت) .

(٣) ويقال صميون (أنظر ياقوت) .

(٤) هي قصبة بلاد مكران بالسند .

٢٠

ومن هناك يخرج خليج القُلُزْم، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف .
 في موضع ألف ميل وسبعمئة ميل، وفي موضع ألفان، وفي موضع دون ذلك .
 ويقال : إن بينه وبين البحر المحيط بحرا آخر يسمى البحر الزققي، سمي بذلك
 لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمئة ميل .

وهذا البحر — أعنى الهندي — بجلته قسمه السالكون له سِتَّ قطع، وضعوا لها
 أسماء مختلفة .

١ — فالذي يمتز بأرض الصين يسمى بحر صنجي^(١)، ينسب لمدينة في جزيرة من
 جزائره . وهو بحر كثير الأمواج مهول . فإذا كان في أول هياجه ظهر فيه بالليل
 أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقل من ذلك . يصعدون إلى
 المراكب ولا يضررون أحدا . فإذا عاينهم السفّار، أيقنوا بالدمار . وإذا قدر الله
 تعالى نجاتهم من هذه الشدة، أراهم على رأس الدّقل طائرا أبيض كأنما خلق من
 النور، فيتباشرون به . فإذا ذهب عنهم الروح، فقدوه .
 وفيه من الجزائر المعمورة :

جزيرة شريرة^(٢) . يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل . فيها مدائن كثيرة، أجلها
 المدينة التي تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور .
 ١٥ وجزيرة صنجي . وإليها تنسب هذه القطعة . وطولها مائتا ميل، وعرضها
 أقل من ذلك . وفيها جواميس وبقر بغير أذنان .

(١) لعل هذا الاسم هو و"شنجو" لمسمى واحد . وهي المعروفة عند العرب باسم مدينة "زيتون"
 وهي فُرْضة الصين (راجع أبا الفدا) .

(٢) سماها أبو الفدا : سريرة .

- وجزيرة أنفوجة . يحيط بها أربعمائة ميل . عمارتها متصلة .
- ٢ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الصَّنْف . في جزيرة من جزائره مدينة . وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة . وفي جباله معادن الذهب والرصاص ، وفيه مغاص اللؤلؤ ، وفي غياضه الخيزران . وفيه مملكة المهرج . ويشتمل على جزائر لا تحصى^١ ، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة . وفيها أنواع الطيب من الكافور ، والقرنفل ، والعود ، والصندل ، والجوزبوى ، والبسباسة ، والكجاجة .
- ومن جزائره المشهورة :
- جزيرة الزانج . وتكسيها سبعمائة فرسخ ، وبها يكون المهرج ، وهو اسم يطلق على كل من ملكها .
- ١٠ وجزيرة البركان . وهي جزيرة فيها جبل يرمى بالشرر ليلا ، وبالرعود القواصف نهارا ، وهي أحد آطام الدنيا المشهورة .
- وجزيرة قُمار . وإليها ينسب العود القمارى . وبها شجر الصندل . دورها أربعة أشهر . وهي مأوى عبّاد الهند وعلمائهم . يسكن ملكها قامرون .
- وجزائر الرامى^(١) . وهي نحو ألف جزيرة معمورة . بها الملوك . وفيها معادن الذهب ، وشجر الكافور .
- ١٥ وجزائر لنجيا لوس . ويقال لنكيا لوس . وهي كثيرة ، وأهلها سود ، مشوهو الصور لقربها من خط الاستواء . وبها معادن الحديد .
- ٣ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروى ، وبحركه ، وبحر الجاوه ، وبحر فنصور . وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يتر عليه من البلاد والجزائر .

٢٠ (١) في الأصل الراق وفي نزهة المشتاق "الرامى" .

وهو بحر لا يدرك قعره . وفيه نحو ألف جزيرة تسمى جزائر النارجيل ، لكثرتها بها . وكلها عامرة بالناس . وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ والفرسخان . وليس يوجد في سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره في سائر المهن . وبيوت أمواله الودع . ومن جزائره المشهورة مما يلي أوائل بلاد الهند :

جزيرة الماند . وهي جزيرة يحيط بها ألف ميل . وفيها ثلاث مدن كبار .
وجزيرة كرموه . يحيط بها ثلثمائة ميل .

وجزيرة بلي . منسوبة لمدينة من الهند على ساحله . يأتيها التجار لاجل الفلفل .
وجزائر الذئاب . وهي كثيرة . وأكبرها جزيرة ديب . وسكانها قبائل من العرب . يحيط بها أربعمائة ميل . وفيها الموز ، وقصب السكر .

وجزيرة السيلان . وطولها ستمائة ميل ، وعرضها قريب من ذلك . وفيها
مدن كثيرة . وإليها ينسب العود السيلي .

وجزيرة ككه . وإليها ينسب البحر . وهي جزيرة خطيرة ، طولها ثمانمائة ميل ،
وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا . وبها من المدن فنصور . فيها شجر الكافور (وفيها
العود الفاخر) وملاير ، ولاروي ، وكله (وإليها ينسب الدهن) . ولكل مدينة من هذه
المدن خور تعبره المراكب من البحر .

وجزيرة صندابولات . وطولها نحو من مائتي ميل ، وعرضها نحو مائة ميل .
تنسب إلى مدينة هي فيها .

وجزائر بداميان . فيها أمم سود ، قبّاح الوجوه . قامّة الرجل منهم أقلّ من
ذراع . ليس لهم مراكب . فإذا وقع اليهم غريق أو من يتيه من التجار ، أكلوه .

٨٦ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هر كند ، وفيه جزائر كثيرة . ويقال إن عدتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة . ويقع فيها العنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت . وسكانها أحذق الناس في الحياكة ، ينسجون القميص بكميه ودخايريه قطعة واحدة .

وفيهِ من الجزائر المشهورة :

جزيرة سرنديب ^(١) . وهي مدورة الشكل ، يحيط بها ألف فرسخ . يشقها جبل الراهون ، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم (عليه السلام) من الجنة . وفي أوديتها الياقوت والماس والسنبادج . وطولها مائتان وستون ميلا . ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أغنا ، يسكنها مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، ومجوس . ولكل أهل ملة من هذه الملل حاكم . لا ينبغي بعضهم على بعض . وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم . ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغباب ^(٢) .

هـ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن . وأوله بحر الجمحة ، وهو بلاد مهرة . معترض في البحر فيمتر بحاسك (وهو أول مرافئ اليمن) ، ثم يمر بمرباط ^(٣) (ساحل بلاد ظفار) ، ثم يمر بالشجر (ساحل بلاد مهرة) ، ثم بئرمة ولسعا (ساحل بلاد حضرموت) ، ثم بابين ، ثم بعدن ، ثم بالمخفق ، ثم بالعارة ، ثم الباب بالمتدب .

(١) قال البيروني في كتابه على الهند : سنكلديب وهي جزيرة سرنديب (ص ١٠٢) وفي أبي الفدا سنكاديپ .

(٢) الأغباب واحدها غب . وهو — على ما قال البيروني — كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر . والخور هو شبه الغب ولكنه ليس من جهة دخول البحر وإنما هو من مجىء المياه الجارية واتصاله بالبحر ساكنا ومخاوف السفن فيه من جهة

العدوبة التي لا تستقل بالأنقال استقلال الملوحة بها (تحقيق مال الهند ص ١٠٢) .

(٣) مدينة بين حضرموت وعمان وهي الفرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها .

وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سقوطرة . وطولها نحو من مائة وثمانين ميلا ، وعرضها في الوسط نحو خمسة عشر ميلا . وبها الصبر . يسكنها قوم من اليونان ، تغلبوا على من كان فيها من الهند في زمن الإسكندر . وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد في العقل . ولهذا سميت في الكتب القديمة جزيرة العقل .

وبلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج ، وبحر بربر ، ويسمى ساحله الزنجبار .

وفيه مما يلي بلاد اليمن جزائر . منها :

جزيرة دعون^(١) ، وهي مدورة .

وجزيرة السود .

وجزيرة حورتان .

وجزيرة مروان . وفيها مدن يسكنها السراق ، وهي مقابلة لبلاد مهرة .

وجزائر الديجات . وهي كثيرة . وأهلها مفرطون في السواد . وجميع ما عندهم أسود ، حتى قصب السكر والكافور .

وجزيرة القمر . وتسمى جزيرة ملاي . وطولها أربعة أشهر ، وعرض الواسع

منها يزيد على عشرين يوما . وهي تحاذي جزيرة سرنديب . وفيها بلاد كثيرة أجلها كيدانة ، وملاي (وإليها تنسب الجزيرة) ودهمي ، وبلق ، وخافورا ، ودعلى ، وقُمرية (وإليها ينسب القمر) . ويقال : إن بهذه الجزيرة خشبا ، ينحت من الخشبة

(١) من المعلوم أن العرب يسمون شبه الجزيرة بالجزيرة . ولم أجد لهذا الاسم أثرا فيما بين يدي من كتب

المراجعة فاعلمنا هي التي ذكرها ياقوت باسم "دغوث" وقال إنها بلد بنواحي الشحر من أرض عمان

أو لعلها "دغوطة" التي قال أبو الفدا إنها آخر مدن سفالة وآخر العارة في البر المتصل .

(١) منه شأن يكون طوله ستين ذراعا ، يجذف على ظهره مائة وستون رجلا .
ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل
يعرف بهم . ومنها يخرج نهر النيل (٢) .

٦ - ويخرج من هذا البحر الذى يجمع هذه القطع خليجان

أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس .

- ١ - فأما خليج القلزم . نفروجه من باب المندب . وهو جبل طوله اثنا عشر ميلا ، وسعة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البر الآخر . فاذا قارب المندب يمر في جهة الشمال ، بغلافقة ، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجردة ، ثم الشرجة ، ثم عثر (وكانت مقتر ملك قديم) ثم بالسرين ، وحلى ، وعسفان ، والجار (وهى فرضة المدينة) وأجحفة ، والصفراء ، والخوراء ، ومدين ، وأيلة ، والطور ، وفاران ، ثم القلزم (وكانت مدينة مسكونة ، وكذلك أيلة) . ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمر بالقصير (وهى فرضة لقوص) ثم إلى عيذاب (وهى فرضة لبلاد البجة) ، ثم يمتد إلى زيلع (وهى ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا .
- وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل . وعرضه فى مواضع أربع مائة ميل ، ودون ذلك إلى مائى ميل إلى ما دون ذلك .
- وهو بحر كرية المنظر والرائحة .

(١) أى من السفن المعروفة بأسم الشوانى .

(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرا بين هذه الجزائر المعروفة بالقمر (بضم فسكون) وبين الجبل المعروف

بالقمر (بفتح فسكون) فيجعلونها شيئا واحدا و يقولون بخروج منابع النيل من تلك الجزائر . وهذا

أمر غير معقول .

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ عُمَانَ .
 لأنه في سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَتِهِ آنقطعت بنصفين على شُعْبَتَيْنِ
 متقابلتين ، ثم يخرج من كُمَيَّ هاتين الشعبتين ، فيثير البحر فتتبدل السفن باختلاف
 الريح فلا تكاد تسلم . وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين ، ومقدار هذا الموضع
 ستة أميال ، ويسمى بركة الغُرْنَدَن ^(١) . ويقال : إنها التي أغرق الله فرعون وقومه
 فيها . فإذا كان للجنوب أدنى مهب ، فلا يمكن سلوكه .



- وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة ، العاشر منها أربعة ، وهي :
- جزيرة دَهْلَك . يحيط بها نحو مائتي ميل ؛ يسكنها قوم من الحبوش . مسلمون .
- وجزيرة سوا كن . وهي أقل من ميل في ميل . وبينها وبين البحر الحبشى
 بحر قصير يخاض . وأهلها طائفة من البُجَّة تسمى الخاسد وهم مسلمون ، ولهم بها ملك .
- وجزيرة النعمان . وبها نويس تعيش من لحوم السلاحف ^(٢) .
- وجزيرة السامري . يسكنها قوم من اليهود ، سامرة ، في عيش قَشِيف .
- ٢ - وأما خليج فارس . فإنه مثلث الشكل على هيئة القلْع .
- أحد أضلاعه من تيزِ مُكْرَان . فيمتر في بلاد كَرْمَانَ على هُرْمُز ، ومن بلاد فارس
 على سِيرَاف ، وتوح ، ونَجِيرَم ، وجَنَابَة ، ودَارِين ، وسِينِيز ، ومَهْرُوبَان ؛ ومنها يُقضى

١٥

(١) الذى فى تقويم أبى الفداء : الغرندل باللام .

(٢) تصغير ناس .

(٣) هكذا فى الأصل وفى أبى الفدا . وأما ياقوت فقال إنها توج . (وضبطها أبو الفدا بضم التاء
 وسكون الواو) وآتفق أبو الفدا . وياقوت على أنها هى التى تسمى أيضا توز (ولكن ياقوت يضبطها
 بفتح فتشديد) . والذى فى ياقوت هو الصواب كما يؤخذ من "اب اللباب" للسيوطى ، ومن
 "لطائف المعارف" للعالبي .

٢٠

البحر إلى عبادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمتر بالخط، وهو ساحل بلاد عُمان إلى صور، وهي ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتد إلى رأس الجُمُحَة من بلاد مَهَرَة .

والضلع الآخر يمتد على سطح البحر من تيزر مُكْرَان إلى رأس الجُمُحَة .

وهذه الأضلاع غير متفاوتة في الطول؛ فإن الضلع الذي يمتد على سطح البحر طوله نحو مائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تيزر مُكْرَان إلى أن ينتهي إلى عبادان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجُمُحَة، تسعمائة ميل .

وفيه مما يلي عبادان مكان يعرف بالدردور . وهو بين جبلين، أحدهما يسمى كَسِير، والآخر عُوير . ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه "وآخر ما فيه خير" لشدة ما يرى بها من الأحوال . وهي جبال سود ذاهبة في الهواء يتكسر الماء على شُعبها . ولا بد للراكب أن تمرّ بينها، وقلما تسلم .

وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربعة عامرة، وهي :

جزيرة خارك . يحيط بها اثنا عشر ميلا . وهي عامرة أهلة كثيرة البساتين . وبها مغاص اللؤلؤ .

وجزيرة كيش . وبها مغاص اللؤلؤ أيضا . وهي أهلة . وتسمى هذه الجزيرة في عصرنا هذا "قيس" .

وجزيرة أوال . وهي تجاه ساحل البحرين، وبينهما يوم . وبها مدينة . وأوال مدينة من مدائن البحرين .

و جزيرة لافْت . وتعرف بجزيرة بنى كاوان^(١) . وطولها آثنان ونحسون ميلا ، وعرضها تسعة أميال . وهي آهلة .

وهاتان الجزيرتان معدودتان في بلاد جُور من أعمال فارس .

ويقال أيضا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث في شمال الصقالبة ، ويمتد قرب بلد بلغار المسلمين ، ويسمى بحر أدريك ، منسوب إلى أمة على ساحله . في جهة الشمال . ثم يخرف نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة .

فهذا البحر المحيط وما يتفرع منه .

٧ - وأما بحر مانيطش^(٢)

ويسمى البحر الأسود وبحر سوداق . وهي مدينة على ساحله . هي فرضة لبلاد القفجاق مما يلي القسطنطينية . وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِرم^(٣) ،

(١) ويسمى الإدريسي : ابن كاوان ، وغيره يسميها : بركاوان .

(٢) جرى المؤلف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الاسود . والحقيقة أن بحر نيّطش هو المعروف الآن بالبحر الأسود ، وأما بحر مانيطش فهو المعروف ببحر آزاق وبحر آزوف . وما يجب التنبيه عليه أن كثيرا من كتاب العرب يخلطون بين هذين البحرين . ولذلك قال المسعودي : "فبحر نيّطش وبحر مانطش يجب أن يكونا بحرا واحدا ، وإن تضايق البحر في بعض المواضع بينهما أو صار بين الماءين كالخليج . وليست تسمية ما أتسع منه وكثر ماؤه بمانطش . وما ضاق منه وقل ماؤه بنيّطش ينبغي أن تجمعهما في اسم مانطش أو نيّطش . فإذا عبرنا في بعض المواضع في مبسوط هذا الكتاب فقلنا "مانطش" أو "نيّطش" فإنما نريد به هذا المعنى فيما أتسع من البحر وضاق" .

(٣) (من مروج الذهب ، ص ٥٨) .

(٣) وبها سميت شبه الجزيرة الموجودة في البحر الأسود وهي شبه جزيرة القرم .

مقصودة من كل الجهات . وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء . وهي محدثة . مُصَّرَتْ
 فيما بين الثلاثين والأربعين وستمئة للهجرة النبوية . ويسمى هذا البحر أيضا بحر
 الروس، لجزائريه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارى . وهو بحر ضخم كثير الأخوار
 والتروش والجبال الجرش . وطوله من الشمال إلى الجنوب ألف ميل وثلاثمائة، وعرضه
 مختلف . ففي موضع ستمائة ميل ، وفي موضع ثلثمائة ميل . والناس مختلفون فيه . فمنهم
 من يقول إنه بحر مستقل بنفسه ، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر
 الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية . وأكثرهم على أنه بحر مستقل بنفسه أطوله
 وعرضه وكثرة جزائره . وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط على ظهر
 بلاد الصقالبة ، ويحيط به بلاد البطلمية ، وبلاد الغامانية ، وبلاد الأزكشية ، وبلاد
 الشركسية ، وبلاد العلان والعنكر والناشقر .^(٢)

وفيه ست جزائر عامرة ، وهي كثيرة المدن والقرى ، يسكنها الروس .

٨ — وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم . وذلك بحسب ما يمتز عليه من البلاد . وهو —
 على ما حكاه ابن حوقل — مدور الشكل ، ليس له اتصال ببحر آخر .

- ١٥ (١) في الاصل التروس . ولكن الإدريسي يستعمل لفظة "التروش" بالشين المعجمة . ومعناها الشعب
 أى الصخور التي تكون تحت سطح الماء قليلا فتتكسر السفن وتحطم إذا اصطدمت بها .
 (٢) العلان ترك تنصروا وهم خلق كثير وقلعتهما إحدى قلاع العالم تنعم بالسحاب (عن أبي الفدا) وبلادهم
 في أرض قفجاق أو قفقاسية وهم المشهورون في كتب العرب أيضا باسم اللان .

قال : ولو أن إنسانا طاف به ، لآتتهى إلى الموضع الذى أبتدأ منه ، لا يقطعه عن ذلك إلا نهر يصب فيه ^(١) .

وفى شرق هذا البحر بعض بلاد الديلم ، وبلاد طبرستان ، وجرجان ، وبعض المسافة التى بين جرجان وخوارزم ، وغريه بلاد أزان ، وبلاد الخزر ، وبعض مفازة الغزية ، وشماليه مفازة الطُّغُرْغُزِيَّة ، وجنوبيه الجيل ، والديلم ^(٢) . وطوله ثمانمائة ميل ، وعرضه ستمائة ميل .

وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق" : طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل ^(٤) ، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتل ستمائة ميل ^(٥) ، وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب فى أسبوع بالريح الطيبة ، وفيه أربع جزائر ، وهى :

جزيرة سياكوه ^(٦) . وهى تجاه آبسكون ، فرضة جرجان . يسكنها طائفة من الترك . يصاد بها البزاة البيض .

وجزيرة سهلان . وطولها نحو مائة ميل ، وعرضها نحو خمسين ميلا .

(١) هذا ملخص العبارة التى أوردها ابن حوقل (وأنظر كتابه ص ١٣) .

(٢) فى الأصل : الغرنة . والتصحيح عن أبي الفدا .

(٣) فى الأصل : الختل (وهو تحريف ظاهر من النساخ) .

(٤) هكذا فى مقدمة الإدريسي (فى جميع النسخ) ولكنه عند كلامه على الجزء السابع من الإقليم الخامس نص على أن طول هذا البحر ٨٠٠ ميل وأن عرضه ٦٠٠ ميل (وهذا هو الذى نقله عنه أبو الفدا) ، ثم عاد الإدريسي فقال ان طوله ٩٠٠ ميل .

(٥) فى الأصل مائه ميل [والتصحيح عن الإدريسي] .

(٦) فى الاصل : بساه كوه . (والتصحيح عن أبي الفدا) .

وجزيرة البركان^(١). وهي أطمّة عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشبح ما يكون من الجبال . ترى من نحو مائه فرسخ من البر .

وجزيرة تجاه باب الأبواب . كثيرة المروج والأنهار . وهذا البحر يقال إنه كثير التناين .

وقد اختلف فيها . فمن الناس من يقول إنها دواب تعظم في قعر البحر فتؤذى ما به من دواب، فيبعث الله عز وجل عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعاما لهم . وهذا مما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما . ومنهم من رأى أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب، كالزوبعة التي تتور من الأرض وتستدير ثم تطول في الهواء . فيتوهم الناس أنها حيات سود .

وسائر البحار تمتد وتجزر، خلا هذا البحر .

ويقال إن علة المد والجزر تكون عن وضع الملك الموكل بقاموس البحر عقبه في أقصى بحر الصين، فيفور فيكون منه المد؛ ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر . (ومنهم من روى مكان العقب الإبهام) .

ومنهم من قال إن العلة فيه غير هذا كله .

والله أعلم !

(١) هي شبه الجزيرة المعروفة الآن باسم أبشرون . وفيها مدينة باكو المشهورة وهذه المدينة سماها أبو الفدا "باكوى" وسماها المسعودى "باكه" وقال ان بها معدن النفط الأبيض (أى البترول) ثم قال وفي هذه النفاطة أطمّة، وهي عين من عيون النار لاتهدأ على سائر الأوقات تنصرم الصعداء . فهذا هو الذي عناه النويرى باسم "البركان" .

ذكر ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة

وما بها من العجائب

وفي المعمور بحيرات مالحة :

فالذى اشتهر منها :

- ٥ § بحيرة خُوارزَم . وشكلها مثلث كالقُلْع ، وليس في المعمور بحيرة أعظم منها . يحيط بها أربعمائة فرسخ . يصبُّ فيها نهرا سيحون وجيحون ، اللذان في أرض الهياطلة ، وغيرهما من الأنهار العظيمة الجارية في بلاد الترك . وهى مع ذلك لا تزيد ولا تعدُّب .

وزعم صاحب كتاب ” نزهة المشتاق إلى آخترق الآفاق “ أن في هذه البحيرة

- ١٠ حيوانا يظهر على سطحها في صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا ، بلغة لا تُفهم ثم يغوص . وظهوره عندهم يدل على موت ملك من ملوك ذلك الحين .

- § ومنها بحيرة الطَّرِيح^(١) : لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلى سائر بلاد أرمينية وأذربيجان . وطولها أربع مراحل ، وعرضها مرحلة . يُجمَع من أطرافها البُورَق . والسمك يوجد بها في زمان مخصوص ، يأتيها في نهر يصب إليها ، ويكثر حتى يصاد بالأيدى . فإذا آنقضى ذلك الزمان ، لا يوجد منه شيء آلبتة .

١٥

(١) وأسمها في كتب الجغرافية العربية بحيرة أرجيش ، وهذا السمك الذى سميت به ، كما في ” القاموس “

سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل . وقد عرّفنا ابن حوقل أنه صغير مقدار الشبر يملح ويحمل الى الجزيرة والموصل والرفقة وحران وحلب وسائر الثغور .

§ وفي بلاد أذربيجان بحيرة كَبُوذَان^(١) . وَكَبُوذَان قرية في جزيرة، يسكنها مَلَّاحو المراكب التي يَرْكَب فيها من هذه البحيرة . وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك . وفيها جزائر : منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمى تلا . ولا يكون بهذه البحيرة حيوان آلبتة ، لأن ماءها متن ردىء .

§ وفي بلاد الْبَحْرَيْنِ بُحيرة . وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هَجَر : ”البحرين“ . ٥

§ وفي الشام بأرض الغور بحيرة زُغَر ، وتسمى الْمُتَنَّةَ والمَيْتة . لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكوّن فيها شيء مما يتكوّن في المياه الجارية والراكدة من الحيوانات . وطولها ستون ميلا ، وعرضها اثنا عشر ميلا .

ويقال إنها ديار قوم لوط التي خَسَفهم الله بها . ويقال إنها كانت خمس مُدُن ، أَسْمَاؤها : ”ضيعه“ ، و”ضعوه“ ، و”عمره“ ، و”دوما“ ، و”سدوم“ . وكانت سدوم أكبرها وأعظمها . ١٠

ويُصَبُّ في هذه البحيرة نهر الأُرْدُنَّ وغيره من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكَرَك وغيرها ، فلا تزيد . ويقال إن لها مَنَفَذاً إلى بحر القُلْزَم . وبساحلها الشرقيّ إلى حدِّ أَرِيحَا معدِنُ الكبريت الأبيض ، يُخَفَّر عايه ويُحَرَّج . ويتكوّن في هذه البحيرة شيء على شكل البقر ، ويطفو على وجهها ويتفقع ، فيجمع منه شيء أسود يسمونه ”الحَمَر“ وينقل إلى قلعة الكَرَك يدنحربها ، يدخل في النَّفْط . ١٥

(١) هي التي ذكرها أبو الفدا باسم ”بحيرة تلا“ ، وياقوت باسم ”بحيرة أَرْمِيَّة“ . وقد ذكر أن في وسطها جبلا يقال له ”كَبُوذَان“ وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها مَلَّاحو سفن هذا البحر (معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨) .

§ وفي أعمال مصر بحيرة تَنِيْس ، مقدارها إقلاع يوم في [عرض^(١)] نصف يوم .
يكون ماؤها في أكثر السنة ملحا من دخول ماء البحر الرومي إليها ، فإذا مدَّ النيلُ
صبَّ فيها فتحلوا فإذا جَزَرَ ملحت .

ويقال : إنه كان في مكانها برّ مسلوكة تغلب عليه البحر في ليلة واحدة ، فما كانت
أرضه مستفلة غرق ، وما كانت أرضه عالية مثل تَنِيْس وتؤنة بقي .

وفي وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنَجَار ، يسكنها قوم صيادون .
وقال إبراهيم بن وصيف شاه في "كتاب العجائب الكبير" : إن بحيرة تَنِيْس كانت
أَجَنَّة وكروما ومنازل ومنترهات ، وكانت مقسومة بين ملكين من ولد أَثَرِيْب بن
مصر ، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا ، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البر حتى باع
حصته من أخيه وفترق ماله أيضا ، فأصلحها أخوه وزاد فيها غُرُوسا وبخَّر فيها أنهارا
وبنى فيها بنيانا ، واحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يَمْنَعُه ويفتخر عليه بما في يده من
المال والأجَنَّة ، فخطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه ، وقال : أنا أَكْثَرُ مِنْكَ
مالا وولدا وخيرا ، فقال له أخوه : فما أراك شاكرًا لله تعالى على ما رزقك ،
ويوشك أن ينزع ذلك منك . ويقال : إنه دعا عليه فغرق ماء البحر ما كان له
في ليلة واحدة .

وقيل : إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز ، فقال : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمُ
مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات ؛ والله تعالى أعلم .

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة ، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك ، يدخل
إليها الماء من بحر الروم من مكان الأشتوم ، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها

في خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمى الجدية، والأخرى تسمى أتلوكثيرة المقات^(١) والنخل، وكلها في الرمل. ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمى "الحافر" طوله نصف يوم إقلاعا، وهو كثير الطير والسماك والعُشب.

§ وفي بلاد إفريقية بحيرة بَنَزَرَتْ مأوها مِلْح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة مأوها عذب تسمى بحيرة مِتِيْجَة^(١). فإذا جاء الشتاء وكثرت السيول، غاضت بحيرة بَنَزَرَتْ، وفاضت بحيرة مِتِيْجَة حتى تمتدّها ستة شهور فلا يحلو مأوها؛ فإذا آنقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة مِتِيْجَة، وفاضت بحيرة بَنَزَرَتْ فلا يملح مأوها. ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة نوع من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الباحة يعرفون دخول الشهور بتغيّر السمك فيها.

§ وحقى صاحب كتاب "مبّاهج الفكر ومبّاهج العبر": أن بتخوم بلاد أرمينية بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستة أشهر كوامل، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع. وهذا دأبها مدى الزمان.

§ وبخلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضفدع ولا سَرَطَان عشرة أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين.

(١) كذا بالأصل وفي معجم ياقوت "أتكو" بليدة قرية من نواحي مصر قرب رشيد.

(١) وزنها في القاموس بسكينة.

§ وبقرية من ناحية بَنْجِهِير^(١) من بلاد خراسان بحيرة، ما عُثِر فيها شيء إلا ذاب: *
حديداً كان أو خشباً .

§ وكذلك بركة النَّطْرُون التي بأرض مصر ما وقع فيها شيء إلا صار نَظْرُوناً حتى
العظم والحجارة .

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل)

يقال : أَعْمَقُ من البحر . أُنْدَى من البحر .

ويقال : حَدَّثَ عن البحر ولا حَرَجَ .

ويقال : جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ . والطِّمُّ البحر؛ والرِّمُّ البر .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يملك البحر أن لا يفيضاً ؟ * ومن ورد البحر استقل السواقياً ! *

* أنا الغريق، فما خوفي من البلل ؟ *

ومن الأبيات :

هو البحر إلا أنه عذب مَورِدٍ، * وزا عجب أن العُدوبة في البحر !

وقال ابن الرومي :

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه * سفلاً، وتعلو فوقه جيفه .

(١) في الأصل "بَنْجِهِير" وهي على ما قال ياقوت مدينة بنواحي بلخ . فلذلك أظن أن ذلك الاسم

محرف عن "بَنْجَدِيه" التي قال ياقوت إنها من نواحي خراسان وهو الصقع الذي أشار إليه المؤلف .

نعم إن ياقوت لم يذكر هذه البحيرة عند كلامه على كل من المدينتين ولكن المسمودى نص على أن

بَنْجِهِير من أرض خراسان (ج ٢ ص ١٥ طبع أوروبا) .

ومثله قول الآخر :

كَمَثَلِ الْبَحْرِ يَغْرُقُ فِيهِ حَيٌّ، * وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جَيْفَةٌ.

وقال ابن الرومي :

أَلَا فَارَّجُهُ وَأَخْشَاهُ إِنَّهُ * هُوَ الْبَحْرُ: فِيهِ الْغَنَى وَالْغَرَقُ!

وقال أبو نؤاس :

مَنْ قَاسَ غَيْرَكُمْ بِكُمْ، * قَاسَ التَّمَادُّ إِلَى الْبُحُورِ!

وقال آخر :

إِذَا كُنْتُ قُرْبَ الْبَحْرِ مَالِي مَخْلَصٌ * إِلَيْهِ، فَمَا يُغْنِي أَقْتِرَائِي مِنَ الْبَحْرِ!

وقال آخر :

كَالْبَحْرِ يَقْدُفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا * مِنْهُ، وَيُرْسَلُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبًا.

ذكر شيء مما قيل في وصف البحر وتشبيهه

قال ابن رشيقي عفا الله عنه :

الْبَحْرُ مَرُّ الْمَذَاقِ صَعْبٌ * لَا جُعِلَتْ حَاجَتِي إِلَيْهِ.

أَلَيْسَ مَاءٌ وَنَحْنُ طِينٌ؟ * فَمَا عَسَى صَبْرُنَا عَلَيْهِ؟

وقال ابن حمديس :

لَا أَرْكَبُ الْبَحْرَ، أَخْشَى * عَلَى مَنْهُ الْمَعَاطِبُ!

طِينٌ أَنَا وَهُوَ مَاءٌ، * وَالطِّينُ فِي الْمَاءِ ذَائِبٌ.

وقال آخر :

وَزَاخِرُ لَيْسَ لَهُ صَوْلَةٌ * إِلَّا إِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ.

فَهُوَ إِذَا مَا سَكَنْتَ سَاكِنٌ * كَأَنَّمَا الرِّيحُ لَهُ رُوحٌ.

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

تناهى البحرُ في عَرْضٍ وطُولٍ ، * وليس له على التحقيق كُنْهٌ .
وأعجبُ كَلِّمَا شاهدتُ فيه * سلامتنا على الأهوال مِنْهُ .
فحسبي أن أراه من بعيدٍ * وأهربُ فوق ظَهْرِ الأرض عنه .

ومما وصف به البحر والسفن

٥

قول بشر بن أبي خازم :

أطاعنُ صَفَّهم ولقد أراني * على زوراء تسجد للرياح .
إذا أعتزضت براكبها خليجا ، * تدَّكر ما عليه من جناح .
ونحنُ على جوانبها قعودٌ ، * نغضُّ الطرف كالإبل القماح .

١٠

وقال ابن تولو من أبيات :

تحت بنا فيه قِلاصٌ كأنها * وعالٌ ، تبدت من جبالٍ شواهي .
لها كافلا ماءٍ وريحٍ كالأهْمَا * يعلمها في الجري سبق السَّواي .
إذا انحدرتْ ، فالماءُ الطفُّ قائِدٌ ، * وإن صعدتْ ، فالريحُ أعسفُ سائِق .

وقال السلامي :

١٥

وميدانٌ تجُولُ به خيولٌ * تقودُ الدَّارِعينَ ولا تُقَاد .
ركبتُ به إلى اللَّذاتِ طُرُفا * له جِسْمٌ ، وليس له فُؤادُ !
جرى فظننتُ أن الأرضَ وَجْهٌ ، * ودجلةٌ ناظِرٌ ، وهو السَّواد .

وقال محمد بن هاني :

مُعْطَفَةُ الأعناقِ نَحْوُ مُتُونِها * كما نَبَّهتْ أيدي الحُوءِ الأفاعيَا .

إذا أعملوا فيها المجاذيف سرعة، * ترى عقربا منها على الماء ماشيا.
إذا ما وردن الماء شوقا لبرده، * صدرن - ولم يشربن - غرثي صواديا.
وقال الرستمي :

لم نزل مُشْفِقِينَ مُذْقِل : سارت * بك دُهمٌ قليلةٌ الأوضاح.
أصلها البرّ وهي ساكنةٌ في البحر سُكنى إقامة لا براح.
هي في الماء وهي صفر من الماء * سوى نضج موجهها النضاح.
فإذا أوقرت، فذات وقارب، * وإذا أخليت، فذات ججاج.
وتراها في اللج ذات جناحين وإن لم تكن بذات جناح.
من مطايا لا يغتذون ولا يسامن سير البكور بعد الرواح.
منشأت من الجوارى اللواتي * لسن من صنعة الجوارى الملاح.
والدات مولدات بلا حل نكاح ولا حرام سقاج.
لا من البيض بل من السود ألوا * نأ وذات الألواح والأرواح.
طائرات مع الرياح، وطورا * كاسرات بالجرى حد الرياح.
سائرات لا يشكين سرى الليل ولا يرتقبن ضوء الصباح.
ساحكات بلا خضوع سُكون، * جامحات بلا غرام ججاج.
لا يخفن الغمار يُقدفن فيها، * ويخفن المُرور بالضخضاح.
إن صدمن الحصى عطين ولا يعطين إماء صدمن حد الرماح.
مارأى الناس من قصور على الماء * سواها يسير سير القداح.
يتسببن كالأساود في الحقة لا في معادة الأشباح.
فإذا ما تقابلت، قلت : ذود * من كباش تقابلت للنطاح.

- شُرْعُهَا الْبَيْضُ كَالْغَامَاتِ فِي الصَّيْفِ صَحَاخًا مِنْهَا وَغَيْرِ صَحَاخٍ .
 كَمْ مُدِلٌّ بِالْجَاءِ وَالْمَالِ فِيهَا ، * وَبِهِ حَاجَةٌ إِلَى الْمَلَّاحِ !
 قَائِدٌ جُنْدَهُ لَهُمْ أَدَوَاتٌ * نَفْعُهَا ثُمَّ فَوْقَ نَفْعِ السَّلَاحِ .
 فَإِذَا الْبَحْرُ صَالَ ، صَالُوا عَلَيْهَا * بِمَوَاضٍ تَمْضِي بِغَيْرِ جِرَاحٍ .
 يُكْثِرُونَ الصَّيَاحَ حَتَّى كَأَنَّ السَّفْنَ تَجْرِي مِنْ خَوْفِ ذَاكَ الصَّيَاحِ .



ومما وصفت به البحار والسفن ثرا

قال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبي^(١) يصف شائياً سافر فيه :

- ”فَارَقْتُ مَوْلَايَ حِينَ أَخَذْتُ لِلسَّفَرِ عُدَّةَ الْحَرَمِ ، وَشَدَدْتُ عُقْدَةَ الْعِزْمِ ، وَاتَّظَمْتُ
 ١٠ مَعَ السَّفَرِ فِي سَلَكٍ ، وَرَكَبْنَا عَلَى أَسْمِ اللَّهِ ظَهَرَ الْفُلْكِ ، فِي شَانٍ عَظِيمِ الشَّانِ ، أَحْدَقْتُ
 بِهِ النَّطْقُ إِحْدَاقَ الْحَيَازِمِ ، وَأَمْسَكْتُهُ إِمْسَاكَ الْأَبَازِمِ ، ثُمَّ تُتَبَّعُ خَلْلُهُ فَسُدَّ ، وَرِخْوُهُ
 فَشُدَّ ، حَذَرًا عَلَى أَلْوَا حِهِ مِنَ الْإِنْخَاغِ ، وَاتَّصَلْتُ بِعَرَائِيسِهِ اتِّصَالَ الْجُلُودِ بِالْأَضْلَاعِ ،
 ثُمَّ جُلِبْتُ جِلْبَابًا مِنَ الْقَارِ ، وَصُتِّخَ فِي الْمَتْنَيْنِ وَالْفَقَّارِ ، فَاْمَتَّازَ بِأَغْرَبِ مَيْسَمٍ ، وَعَادَ
 كَالْغُرَابِ الْأَعْصَمِ^(٢) ، قَدْ حَسُنَ مِنْهُ الْمَخْبَرُ ، وَكَأَنَّ الْكَافُورَ قَدْ قُرِنَ فِيهِ بِالْعَنْبَرِ . لَهُ مِنْ
 ١٥ التَّمَاسِيحِ أَجْنَابُهَا ، وَمِنْ انْخَطَاطِيفِ أَذْنَابُهَا ، وَأَسْتَقَلَّتْ رِجْلُهُ بِفِرَاشِهَا ، أَسْتَقْلَالَ
 السَّهْمَ بِرِيَاشِهَا ، وَقَدْ مَدَّ قَلْعِيهِ ذِرَاعِيهِ مُتَلْقِيًا مِنْ وَفْدِ الرِّيَّاحِ مَصَافِحَهُ ، وَمُسْتَهْدِيًا
 مِنْهَا مَنَافِحَهُ . تَقَلَّدَ الْحَكْمَ عَلَيْهَا إِشْتِيَامٌ^(٣) ذُو تَيْقِظٍ وَأَسْتَبْصَارٍ ، وَأَسْتَدْلَالٍ عَلَى الْأَعْمَاقِ

(١) الشافى اسم لنوع من السفن التجارية والحربية عند المسلمين وجمعه شوانى .

(٢) أى الأبيض الجناحين (عن تاج العروس) .

(٣) الإشتيام هو رئيس الملاحين ، لفظ أعجمى أخذه العرب (راجع الجواليقي) .

والأقصار؛ يستدل باختلاف المياه إذا جرى، ويهتدى بالنجوم إذا سرى؛ قد جعل السماء مرآة ينظر فيها، ويحذر من دجن يوافيها؛ فإذا أصدأها الظلام بحنادسه، وصقلها الضياء بمداوسه؛ يسبح الله في مصبحه ومساءه، ويدسج في مجراه ومرساه، ويذكر رباً يحفظه ولا ينساه. قد آخذ فيه موآتيه، من أنجد النواتيه؛ مشرين الأثواب، مدبرين بالصواب؛ يفهمون عنه بالإيماء، ويتصرفون له تصرف الأفعال للأنماء؛ وترتمون عند الجذب والدفع، والخط والرفع: بهيئة تبعثهم على النشاط. والجمام، وتوددهم في عملهم بالتمام. فخرجنا ونفخ الريح نسيم، ووجه البحر وسيم؛ وراحة الريح تصاح عبابه مصالحة الخلل، وتطوى جناحه طي السجل؛ وتجول من لجة أبرادا، وتصوغ من حبيكه أزرادا: كأنما ترسم في أديم رقشا، أو تفتح في فصوص نقشا. فلما توسطنا شج البحر، وصرنا منه بين السحر والتحر؛ صحت الريح من سكرها، وطارت من وكرها؛ فسمعنا من دوى البحر زئيراً، ومن حبال الشاني صفيراً؛ ورأينا يزيد ويضطرب، كأنه بكأس الجنوب قد شرب؛ وأستقبلنا منه وجهه بأسر، وطارت من أمواجه عقبان كواسر؛ يضطرب ويضطفق، ويختلف ولا يتفق؛ كأن الجوى أخذ بنواصيه، ويجذبها من أقاصيها؛ والشاني تلعب به أكف الموج، ويفحص منها بكل كلكه فوجاً بعد فوج؛ ويجوب منها ما بين أنجاد وأغوار، وخنادق وأسوار؛ والبحر تحتنا كأرض تميد بأهلها، وتزلزل بوغيرها وسهلها؛ ونحن قعود، دود على عود؛ قد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الفرق ألسنتنا؛ والرش يكتنفنا من كل جانب، ويسيل من أثوابنا سيل المذاب. فشيمنا ريح الموت، وظننا التلف والقوت؛ وبقينا في هم ناصب، وعذاب واصل؛ حتى آتينا

إلى كَنَفِ الْجَوْنِ، وصرنا منه في كَنِّ وَصُونٍ ؛ وهدأ من البحر ما آستشرى، وتنادينا
بالبشرى؛ ووطئنا من الأرض جدداً، ولبسنا أثواب الحياة جُددًا ! “



ومن رسالة لأبي عامر بن عقال الأندلسي عفا الله عنه



جاء منها :

”... وكان جَوَازُهُ، أيده الله على بحر ساكن، قد ذل بعد آستصعابه، وسهل بعد ان
رأى الشاخ من هَضَابِهِ؛ وصار حِيَهُ مَيْتًا، وهديره صَمْتًا؛ وجباله لا ترى بها عَوَجًا ولا
أَمْتًا؛ وضَعُفَ بعد تعاطيه، وعَقَدَ السَّلْمُ بين موجه وشاطئيه. فَعَبَرَ آمِنًا من لهَوَاتِهِ، مَمْتَلِكًا
لصَهَوَاتِهِ؛ على جِوَادٍ يَقْطَعُ البحرَ سَبْعًا، ويكاد يسبق الريحَ لَحْمًا؛ لا يحمل لِحَامًا
ولا سَرَجًا، ولا يعرف غير اللَّحْجَةِ سَرَجًا؛ فله هو من جِوَادٍ، له جسمٌ وليس له فُؤَادٌ؛
يَخْتَرِقُ الهواءَ ولا يَرْهَبُهُ، ويركض في الماء ولا يَشْرَبُهُ ! “



ومن رسالة للأستاذ آبن العميد في مثل ذلك

جاء منها :

”... وكأن العشاريات وقد رُدَّتْ بالقار، وحُلَّتْ بالبحرين والنضار؛ عرائسُ منشورة
الذوائب، مخضوبة الحواجب؛ موشحة المناكب، مقلدة الترائب؛ متوجة المفارق،
مكللة العواتق، فضية الحلال والقراطق؛ أو طواويس أبرزت رقابها، ونشرت
أجنحتها وأذنانها؛ وكأنها إذا جدت في اللحاق، وتنافست في السباق؛ نوافر نعام،
أوحوافل أنعام؛ أو عقارب شالت بالإبر، أودهم الخيل واضحة المجول والغرر؛ وكأن
المجاديف طير تنفض خوافيها، أو حبابٌ تعانق حبابٍ بأيديها “

الباب السابع

من القسم الرابع من الفن الأول

في العيون والأنهار والغدران

وما وُصفت به البرك والدواليب والنواعير والجداول

٥ قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

قال المفسرون : هو المطر . ومعنى سَلَكَه أدخله في الأرض ، وجعله عيوناً ومسالك ومجاري كالْعُرُوق في الجسد .

قال أبو الفرج ، قدامة بن جعفر : مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهراً ، منها :

١٠ في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهراً ، وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهراً ، وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهراً .

ثم قال : وفي هذه الأنهار ما جريانه من المشرق إلى المغرب ، كنهر نهاوند ونهر سجستان ، وما جريانه من الشمال إلى الجنوب كدجلة ، وما جريانه من الجنوب إلى الشمال ، كنهر النيل ونهر مهران ، وما جريانه مرَّكب من هذه الجهات ، كنهر الفرات وجيحون ونهر الكر .

وسندكر المشهور منها .

*
*

فأما نهر النيل

§ فزعم قدامة بن جعفر أن أنبعاثه من جبل القمر وراء خط الاستواء، من عين
تجرى منها عشرة أنهار، كل خمسة منها تنصب إلى بطيحة . ثم يخرج من كل بطيحة
نهران ، وتجرى الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة في الإقليم الأول . ومن هذه
البطيحة يخرج نهر النيل .

§ وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق" : « إن هذه البحيرة
تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحشون: يأكلون
من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانة، ونهر الحبشة، فإذا خرج
النيل منها يشق بلاد كورى ثم بلاد ننه (طائفة من السودان أيضا، وهم بين كانم
والنوبة)، فإذا بلغ دثقلة (مدينة النوبة) عطف من غربها إلى المغرب، وأنحدر إلى الإقليم
الثاني، فيكون على شطيه عمارة النوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى .
ثم يشرق إلى الجنادل، وإليها تنتهي مراكب النوبة آنحدارا، ومراكب الصعيد
إقلاعا . وهناك أحجار مخرسة لا مَرورَ للراكب عليها إلا في إبان زيادة النيل .
ثم يأخذ على الشمال فيكون على شريقه مدينة أسوان من بلاد الصعيد الأعلى؛ ثم يمر
بين جباين هما يكتنفان لأعمال مصر، أحدهما شرق والآخر غربي حتى يأتي مدينة
مصر فتكون في شريقه . فإذا تجاوزها بمسافة يوم، أنقسم قسمين : أحدهما يمر حتى
يصب في بحر الروم عند مدينة دمياط، ويسمى بحر الشرق؛ والآخر — وهو عمود النيل
ومعظمه — يمر إلى أن يصب في بحر الروم أيضا عند مدينة رشيد، ويسمى بحر الغرب .

(٩٣)

§ قالوا : وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب في رشيد سبعة فراسخ
وثمانية وأربعين فرسخا . وقيل إنه يجري في الخراب أربعة أشهر، وفي بلاد السودان
شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرا . «

§ وروى البخارى في "صحيحه" عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة ، عن النبي
(صلى الله عليه وسلم) في حديث المعراج ، قال : " ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَةِ المنتهى ، فإذا
نَبَقَهَا مثل قِلَاحِ هَجْرٍ ، وإذا ورقها مثل أذانِ القِيلة . (قال : هذه سدرة المنتهى) وإذا أربعة أنهار
نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان ، فنهران
في الجنة ؛ وأما الظاهران ، فالنيل والفُراتُ " . وليس في الأرض نهر يزيد حين
تنقص الأنهار وتغيض ، غيره . وذلك أن زيادته تكون في الفيض الشديد في شمس
السرطان والأسد والسنبلة . ١٠

§ وقد حكى في فضائل مصر أن الأنهار تمتد بمائها ، وذلك عن أمر الله تعالى .
وقال قوم : إن زيادته من تلوج يديها الصيف على حسب مددها ، كثيرة كانت
أو قليلة ؛ وفي مدده اختلاف كثير .

§ وكان منتهى زيادته قديما ستة عشر ذراعا ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ،
بمقياس مصر . فان زاد عن ذلك ذراعا واحدا ، زاد في الخراج مائة ألف دينار : لما
يُروى من الأراضي العالية . ١٥

والغاية القصوى في الزيادة ثمانية عشر ذراعا في مقياس مصر . ^(١) فإذا انتهى إلى
هذا الحد ، كان في الصعيد الأعلى آثني عشر ذراعا : لأرتفاع البقاع التي
يمر عليها .

فإذا انتهت زيادته، فتحت خُجانات وترع تُخزق المياه فيها يميناً وشمالاً إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل .

§ وللنيل ثمان خُجانات، وهى : خليج الإسكندرية ؛ وخليج دِمياط ؛ وخليج مَنف ؛ وخليج المنهى (حفره يوسف الصديق عليه السلام) ؛ وخليج أَشْموم طَّنَّاح ؛ وخليج سَرْدُوس (حفره هامان لفرعون) ؛ وخليج سَخَا ؛ وخليج حفره عمرو بن العاص،
يجرى إلى أن يصبَّ فى السَّباخ .

§ ويحصل لاهل مصر إذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً — وهى قانون الريّ — فَرَحٌ عظيم : بحيث إن الساطان يركبُ فى خواصّ دولته وأكابر الأمراء فى الحرّاريق إلى المقياس، ويمدّ فيه سماطاً يأكل منه الخواصّ والعوام، ويخلع على القياس، ويصله بصلة مقررة له فى كلّ سنة .

§ وقد ذكر بعض المفسرين ”للكتاب العزيز“ أن يوم ”وفاء النيل“ هو اليوم الذى وعدّ فيه فرعون موسى بالاجتماع، وهو قوله تعالى إخباراً عن فرعون ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ . والعادة جارية أن اجتماع الناس للتخليق فى هذا الوقت .

ومتى قصّر النيل عن هذا المقدار، غلبت الأسعار .

وهو إذا ابتدأ فى زيادته يكون مخضراً، ثم محمّراً، ثم كدراً .
وإذا انتهى فى الزيادة غشى الأرض، وتصير القرى فوق الروابى فلا يتوصّل إليها إلا فى المراكب أو على الجسور الممتدة التى تُنفق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء .

فإذا انتهى رىّ مكان وأخذ حده ، قُطِعَ جَسْرُ ذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ مَكَانٍ مَعْرُوفٍ
(يعرفه خَوْلَةُ الْبِلَادِ وَمَشَايِخُهَا) تَرَوِي مِنْهُ الْجَهْمَةَ الَّتِي تَلِيهَا مَعَ مَا تَجْمَعُ فِيهَا مِنَ الْمَاءِ
الْمَخْتَصِ بِهَا . وَلَوْلَا إِتْقَانُ هَذِهِ الْجُسُورِ وَحِفْظُ التَّرَعِ لَقَلَّ الِاتِّفَاعُ بِالنَّيْلِ .

§ وقد حكى أنه كان يُرصدُ لعمارة الجسور في كل سنة ثلثُ الخراج لعنايتهم بها :
لما يترتب عليها من المصالح ، ويحصل بها من النفع في رىّ البلاد .

§ وقد وصف بعض الشعراء ، النيل في طلوعه وهبوطه ، فقال :

وَاهَا لِهَذَا النَّيْلِ ، أَيُّ عَجِيبَةٍ * يُكْرِي بِمَثَلِ حَدِيثِهَا لَا يُسْمَعُ !
يَلْقَى الثَّرَى فِي الْعَامِ وَهُوَ مَسَلَّمٌ * حَتَّى إِذَا مَا مَلَّ عَادَ يُودَّعُ .
مُسْتَقْبَلٌ مِثْلَ الْهَلَالِ ، فَدَهْرُهُ * أَبَدًا يَزِيدُ كَمَا يَزِيدُ وَيَرْجِعُ .

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى في موضعها .

§ وهذا النهر مخالف في جريه لسائر الأنهار ، لأنه يجري مما يلي الجنوب مستقبل
الشمال . وكذلك نهر مِهْرَانٍ بِالسُّنْدِ ، وَنَهْرُ الْأَرْنُطِ ، وَهُوَ نَهْرٌ حِصَصٌ وَحِمَاةٌ ، وَيُسَمَّى
الْعَاصِيَّ لِخَالَفَتِهِ لِلْأَنْهَارِ فِي جَرِيهَا . وَمَاعِدَاهَا مِنَ الْأَنْهَارِ جَرِيهَا مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ :
لأرتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه .

وهو أخفُ المياه وأحلاها وأعظمها نفعا وأكثرها خراجا .

§ وقد حكى أنه جُيِّ في أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأول) مائة ألف ألف
وثلاثين ألف دينار ، وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار ، وجباه عمرو بن العاص
أثنى عشر ألف ألف دينار ، ثم رُدُّل إلى أن جُيِّ أيام القائد جوهر (مولى المعز العبيدي)
ثلاثة آلاف ألف ومائتي ألف دينار .

وسبب تقيده أن المملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنفق في حفر ثُرعه وإتقان جسوره وإزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالتصّيب والحلفاء .

وحكى ابن لحيعة أن المرتبّين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل : سبعون ألفا للصعيد، وخمسون ألفا للوجه البحريّ .

- وَحكى ابنُ زولاق أن أحد بن المدبر لما ولي الخراج بمصر، كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها، فقال : والله لو عمرها السلطان، لوفت له بخراج الدنيا .
§ وقيل إنها مُسحت أيام هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه الماء العامر والغامر مائة ألف فدان . والفدان أربعائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع .

- واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزراعة بمصر في وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرين ألف فدان . والباقي استبحر وتلف .
واعتبر مدّة الحرث فوجدها ستين يوما . والحرث يحرق خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعائة ألف وثمانين ألف حرّاث .



وأما الفرات

- فهو أحد الرافدين، ويقال الوافدين، والآخر دجلة، سميا بذلك لأنهما يجريان في جانبي بغداد : دجلة من شرقها، والفرات من غربها : يأتي إليها من دجلة من واسط، والبصرة، والأبلة، والأهواز، وفارس، وعمّان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين، ويأتي إليها من الفرات من الموصل، وأذربيجان، وأرمينية، والجزيرة، والثغور، والشام، ومصر، والمغرب، وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخاري أنه يجري من تحت سدره المنتهى .

وأما مبتدأ جريه الذي يعرفه الناس، فمن مدينة قالقلا من نهريسمى أودخش، ويجرى مقدار أربعائة وخمسين ميلا مغربا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتى يمر بين نغرى ملطية، وشميساط، ثم إلى جسر منيج، ثم يعطف ويأخذ جهة الجنوب حتى يصل إلى بالس ويمر بنصيين، والرقة، وقرقيسيا، والرحة، فيلتجف على عانات، ثم يمتد حتى يمر بهيت والأنبار. فإذا جاوزها اتقسم قسمين : قسم يأخذ نحو الجنوب قليلا وهو المسمى بالعلقم، ينتهى إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحلة، إلى البطيحة التي بين البصرة وواسط، والقسم الآخر يسمى نهري عيسى، منسوب لعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهى إلى بغداد، ويمر حتى يصب في دجلة.

قال المسعودي : وقد كان الأكثر من ماء الفرات ينتهى إلى بلاد الحيرة، ثم يتجاوزها ويصب في البحر الفارسي، وكان البحر يوم ذاك في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه.

قال : والموضع الذي كان يجري فيه بين إلى زمن وضعي هذا الكتاب، يعنى "كتاب مروج الذهب" وهو في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية.

وطول الفرات من حيث يخرج عند ملطية إلى أن يأتى ما يأتى منه إلى بغداد ستمائة فرسخ وثلاثة وعشرون فرسخا، وفي شطه مدن في جزائر تعد من أعمال الفرات، وهي الرقة، والناووسة، والقصر، والحديثة، وعانات، والدالية.



واما نهـر دجلة

ويسمى السلامة ، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين ، والثاني السلام على الخلفاء فيها .

- وهذا النهر فارز بين العراق والجزيرة ، وأنبعثه من أعين بـجـال آمد ، ويصب
إليه نهران يخرجان من أرزن الروم وميّا فارقين وعيون أخرى من جبال السلسلة ،
فيمتد ببلد ، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية بين بلاد
سورا وقبر سابور ، ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ
من الحديثة . ويسمى المجنون لحدته وشدة جريه ، ثم تمر دجلة فيصب فيها الزاب
الأوسط ، ومخرجه من الفرات ويجرى بين إربل ودقوقاء ، ويصب في دجلة أيضا
الزاب الأصغر ، ومخرجه أيضا من الفرات .

- وهذه الزوايا الثلاثة أنبسطها زاب بن طهماسب : أحد ملوك الفرس الأول ، ثم تمر
دجلة بتكريت إلى أن تتجاوز سامرا قليلا فيقع فيها نهر عيسى ويمر حتى يشق بغداد .
فاذا تجاوزها صب فيه نهر يخرج من بلاد أرمينية يسمى تامرا بعد أن يمر بناصر
ثم بياجسرا فيسمى النهران ، ويشق مدينة تعرف به ، ثم تمر دجلة بـجـرـجـايا والنعمانية
ثم بواسط ، ثم إلى البطائح ، ثم تخرج منها فتتمر بالبصرة وتجري حتى تنتهي إلى عبّادان ،
وعندها تصب في البحر الفارسي .

وما يمر من دجلة بالبصرة يملح إذا مد البحر فلا يشرب منه آلبتة ، ويحلوا إذا جـزـر .
فأهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجزر ، وهو يمد بكرة ويحزّر عشاء .

وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخل في دجلة من بحر فارس إلى مدينة المدائن ، فاتفق أن أنشئ في أسافل كسكر بثق عظيم على عهد قباد بن فيروز فأهمل حتى طغى ماؤه وغرق عمارات وضياعا فصارت بطائح .

ويسمى هذا البثق دجلة العوراء لتحول الماء عنه . وصار بين دجلة الآن ودجلة العوراء مسافة بعيدة تسمى بطن جوني ، وهو من حد فارس من أعمال واسط إلى نحو السوس من أعمال خوزستان .

ويقال إن كسرى أنفق أموالا عظيمة على أن يحول الماء إليها فأعياه ذلك . ورامه خالد بن عبد الله القسري فعجز عنه .

§ ومقدار مسافة جري نهر دجلة إلى أن يصب في البحر الفارسي ثلثائة فرسخ ، ومقدار البطائح ثلاثون فرسخا طولا وعرضا . وهي تفيض في كثير من الأوقات حتى يخشى على بغداد الغرق .



وأما نهر سجستان

§ ويسمى الهند مند^(١) ، فيقال إن منوچهر بن أيراج بن أفريدون أنبطه .

§ وهو يجري من عيون في بلاد الهند ويمر ببلد الغور ، فإذا تجاوزها ، مر من أعلى سجستان على بر رنج ، ثم على بسط^(٣) ، ثم على دونج فتتفرع منه أنهار تجري في شوارعها . ثم يمر عمود النهر حتى يصب في بحيرة زرة .

(١) وسماه المسعودي "الهرمند" في كتاب "التنبه والإشراف" .

(٢) في المسعودي "إيران" وقال : إن إيران تسميه الفرس أيراج .

(٣) هي المشهورة باسم "بست" . ومنها أبو الفتح البستي الشاعر المعروف .

(٤) لم أعر على هذا الاسم فيما بيدي من كتب الجغرافية العربية ، ولعلها هي نفس المدينة التي ذكرها ياقوت وغيره باسم "زرنج" وقال إنها قصبة سجستان .

§ وطول هذا النهر من حيث يبتدىء إلى نهايته مائة فرسخ .
وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكُك .



وأما نهر مهران

§ وهو نهر السند ، فهو يشبه نيل مصر في زيادته ونقصه واصناف حيوانه وما يتفرع
منه من الخُلجان .^(١)

§ وهو يستمد من أربعة أنهر : نهران يجريان من السند ، ونهر من ناحية كابل ،
ونهر من بلاد قشмир . وتجتمع فتكون نهرا واحدا ، ويجرى حتى ينتهى إلى الدور
فيمرّ بها ، ومن ثم يسمى نهر مهران ، ثم يمرّ بالمولتان ، ثم بالمنصورة ، ثم يجرى إلى
دَّيْل . فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها .
§ وطوله ألف فرسخ .



وأما نهر جيحون

ويسمى بالفارسية "به رود" وهو "نهر بلخ" .^(٢)

§ وأنبعائه من بحيرة في بلاد التُّبَّت ، مقدارها طولاً وعرضاً أربعون ميلاً ، تجتمع
من أنهار الختل .

(١) لا يزال اسم "مهران" عليها يطلقه بعض الهنود إلى الآن على القسم الأسفل من نهر السند .

(٢) في الأصل "جيحان" . وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر في آسيا الصغرى ويعرف بنهر المصيصة
ويصب في بحر الشام . أنظر ياقوت وابن رسته في "التنبيه والإشراف" .

(٣) ويسمى أيضا نهر كالف على ما رواه المسعودى باسم قلعة حصينة ، قال ياقوت إنها قائمة على طرفه
شبية بالمدينة بينها وبين بلخ ثمانية عشر فرسخا .

- فإذا خرج منها مر بَوْخَان فيسمّى نهر جرياب ^(١) ، ويجرى من المشرق إلى المغرب إلى أعلى حدود بلخ . ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى التَّرمِذ ، ثم منها إلى زَمَ وأمل من بلاد خراسان . ثم يجري إلى أن يمر ببلاد خوارزم فيشق قصبتها . فإذا تجاوزها تشعب منه أنهار وخلصان يمينا وشمالا ، تصب إلى مستنقعات وبطائح يصاد فيها السمك .
- ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا ، تجري مقدار أربعة وعشرين فرسخا ، ثم تصب في بحيرة خوارزم .
- § ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخا . وقيل : أربعائة . وساحله يسمّى الرُّوذبار ^(٢) .
- ويقال إنه يخرج منه خابج يأخذ سمّت المغرب حتى يقرب من كرمان ، ثم يمضي حتى يصب في بحر فارس .
- § ونهر جيحون ربما جمد في الشتاء حتى تعبر عليه القفول . قالوا : ويتبدى جوده من ناحية خوارزم .

*
*
*
وأما نهر سيجون

- ويسمى نهر الشاش ، وهو فارز بين بلاد الهياطلة وبلاد تركستان .
- § قال ابن حوقل : مبتدؤه من أنهار تجتمع في حدود بلاد الترك [والإسلام] ، فتصير عمودا واحدا وتجرى حتى تظهر في حدود أوزكند من بلاد فرغانة فتصب فيه

(١) في الأصول "جواب" والتصحيح عن الاصطخرى وابن حوقل .

(٢) قال ياقوت : كان معناه بالفارسية "موضع النهر" . ثم نقل عن السمعاني أن الروذبار لفظة لمواقع عند الأنهار الكبيرة في بلاد متفرقة . ثم ذكر روذبار بلخ ثم قال وبالشاش أيضا قرية يقال لها روذبار من وراء جيحون . [ولعل المراد هنا بلاد النهر أي نهر جيحون كما قالوا زنجبار أي بلاد الزنج] .

فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتد إلى فاراب. فإذا تجاوزها يجري في برية فيكون على جانبيه
الأتراك الغزائية، ويمتد إلى أن يصب في نهر جيحون^(١).
وبين موقعه في النهر وبين بحيرة خوارزم عشرة أيام.

* *
(٢)
وأما نهر الكنك

وهو نهر تعظمه الهند، فينبعث من بلاد قشмир ويجري في أعلى بلاد الهند.
§ وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظمونه غاية التعظيم.
§ ومن عجائبه أنه إذا ألقى فيه شيء من القاذورات، أظلم جوفه ورجفت أرجاءه
وكثرت الأمطار والرياح والصواعق.

§ وقد وصفه العتبي في "التاريخ اليميني" فقال:
"وهذا النهر الذي يتوآصف الهنود قدره وشرفه، فيرون من عين الخلد التي في السماء
مُعْتَرَفَةً؛ إذا أُحرق منهم ميت دَازوه فيه بعظامه، فيظنون أن ذلك طُهر لآثامه؛
وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيَغْرِق نفسه فيه، يرى أن هذا الفعل يُنْجِيهِ.
والهنود يُفْرِطُونَ في تعظيمه حتى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفسه
وألقى رماده فيه، أو يأتى إلى النهر (وهناك شجر القنأ في غاية الارتفاع، وقوم هناك
بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيربط نفسه في طرف قناة، ثم يحز رأسه بيده

(١) اختصر المؤلف كلام ابن حوقل اختصاراً خفيفاً (وانظر كلام ابن حوقل في كتابه "المسالك

والمالك" ص ٣٩٢ — ٣٩٣).

(٢) قال أبو الفدا إن اسمه الهندي: كانكو وسماه المسعودي "جَنَجَس" في كتاب "النبية

والإشراف".

فبقي الرأس معلقا في طَرَف القناة وتسقط الجثة، أو يلقي نفسه من شاهق على تلك السيوف والحناجر فيقطع، ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق“ .

وأما نهر الكر

فهو نهر بأرض أرمينية .

§ وأنبعائه من بلاد اللان، فيمتر ببلاد الأبخاز حتى يأتي ثغرا ثقليس فيشقه ويجرى في بلاد الساوردية . ثم يخرج بأرض برذعة، ويجرى إلى برزنج فيصب فيه نهر الرّس .
§ وهذا النهر هو المذكور في القرآن العزيز في قوله تعالى ﴿ وأصحاب الرس ﴾ على ما ذهب إليه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر، صار نهر واحد يصب في بحر الخزر .

§ ونهر الرّس يخرج من أقاصى بلاد الروم، على ما زعم المسعودى .

وأما نهر إتل

§ وهو نهر عظيم، فهو نهر الخزر .

§ ويمتر جانبه الشرقى على ناحية خرخيز، ويجرى ما بين الكيماكية والغزية . ثم يمتد غرباً على ظهر بلغار وبرطاس والخزر . ثم ينقسم قسمين : أحدهما إلى مدينة إتل

(١) في الأصل “الأبخار” . والأصوب “الأبخاز” وهو اسم لجهة من بلاد أرمينية (وقد ذكر الأبخاز كل من الإصطخرى وآبن حوقل والمقدسى وآبن خرداذبة والمسعودى) .

(٢) جيل من الأرمن يسميهم العرب أيضا “الساوردية” ويصفونهم بأنهم “أهل العبث والفساد والنلصص (عن حاشية في ص ١٩٢ من “مسالك الممالك” للإصطخرى) .

(٣) في الأصل “كذب أصحاب الرس المرسلين” وهو غير نظم القرآن، فتنبه .

(٤) مدينة كانت على نهر الإتل ببلاد روسيا . ومنها خرج البلغار إلى البلاد المعروفة الآن باسمهم .

يَشْقُهَا بَنَصْفَيْنِ وَيَجْرِي إِلَى أَنْ يَصْبَ فِي بَحْرِ الْخَزَرِ، وَيَجْرِي الْآخِرُ فِيمَتْرِبِيلْدِ الرُّوسِ حَتَّى يَصْبَ فِي بَحْرِهِمْ وَهُوَ بَحْرُ سُودَاق .

§ وَيَقَالُ إِنَّهُ يَتَشَعَّبُ مِنْهُ نَيْفٌ وَتَسْعُونَ نَهْرًا، وَإِذَا وَقَعَ فِي الْبَحْرِ، يَجْرِي فِيهِ مَسِيرَةٌ يَوْمَيْنِ ثُمَّ يَغْلِبُ عَلَيْهِ .

§ وَقِيلَ إِنَّهُ يَجْمَدُ فِي الشِّتَاءِ، وَيَتَبَيَّنُ لَوْنُهُ فِي لَوْنِ الْبَحْرِ .

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

ذكر ما في المعمور

من الأنهار والعيون التي يُتَعَجَّبُ مِنْهَا

قال صاحب "مباهج الفكر ومناهج العبر" في كتابه :

- ١٠ «وذكر المعتنون بتدوين العجائب في كتبهم التي وضعوها لذلك أن في المعمور أنهارا وعيونا يُتَعَجَّبُ مِنْهَا إِذَا أُخْرِعَتْ عَنْهَا . فذكروا منها نهر الكُنْكَ (وقد تقدّم ذكره) وأن بأرض الهند مكانا يعرف بعقبة عَوْرُك فيه عين ماء لا تقبل نجسا ولا قدرا ، وإن أُلْقِيَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، أَكْفَهَرَتِ السَّمَاءُ وَهَبَّتِ الرِّيحُ وَكَثُرَ الرِّعْدُ وَالْبَرْقُ وَالْمَطَرُ . فلا تزال كذلك إلى أن يُخْرَجَ مِنْهَا مَا طُرِحَ فِيهَا .

- ١٥ «وذكروا أن في ناحية الباميان عينا تسمى دِيَوَاش تفور من الأرض كغليان القدر؛ متى بصق فيها إنسان أورمى فيها شيئا من القاذورات، ازداد غليانها وفورانها وفاضت . فربما أدركت من جعل ذلك فيها ففترقته .

«وبناحية الباميان أيضا عين تجري من جبل في بعض الأحيان . فإذا خرج ماؤها، صار حجرا أبيض .

«وبقرية من أعمال فارس كهف بين جبال شاهقة فيه حُفرة بقدر الصَّحفة،
يَقْطُرُ فيها من أعلى الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن
شرب منه ألف عمَّهم وأرواهم .

«وبناحية أردشير جرد عين يجري منها ماء حلويُّ شَرِبَ لشفية الجوف . فمن شرب
منه قَدَحًا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة .

«وبدارين من أعمال فارس نهر مائه شُرِبَ . إذا غُطَّت فيه الثياب خَضَرها .
«وفي بعض رساتيق همدان عيون متى خرج منها الماء تحجَّر .

«وبنواحيها أيضا ماء يخرج من تحت قلعة ويجري في جداول إلى بعض الرساتيق .
فما تشبَّث منه في صدع أو شق صار حجرا صُلداً ، وإذا صُبَّ في خَرَفَةٍ وأقام فيها
ثلاثة أيام ثم كُسِرَت ، وجد في جوفها أخرى قد تحجرت من الماء .

«وبناحية تَقْلِس عين تنبع ، فإذا خرج منها الماء صار حَيَّات .

«وبأرض القُدُموس من حصون الدَّعوة برَبَضها حَمَام يجري إليها الماء من عين
هناك . فإذا كان في أول شهر تَمُوز ينبع في الحَمَام حَيَّات في طول شهرين أولاً ، ثم
في طول شهر، وتكثر . ولا توجد في غير الحمام . فإذا آنقضى شهر تَمُوز، عُدمت تلك
الحَيَّات ، فلا توجد إلى العام القابل .

«وبأرض أَرْمِينِيَّة واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يَدْرِي ما هو .
إذا وضعت القدر على صَفْتِه غات ونَصَج ما فيها . وفيها واد عليه الأَرْحَاء والبساتين .
مائه حامض ؛ فإذا نزل في الإناء، عَذْب وحَلَا .

«وبالمرآغة عيون إذا خرج مأوها لم يلبث إلا قليلا حتى يتحجر . فمنه تُفرش دورهم .

«وبنواحي أرزن الروم ماء يستقى فيستحجر ويصير ملحاً .

«وأكثر مياه بلاد اليمن تستحيل شباً .

- «وبنواحي واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة : من الحمرة والصفرة والخضرة . تسيل إلى مستنقعات ، فتكون ملحاً بحسب ألوانها .
- «وفي هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلاً عن الخل .
- «وبنواحي أسوان من الصعيد الأعلى مستنقعاتٌ منها النفط .
- «وكذلك بتكريت من أرض العراق .

- «وبأرض كَامة^(١) من بلد إفريقية عين تسمى عين الأوقات . تجري في أوقات الصلوات الخمس . فإذا حضر جنب أو امرأة حائض ، لا تَبِضُ بشيء من الماء . وإذا أتت رجلاً ، أتت بالماء للصادق وشئت على الكاذب .
- «وببلد إفريقية أيضاً عين تتبع بالمداد ، يكتب به أهل تلك الناحية .
- «وبطرطوشة من بلاد الأندلس واد يجري رملاً .

- ١٥ قال : وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طحا من كورة الأشمونين من صعيد مصر بر فيها ماء معين يُشرب منها طول أيام السنة فيكون الماء كسائر المياه ، حتى إذا كان أول يوم من برمودة من شهور القبط فمن شرب من ذلك الماء

(١) في الأصل : "كامة" وهو غلط من النسخ ، لأن "كامة" قبيلة من البربر منتشرة فيما بين برقة الى أرض الجزائر .

يومئذ خدمته الطبيعة مقدار ما شرب . فاذا كان وقت الزوال عاد الماء إلى حالته الأولى، ثم لا يفعل كذلك إلا في مثل ذلك اليوم من العام القابل .
وقال : إنه كان بمدينة الأشمونين كنيسة تعرف ببو^جرج إلى جانبها بئر لاندأوة فيها ولا بلل في سائر أيام السنة ، فاذا كان اليوم العاشر من طوبة من شهور القبط تمتلئ تلك البئر ماءً شروباً . فلا يبقى أحد من نصارى ذلك البلد إلا يأخذ من ذلك الماء للتبرك به . حتى إذا كان عند الزوال ، غاض الماء فلا يبقى في البئر منه شيء ويجف لوقته .

«وبأرض مرميثا من عمل حصن الأكراد عين تسمى الفؤارة . تكون في غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقدير ثلاثة أذرع . وتفور في بعض الأيام ويخرج منها ماء يدير أرحية الطواحين ويسقى البساتين فيستمر كذلك بعض يوم ثم يغور . ويتكرر ذلك في الأسبوع مرتين وثلاثة .

«وبقلعة بعلبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لأيرى فيها الماء إلا إذا حوصرت . فإنها عند ذلك تمتلئ حتى تفيض . فإذا زال الحصار جفت » .

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء

(ما جاء من ذلك على لفظ افعل)

الأمثال :

يقال :

أسرع من الماء إلى قراره .

أرق من الماء .

أحق من لاعي الماء .

١٥

٢٠

أَحْمَقُ من القابض على الماء .

أَصْفَى من ماء المَفَاصِل .

أَعَذَبُ من ماء المَفَاصِل .

أَجْرَى من الماء .

أَعَذَبُ من ماء الحَشْرَج .

أَعَذَبُ من ماء البارِق .

أَلْطَفُ من الماء .

أَوْجَدُ من الماء .

ويقال :

أَنْ تَرَدَّ الماءُ بِماءٍ أُكْيِسَ .

ماءٌ وَلَا كَصَدَاءَ .

قَدْ بَلَغَ الماءُ الزُّبَى .

ويقال :

فَلانٌ يَرْقُمُ على الماءِ . (إذا كان حاذقا) .

تَأْطَةُ مُدَّتْ بِماءٍ . (لما مرَّ بزداد فسادا) .

ليس الرُّى في التَّشَافِّ . (في ذم الاستقصاء) .

الماءُ إذا طال مكثُه ، ظهر خُبثُه ؛ وإذا سَكَنَ مَتْنُه ، تحوَّلَ نَتْنُه .

الكَدَرُ من رأس العين .

إذا عَذَبَتِ العُيونُ ، طابَتِ الأنهارُ .

هذا غَيْضٌ من فَيْضٍ ، وَبَرُّضٌ من عِدِّ . (أى قليل من كثير) .

ومن أنصاف الايات :

- * والمرءُ يَشْرَقُ بِالزُّلَالِ البَارِدِ! *
 * كَذَلِكَ غَمَرُ الْمَاءِ يُزَوِّي وَيُغْرِقُ! *
 * وَالْمَشْرَبُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ! *
 * مَوَاقِعُ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي! *
 * وَكَيْفَ يَعَافُ الرِّثَقَ مَنْ كَانَ صَادِيًا؟ *

ومن الايات :

- يَا سَرْحَةَ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ *
 أَمَّا إِلَيْكَ سَبِيلٌ غَيْرُ مَسْدُودٍ؟
 لِحَائِمٍ حَامٍ حَتَّى لَا حِيَامَ بِهِ *
 مُحَلَّاءٍ عَنْ طَرِيقِ الْمَاءِ مَصْدُودٍ!
 وقال آخر :

أَيُّجُوزُ أَخَذُ الْمَاءِ مِنْ *
 مَتَلَهَّبِ الْأَحْشَاءِ صَادِي؟

وقال آخر :

أَرَى مَاءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ، *
 وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُرُودِ!

وقال آخر :

مَنْ غُصَّ دَاوِي بِشُرْبِ الْمَاءِ غُصَّتَهُ، *
 فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدْ غُصَّ بِالْمَاءِ؟

وقال آخر :

وَمَا كُنْتُ إِلَّا الْمَاءَ جِئْنَا لَشُرْبِهِ، *
 فَلَمَّا وَرَدْنَاهُ إِذَا الْمَاءُ جَامِدٌ!

وقال آخر :

وَفِي نَظَرَةِ الصَّادِي إِلَى الْمَاءِ حَسْرَةٌ، *
 إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا سَبِيلَ الْمَوَارِدِ!

وقال آخر :

وَلَمَّا لَبَّاءُ الْخَالِطِ لِلْقَدِي *
 إِذَا كَثُرَتْ وَرَادُهُ، لَعِيُوفُ!

وقال آخر :

سَأَقْنَعُ بِالْثَّادِ، لَعَلَّ دَهْرًا * يَسُوقُ الْمَاءَ مِنْ حَرِّ كَرِيمٍ !

وقال آخر :

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ * عَلَى الْمَاءِ، خَاتَمَهُ فُرُوجُ الْأَصَابِعِ .

وقال آخر :

وَإِنِّي وَإِشْرَافِي عَلَيْكَ بِهِمَّتِي * لَكَالْمَبْتَغَى زُبْدًا مِنَ الْمَاءِ بِالْمَخْضِ .

وقال آخر :

فَقُلْ فِي مَكْرَعِ عَذْبٍ ، * وَقَدْ وَاقَاهُ عَطْشَانُ !

وقال آخر :

وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْكَ، وَأَيُّ صَبْرٍ * لَظْمَانٍ عَنِ الْمَاءِ الزَّلَالِ ؟

وقال آخر :

وَإِنَّ الْمَاءَ فِي الْعِيدَانِ يَجْرِي ، * وَرُبَّمَا تَغَيَّرَ فِي الْحُلُوقِ !

وقال آخر :

إِذَا أَنَا عَاتَبْتُ الْحُلُولَ فَإِنَّمَا * أَخْطُ بِأَقْلَامٍ عَلَى الْمَاءِ أَحْرَفًا !

وقال آخر :

وَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيبًا أَنْ أَعَذَّبَهُ * يَفْنَى ، وَيَمْتَدَّ عُمرُ الْآجِنِ الْأَسْنِ .

وقال آخر :

الْمَالُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ ، مَا لَمْ يَفْضُ * فِي الرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ ، سُوءَ ثَنَاءٍ .

كَلِمَاءُ تَأْسِنُ بِئْرُهُ إِلَّا إِذَا * خَبَطَ السُّقَاةُ جَمَامَهُ بِدِلَالٍ .

ذكر شيء مما قيل في وصف الماء وتشبيهه

§ فأما ما أختص به نهر النيل من الوصف .

فمن ذلك قول ابن النقيب :

كَأَنَّ النَّيْلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ * لَمَّا يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ .
فَيَأْتِي حِينَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ ، * وَيَمُضِي حِينَ يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ !

وقال تميم بن المعز العبيدي :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ * وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قَصَرٌ .
وَالسُّفُنُ تَجْرِي كَالْحَيُولِ بِنَا * صُعْدًا ، وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْحَدِرٌ .
فَكَأَنَّمَا أُمُوجُهُ عُمُكُنْ * وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُورٌ .

§ ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني قال :

وأما النيل فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الإصبع إلى الذراع . فكأنما غار على الأرض فغطاها ، وعار عليها فاستقعدها وما تخطاها . فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ، ولا مرغوب مرهوب إلا إياه .

وأما ما أختصت به دجلة من الوصف .

قال التنوخي :

وَكَأَنَّ دِجْلَةَ إِذْ تَغْمُضُ مُوجُهَا * مَلِكٌ يُعْظَمُ ، خِيفَةً وَيَجَلٌ .
عُدَّتْ ، فَمَا أَدْرَى أَمَاءُ مَاؤُهَا * عِنْدَ الْمَذَاقَةِ أَمْ رَحِيقُ سَلْسَلٍ ؟
وَكَأَنَّهَا يَاقُوتَةٌ أَوْ أَعْيُنٌ * زُرْقٌ يُلَاقِمُ بَيْنَهَا وَيُوصَلُ .
وَلَهَا بَمَدٍّ بَعْدَ جَزَرٍ ذَاهِبٍ * جَيْشَانِ يَذْبُرْذَا ، وَهَذَا يُقْبَلُ .

وقال محمد بن عبد الله السلمي، شاعر "التيمة" :

وميدانٍ تَجُولُ به خِيُولٌ * تَقُودُ الدَّارِعِينَ ^(١) ولا تُقَادُ.
رَكِبْتُ به إِلَى اللَّذَاتِ طِرْفًا * له جِسْمٌ وليس له فُؤَادُ.
جَرَى فظَنَنْتُ أَنَّ الْأَرْضَ وَجْهٌ * ودَجَلَةٌ ناظِرٌ وهو السَّوَادُ.

وقال الصنوبري :

فَلَمَّا تَعَالَى الْبَدْرُ وَأَشْتَدَّ ضَوْؤُهُ * بِدِجَلَةٍ فِي تَشْرِينٍ بِالطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَقَدْ قَابَلَ الْمَاءَ الْمَقْضَضُ نُورُهُ * وَبَعْضُ نَجُومِ اللَّيْلِ يُطْفِئُ سَنَا بَعْضِ،
تَوَهَّمُ ذُو الْعَيْنِ الْبَصِيرَةَ أَنَّهُ * يَرَى ظَاهِرَ الْأَفْلاكِ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ.

ومما وصفت به الأنهار

قال الصنوبري :

وَالْعَوَاجِبُ الَّتِي كَلَفْتُ به * قَدْ سَوَّى الْحُسْنَ فِيهِ مَذْعُوجُ.
مَا أَخْطَأَ الْأَيْمَ فِي تَعَوُّجِهِ * شَيْئًا إِذَا مَا آسَتْ قَامُ أَوْ عَرَّجُ.
تُدْرَجُ الرِّيحُ مَتْنَهُ فَتَرَى * جَوْشَنَ مَاءٍ عَلَيْهِ قَدْ دَرَجُ.
إِنْ أَعْنَقْتُ بِالْجَنُوبِ أَعْنَقَ فِي * لُطْفٍ، وَإِنْ هَمَلَجْتُ به هَمَلَجُ.
مَنْ أَيْنَ طَافَتْ شَمْسُ النَّهَارِ به * حَسِبْتَ شَمْسًا مِنْ جَوْفِهِ تَخْرُجُ.

وقال أبو فراس :

وَالْمَاءُ يَقْضِلُ بَيْنَ زَهْرِ الرُّوضِ فِي الشَّطِّينِ فَصَلًا.
كَسِاسِطٍ وَشَى جَرَدَتْ * أَيْدِي الْقِيَانِ عَلَيْهِ نَصَلًا.

(٩٩)

(١) أنظر قبل هذا ص ٢٥٦ في وصف البحر والسفن . وكتب في بعض الأصول عند هذا الموضع

لفظة "مكرر" .

وقال الناجم :

أَنْظُرْ إِلَى الرُّوضِ الَّذِي فَحُسْنُهُ لِلْعَيْنِ قُوَّةُ !
فَكَأَنَّ خُضْرَتَهُ السَّمَاءُ * ، وَنَهْرُهُ فِيهِ الْمَجَرَّةُ .

وقال عبد الله بن المعتز :

وَتَرَى الرِّيحَ إِذَا مَسَحْنَ غَدِيرَهُ * وَصَفَيْنَهُ وَتَقَيَّنَ كُلَّ قَذَاةٍ ،
مَا إِنَّ يَزَالُ عَلَيْهِ ظَنِّي كَارِعٌ * كَتَطَلَّعَ الْحَسَنَاءُ فِي الْمِرْآةِ .

ومثله قول الآخر :

وَعَدِيرٍ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ حَتَّى * بَانَ فِي قَعْرِهِ الَّذِي كَانَ سَاخَا .
وَكَأَنَّ الطُّيُورَ إِذَا وَرَدَتْهُ * مِنْ صَفَاءٍ بِهِ ، تَزُقُّ فِرَاحَا .

وقال آخر :

وَالنَّهْرُ مَكْسُوءٌ غِلَالَةً فَضِيَّةً ؛ * إِذَا جَرَى سَائِلٌ ، فَتَوْبُ نُضَارٍ .
وَإِذَا اسْتَقَامَ ، رَأَيْتَ صَفْحَةً مُنْصَلٍ ؛ * (١) وَإِذَا اسْتَدَارَ ، رَأَيْتَ عَطْفَ سِوَارٍ .

وقال أبو مروان بن أبي الخصال :

النَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غِلَالُهُ خَضِرَهُ * وَعَلَيْهِ مِنْ صَبْغِ الْأَصِيلِ طِرَازُ .
تَتَقَرَّقُ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّهَا * عَكَنُ الْخُصُوفِ تَهْزُهَا الْأَعْجَازُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

لِللَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ * أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ !
وَعَدَتْ تَحُفُّ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا * هُدْبٌ تَحُفُّ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ .
وَالرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى * ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى الْجَيْنِ الْمَاءِ !

(١) المنصل (بضم فسكون فضم) هو السيف .

وقال أبو القاسم بن العطار :

مَرَرْنَا بِشَاطِئِ النَّهْرِ بَيْنَ حَدَائِقٍ * بِهَا حَدَقُ الْأَزْهَارِ تَسْتَوْقِفُ الْحَدَقُ .
وقد نَسَجْتُ كَفَّ النَّسِيمِ مُفَاضَةً * عليه ، وما غَيْرُ الْحُبَابِ لَهَا حَلَقُ !

وقال محمد بن سهل الباخى ، شاعر «الذخيرة» :

رَاقَنَا النَّهْرُ صَفَاءً * بَعْدَ تَكْدِيرِ صَفَائِهِ .
كَانَ مِثْلَ السِّيفِ مُدْمَى * بَخَلَّوْهُ مِنْ دِمَائِهِ .
أَوْ كَمِثْلِ الْوَرْدِ غَضًّا * فَهُوَ الْيَوْمَ كِجَائِهِ .

وقال القاضي التُّنُوحِي ، شاعر «اليتيمة» :

أَحْبَبْتُ إِلَى نَهْرٍ مَعْقِلٍ الَّذِي * فِيهِ لَقَائِي مِنْ هُمُومِي مَعْقِلُ !
عَذَّبْتُ إِذَا مَا عَبَّ فِيهِ نَاهِلٌ * فَكَأَنَّهُ مِنْ رِيقِ حَبِّ يَنْهَلُ .
مَتَسَائِلُ فَكَأَنَّهُ لَصَفَائِهِ * دَمْعٌ بَخَدِّي كَاعِبٍ يَتَسَائِلُ .
فَإِذَا الرِّيحُ جَرَيْنَ فَوْقَ مَتُونِهِ * فَكَأَنَّمَا دِرْعٌ جَلَاهُ الصَّيْقِلُ !

وقال مؤيد الدين الطُّغْرَايِي فِي الْغَدِيرِ :

عُجْنَا إِلَى الْجَزَعِ الَّذِي مَدَّ فِي * أَرْجَائِهِ الْغَيْمُ بِسَاطِ الزَّهَرِ .
حَوْلَ غَدِيرٍ مَأْوُهُ الْمُنْتَمِي * إِلَى بَنَاتِ الْمَزْنِ يَشْكُو الْخَصَرِ .
لَوْلَا ذَهَبُ الرِّيحِ سَمُومًا بِهِ * لَا تَقْلَبْتُ وَهِيَ نَسِيمُ السَّحَرِ .
حَصْبًا بَأْوُهُ دُرٌّ وَرَضْرَاضُهُ * سُحَالَةُ الْعَسْجَدِ حَوْلَ الدَّرَرِ .
وَقَدْ كَسَتْهُ الرِّيحُ مِنْ نَسِجِهَا * دِرْعًا بِهِ يَلْقَى نَيْالَ الْمَطَرِ .

(١) كذا بالأصل . وفي ديوانه : "لولا ذلت الريح الخ" وهو الصواب .

وَأَلْبَسَتْهُ الشَّمْسُ مِنْ صِبْغِهَا * نُورًا بِهِ يَخْطِفُ نُورَ الْبَصَرِ.
كَأَنَّهَا الْمِرْآةَ مَجْلُوءَةً * عَلَى إِسَاطٍ أَخْضَرَ قَدْ نُشِرَ.

وقال أيضا :

مَلْنَا إِلَى النَّشْرِ الَّذِي تَرْتَقِي * إِلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا عَاطِرَةٌ.
حَوْلَ غَدِيرٍ مَأْوَاهُ دَارِعٌ * وَالْأَرْضُ مِنْ رِقَّتِهِ حَاسِرَةٌ.
وَالشَّمْسُ إِنْ حَازَتْهُ رَأْدُ الضُّحَى * حَسَنَاءُ فِي مِرْآئِهَا نَاطِرَةٌ.
وَالشَّهْبُ إِنْ حَازَتْهُ جُنْحُ الدُّجَى * تَسْبَحُ فِي لُجَّتِهِ الزَّائِرَةٌ.
قَدْ رُكِبَ الْخَضِرَاءُ فِيهِ، فَمِنْ * حَصْبَاءٍ أَنْجَمُهَا زَاهِرَةٌ.
يَحْضُرُ^(١) إِنْ مَرَّتْ بِأَرْجَائِهِ * لَفَحَ سَمُومٍ فِي لَطْفٍ هَاجِرَةٌ.
أُتْمِدَ الْمَاءُ الَّذِي جَاءَنَا السُّوْعَدُ بِأَنْ نُسْقَاهُ فِي الْآخِرَةِ!

٥

١٠



ومما وصفت به البرك

قال البحرى عفا الله عنه :

يَا مَنْ رَأَى الْبَرَكَةَ الْحَسَنَاءَ رُؤْيَتَهَا * وَالْأَنَسَاتِ الَّتِي لَاحَتْ مَغَانِيهَا!
مَا بَالُ دِجْلَةٍ كَالْغَيْرَى تُنَافِسُهَا * فِي الْحُسْنِ طَوْرًا، وَأَطْوَارًا تُبَاهِيهَا؟
كَأَنَّ جَنِّ سُلَيْمَانَ الَّذِينَ وَلَوْ * إِبْدَاعَهَا فَادَّقُوا فِي مَعَانِيهَا.
فَلَوْ تَمَرَّتْ بِهَا بَلْقِيسُ عَنْ عُرْضٍ، * قَالَتْ: هِيَ الصَّرْحُ تَمَثِيلًا وَتَشْبِيهَا.
تَنْصَبُ فِيهَا وَفُودُ الْمَاءِ مُعْجَلَةً * كَالْخَيْلِ خَارِجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْرِيهَا.
كَأَنَّ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءَ سَائِلَةً * مِنَ السَّبَائِكِ تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا.

١٥

(١) في الأصل "يحضر" وفي ديوانه (الموجود منه نسخة مخطوطة «بدار الكتب المصرية») "يحضر"

ولا معنى لها . ولعل الصواب "يخضر" من الخضر، وهو شدة البرد كما يرتضيه السياق .

٢٠

إذا عَلتها الصِّبا أبدت لها حُبُّكًا * مثل الجواشِنِ مَضْغُولًا حَوَاشِيهَا.
 إذا النُّجُومُ تراءتْ في جَوَانِهَا * لَيْلًا، حَسِبْتَ سَمَاءَ رُكْبَتِ فِيهَا.
 لا يَبْلُغُ السَّمَكُ المَحْصُورَ غَايَتَهَا * لُبْعِدِ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا.
 يَعْْمَنُ فِيهَا بِأَوْسَاطٍ مَجْنَحَةٍ * كَالطَّيْرِ تَنْقُضُ فِي جَوْحِهَا فِيهَا.
 كَأَنَّهَا حِينَ بَلَغَتْ فِي تَدَفُّقِهَا * يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا!

وقال ابن طباطبا :

كَمْ لَيْلَةٍ سَاهَرْتُ أَنْجَمَهَا لَدَى * عَرَصَاتِ أَرْضِ مَائِهَا كَسَائِهَا.
 قَدْ سِيرْتُ فِيهَا النُّجُومُ كَأَنَّهَا * فَلَكُ السَّمَاءِ يَدُورُ فِي أَرْجَائِهَا.
 أَحْسَنُ بِهَا بَحْرًا إِذَا أَلْتَبَسَ الدُّجَى، * كَانَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ مِنْ حَضْبَائِهَا!
 تَرْنُو إِلَى الْجُوزَاءِ وَهِيَ غَرِيقَةٌ * تَبْغِي النَّجَاءَ، وَلَاتَ حِينَ نَجَائِهَا!
 تَطْفُو وَتَرْسُبُ فِي أَصْطِفَاقِ مِيَاهِهَا * لَا مُسْتَعَانَ لَهَا سِوَى أَسْمَائِهَا.
 وَالبَدْرُ يَحْفِقُ وَسَطَهَا فَكَأَنَّهُ * قَلْبٌ لَهَا قَدْ رِيعَ فِي أَحْشَائِهَا.

وقال عبد الجبار بن حمديس، يصف بركة يجرى إليها الماء من شاذروان من أفواه

طيور وزرافات وأُسُود، من أبيات :

والماءُ مِنْهُ سَبَائِكُ مِنْ فِضَّةٍ * ذَابَتْ عَلَى دُولَابِ شَاذِرُوانِ!
 فَكَأَنَّهَا سَيْفٌ هُنَاكَ مَشْطَبٌ * أَلْقَتْهُ يَوْمَ الرُّوْعِ كُفَّ جَبَانِ!
 كَمْ شَاخِصٍ فِيهِ يُطِيلُ تَعَجُّبًا * مِنْ دَوْحَةٍ نَبَتَتْ مِنَ الْعُقَيَانِ!
 عَجَبًا لَهَا تَسْقَى هُنَاكَ يَنَائِعًا * يَنْعَتُ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْأَغْصَانِ!
 خُصَّتْ بِطَائِرَةٍ عَلَى فَنَنِ لَهَا * حَسُنَتْ، فَأُفْرِدَ حُسْنُهَا مِنْ ثَانِي!

قُس الطيور الساجعاتِ بلاغةً * وفصاحةً من منطق وبيان .
 فإذا أُتِيحَ لها الكلامُ تكلمتُ * ببحرٍ ماءٍ دائمٍ الهملانِ .
 وكأنَّ صانعها آستبدَّ بصنعةٍ * تخر الجمادُ بها على الحيوانِ !
 أوفت على حوضٍ لها فكأنها * منها إلى العجب العجَب رَوان .
 وكأنها ظنَّت حلاوةَ مائها * شهداً ، فذاقته بكلِّ لسان .
 وزرافة في الجوّ من أنبويها * ماءٌ يريك البحرى في الطيران .
 مرْكوزة كالرُخ حيث ترى له * من طعنه الحلق أنعطاف سنان .
 وكأنما ترمى السماء بُنْدُقٍ * مُستنبِطٍ من لؤلؤ وجمان !
 لو عادَ ذاك الماءَ نِفْطاً ، أحرقت * في الجوّ منه قيصَ كلِّ عنان .
 في بركةٍ قامت على حافاتها * أسدٌ تذللُ لعِزة السُّلطان !
 نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها ، * فلذلك انتزعَت من الأبدان .
 وكأنما الحيات من أفواهها * يطرحن أنفسهن في عُدران .
 وكأنما الحيتانُ إذ لم تحشها ، * أخذت من المنصور عهد أمان !

وقال آخر :

ولقد رأيتُ ، وما رأيتُ كبركة * في الحُسن ذات تدفقٍ وبحرٍ !
 عَقَدَتْ لها أيدي المياهِ قناطرًا * من جوهري في لحية من نور !

وقال علي بن الجهم ، يصف فؤارة :

وفؤارةٍ نارها في السماء ، * فليست تُقصّر عن نارها !
 تراها إذا صعدت في السماء * تعودُ إلينا بأخبارها .
 تردُّ على المنزل ما أنزلت * على الأرض من صوبٍ مذارها !

وقال ابن حجاج فيها :

عَلِمْتُ فِي دَارِكَ فَوَّارَةً ، * غَرَّقَتِ الْأَفُقُ بِهَا الْأَنْجَا !
فَاضَ عَلَى نَجْمِ السَّمَاءِ مَأْوَاهَا ، * فَأَصْبَحَتْ أَرْضُكَ تَسْقِي السَّمَاءَ !

وقال تميم بن المعزّ العبيدي :

وَقَادِفَةٌ بِالْمَاءِ فِي وَسْطِ بَرَكَةٍ * قَدْ آلَتْ حَفَّتِ ظِلًّا مِنَ الْأَيْكِ تَجَسَّجَا .
إِذَا أَيْنَعَتْ بِالْمَاءِ سَلَّتَهُ مُنْصِلًا * وَعَادَ عَلَيْهَا ذَلِكَ النَّصْلُ هَوْدَجَا .
تُحَاوِلُ إِدْرَاكَ النُّجُومِ بِقَدْفِهَا ، * كَأَنَّ لَهَا قَلْبًا عَلَى الْجَوْ مُحَرَّجَا !

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وضّاح :

لِلَّهِ دَوْلَابٌ يَطُوفُ بِسَلْسَلٍ * فِي رَوْضَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ أَفْنَانَا !
قَدْ طَارَحَتْ فِيهِ الْحَمَائِمُ شَجْوَهَا * بَنَحِيهَا ، وَتَرَجَّعُ الْأَلْحَانَا .
فَكَأَنَّهُ دَنَفٌ يَطُوفُ بِمَعْهَدٍ ، * يَبْكِي وَيُسْأَلُ فِيهِ عَمْرُ بَانَا .
ضَاقَتْ مَجَارِي طَرْفِهِ عَنْ دَمْعِهِ ، * فَتَفَتَّحَتْ أَضْلَاعُهُ أَجْفَانَا !

وقال الموفق ، رحمه الله :

نَاعُورَةٌ تُحَسِّبُ مِنْ صَوْتِهَا * مَتَيْمًا يَشْكُو إِلَى زَائِرٍ .
كَأَنَّهَا كِيْزَانُهَا غَضَبَةٌ * رُمُوا بِصَرْفِ الزَّيْنِ الْوَاتِرِ .
قَدْ مَنَعُوا أَنْ يَلْتَقُوا فَأَغْتَدَوْا * أَوَّلُهُمْ يَبْكِي عَلَى الْآخِرِ !

وقال آخر :

وَنَاعُورَةٌ قَدْ ضَاعَفَتْ بُنَوَاحِيهَا * نُوَاحِي ، وَأَجَرَتْ مُقْلَتِي دُمُوعُهَا !
وَقَدْ ضَعُفَتْ مِمَّا تَبَيَّنَ ، وَقَدْ غَدَّتْ * مِنَ الضَّعْفِ وَالشَّكْوَى تُعَدُّ ضُلُوعُهَا !

وقال ابن منيير الطرابلسي :

لِنَوَاعِيْرِهَا عَلَى الْمَاءِ الْحَا * نٌ تَهِيْجُ الشَّجَا لِقَلْبِ الْمَشُوقِ .
فَهِيَ مِثْلُ الْأَفْلَاكِ شَكْلًا وَفِعْلًا ، * قُسِمَتْ قَسَمَ جَاهِلٍ بِالْحُقُوقِ :
بَيْنَ عَالٍ ، سَامٍ ، يُنَكِّسُهُ الْحِطُّ وَيَعْلُو بِسَافِلِ مَرَزُوقِ .

وقال أبو الفرج الوأواء :

وَكَرِيْمَةٌ سَقَتْ الرِّيَاضَ بَدْرَهَا ، * فَغَدَتْ تَنْوُبُ عَنِ السَّحَابِ الْهَامِيعِ .
بِلِبَاسٍ مَحْزُونٍ ، وَدَمْعَةٍ عَاشِقٍ ، * وَحَنِينٍ مُشْتَاقٍ ، وَأَنَّةٍ جَارِعِ .
فَكَأَنَّهَا فَلَكٌ يَدُورُ ، وَعُلاوُهُ * يَرِيحُ الْقَرَارَ بِكُلِّ نَجْمٍ طَالِيعِ .

وقال الصنوبري :

فَلَكٌ مِنَ الدُّوَلَابِ فِيهِ كَوَاكِبٌ * مِنْ مَائِهِ تَنْقُضُ سَاعَةَ تَطْلُعِ .
مَتَلَوْنَ الْأَصْوَاتُ : يَخْفِضُ صَوْتَهُ * بِغِنَائِهِ ، طَوْرًا وَطَوْرًا يَرْفَعُ .

ومما وصفت به نثرا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستدعي منه ثلاثة
أسهم ومليّات . جاء منها :

”...والحاجة داعية إلى ثلاثة أسهم ، كأنها هقعة الأنجم ؛ ممتدة امتداد الرُّمَحِ ،
مقومة تقويم القُدْحِ ؛ غير مشعّة الأطراف ، ولا معقّدة الأعطاف ؛ ولا مُسَوِّسة
الأجواف ؛ تُحَاسِنُ الغُصُونُ بِقَوَامِهَا ، والقُدُودُ بِتَمَامِهَا ؛ وَتُخَالِفُ هَيْفَهَا بِامْتِلَاءِ
خُصُورِهَا ، وَتُسَاوِي [بين] هَوَادِيهَا وَصُدُورِهَا ؛ مَعْتَدِلَةٌ الْقُدُودُ ، نَاعِمَةٌ الْخُدُودُ ؛

مع مَلَيَّاتٍ أَخَذَتِ النَّارُ مِنْهَا مَا أَخَذَهَا فَاسْوَدَّتْ ، وَتَطَاوَلَتْ عَلَيْهَا مُدَّةُ الْجَفَافِ
 فَاسْتَدَتْ ، وَتَرَامَتْ بِهَا مُدَّةُ الْقِدَمِ ، كَأَنَّهَا فِي حَيْزِ الْعَدَمِ ؛ صِلَابِ الْمَكَاسِرِ ، غِلَظِ
 الْمَآزِرِ ؛ تُشَبِّهُ أَخْلَاقَهُ فِي هَيْجَاءِ السَّلَمِ ، وَتَحْكِي صَلَابَةَ آرَائِهِ فِي نَفَازِ الرَّأْيِ وَمَضَاءِ
 الْعَزْمِ ؛ تَكْظِمُ عَلَى الْمَاءِ بَغِيْظَهَا ، فَتَجُودُ عَلَى الْأَرْضِ بَقِيْضَهَا ؛ تَمْتَدُّ أَيْدِيهَا
 فِي آفْتِضَاءِ إِرَادَتِهَا ، وَتَطْلُعُ طُلُوعَ الْأَنْجَمِ فِي فَلَكِ إِدَارَتِهَا ؛ وَتُعَانِقُ أَخَوَاتِهَا مَعَانِقَةَ
 التَّشْيِيعِ ، فَآخِرُ التَّسْلِيمِ أَوَّلُ التَّوْدِيعِ ؛ عَلَى أَنَّهَا تُؤْذَنُ بِمُحَقِّقِ الْإِعْتِبَارِ ، وَتَجْرَى بِجَرَى
 الْفَلَكَ الْمُدَّارِ فِي قَنَاةِ الْأَعْمَارِ :

تَمُرُّ كَأَنْفَاسِ الْفَتَى فِي حَيَاتِهِ * وَتَسْمَعِي كَسَمْعِي الْمَرْءِ أَثْنَاءَ عُمْرِهِ .
 يُفَارِقُ خَلَّ خِلِّهِ ، وَهُوَ سَائِرٌ * عَلَى مِثْلِ حَالِ الْخَلِّ فِي إِثْرَسِيرِهِ .
 وَيُعَلِّمُهُ التَّدْوَارُ ، لَوْ يَعْقِلُ الْفَتَى * بِأَنْ مُرُورَ الْعُمُرِ فِيهِ كَمَرُهُ .
 فَمَنْ أَدْرَكَتْ أَفْكَارُهُ سِرَّ أَمْرِهَا ، * فَقَدْ أَدْرَكَتْ أَفْكَارُهُ سِرَّ أَمْرِهِ .
 وَمَنْ فَاتَهُ ، الْإِدْرَاكُ أَدْرَكَهُ الرَّدَى : * إِذَا جُرَّعَتْ أَنْفَاسُهُ كَأَسْ مُرَّةٍ .”

ومما وصفت به الجداول

قال ابن المعتز، عفا الله عنه :

عَلَى جَدُولٍ رَيَّانٍ ، لَا يَقْبَلُ الْقَدَى : * كَأَنَّ سَوَاقِيهِ مُتَوْنُ الْمَبَارِدِ .

وقال الناجم :

أَحَاطَتْ أَزَاهِيرُ الرَّبِيعِ سَوِيَّةً * سِمَاطِينَ مُضْطَقِّينَ ، تَسْتَنْبِتُ الْمَرْعَى .

عَلَى جَدُولٍ رَيَّانٍ كَالسَّهْمِ مُرْسَلًا ، * أَوْ الصَّارِمِ الْمُسْلُولِ ، أَوْ حِيَّةٍ تَسْعَى .

وقال المفجع :

على جَدُولٍ رَيَّانٍ يَنْسَابُ مَتْنُهُ * صَقِيلًا، كَثْنِ السِّيفِ وَافِيًا مَجْرَدًا .
إذا الرِّيحُ نَاغَتْهُ ، تَحَلَّقَ وَجْهُهُ * دُرُوعًا وَضَاءً ، أَوْ تَحَزَّزَ مِبْرَدًا .

وقال ابن الرومي :

على حِفَافِي جَدُولٍ مَسْجُورٍ * أبيضٌ مِثْلُ المَهْرَقِ المَنْشُورِ .
أو مِثْلُ مَتْنِ المُنْصَلِ المَشْهُورِ * يَنْسَابُ مِثْلَ الحَيَّةِ المَذْعُورِ .

وقال ذو الرمة :

فَمَا أَنشَقَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ حَتَّى تَبَيَّنَتْ * جَدَاوِلُ : أَمْثَالُ السُّيُوفِ القَوَاطِيعِ .
وحيث آتَيْنَا مِنْ ذِكْرِ المِيَاهِ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ فَلْنَذْكُرْ عِبَادَ المَاءِ .

مَعِينُ التَّارِيخِ
لأهل التَّارِيخِ

ذِكْرُ عِبَادِ المَاءِ^(١)

وَعِبَادُ المَاءِ طَائِفَةٌ مِنَ الهِنْدِ يُسَمُّونَ الجُلْهَكِيَّةَ^(٢) ، يَزْعُمُونَ أَنَّ المَاءَ مَلَكٌ ، وَمَعَهُ
مَلَائِكَةٌ ، وَأَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَبِهِ كُلُّ وِلَادَةٍ وَنَمُوٌّ وَنُسُوءٌ وَبَقَاءٌ وَطَهَارَةٌ وَعِمَارَةٌ ،
وَمَا مِنْ عَمَلٍ فِي الدُّنْيَا إِلَّا وَيَحْتَاجُ إِلَى المَاءِ .

§ فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ عِبَادَتَهُ ، تَجَرَّدَ وَسَتَرَ عَوْرَتَهُ . ثُمَّ دَخَلَ المَاءَ حَتَّى يَصِلَ
إِلَى وَسْطِهِ ، فَيَقِيمُ سَاعَتَيْنِ وَأَكْثَرَ . وَيَأْخُذُ مَا أَمْكَنَهُ مِنَ الرِّيحِ حِينَ فَيَقْطَعُهَا صَغَارًا
وَيُلْقِي فِي المَاءِ بَعْضَهَا بَعْدَ بَعْضٍ ، وَهُوَ يُسَبِّحُ وَيَقْرَأُ . وَإِذَا أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ ، حَرَّكَ
المَاءَ بِيَدِهِ . ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ فَتَقَطَّ عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَسَائِرِ جَسَدِهِ . ثُمَّ يَسْجُدُ
وَيَنْصَرِفُ .

(١) هذه العبارة كلها منقولة عن كتاب "الملل والنحل" للشهرستاني .

(٢) في الأصل : المهكنية . [وهو تصحيف وصوابه من الشهرستاني] .

القسم الخامس من الفن الأول

في طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمباني القديمة،
والمعاقل، وما وُصفت به القصورُ والمنازل
وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

من هذا القسم

(في طبائع البلاد، وأخلاق سُكَّانها)

- § روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبَ الأحبار عن طبائع البلاد
وأخلاق سُكَّانها ، فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياءَ، جعل كل شيءَ لشيء .
فقال العقل : أنا لاحقٌ بالشَّام ، فقالت الفتنَةُ : وأنا معك . وقال الخُصْبُ : أنا لاحق
بمصر ، فقال الذُّلُّ : وأنا معك . وقال الشَّقَاءُ : أنا لاحقٌ بالبادية ، فقالت الصَّحَّةُ :
وأنا معك .
- § وقال محمد بن حبيب : لَمَّا خلق الله تعالى الخلق ، خلق معهم عشرة أخلاق :
الايْمَان ، والحِياء ، والنَّجْدَة ، والفتنة ، والكبر ، والنفاق ، والغنى ، والفقر ، والذل ،
والشَّقَاء . فقال الإيْمَان : أنا لاحق باليمن ، فقال الحِياء : وأنا معك . وقالت النَّجْدَة :
أنا لاحقَة بالشَّام ، فقالت الفتنَة : وأنا معك . وقال الكبر : أنا لاحق بالعِراق ، فقال
النَّفَاق : وأنا معك . وقال الغنى : أنا لاحق بمصر ، فقال الذُّلُّ : وأنا معك . وقال
الفقر : أنا لاحق بالبادية ، فقال الشَّقَاء : وأنا معك .

§ وحكى عن المجاج أنه قال : لما تبوأَت الأشياءُ منازلها ، قال الطاعون : أنا نازلٌ بالشَّام ، فقالت الطاعة : وأنا معك . وقال النَّفاق : أنا نازلٌ بالعراق ، فقالت النعمة : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا نازل بالبادية ، فقال الصبر : وأنا معك .



نوع آخر منه

- § رُوِيَ عن عبد الله بن عباس (رضى الله تعالى عنهما) أنه قال : إن الله تعالى خلق
- البركة عشرة أجزاء : فتسعة منها في قریش ، وواحد في سائر الناس . وجعل الكرم
- عشرة أجزاء : فتسعة منها في العرب ، وواحد في سائر الناس . وجعل الغيرة عشرة
- أجزاء : فتسعة منها في الأكراد ، وواحد في سائر الناس . وجعل المكر عشرة أجزاء :
- فتسعة منها في القبط ، وواحد في سائر الناس . وجعل الخفاء عشرة أجزاء : فتسعة
- منها في البربر ، وواحد في سائر الناس . وجعل النجابة عشرة أجزاء : فتسعة منها
- في الروم ، وواحد في سائر الناس . وجعل الصناعة عشرة أجزاء : فتسعة منها
- في الصين ، وواحد في سائر الناس . وجعل الشهوة عشرة أجزاء : فتسعة منها
- في النساء ، وواحد في سائر الناس . وجعل العمل عشرة أجزاء : فتسعة منها
- في الأنبياء ، وواحد في سائر الناس . وجعل الحسد عشرة أجزاء : فتسعة منها
- في اليهود ، وواحد في سائر الناس .

§ ويقال : قُسم الحقد عشرة أجزاء : فتسعة منها في العرب ، وواحد في سائر الناس . وقُسم البخل عشرة أجزاء : فتسعة منها في الفرس ، وواحد في سائر الناس . وقسم الكبر عشرة أجزاء : فتسعة منها في الروم ، وواحد في سائر الناس . وقسم

الطَّرب عشرة أجزاء : فتسعة منها في السودان ، وواحد في سائر الناس . وقسم
الشَّبق عشرة أجزاء : فتسعة منها في اليهود، وواحد في سائر الناس .
§ ويقال : أربعة لا تعرف في أربعة : السَّخاء في الروم ، والوفاء في الترك ، والشجاعة
في القبط ، والغم في الزنج .



نوع آخر منه

- § حكى عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القريّة عن طبائع أهل البلاد ، فقال :
أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم عنها ؛ رجالها جفاة ، ونساؤها كساة عراة .
وأهل اليمن أهل سَمع وطاعة ، ولزوم الجماعة . وأهل عُمان عرب استنبطوا ، وأهل
البحرين نَبَطٌ استعربوا . وأهل اليمامة أهل جفاء ، واختلاف آراء . وأهل فارس
أهل بأس شديد ، وعزّ عتيد . وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره ، وأضيعهم
لكبيره . وأهل الجزيرة أشجع فرسان ، وأقتل للاقتران . وأهل الشام أطوعهم
لخالق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر عبيدٌ لمن غلب ؛ أكيسُ الناس صغاراً ،
وأجهلهم كباراً .
- ١٥ وحكى عن أبي عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" أنه قال : كنا نُعلِّم في المكتب كما نُعلِّم
القرآن : احذروا حماقة أهل بُخارى ، وغُلّ أهل مرو ، وشَغَب أهل نيسابور ، وحسد
أهل هَرَاة ، وحَقْد أهل سِجِسْتان .
- § وقال أبو حامد القاضى : أعيانى أن أرى نُرَاسانياً ذِكياً ، وطبرياً رَزِيناً ، وهَمْدانياً
لَبِيّاً ، وبَصْريّاً رَكِيكاً ، وكُوفياً رَئِيساً ، وبغدادياً سَخِيّاً ، ومَوْصِليّاً لَطِيفاً ، وشامياً خَفِيفاً ،
١٦ وحجازياً منافقاً ، وبدَوياً ظَريفاً .

§ وقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة : قُمِّي من رُعونة ، ويماني من جنون ،
وواسطي من غفلة ، وبصري من جدل ، وكوفي من كذب ، وسوادي من جهل ،
وبغدادى من مخرقة ، وخوزى من لؤم ، وطبرى من زرق ^(١) .

§ وقيل : جاور أهل الشام الروم ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة . وجاور أهل
الكوفة أهل السواد ، فأخذوا عنهم السخاء والغيرة . وجاور أهل البصرة الخوز ،
فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء .

§ ويقال : إن القدماء اعتبروا البلاد وما أمتاز به بعضها عن بعض من الطبائع ،
فوجدوا أخصب بقاع الدنيا ثمانية مواضع : أرمينية ، وأذربيجان ، وماء دینور ،
وماء نهاوند ، وكرمان ، وأصبهان ، وقومس ، وطبرستان .

§ ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً ، ماء ثمانية مواضع : دجلة ، والفرات ، وزندرو
أصبهان ، وماء سوران ، وماء هفيجان ، وماء جندیسابور ، وماء بلخ ، وماء سمرقند .
(وغفلوا عن نيل مصر ، ولعله أحقها بهذه الخصوصية من سائر المياه) .

§ ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع : النوبندجان ، وسابورخواست ، وجرجان ،
وحلوان ^(٢) ، وبرذعه ، وزنجان . (وغفلوا عن شير ^(٣)) .

§ ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة : أهل أصبهان ، والحيرة ، والمدائن ، وماء دینور ،
وإصطخر ، ونيسابور ، والري ، وطبرستان ، ونشوى (وهي نقجوان) .

§ ووجدوا أسرى أهل بقاع الدنيا أهل سبعة مواضع : طوسفون (وهي المدائن) ،
وبلاشون (وهي حلوان ^(٢)) ، وماسبذان ، ونهاوند ، والري ، وأصبهان ، ونيسابور .

(١) من أهل طبرستان . وأما النسبة الى طبرية الشام فطبراني .

(٢) أى حلوان العراق ، لا حلوان مصر .

§ ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل عشرة مواضع : ماسبدان^(١) ، ومهرجان^(٢) قذق ، وسورستان ، والرّي ، والرّويان ، وأذرّيجان ، والموصل ، وأرمينية ، وشهرزور ، والصّامغان .

§ ووجدوا البخل في أهل ثمان بقاع : مرو ، وإصطخر ، ودارابجرد ، وخوزستان ، وماسبدان ، ودَيْبِل ، وماه دينور ، وحلوان .

§ ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة : أهل السّدجان ، وبادرايا ، وماكسايّا ، وخوزستان .

§ ووجدوا أقل أهل الأرض نظرا في العواقب أهل سبعة مواضع : طبرستان ، وأرمينية ، وقومس ، وكرمان ، وكوسان ، ومكران ، وشهرزور .



§ ويقال : إنه وفد رجل من عجم خراسان على كسرى ، فقال له : أخبرني من أحسن أهل خراسان لقاء ؟ قال : أهل بخارى . قال : فمن أوسعهم بدلا للخبز والملح ؟ قال : أهل جوزجان . قال : فمن أحسنهم ضيافة ؟ قال : أهل سمرقند . قال : فمن أدقهم نظرا وتقديرا ؟ قال : أهل مرو . قال : فمن أسوأهم طاعة ؟ قال :

(١) في بعض النسخ "أهل" بالمد .

(٢) هذا الاسم يركب من ثلاث كلمات : مهر (أى الشمس ، المحبة ، الشفقة) ؛ جان (أى النفس ، الروح) ؛ قذق (وقد يضم أوله ولعله أسم رجل) . فيكون معناه : محبة أو شمس نفس قذق . وهى كورة حسنة من نواحى بلاد الجبل (عن ياقوت) .

(٣) كذا في الأصل ولم يذكرها ياقوت . وإنما ذكر "السيرجان" ، مدينة بين كرمان وفارس . فلعلها مصحفة عنها .

أهل خُوَارَزْم . قال : فمن أخبثهم طَوِيَّة ؟ قال : أهل مَرُو الروذ، إن رضى بذلك
أهل أَيْبُورْد . قال : فمن أسقطهم عقلا ؟ قال : أهل طُوس ، إن رضى بذلك أهل
نَسَا . قال : فمن أكثرهم شَغَبًا وَجَدَلًا ؟ قال : أهل سَرَخُس ، إن رضى بذلك أهل
قُوهِسْتَان . قال : فمن أضعفهم وأخبثهم ؟ قال : أهل نَيْسَابُور . قال : فمن أقلهم
غيرةً على النساء ؟ قال : أهل هَرَاة . ٥

الباب الثاني

من القسم الخامس من الفن الأول
في خصائص البلاد

ولنبداً من ذلك بمكة ويثرب، وأغرب عما أنقله من فضلهما ولا أغرب ؛
وأصله بذكر البيت المقدس والمسجد الأقصى، ولا أشرت الاستيعاب لأن فضائلها
لا تحصى . ١٠

فأما مكة (شرّفها الله تعالى وعظمها)

ففضائلها مشهورة بيّنة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ
مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ . وقال
الله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ . ١٥

قال بعض المفسرين : "أمننا" من النار . وقيل : كان يأمن من الطلب من أحدث
حدّثنا ولجأ إليه في الجاهلية .

وحكى القاضى عياض فى "كتاب الشفا" أنه حدّث أن قوما أتوا سَعْدُونَ
الْحَوْلَانِىَ بِالْمُنَسْتِيرِ، وأعلموه أن كُتَّامَةً قتلوا رجلا وأضرموا عليه النارَ طَوَلَ الليل ، فلم

تعمل فيه وبقي أبيض البدن، فقال : لعله حج ثلاث حجج ؟ قالوا : نعم . قال : حدثت أن "من حج حجة أدّى فرضه ، ومن حج ثانية دأى ربّه ، ومن حج ثلاث حجج حرّم الله شعره وبشره على النار" .

- ولما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قال : "مرحبا بك من بيت ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ! " . وجاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : "ما من أحد يدعو الله عند الركن الأسود إلا استجاب له" . وكذلك عند الركن .
- وعنه صلى الله عليه وسلم : "من صلى خلف المقام ركعتين ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وحشر يوم القيامة مع الآمين" .

ذكر ما كانت الكعبة عليه فوق الماء

- ١٠ قبل أن يخلق الله السماوات والأرض
- قال أبو الوليد الأزرق بسند يرفعه إلى كعب الأحبار أنه قال : كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السماوات والأرضين بأربعين سنة . ومنها دحييت الأرض .
- وقال يرفعه إلى مجاهد : خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرضين .
- ١٥ وعنه يرفعه إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بعث الله ريحا فصفت الماء فأبرزت عن حشفة في موضع البيت كأنها قبة . فدحا الله عز وجل الأرض من تحتها فمادت ثم مادته . فأوتدها الله تعالى بالجبال ، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس ، فلذلك سميت مكة أم القرى

وعنه يرفعه إلى مجاهد أنه قال : لقد خلق الله عز وجل موضعَ هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى .

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام،

ومبدأ الطواف

٥ قال أبو الوليد الأزرقى، يرفعه إلى علي بن الحسين رضى الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله، فقال له : عمّ تسأل ؟ فقال : أسألك عن بدء الطواف بهذا البيت لم كان؟ وأتى كان ؟ وحيث كان ؟ وكيف كان بالحجر ؟ فقال له : نعم، من أين أنت ؟ فقال : من أهل الشام . فقال : أين مسكنك ؟ قال : فى بيت المقدس . قال : فهل قرأت الكتابين ؟ (يعنى التوراة والإنجيل) . قال له الرجل : نعم . فقال له : يا أخا أهل الشام أحفظ، ولا تروين عني إلا حقا :

أما بدء هذا الطواف بهذا البيت، فإن الله تعالى قال للملائكة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، قالت الملائكة : أى رب، أخليفة من غيرنا : ممن يُفسد فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَيَتَحَاسِدُونَ، وَيَتَبَاغَضُونَ، وَيَتَنَازَعُونَ؟ أى رب، أجعل ذلك الخليفة منا، فنحن لا نُفسد فيها، ولا نُسْفِكُ الدِّمَاءَ، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى؛ ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، وَنُطِيعُكَ وَلَا نَعْصِيكَ . قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . قال : فظننت الملائكة أن ما قالوه رد على ربهم عز وجل وأنه قد غَضِبَ من قولهم ، فلاذوا بالعرش ، ورفعوا رؤوسهم ، وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويكفون إشفاقا لغضبه . فطافوا بالعرش ثلاث ساعات . فنظر الله عز وجل إليهم، فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله سبحانه تحت العرش بيتا على أربع

أساطين من زَبَجَد، وَغَشَّاه بياقوتة حمراء وسمى البيت الضراح . ثم قال للملائكة :
 طُوفُوا بهذا البيت ، ودَعُوا العرش ، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش ، وصار
 أهْوَنَ عليهم ، وهو البيت المعمور الذي ذكره الله عز وجل : يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ وَليلة
 سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يُعْودُونَ فيه أبدا . ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال :
 ابْنُوا لِي بَيْتًا فِي الْأَرْضِ بِمِثَالِهِ وَقَدَرِهِ . فأمر الله سبحانه مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ خَلْقِهِ
 ٥ أن يَطُوفُوا بهذا البيت ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

فقال الرجل : صَدَقْتَ يَا أَبْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هكذا كان ،

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقى ، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما : إن جبريل عليه السلام
 وَقَفَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَيْهِ عِصَابَةٌ حمراء قد علاها الغبارُ ،
 ١٠ فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ما هذا الغبار الذي أرى على عِصَابَتِكَ ، أَيُّهَا الرُّوحُ
 الْأَمِينُ ؟ قال : إِنِّي زَرْتُ الْبَيْتَ فَازْدَحَمَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الرِّكْنِ ، وَهَذَا الْغُبَارُ الَّذِي
 تَرَى مِمَّا تُثِيرُ بِأَجْنَحَتِهَا .

وقال ، يرفعه إلى ليث بن معاذ رضى الله عنه : إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 ١٥ قال : هَذَا الْبَيْتُ خَامِسُ خَمْسَةِ عَشْرَ بَيْتًا ، سَبْعَةٌ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ إِلَى الْعَرْشِ ، وَسَبْعَةٌ
 مِنْهَا إِلَى تَحْوُمِ الْأَرْضِ السُّفْلَى ، وَأَعْلَاهَا الَّذِي يَلِي الْعَرْشَ : الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ . لِكُلِّ بَيْتٍ
 مِنْهَا حَرَمٌ حَرَّمَ هَذَا الْبَيْتَ . لو سَقَطَ مِنْهَا بَيْتٌ ، لَسَقَطَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ إِلَى تَحْوُمِ
 الْأَرْضِ السُّفْلَى ، وَلِكُلِّ بَيْتٍ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَمِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ يَعْمُرُهُ ، كَمَا يُعْمَرُ
 هَذَا الْبَيْتُ .

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وبنائه الكعبة المشرفة وحجه وطوافه بالبيت

قال الأزرقى، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض . وهو مثل الفلك من رعدته . قال: فطأ طأ الله عز وجل منه إلى الأرض ستين ذراعاً، فقال: يا رب ما لي لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن أذهب فابني لي بيتاً تطف به وأذكركني حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويته له الأرض وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر فجعله خطوة، ولم يقع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراً وبرة حتى انتهى إلى مكة . فبنى البيت الحرام . وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أسس ثابت في الأرض السفلى فقذفت الملائكة فيه الصخرة، ما يطبق الصخرة منها ثلاثون رجلاً . وإنه بناه من خمسة أجبل: من أبنان، وطور زيتا، وطور سيناء، والجودي^(١)، حتى استوى على وجه الأرض .

قال ابن عباس رضى الله عنهما: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به، آدم عليه السلام . حتى بعث الله سبحانه الطوفان، فدرس موضع البيت في الطوفان . حتى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعد وأعلامه . ثم بنته قريش بعد ذلك . وهو بجذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سقط إلا عليه .

(١) في النسخ "حبرى" . والتصحيح من حاشية الجبل على الجلالين ، فقد نقل أثر ابن عباس .

- وقال أبو الوليد أيضا، ورفعته إلى وهب بن منبه : إن الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عليه السلام، أمره أن يسير إلى مكة . فطوى له الأرض وقبض له المفاوز، فصارت كل مفازة يمرُّ بها خطوة ، وقبض له ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر بفعله له خطوة . فلم يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عُمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة . وكان قبل ذلك قد آشتد بكأؤه وحزنه لما كان فيه من عظم المصيبة ، حتى إن كانت الملائكة لتَحْزَنَ لحزنه وتَبْكِي لبكائه . فعزَّاه الله عز وجل بخيمة من خيام الجنة ، ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة . وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة : فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تير الجنة ، فيها نور يتلَّه من نور الجنة . ونزل معها الركن ، وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة .
- وكان كُرْسِيًّا لآدم عليه السلام ، يجلس عليه . فلما صار آدم بمكة ، حرسها الله تعالى ، ١٠ حرسه الله تعالى وحرس تلك الخيمة بالملائكة . كانوا يحرسونها ويُدوِّدون عنها ساكن الأرض ، وساكنوها يومئذ الجن والشياطين ، فلا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة ، لأنه مَنْ نظر إلى شيء من الجنة وجبت له . والأرض يومئذ طاهرة نقيّة لم تَجْسُ ولم يُسْفَك فيها الدم ، ولم تُعْمَل فيها الخطايا . فلذلك جعلها الله عز وجل مسكن الملائكة ، وجعلهم فيها كما كانوا في السماء يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، لَا يَفْتُرُونَ . وكان ١٥ وقوفهم على أعلام الحرم صفاً واحداً مستديرين بالحرم كله : الحِلُّ من خلفهم ، والحرم كله من أمامهم . ولا يجوزهم جنٌّ ولا شيطان . ومن أجل مُقام الملائكة ، حُرِّم الحرم حتى اليوم . ووضعت أعلام حيث كان مقام الملائكة . وحرم الله على حواء دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التي أخطأت في الجنة . فلم تنظر إلى شيء من ذلك حتى قبضت . وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليُليِّمَ بها ٢٠

للولد، خرج من الحرم كله حتى يلقاها . فلم تزل خيمة آدم مكانها حتى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها الله . وبني بنو آدم بها من بعدها مكانا : بيتا بالطين والحجارة . فلم يزل معمورا، يَعْمُرُونَهُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى كَانَ زَمَنُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام . فَتَسَفَّهُ الْغَرَقُ وَخَفِيَ مَكَانُهُ . فلما بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام طلب الأساس، فلما وصل إليه ظلل الله مكان البيت بغمامة . فكانت حِفاف البيت الأول، ثم لم تزل راكزة على حِفافه تُظِل إبراهيم عليه السلام وتهديه مكان القواعد حتى رفع الله القواعد قائمة . ثم آنكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أى الغمامة التى ركزت على الحِفاف لتهديه مكان القواعد .

وعن وهب بن منبه أنه قال : قرأت في كتاب من الكتب الأول، ذكر فيه أمر الكعبة، فوجدت فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت . فينقُض من عند العرش مُحْرِمًا مَلْبِيًّا، حتى يستلم الحجر . ثم يطوف بالبيت سبعا ويركع في جوفه ركعتين، ثم يصعد .

وقال الأزرقى، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلى موضع البيت الحرام . وهو مثل القلک من رعدته . ثم أنزل عليه الحجر الأسود يعنى الركن، وهو يتلأأ من شدة بياضه . فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمه إليه أنسا به . ثم أنزلت عليه العصا فقبل له : تَخَطَّ يا آدم، فتخطى، فإذا هو بأرض الهند والسند . فكث هنالك ما شاء الله، ثم أستوحش إلى الركن فقبل له : آحْجِجْ، قال فحج فلقيته الملائكة فقالوا : بَرَّ حُجَّك يا آدم، لقد حججنا هذا البيت قبلك بالقرى عام .

قال : وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كعب الأحبار فقال : اخبرنى عن البيت الحرام . فقال كعب : أنزله الله من السماء يا قوتةً مجوفةً مع آدم ، فقال له : يا آدم إن هذا بيتى أنزلته معك ، يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى . ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه . فكان آدم يطوف حوله كما يطاف حول العرش ، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش . فلما أغرق الله تعالى قوم نوح ، رفعه إلى السماء وبقيت قواعده .

وقال وهب بن منبه : كان البيت الذى بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ من يا قوت الجنة . وكان من يا قوتة حمراء تلتهب ، لها بابان : أحدهما شرقى والآخر غربى . وكان فيه قناديل من نور آتيتها ذهب من تبر الجنة . وهو منظوم بنجوم من يا قوت أبيض . والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ يا قوتة بيضاء .
والله أعلم .

ذكر فضل البيت الحرام ، والحرم

قال أبو الوليد ، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال : إن آدم لما أُهبط إلى الأرض استوحش فيها راءى من سعتها ولم يرفها أحدا غيره ، فقال : يارب ، أما لأرضك هذه من عامر يسبحك فيها ويقدس لك غيرى ؟ قال : إني سأجعل فيها من ذريتك من يسبح بحمدي ويقدس لى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفع لذكرى ويسبحنى فيها خلق ، وسأبوءك فيها بيتا أختاره لنفسى ، وأخصه بكرامتى ، وأؤثره على بيوت الأرض كلها بأسمى ، فأسميه بيتى ، وأنطعه ^(١) بعظمى ، وأحوزه بحرماتى ، وأجعله أحق بيوت الأرض

(١) أنطعه : بسط له النطع بالكسر ، بساط من أديم (تفسيرها مش الأصل) . وفى بعض النسخ " وأنطفه "

- ١٠٧ كلها وأولاهها بذكري، وأضعه في البقعة التي اخترت لنفسي، فإني اخترت مكانه يوم خلقت السماوات والأرض؛ وقبل ذلك قد كان بعيني: فهو صفوتي من البيوت، ولست أسكنه، وليس ينبغي لي أن أسكن البيوت؛ ولا ينبغي لها أن تسعني، ولكن على كرسى الكبرياء والجبروت؛ وهو الذي استقل بعزتي، وعليه وضعت عظمي وجلالي، وهنالك استقر قراري؛ ثم هو بعد ضعيف عني لولا قوتي؛ ثم أنا بعد ذلك ملء كل شيء، وفوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، وأمام كل شيء، وخلف كل شيء، وليس ينبغي لشيء أن يعلم علمي ولا يقدر قدرتي، ولا يبلغ كنهه شأني. أجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حرماً وأمناً، أحرم بحرماً ما فوقه وما تحته وما حوله. فمن حرمة بحرمتي فقد عظم حرماتي، ومن أحله فقد أباح حرماتي، ومن آمن أهله فقد استوجب بذلك أمانى، ومن أخافهم أخفرتني في ذمتي، ومن عظم شأنه عظم في عيني، ومن تهاون به صغر في عيني؛ ولكل ملك حيازة ما حواله مما حواله، وبطن مكة خيرتي وحيازتي؛ وجيران بيتي وعمارها وزقارها، وفدى وأضيافي في كنفتي وأفيتي، ضامنون على ذمتي وجواري؛ فأجعله أول بيت وضع للناس، وأعمره بأهل السماء وأهل الأرض: يأتونه أفواجا شعناً غبراً على كل ضامر يأتين من كل فج عميق، يعرجون بالتكبير تحيياً، ويرجون بالتلبية رجيحاً، وينتحبون بالبكاء تحيياً. فمن أعتمره لا يريد غيره، فقد زارني ووفد إلى ونزل بي؛ ومن نزل بي، فحقيق على أن أتحفه بكرامتي؛ وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، وأن يسعف كل واحد منهم بحاجته. تعمره يا آدم ما كنت حياً، ثم تعمره من بعدك الأمم والقرون والأنبياء: أمة بعد أمة، وقرن بعد قرن، ونبي بعد نبي، حتى ينتهي ذلك إلى نبي من ولدك وهو خاتم النبيين، فأجعله من عماره وسكانه وحماته، وولاته وسقاته. يكون أمني عليه ما كان حياً. فإذا أنقلب إلى،

- وجدنى قد ذَحَرْتُ له من أجره وفضيلته ما يتمكن به القربة منى والوسيلة إلى ،
وأفضل المنازل فى دار المقام . وأجعل اسمَ ذلك البيت ذِكْرَه وشرفَه ومجده وثناءه
ومَكْرُمته لنبيٍّ من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم ، أرفع له
قواعده ، وأقضى على يديه عمارته ، وأُنْبِطْ له سِقَايَتَه ، وأُريه حِلَّه وحرَمه ومواقفه ،
وأعلمه مشاعره ومناسكه ، وأجعلهُ أُمَّةً واحدةً قانتاً لى ، قائماً بأمرى ، داعياً إلى سبيلى ؛
أَجْنِبِيه وأهْدِيه إلى صراط مستقيم ؛ أبتليه فيصبر ، وأعافيه فيشكر ؛ وينذر لى فينفي ؛
ويعدنى فيُنْجِزْ ؛ أستجيب له فى ولده وذريته من بعده وأشفّعه فيهم ، وأجعلهم أهل
ذلك البيت وولّاته وحُمّاته وسُقّاته وخُدّامه وخُرّانَه وحُجّابَه حتى يتدعوا ويغيروا ؛
فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين على أن أستبدل مَنْ أشاء بمن أشاء . أجعل
إبراهيم إمام أهل ذلك البيت وأهل تلك الشريعة ، يأتّم به مَنْ حضر تلك المواطن
من جميع الإنس والجن ؛ يطؤون فيها آثاره ، ويتبعون فيها سنّته ، ويقتدون فيها بهديّه .
فمن فعل ذلك منهم أوفى نذره ، وأستكمل نُسْكَه ؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيّع نسكه ،
وأخطأ بُغْيَتَه . فمن سأل عنى يومئذ فى تلك المواطن : أين أنا ؟ فأنا مع الشُعْبِ الغُبرِ
المُوفين بنذورهم ، المستكملين مناسكهم ، المبتهلين إلى ربهم الذى يعلم ما يبدون
وما يكتُمون . وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذى قصصت عليك شأنه ؛ يا آدم ،
بِزائدى فى ملكى ولا عَظَمَتى ولا سلطانى ولا شىءٍ مما عندى إلا كما زادت قطرة من
رَشّاش وقعت فى سبعة أبحر تملؤها من بعدها سبعة أبحر لا تحصى ، بل القطرة أزيد
فى البحر من هذا الأمر فى شىء مما عندى . ولولم أخلّقه لم ينتقص شىء من مُلكى
ولا عَظَمَتى ولا مما عندى من الغناء والسّعة ، إلا كما نقصت الأرض ذرّة وقعت من
جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها ، بل الذرّة أنقص للأرض من هذا
الأمر لو لم أخلّقه . ليس مما عندى ويعتد هذا مثلاً للعزير الحكيم .

ذَكَرَ مَا جَاءَ فِي طَوَافِ سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَيْتِ

قال أبو الوليد الأزرقي، ورفعته إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلهم ، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوماً ، وإن الله جل ثناؤه وجَّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه . ٥

وقال عن مجاهد : كان موضع الكعبة قد خفي ودرس زمن الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام . فكان موضعه أكمة حمراء مدورة ، لا تعلوها السيول . غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه . وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض ، ويدعو عنده المكروب . فقلَّ من دعا هنالك ، إلا استجيب له . وكان الناس يحجُّون إلى مكة ، إلى موضع البيت ، حتى بَوَّأَ الله تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام . فلم يزل منذ أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظمًا محترماً تتناخذه الأمم والملل أمةً بعد أمة ، وملةً بعد ملة . قال : وكانت الملائكة تحجُّه قبل آدم عليه السلام . ١٠

ذَكَرَ مَا جَاءَ مِنْ تَخْيِيرِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْضِعَ الْبَيْتِ

قال عثمان بن ساج : بلغنا (والله أعلم) أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عُجِرَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَنَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ ، مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا ، فَأَخْتَارَ مَوْضِعَ الْكَعْبَةِ . فَمَنَّا لَهَا الْمَلَائِكَةُ : يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ أَخْتَرْتَ حَرَمَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، قَالَ : فَبَنَاهُ مِنْ حِجَارٍ سَبْعَةَ أَجْبُلٍ (وَيَقُولُونَ خَمْسَةً) . وَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَأْتِي بِالْحِجَارَةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ . ١٥

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج

وحج الأنبياء بعده وطوافهم

- قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام ، جاءه جبريل عليه السلام فقال : طُفْ به سبعا ، فطاف به سبعا ، هو وإسماعيل . يستلمان الأركان كلها في كل طواف ، فلما أكمل سبعا ، صليا خلف المقام ركعتين .
- قال : فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها : الصفا والمنروة ومِنَى ومزدلفة وعرفة . فلما دخل مِنَى وهبط من العقبة ، مُثِّلَ له إبليس عند جَمرة العقبة ، فقال له جبريل : أرمه ، فرماه بسبع حصيات . فغاب عنه ؛ ثم برز له عند الجمرة الوسطى ، فقال له جبريل : أرمه ، فرماه إبراهيم بسبع حصيات ، فغاب عنه ؛ ثم برز له عند الجمرة السفلى ، فقال له جبريل : أرمه ، فرماه بسبع حصيات مثل حصي الخذف ، فغاب عنه إبليس ؛ ثم مضى إبراهيم في حجه وجبريل يوقفه على المواقع ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفة . فلما انتهى إليها ، قال له جبريل : أَعَرَفْتَ مناسِكَكَ ؟ قال : نعم ، قال : فسميت عرفات بذلك . قال : ثم أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذّن في الناس بالحج ، فقال إبراهيم : يارب وما يبلغ صوتي ؟ قال الله جل ثناؤه : أذّن ، وعلى البلاغ ، قال : فعلا إبراهيم على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها فجمعت له الأرض يومئذ : سهلها ، وجبلها ، وبرها ، وبحرها ، وإنسها ، وجنّها حتى أسمعهم جميعا ، فأدخل إصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال : ”أيها الناس كُتِبَ عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فأجيئوا ربكم“ فأجابوه من تحت التخوم السبعة ، ومن بين المشرق والمغرب إلى متقطع التراب من أقطار الأرض كلها :

(لَبَّيْكَ، اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ) . قال : وكانت الحجارة على ما هي اليوم، إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية . فكان أثر قدميه في المقام آية إلى اليوم . قال : أفلا تراه اليوم يقولون : (لبيك، اللهم لبيك) . فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم . وأثر قدمي إبراهيم في المقام آية . وذلك قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۖ ﴾ .

قال ابن إسحاق : وبلغني أن آدم عليه السلام كان آستلم الأركان كلها قبل إبراهيم، وحجّه إسحاق وسارة من الشام . قال : وكان إبراهيم يحجّه كل سنة على البراق . قال : وحجّت بعد ذلك الأنبياء والأئم.

وعن مجاهد، قال : حج إبراهيم وإسماعيل، ماشيين .

١٠ وعن عبد الله بن ضمرة السلولي : ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا، جاءوا حجاجا فقبروا هنالك .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان النبي من الأنبياء إذا هلك أمتة لحق بمكة فتعبد بها النبي ومن معه حتى يموت . فمات بها : نوح، وهود، وصالح، وشعيب . وقبورهم بين زمزم والمجمر .

١٥ وعن مجاهد : حج موسى النبي عليه السلام على جمل أحمر . فتر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان متزربا أحدهما، مرتد بالأخرى . فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة . فبينما هو يلي بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتا من السماء يقول : (لبيك عبي، أنا معك) قال : نفخ موسى ساجدا .

وعن عَمْرُو بن الزبير رضى الله عنهما قال : بلغنى أن البيتَ وُضع لآدم يطوفُ به ويعبد الله عنده ؛ وأنَّ نوحا قد حَجَّه وجاءه وعظمه قبل الغرق . فلما أصاب البيت ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوةً حمراء معروفا مكانه ؛ فبعث الله هودا إلى عاد ، فتشاغل بأمر قومه حتى هلك ، ولم يحجَّه . ثم بعث الله تعالى صالحا إلى ثمود ، فتشاغل بهم حتى هلك ، ولم يحجَّه . ثم يؤاه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام حجَّه وأعلم مناسكه ودعا إلى زيارته . ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم ، إلا حجه .

وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لقد سَلَكَ فَجَّ الرِّوْحاء سبعون نبيا ، مُجَاجًا ؛ عليهم لباسُ الصُّوف ، مَخْطَمِي إِبْراهم بحبال اللَّيف . ولقد صُلِّي في مسجد الخَيْف سبعون نبيا .

١٠ وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”لقد مرَّ بَنَجُّ الرِّوْحاء (أو لقد مرَّ بهذا الفَجِّ) سبعون نبيا على نُوقٍ حُمْرٍ خُطْمُها اللَّيفُ ، لَبُوءُهُمُ العباء وتلبيتهم شَتَّى . فمنهم يونس بن متى . فكان يونس يقول : (لَبَّيْكَ فَرَجَ الكُرْب ، لَبَّيْكَ) ؛ وكان موسى يقول : (لَبَّيْكَ ، أنا عبدُكَ لَدَيْكَ ، لَبَّيْكَ) قال : وتلبية عيسى : (لَبَّيْكَ ، أنا عبدُكَ ابن أُمِّتِكَ بنتِ عبدِكَ ، لَبَّيْكَ)“ .

١٥ وعن عطاء بن السائب أن إبراهيم رأى رجلا يطوف بالبيت فأنكره ، فسأله : من أنت ؟ فقال : من أصحاب ذى القرنين ، قال : وأين هو ؟ قال : هو بالأبطح . فتلقاه إبراهيم عليه السلام فأعتنقه ، فقال لذي القرنين : ألا تركب ؟ قال : ما كنت لأركب ، وهذا يمشى ، فحجَّ ماشيا .

ذكر ما جاء من مسئلة إبراهيم عليه السلام الأمن والرزق لأهل مكة

والكتب التي وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقى، يرفعه إلى محمد بن كعب القرظى أنه قال : دعا إبراهيم عليه السلام للمؤمنين، وترك الكفار لم يدع لهم بشيء، فقال الله تعالى : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسِ الْمَصِيرُ﴾ . ٥

وقال عثمان بن ساج : وأخبرني محمد بن السائب الكلبي قال : قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ يَاللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ . فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلدا آمنا وآمن فيه الخائف ورزق أهله من الثمرات، تُحمل إليهم من الآفاق .

وقال مجاهد : جعل الله هذا البلد آمنا، لا يخاف فيه من دخله . ١٠

وقال سعيد بن السائب بن يسار: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرض الطائف من الشام فوضعها هنالك : رزقا للحرم .

وروى عن محمد بن المنكدر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما وضع الله الحرم نقل له الطائف من الشام .

وعن الزهري أن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله : ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ . ١٥

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبا، ووجد امرأته الآخرة، وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجهمي . فوقف وسلم فردت عليه السلام وأستنزله وعرضت عليه الطعام والشراب ،

فقال : ما طعامكم وشرابكم ؟ قالت : اللحم والماء ، قال : هل من حبٍّ أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم في اللحم والماء .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لو وجدَ عندها يومئذ حَبًّا لدعا لهم بالبركة فيه ، فكانت تكون أرضا ذات زرع “ .

وعن سعيد بن جبيرة مثله ، وزاد فيه : ” ولا يخلو أحدٌ على اللحم والماء في غير مكة إلا وجع بطنه ، وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى “ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ” وُجِدَ في المقام كتابٌ فيه ” هذا بيتُ الله الحرامُ بمكة ، توكلَّ الله برزق أهله من ثلاث سُبُل ، مباركٌ لأهله في اللحم واللبن “ .

ووجد في حجر في الحجر كتابٌ من خِلقة الحجر ” أنا الله ذوبكة الحرام صُغْتُها يوم صُغْتُ الشمس والقمر وحَفَقْتُها بسبعة أملاك حَفَاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في اللحم والماء “ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما هدموا البيت وبلغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا في حجر من الأساس كتاباً ، فدَعَوْا له رجلاً من أهل اليمن ، وآخر من الرُّهبان ، فإذا فيه : ” أنا الله ذوبكة حرَّمتها يوم خلقت السموات والأرض والشمس والقمر ويوم صُغْتُ هذين الجبلين وحَفَقْتُها بسبعة أملاك حَفَاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها في الماء واللبن “ .

وعن مجاهد رضي الله عنه قال : وجد في بعض الزبور ” أنا الله ذوبكة جعلتها بين هذين الجبلين وصغتها يوم صغت الشمس والقمر وحَفَقْتُها بسبعة أملاك حَفَاء

وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبل^(١) فليس يوتا أهل مكة إلا من ثلاثة طرق
أعلى الوادى وأسفله وكُدّي وباركت لأهلها في اللحم والماء“ .

ذكر أسماء الكعبة ومكة

- عن ابن أبي نجيح قال : إنما سُمّيت ”الكعبة“ لأنها مُكَّبة على خِلقة الكعب .
 ٥ قال : وكان الناس يبنون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة . فأقول من بنى بيتا مربعا
 حميد بن زهير، فقالت قريش : ”رَبَّعَ حميدُ بنُ زهير بيتنا، إِمّا حياة وإمّا موتا“ .
 وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : إنما سُمّيت ”بكة“ لأنه يجتمع فيها
 الرجال والنساء جميعا . وقالوا : ”بَكَّةُ“ موضع البيت ، ومكَّة القرية .
 وقال ابن أبي أنيسة : ”بَكَّةُ“ موضع البيت ، ومكة هو الحرم كله .
 ١٠ وكان ابن جريح يقول : إنما سميت ”بكة“ لتبالك الناس بأقدامهم قدام الكعبة .
 ويقال : إنما سميت ”بكة“ لأنها تُبْكُ أعناق الجبابة .
 وعن الزهرى : أنه بلغه إنما سُمّي ”البيت العتيق“ من أن الله تعالى أعتقه
 من الجبابة .
 وعن مجاهد والسدى : إنما سُمّي ”البيت العتيق“ الكعبة ، أعتقها الله من
 ١٥ الجبابة ، فلا يتجبرون فيه إذا طافوا . وكان البيت يدعى ”قادسا“ ويدعى ”بادرا“
 ويدعى ”القرية القديمة“ ويدعى ”البيت العتيق“ .
 وعن مجاهد قال : من أسمائها ”مكة“ و”بَكَّةُ“ و”أُمُّ رُحْم“ و”أُمُّ الْقُرَى“
 و”صَلَّاح“ و”كُوْثَى“ و”الباسة“ .

(١) في الأصل ”بيوت“ . وفي بعض النسخ كما في الصلب بدون نقط . ولعل الصواب يؤتى .

وعن أبي نجيح قال : بلغني أن أسماء مكة "مكة" ، و "بكة" ، و "أم رُحْم" ، و "أم القرى" : و "الباسة" ، و "البيت العتيق" ، و "الحاطمة" : (تَحِطُّم من يستخف بها) ، و "الناسة" (تَنُصِّم ، أى تخرجهم إخراجا إذا غَشِمُوا وظلموا) .

ذكر ما جاء فى فضل الركن الأسود

٥

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس فى الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرا تان من جواهر الجنة ؛ ولولا ما مسَّهما من أهل الشرك ما مسَّهما ذو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال فى الركن الأسود :
لولا ما مسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم ، ما مسَّه ذو عاهة إلا برأ . وقال : نزل
الركن ، وإنه لأشدّ بياضا من الفضة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها ، وهى تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن : "لولا ما طبع على هذا الحجر ، يا عائشة ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها ، إذن لاستشفى به من كل عاهة ، وإذن لألقى كهيئته يوم أنزله الله ، وليعيدنه الله إلى ما خلقه أول مرة ، وإنه لياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، ولكن الله غيره بمعصية العاصين ، وستر زينته عن الظلمة والأثمة لأنهم لا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شىء كان بدؤه من الجنة" .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الله يبعث الركن الأسود ، وله عينان يُبصر بهما ، ولسان ينطق به : يشهد لمن استلمه بحق" .

١٥

وعنه رضى الله عنه : الركن يمين الله في الأرض : يضافُ بها عباده كما يضافُ
أحدُكم أخاه .

وعن أبي سعيد الخدريّ رضى الله عنه قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله
عنه إلى مكة . فلما دخلنا الطواف ، قام عند الحجر وقال : والله إني لأعلم أنك حجر
لا تضرُّ ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلُك ، ما قبلتك . ثم قبله
ومضى في الطواف فقال له على رضى الله عنه : بل يا أمير المؤمنين هو يضرُّ وينفع ،
قال : وبم قلت ذلك ؟ قال : بكاتب الله ، قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال :
قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ . فلما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره
وأخرج ذريته من صلبه فقرّرهم أنه الربُّ وهم العبيد ، ثم كتب ميثاقهم في رقٍّ ، وكان
هذا الحجر له عينان ولسانٌ ، فقال له : آفتح فاك ، فألقمه ذلك الرقَّ وجعله في هذا
الموضع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة ، فقال عمر : أعوذ بالله أن
أعيش في قوم لست فيهم ، يا أبا الحسن .

وعن عكرمة : أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن لم يدرك بيعة رسول الله
صلى الله عليه وسلم فمسح الركن فقد بايع الله ورسوله .

وعن مجاهد : يأتي الركن والمقام يوم القيامة ، كلُّ واحد منهما مثلُ أبي قبيس :
يشهدان لمن وافاهما بالموافاة .
والله أعلم .

ذكر ما جاء في فضل أستلام الركن الأسود ، واليماني

عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لأبن عمر رضي الله عنهما : إني أراك تُزاحم على هذين الركنين ، فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 ” إِنَّ أَسْتِلَامَهُمَا يُحُطُّ بِالْخَطَايَا حَطًّا “.

- وَسُئِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنْ نَزَّكَ تَفْعَلُ خِصَالًا أَرْبَعًا لَا يَفْعَلُهَا النَّاسُ :
- ٥ نَزَّكَ لَا تَسْتَلِمُ مِنَ الْأَرْكَانِ إِلَّا الْجَمْرَ وَالرَّكْنَ الْيَمَانِيَّ ، وَنَزَّكَ لَا تَلْبَسُ مِنَ النَّعَالِ إِلَّا السَّبْتِيَّةَ ، وَنَزَّكَ تَضْفَرُ شَعْرَكَ وَقَدْ يَصْبُغُ النَّاسُ بِالْحَنَاءِ ، وَنَزَّكَ لَا تُحْرِمُ حَتَّى تَسْتَوِيَ بِكَ رَا حِلَّتِكَ وَتَوَجَّهَ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : إِنْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ ذَلِكَ .

- ١٠ وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَدْعُ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ وَالرَّكْنَ الْيَمَانِيَّ أَنْ يَسْتَلِمَهُمَا فِي كُلِّ طَوَافٍ أَتَى عَلَيْهِمَا . قَالَ : كَانَ لَا يَدْعُهُمَا فِي كُلِّ طَوَافٍ طَافَ بِهِمَا حَتَّى يَسْتَلِمَهُمَا ، لَقَدْ زَا حَمَّ عَلَى الرُّكْنِ مَرَّةً فِي شِدَّةِ الزَّحَامِ حَتَّى رُعِفَ ، فَخَرَجَ فغَسَلَ عَنْهُ ثُمَّ رَجَعَ . فَعَادَ يَزَا حَمَّ فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ حَتَّى رُعِفَ الثَّانِيَةَ ، فَخَرَجَ فغَسَلَ عَنْهُ ثُمَّ رَجَعَ . فَمَا تَرَكَهُ حَتَّى آسَتَلِمَ .

- ١٥ وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، زَا حَمَّ عَلَى الرُّكْنِ الْيَمَانِيَّ حَتَّى انْبَهَرَ فَتَنَحَّى بِفِلْسٍ فِي نَاحِيَةِ الطَّوَافِ حَتَّى آسَتَرَا حَ ، ثُمَّ عَادَ فَلَمْ يَدْعُهُ حَتَّى آسَتَلِمَهُ . قَالُوا : وَلَيْسَ هَذَا وَاجِبًا عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحِبُّ أَنْ يَصْنَعَ كَمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ”مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ حَسَنَةً وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَةً“ .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إِذَا خَرَجَ الْمَرْءُ يُرِيدُ الطَّوْفَ بِالْبَيْتِ ، أَقْبَلَ يُرِيدُ الرَّحْمَةَ . فَإِذَا دَخَلَهُ غَمْرَتُهُ . ثُمَّ لَا يَرْفَعُ قَدَمًا وَلَا يَضَعُ قَدَمًا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ قَدَمٍ خَمْسِمِائَةَ حَسَنَةٍ ، وَحَطَّ عَنْهُ خَمْسِمِائَةَ سَيِّئَةٍ (أَوْ قَالَ خَطِيئَةٍ) ، وَرُفِعَتْ لَهُ خَمْسِمِائَةُ دَرَجَةٍ . فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ دُبْرَ الْمَقَامِ ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ، وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ عِتْقِ عَشْرِ رِقَابٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاسْتَقْبَلَهُ مَلَكٌ عَلَى الرُّكْنِ فَقَالَ لَهُ : أَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ فِيمَا بَقِيَ فَقَدْ كُفِّيتَ مَا مَضَى ، وَشُقِّعَ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ“ . ٥ ١٠

وعن حسان بن عطية : أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُنَزِّلُهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَسْتَوْنُ مِنْهَا لِلطَّائِفِينَ ، وَأَرْبَعُونَ لِلصَّائِلِينَ ، وَعَشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ حَسَانٌ : فَنَظَرْنَا فَإِذَا هِيَ كُلُّهَا لِلطَّائِفِينَ هُوَ يَطُوفُ وَيَصِلُ وَيَنْظُرُ .

ذكر ما جاء في فضل زمزم

عن وهب بن منبه أنه قال في زمزم : والذي نفسى بيده ، إنها لفي كتاب الله مَضْنُونَةٌ ، وإِنِهَا لفي كتاب الله بَرَّةٌ ، وإِنِهَا لفي كتاب الله شَرَابُ الْأَبْرَارِ ، وإِنِهَا لفي كتاب الله طَعَامٌ طَعْمٌ وَشِفَاءٌ سُقْمٌ . ١٥

وعن ابن خثيم قال : قَدِمَ عَلَيْنَا وَهَبُ بْنُ مَنْبِهِ مَكَّةَ فَأَشْتَكَيْ ، بِخِثْنَاهُ نَعُودَهُ ، فَإِذَا عِنْدَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ . قَالَ : فَقُلْنَا لَهُ : لَوْ اسْتَعَذَّبْتَ ، فَإِنْ هَذَا مَاءٌ فِيهِ غَلْظٌ ؟ قَالَ : مَا أُرِيدُ

أن أشرب حتى أخرج منها غيره، والذي نفس وهب بيده، إنها لفي كتاب الله زمزم لا تُنَزَف ولا تُدَم، وإنها لفي كتاب الله برة شراب الأبرار، وإنها لفي كتاب الله مَضْنونة، وإنها لفي كتاب الله طعام من طعم وشفاء من سُقم، والذي نفس وهب بيده لا يعمد أحد إليها فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعت منه داء أو أحدثت له شفاء.

و عن كعب أنه قال لزمنم : إنا نجدها مضمونة ضن بها لكم، وإن أول من سقى ماءً إسماعيل عليه السلام، طعام من طعم، وشفاء من سُقم.

و عن مجاهد قال : ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تريد به شفاء شفاك الله، وإن شربته لظم أرواك الله، وإن شربته لجوع أشبعك الله، وهي هزمنة جبريل عليه السلام بعقبه.

و عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
”التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق“.

و عن الضحاك بن مزاحم أنه قال : بلغني أن التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق، وأن ماءها يذهب بالصداع، وأن التطلع فيها يحلو البصر، وأنه سيأتي عليها زمان تكون أعذب من النيل والفرات . قال : قال لنا الخزاعي : وقد رأينا ذلك في سنة إحدى أو اثنتين وثمانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكة أمطار كثيرة وسال وادياها في سنة تسع وسبعين، وسنة ثمانين ومائتين، فكثر ماء زمزم وارتفع حتى قارب رأسها، فلم يكن بينه وبين شفيتها العليا إلا سبع أذرع أونحوها. وعذبت حتى كان ماؤها أعذب مياه مكة التي يشربها أهلها . وإنا رأيناها أعذب من مياه العيون .

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العذاب قبل يوم القيامة غير زمزم، وتغور المياه العذبة غير زمزم .

ذكر ما جاء من آتساع منى أيام الحج ولم سميت منى

§ عن أبي الطفيل، قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يُسأل عن منى ، ويقال له : عجبا لضيقة في غير أيام الحج ! فقال ابن عباس : إن منى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد .

§ وعن ابن عباس ، قال : إنما سميت منى منى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له . تمنّ ، قال : أتمنى الجنة ، فسميت منى لتمنى آدم .
وقيل : إنما سميت منى لِمَنى^(١) الدماء بها .

ذكر ما جاء في فضائل مقبرة مكة

§ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ” نِعَمَ المقبرةُ هذه ! “ (لمقبرة أهل مكة) .
وعن محمد بن عبد الله بن صيفي أنه قال : من قُبر في هذه المقبرة ، بُعث آمنا يوم القيامة (يعنى مقبرة مكة) .

ذكر شيء من خصائص مكة

§ من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي ويعارضه ويصيده . فإذا دخل الحرم، كَفَّ عنه .

(١) المنى هو إراقة الدماء .

§ ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلاً ؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلوها . والله أعلم .

وأما المدينة المشرفة

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

- § ففضائلها أوسع من أن أحصرها ، وأعظم من أن أسبرها . ناهيك بها من بلد آخثاره
الله تعالى لرسوله ، ونص على فضله في محكم تنزيله ، قال الله عز وجل : ﴿ الْمَسْجِدُ
أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ .

- § وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أى مسجد هو ؟ فقال : مسجدى
هذا ، وهو قول ابن المسيب وزيد بن ثابت وابن عمر رضى الله تعالى عنهم ، وبه
أخذ مالك رحمه الله . وقال ابن عباس : هو مسجد قباء .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
” صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام “ .

- قال القاضي عياض رحمه الله : إختلف الناس فى معنى هذا الاستثناء على
اختلافهم فى المفاضلة بين مكة والمدينة . فذهب مالك أن الصلاة فى مسجد الرسول
صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد
الحرام ، فإن الصلاة فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فيه بدون
الألف . واحتج مالك وأشهب وابن نافع وجماعة أصحابه بما روى عن عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ” صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه “ فتأتى

فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلى غيره بألف . وهذا مبنى على تفضيل المدينة على مكة ، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين .

§ وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة . وهو قول عطاء وآبن وهب وآبن حبيب ، من أصحاب مالك . وحكاها الباجي عن الشافعي .

٥ § قال القاضي أبو الوليد الباجي : الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد ، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة .

§ قال القاضي عياض : ولا خلاف أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض .

١٠ § وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ” . قالوا : هذا يحتمل معنيين ، (أحدهما) . أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل : ” الجنة تحت ظلال السيوف ” . (والثاني) أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها . قاله الداودي .

١٥ § وروى آبن عمر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المدينة : ” لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد ، إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة ” .

§ وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تمحل عن المدينة : ” والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ” . وقال : ” إنما المدينة كالكير : تنهى خبثها وتنصع طيبها ” . § وقال : ” لا يخرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه ” .

§ وعنه صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ وَلَا عَذَابَ". وفي طريق آخر: "بُعِثَ مِنَ الْآمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

§ وعن ابن عمر رضي الله عنهما: "مَنْ آسَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ، فَلْيُمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا".

§ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طَلَعَ لَهُ أُحُدٌ فَقَالَ: "هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ. اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَأَنَا أَحَرَّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا".

§ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَأَنْتَ خَمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدَّنَا". ودعا النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَكِّيَّالِهِمْ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدَّنِهِمْ".

§ وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زَارَ قَبْرِي، وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ زَارَنِي فِي الْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا، كَانَ فِي جَوَارِي وَكَنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

§ وكان مالك رحمه الله لَا يَرْكَبُ فِي الْمَدِينَةِ دَابَّةً، وَيَقُولُ: أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَطَأَ تُرْبَةً فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَافِرِ دَابَّةٍ.

وروى أَنَّهُ وَهَبَ لِلشَّافِعِيِّ كُرَاعًا كَثِيرًا، فَقَالَ لَهُ الشَّافِعِيُّ: أَمْسِكْ مِنْهَا دَابَّةً. فَأَجَابَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ.

§ وحدثني القاضي عياض في "كتاب الشفاء" قَالَ: حَدَّثَ أَنَّ أَبَا الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيَّ

لَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ زَائِرًا وَقُرْبَ مِنْهَا، تَرَجَّلَ وَمَشَى بِأَيْكَا مَنْشِدًا:

وَلَمَّا رَأَيْنَا رَسَمَ مَنْ لَمْ يَدْعَ لَنَا * فُقَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبًّا،
نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمَشِي، كَرَامَةً * لَمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلَمَّ بِهِ رَجَاءُ.

قال : وحكى بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشأ يقول متمثلاً :

رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَا حَ لَنَاظِرٍ * قَرَّرَ تَقَطُّعُ دُونِهِ الْأَوْهَامُ.
وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلْعَنَ مَهْدًا، * فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامُ.
قَرَّبْنَا مَنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى، * فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ.

§ وأفتى مالك رحمه الله فيمن قال ”تربة المدينة رديّة“ بضرب ثلاثين درّة ، وأمر بحبسه ؛ وكان له قدر . وقال : ”ما أحوجه إلى ضرب عنقه ، تربة دفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، يزعم أنها غير طيبة !“ . ١٠

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في المدينة : ”من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً“ .

ذكر شيء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

١٥

§ من خصائصها ، أن العطر والبخور يوجد لهما فيها من الضّوع والرائحة الطيبة أضعاف ما يوجد في سائر البلاد ؛ ولها في قصبتها فغمة طيبة ورائحة عطرة ، وإن لم يكن فيها شيء من الطيب ألبتة . ولهذا سميت ”طيبة“ و”طابة“ .

قال الشاعر :

ماذا على من شَمَّ تربةَ أحمدٍ * أن لا يشمَّ مدى الزمان غواليًا؟

وهذا البيت ينسب لفاطمة الزهراء رضى الله عنها .

§ ومن أسمائها "طيبة"، "وطابة"، "يثرَب"، "المدينة"، و"الدار"، .

- § قال القاضي عياض رحمه الله : وَجَدِيرٌ بِمَوَاطِنَ عَمَرَتْ بِالوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَتَرَدَّدَ
بِهَا جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ؛ وَعَرَجَتْ مِنْهَا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ ، وَصَحَّتْ عَرَصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ
وَالْتَسْبِيحِ ؛ وَأَشْتَمَلَتْ تَرْبَتُهَا عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَأَنْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَسُنَّةُ
رَسُولِهِ مَا أَنْتَشَرَ ؛ مَدَارِسُ آيَاتٍ ، وَمَسَاجِدُ جَمَاعَاتٍ وَصَلَوَاتٍ ، وَمَشَاهِدُ الْفَضْلِ
وَالْخَيْرَاتِ ، وَمَعَاهِدُ الْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ ؛
وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَتَبَوُّأُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ؛ حَيْثُ أَنْفَجَرَتْ النُّبُوَّةُ ، وَأَيْنَ فَاضَ
عَابُهَا ، وَمَوَاطِنَ مَهْبِطِ الرِّسَالَةِ ، وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِ الْمُصْطَفَى تَرَابُهَا : أَنْ تُعْظَمَ
عَرَصَاتُهَا ، وَتُنْتَسَمَ نَفَحَاتُهَا ، وَتُقَبَّلَ رُبُوعُهَا وَجَدْرَاتُهَا .

وقال :

يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ * هُدَى الْأَنَامِ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ .

عِنْدِي لِأَجْلِكَ لَوْعَةٌ وَصَبَابَةٌ * وَتَشْوُقٌ مَتَوَقِّدُ الْجَمْرَاتِ .

وَعَلَى عَهْدِ إِنْ مَلَأْتُ مُحَاجِرِي * مِنْ تِلْكَ الْجُدْرَاتِ وَالْعَرَصَاتِ ،

لَأُعْفِرَنَّ مَصُونِ شَيْئٍ بَيْنَهَا * مِنْ كَثْرَةِ التَّقْيِيلِ وَالرَّشَفَاتِ .

لَوْلَا الْعَوَادِي وَالْأَعَادِي ، زُرْتُهَا * أَبَدًا وَلَوْ سَجَبًا عَلَى الْوَجَنَاتِ .

لَكِنْ سَأَهْدِي مِنْ حَفِيلِ نَحْيَتِي * لِقَطِينِ تِلْكَ الدَّارِ وَالْجُحْرَاتِ .



أَذْكِي مِنَ الْمِسْكِ الْمَفْتَقِ نَفْحَةً * تَغْشَاهُ بِالْأَصَالِ وَالْبُكْرَاتِ .
وَتُحْصِيهِ بِزَوَاكِي الصَّلَوَاتِ * وَنَوَائِيِ التَّسْلِيمِ وَالْبَرَكَاتِ .

وأما البيت المقدس ، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدس أحد القبلتين ، والمسجد الأقصى ثالث الحرمين . إليه تُشَدُّ
الرحال ، ويكثر النزول والارتحال ؛ وفي الأرض المقدسة تُحْشَرُ الخلائق ليوم العرض ،
وينسط الله تعالى الصخرة الشريفة حتى تكون كعرض السماء والأرض ؛ وتجتمع الناس
هناك لفصل الحساب ، ويضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره
من قبله العذاب .

ولنبداً بذكر الأرض المقدسة

§ قال الله عز وجل إخباراً عن موسى عليه السلام : ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ
الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . قال الزجاج : والمقدسة المطهرة .
وقيل للسطل "القدس" لأنه يتطهر منه . وسمى بيت المقدس لأنه يتطهر فيه
من الذنوب . وقيل : سماها مقدسة لأنها طهرت من الشرك وجعلت مسكناً
للأنبياء والمؤمنين .

§ وقد اختلف في الأرض المقدسة ما هي ؟

فذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا .

وقال السدي : أريحا هي أرض بيت المقدس . وقال مجاهد : هي الطور وما حوله .
وقال الضحاك : هي إيلياء وبيت المقدس . وقال الكلبى : دمشق وفلسطين وبعض
الأردن . وقال قتادة : هي الشام كلها .

وقال عبد الله بن عمر : والحرم محرمٌ مقداره من السماوات والأرض ، وبيت المقدس مقدسٌ مقداره من السماوات والأرض .

§ وقال ابن قتيبة . وقرأت في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال : اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة ، ومن الطير الحمامة ، ومن البُيوت مكة وإيلياء ، ومن إيلياء بيت المقدس .

§ وقال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ .

والمسجد الأقصى بيت المقدس : سمي أقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار .
وقيل : لبعد المسافة بين المسجدين . وقوله عز وجل "الذي باركنا حوله" قيل : بالماء والأنهار والأشجار والثمار . وقال مجاهد : سماه مباركاً لأنه مقر الأنبياء ، وفيه مهبط الملائكة والوحى ، وهو الصخرة ، ومنه يُخشّر الناس يوم القيامة .

§ وقال تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

قال الثعلبي في تفسيره : قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وعبد الرحمن بن غنم : «التين مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس» . وقال الضحاك : «هما مسجدان بالشام» . وقال محمد بن كعب : «التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء» . ومجازه على هذا التأويل : منابت التين والزيتون .

وروى عطية عن ابن عباس : «التين مسجد نوح عليه السلام الذي بنى على الجودي ، والزيتون بيت المقدس» .

وروى نهشل عن الضحاك : ”التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى“
قال : ”وطور سينين ، يعني جبل موسى عليه السلام“ .
قال عكرمة : ”السَّيْنُ الحسن بلغة الحبشة“ . وعنه : كل جبل يُنْبِتُ فهو
سَيْنٌ .

- وقال مجاهد : ”الطور الجبل ، وسينين المبارك“ .
وقال قتادة : ”المبارك الحسن“ .
وقال مقاتل : ”كل جبل فيه شجر فهو سينين ، وسيناء وهو بلغة النبط“ .
وقال الكلبي : ”يعني الجبل المشجر“ .
§ وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : ”أربعة أجيال مقدسة بين يدي الله تعالى :
١٠ طور تينا ، وطور زيتا ، وطور سينا ، وطور تيمانا .
فأما طور تينا : فدمشق .
وأما طور زيتا : فبيت المقدس .
وأما طور سينا : فهو الذي كان عليه موسى عليه السلام .
وأما طور تيمانا : فمكة .
١٥ § والبلد الأمين مكة بلا خلاف“ .
§ ومسجد بيت المقدس أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها ، لقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما ورد في الصحيح : ”لا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ
مَسَاجِدَ : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى“ .
وفي الصحيح أيضا ”أن موسى عليه السلام ، لما حضرته الوفاة سأل الله تعالى
٢٠ أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر“ .

وكانت عمارة مسجد البيت المقدس بأمر الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام أن يعمره ثم لم يقدر له عمارته وقدر الله تعالى ذلك على يدي سليمان بن داود عليهما السلام ، فهو الذي عمره . وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى مبينا في الفن الخامس في التاريخ .

- § وقد وردت آثارٌ وأحاديثٌ في فضل بيت المقدس ، وفضل زيارته ، وثواب الصلاة فيه ، ومضاعفة الحسنات والسيئات فيه ، وفضل السكنى فيه ، والإقامة به ، والوفاء فيه ، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومحراب داود ، وعين سلوان ، وما ورد في أن الحشر منه ، وما ورد في فضل الصخرة والصلاة إلى جانبها ، وما ورد من أن الله عز وجل عرج بنبيه من بيت المقدس إلى السماء ، وثواب الإِهلال من بيت المقدس ، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة . ١٠
- وسندكر من ذلك طرفا تقف عليه إن شاء الله تعالى ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبة في الاختصار فنقول ، وبالله التوفيق :

أما فضل بيت المقدس

- § فقد ورد عن الزهري أنه قال : لم يبعث الله عز وجل نبيا ، إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس . وقد صلى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهرا ، كما روى في الصحيحين ، حتى أنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . ١٥

وتحويل القبلة أول ما نُسخ من أمور الشرع . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، أمره الله تعالى أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه في التوراة .

هذا قول عامة المفسرين ، على ما حكاه الثعلبي عنهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَمُوجَّهُهُ ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” هؤلاء يهود يستقبلون بيتاً من بُيُوتِ الله “ . فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم . قالوا جميعاً : فصلّى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وكانت الأنصار قد صلّت قبل بيت المقدس ستين يوماً ، قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم .

وكانت الكعبة أحب القبليتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

§ واختلفوا في السبب الذي كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوى قبلة الكعبة .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليهما السلام .

وقال مجاهد : من أجل أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد في ديننا ، ويتبع قبلتنا !

وقال مقاتل بن حيان : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلّي نحو بيت المقدس ، قالت اليهود : يزعم محمد أنه نبي ، وما نراه أحدث في نبوته شيئاً !

أليس يصلّي إلى قبلتنا ويستسنّ بسنتنا ؟ فإن كانت هذه نبوة . فنحن أقدم وأوفر نصيباً .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه وزاده شوقاً إلى الكعبة .
وقال ابن زيد : لما استقبل النبي صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ، بلغه
أن اليهود تقول : والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم ، قالوا جميعاً :
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : وددت أن الله صرّفني عن قبلة اليهود
إلى غيرها ، فإنني أبغضهم وأبغض موافقتهم ، فقال جبريل : إنما أنا عبدٌ مثلك ، ليس
• لي من الأمر شيء ، فسأل ربك ، فخرج جبريل . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة . فأنزل الله
عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ ﴾ الآية .

فلما صرّفت القبلة إلى الكعبة قال مشركو مكة : قد تردّد على محمد أمره ، وأشتاق
إلى مولده ومولد آبائه ، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلى دينكم عاجلاً ، وتكلم
• اليهود والمنافقون في تحويلها . فأنزل الله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ
مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

§ وروى عن كعب أنه قال : إن الله عز وجل ينظر إلى بيت المقدس كل

يوم مرتين .

١٥

وأما فضل زيارته ، وفضل الصلاة فيه

§ فقد روى عن مكحول أنه قال : من زار بيت المقدس شوقاً إليه ، دخل الجنة
وزاره جميع الأنبياء في الجنة وغبطوه بمنزلته من الله تعالى ، وأيما رفقة خرجوا يريدون
بيت المقدس ، شيعهم عشرة آلاف من الملائكة : يستغفرون لهم ويصلون عليهم ،

ولهم مثل أعمالهم اذا آتوا الى بيت المقدس ، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكا ،
ومن دخل بيت المقدس طاهرا من الجائر ، تلقاه الله بمائة رحمة ، ما منها رحمة إلا ولو
قسمت على جميع الخلائق لو سعتهم ، ومن صلى في بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما
بـ ”فاتحة الكتاب“ و ”قل هو الله أحد“ خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وكان له بكل
شعرة على جسده حسنة ، ومن صلى في بيت المقدس أربع ركعات ، مرة على الصراط
كالبرق وأعطى أمانا من الفرع الأكبر يوم القيامة ، ومن صلى في بيت المقدس
ست ركعات ، أُعطى مائة دعوة مستجابة ، أدناها براءة من النار ، ووجب له الجنة ،
ومن صلى في بيت المقدس ثمان ركعات ، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن ، ومن
صلى في بيت المقدس عشر ركعات ، كان رفيق داود وسليمان في الجنة ، ومن آستغفر
للمؤمنين والمؤمنات في بيت المقدس ثلاث مرات ، كان له مثل حسناتهم ، ودخل
على كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرة ، وغُفر له ذنوبه كلها .

§ وروى عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”من
صلى ببيت المقدس خمس صلوات نافلة ، كل صلاة أربع ركعات يقرأ في الخمس
صلوات عشرة آلاف مرة (قل هو الله أحد) ، فقد آسترى نفسه من الله عز وجل ،
ليس للنار عليه سلطان“ .

وعنه أيضا ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”صلاة الرجل في بيته
بصلاة واحدة ، وصلاته في مسجد القبائل بست وعشرين ، وصلاته في المسجد
الذي يُجمع فيه بنخمائة صلاة ، وصلاته في المسجد الأقصى بنخمسين ألف صلاة ،
وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة“ .

وعن مكحول أن ميمونة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس قال : ”نعم المَسْكُنُ بيتُ المقدس ! ومن صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه . قالت : فمن لم يُطِقْ ذلك ؟ قال : يُهْدَى له زَيْتًا“^(١)

§ وعن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : لا يسمع أهلُ السماء من كلام بنى آدم شيئاً غير أذانٍ مؤذِّنٍ بيت المقدس .

وأما ما ورد

في بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد روى عن نافع ، قال : قال ابن عمر رضى الله عنهما ، ونحن في بيت المقدس : يا نافع ، أخرج بنا من هذا البيت ، فإن السيئات تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسنات .

وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو : الحسنة في بيت المقدس بألف ، والسيئة بألف .

وأما فضل السكنى فيه والإقامة والوفاء به

§ فقد روى عن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيت يا رسول الله إن آبتلينا بالبقاء بعدك ، فأين تأمرنا ؟ قال : ”عليك بيت المقدس ، لعل الله يرزقك ذرية تغدو إليه وترُوح“ .

(١) يظهر أن بعض الكلمات قد سقطت في هذا الموضع . ولذلك رأيت إيراد الحديث بلفظ آخر عن

ابن الفقيه الهمداني في كتابه ”مختصر كتاب البلدان“ المطبوع في لندن سنة ١٣٠٢ هـ (سنة ١٨٨٥ م)

وهذا نصه : ”قالت ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أفئتنا عن بيت المقدس ، قال : نعم المصلى هو أرض المحشر وأرض المنشر ، إيتوه فصلوا فيه فإن

الصلاة فيه كألف صلاة . قلت بأبي وأمي أنت من لم يطق أن يأتيه . قال فليهد إليه زيتا يسرج فيه ،

فإنه من أهدى إليه ، كان كمن صلى فيه“ .

§ وعن أبي أمامة الباهليّ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ، لعدوّهم قاهرين، لا يضرّهم مَنْ خالفهم، حتّى يأتى أمر الله عز وجلّ وهم كذلك». قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببیت المقدس وأخفاف بیت المقدس».

§ وعن عطاء، قال: لا تقوم الساعة حتّى يسوق الله عز وجل خيار عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدسة، فيسكنهم إياها.

§ وعن كعب، قال: قال الله عز وجل لبیت المقدس: أنت جنتي وقُدسي وصفوتي من بلادى، مَنْ سَكَكَ فبرحمة منى، وَمَنْ نَجَرَ مِنْكَ فبسيْط منى عليه.

§ وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جيرانُ الله، وحقّ على الله عز وجل أن لا يعدّب جيرانه؛ ومن دُفِن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضيقه.

§ وعن كعب، قال: اليوم في بيت المقدس كَألف يومٍ، والشهر فيه كَألف شهرٍ، والسنة فيه كَألف سنةٍ، وَمَنْ مات فيه فكأنما مات في السماء، وَمَنْ مات حوله فكأنما مات فيه.

وعن خالد بن معدان قال: سمعت كعباً يقول: مقبور بيت المقدس لا يعدّب.

وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سلوان

§ ففي الأرض المقدسة قبر إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف عليهم السلام.

§ وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرته الوفاة سأل الله عز وجل أن يُدنيه من الأرض المقدسة، رميةً بحجرٍ.

§ وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشر بن بكر عن أم عبد الله عن ابنها أنه قال : من أتى بيت المقدس ، فليأت محراب داود ، فليصل فيه ، ويسبح في عين سلوان فإنها من الجنة .

§ وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز ، قال : كان في زمان بني إسرائيل في بيت المقدس عند عين سلوان عين . وكانت المرأة إذا قذفت ، أتوا بها فشربت منها . ه
فإن كانت بريئة لم تضرها ، وإن كانت نطفة ماتت . فلما حملت مريم حملوها ، فشربت منها فلم تزد إلا خيرا . فدعت الله أن لا يفضح بها امرأة مؤمنة . فغارت العين .

وأما ما ورد

في أن الحشر من البيت المقدس

§ فقد روى عن أبي ذر رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله "أخبرنا عن بيت المقدس . قال : أرض المحشر والمنشر . إيتوه فصلوا فيه وليأتين على بيت المقدس ^(١) ! ولبسطة قوس أو مسحة قوس في بيت المقدس أو من حيث يرى بيت المقدس خير من كذا وكذا" .

§ وعن كعب قال : العرض والحساب من بيت المقدس .

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة . وقد روى ابن فضل الله العمري في "مسالك الأبصار" المطبوع بدار الكتب المصرية (ج ١ ص ١٣٦) حديثا تقرب ألفاظه جدا من هذا الحديث ان لم يكونا حديثا واحدا . فلاجل تكلمة النقص الموجود في نسخ النويري في هذا الموضع نورد ما رواه ابن فضل الله وهو : وعن أبي ذر قال : قيل يا رسول الله صلاة في البيت المقدس أفضل ، أم صلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه . ولنعلم المصلى هو أرض المحشر والمنشر ! وليأتين على الناس زمان ، ولبسطة قوس من حيث يرى بيت المقدس ، أفضل وخير من الدنيا جميعا . ٢٠

§ وعن قتادة في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال: من صخرة بيت المقدس .

§ وعن يزيد بن جابر "يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ" قال : يقف إسرائيلي على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول : أيتها العظام النخرة ، والجلود المتمزقة ، والأشعار المتقطعة ؛ إن الله تعالى أمرك أن تجتمعى للحساب .

§ وقال المفسرون في قوله تعالى ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو أن إسرائيلي يقف على صخرة بيت المقدس فينادي : "يا أيها الناس ، هلموا إلى الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ، وهذه هي النفخة الأخيرة ."
والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

§ قال كعب ومقاتل : هي أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا . وقال ابن السائب : باثني عشر ميلا .

§ وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لِهَبَابٍ بِأَظْهُرِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قال : هو حائط بيت المقدس الشرقي الذي من ورائه وادٍ يقال له وادي جهنم ، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة .

وأما ما ورد

في فضل الصخرة ، والصلاة إلى جانبها

§ فقد روى عن أنس بن مالك ، قال : إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس ، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهي سرّة الأرض^(١) .

(١) أي الصخرة .

§ وعن أبي إدريس الخولاني : قال : يحول الله صخرة بيت المقدس مرجانة بيضاء كعرض السماء والأرض ، ثم ينصب عليها عرشه ، ثم يقضى بين عباده : يصيرون منها إلى الجنة وإلى النار .

§ وعن أبي العالية في قوله تعالى ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : من بركتها أن كل ماء عذب يخرج من أصل صخرة بيت المقدس .

§ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ”الأنهار كلها والسحاب والبحار والرياح من تحت صخرة بيت المقدس“ .

§ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صخرة بيت المقدس من صخور الجنة .

§ قال الزجاج : يقال إنها في وسط الأرض .

§ وعن كعب قال : من أتى بيت المقدس فصلّى عن يمين الصخرة وشمالها ، ودعا عند موضع السلسلة ، وتصدّق بما قلّ أو كثر ، آستجيب دعاؤه ، وكشف الله حزنه ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن سأل الله الزيادة أعطاه إياها .

وأما ما ورد

في أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء

١٥ فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطي الخطيب رحمه الله بسنده إلى سواده بن عطاء الحضرمي ، قال : نجد في الكتاب مكتوباً أن الله عز وجل لما أن خلق الأرض وشاء أن يعرج إلى السماء وهي دُخانٌ ، آستشرف لذلك الجبال أيها يكون ذلك عليه ؟ وخشعت صخرة بيت المقدس تواضعاً لله عز وجل ، فشكر الله لها ذلك وجعل المعراج عنها . وكان عليها ما شاء الله أن

يكون . قال : فمد الجبار يديه حتى كانتا حيث يشاء أن تكونا ، ثم قال : « هذه جنتي غرباً ، وهذه نارى شرقاً ، وهذا موضع ميزاني طَرفَ الجبل ، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدين » وكان معراجهُ إلى السماء عن الصخرة .

وروى أيضاً بسنده إلى هاني بن عبد الرحمن ، ورُدِّيح بن عطية عن إبراهيم ابن أبي عبله أحسبه كذا قال : وسئل عبادة بن الصامت ورافع بن خديج وكانا عقبيين بدرين ، فقيل لهما : أرايتما ما يقول الناس في هذه الصخرة أحقاً هو فنأخذ به ، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندعه ؟ فقال كلاهما : سبحان الله ! ومن يشك في أمرها ، إن الله عز وجل لما استوى إلى السماء ، قال لصخرة بيت المقدس : « هذا مقامي وموضع عرشي يوم القيامة ، ومحشر عبادي ، وهذا موضع نارى عن يسارها وفيه أنصب ميزاني أمامها ، وأنا الله دَيَّانُ يوم الدين » ثم استوى إلى عليين .

وروى أيضاً بسنده عن كعب ، قال : إن في التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس « أنت عرشي الأدنى ومنك ارتفعت إلى السماء ، ومن تحتك بسطت الأرض وكل ما يسيل من ذروة الجبال من تحتك ، من مات فيك فكأنما مات في السماء ، ومن مات حولك فكأنما مات فيك ، لا تنقضي الأيام والليالي حتى أرسل عليك نارا من السماء فتأكل آثاراً كُفَّ بنى آدم وأقدامهم منك ، وأُرْسِلَ عليك ماء من تحت العرش فأغسلك حتى أتركك كالمرآة ، وأضرب عليك سورا من غمام غلظه اثنا عشر ميلا ، وسيأجأ من نار ، وأجعل عليك قبة جبلتها بيدي ، وأنزل فيك روجي وملائكتي يسبحون لي فيك ، لا يدخلك أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة ، فمن يَرِ ضوء تلك القبة من بعيد ، يقول : طوبى لوجه ينحتر فيك لله ساجدا ، وأضرب عليك حائطاً من نار ،

وسياجا من الغمام، ونحمة حيطان من ياقوت ودرّ وزبرجد؛ أنت البيدر، وإليك المحشر، ومنك المنشر» .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمد بن الجوزي رحمه الله في ذلك حديثين ، ثم تكلم عليهما وضعف رواتهما .

- ٥ أما أحدهما، فقال : أخبرنا المبارك بن أحمد، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال : أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النصيبي، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقرئ، قال : حدثنا عيسى بن عبيد الله، قال : حدثنا عليّ ابن جعفر الرازي، قال : حدثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال : حدثنا عبد الله ابن عمر المقدسي، قال : حدثنا بكر بن زياد الباهليّ، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عمرو، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لما أُسرى بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال : أنزل، فصلّ هاهنا ركعتين، هاهنا قبر أبيك إبراهيم . ثم مرّ بي ببيت لحم، فقال : أنزل، صلّ هاهنا ركعتين، فإن هاهنا وُلِدَ أخوك عيسى . ثم أتى بي إلى الصخرة فقال : من هاهنا عَرَجَ ربك إلى السماء“ .
- ١٥

قال الحافظ أبو حاتم بن حيان : هذا حديث لا يشك عوامُّ أصحاب الحديث أنه موضوع . وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات .

وأما الحديث الثاني، فرواه بسند إلى إبراهيم بن أعين عن رديح بن عطية بن النعمان، عن عبد الله بن بسر الحمصي، عن كعب الأحبار، قال : يقول الله عز وجل

لبيت المقدس: أنت عرشي الذي منك آرتفعت إلى السماء، ومنك بسطت الأرض،
ومن تحتك جعلت كل ماءٍ عذبٍ يطلع في رؤوس الجبال .
قال أبو حاتم الرازي : إبراهيم بن أعين مُنكر الحديث .
هذا ما ورد في هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم .

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

فقد روى عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال: "مَنْ أَهَلَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ".
قال سالم : وأهلَّ ابن عمر رضي الله عنهما من بيت المقدس بعُمْرة .
وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
"مَنْ أَحْرَمَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَدِمَ مَكَّةَ مَغْفُورًا لَهُ".

وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد روى عن كعب الأحمري قال : لا تقوم الساعة حتَّى يزور البيت الحرام
بيت المقدس، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلهما .
وروى عن خالد بن معدان قال : يحشر الله الكعبة إلى الصخرة زَفًّا إليها زَفًّا، متعلقين
بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا : بالزائرة والمزور إليها .

هذا ما اتفق إيراده في فضائل البيت المقدس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من
أخباره طرفا آخر وهو في الباب الثاني، من القسم الثالث، من الفن الخامس في التاريخ
عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما السلام . فلنذكر خلاف ذلك .

وأما اليمن وما يختص به

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”الإيمانُ يمانٌ، والحكمةُ يمانيةٌ“ .

وقال الجاحظ : من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ، والقُرود .

ويقال : ان السيف متى قُلِعَ بالهند وطِيعَ باليمن ، فناهيكَ به !

وقال الأصمعيّ : أربعة ملائِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن ، وهى الورسُ ، والكُنْدُرُ ، والخَضَضُ ، والعَقِيقُ .

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطن الأنبياء عليهم السلام ، ومعدن الزُّهَّاد والعُبَّاد .

وحكى أن الابدال السبعين بأرض الشام ، بجبل لُكَّام وجبل لُبَّان .
ومن خصائص الشام :

مسجد دمشق

الذى ما عُمر على وجه الأرض مثلهُ وكانت عمارته فى سنة ست وثمانين ، عمره الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريقُ فيه فى سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة .

وعن قتادة ، قال : أقسم الله تعالى بمساجد أربعة ، قال : ”والتين“ وهو مسجد دمشق ، ”والزيتون“ وهو بيت المقدس ، ”وطور سينين“ وهو حيث كلم الله موسى ، ”وهذا البلد الأمين“ وهو مكة .

وقال محمد بن شعيب : سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق ، وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تينٍ قبل أن يَبْنِيَهُ الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لما أَمَرَ الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجدوا في الحائط القبليّ من المسجد لوحا فيه نقش فأتوا به الوليد ، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم ، فلم يستخرجوه . فدلّ على وهب بن منبّه فبعث إليه ، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذي وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكُنّي الوليد على الحال في بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه مغارةً فعزفنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافي ، وبين يديه الشَّعَم ، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة : ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففُتِحَ فإذا فيه سَقَطٌ ، وفي السَقَطِ رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ، مكتوب عليه : ” هذا رأس يحيى بن زكريا “ . فأمر الوليد ، فُرِدَ إلى مكانه ، وقال : آجعلوا العمود الذي فوقه مغيرا من الاعمدة ، فجعلوا عليه عمودا مُسَقَطَ الرأس . وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

وقال أبو زرعة : مسجد دمشق خَطَّهُ أبو عبيدة بن الجراح ، وكذلك مسجد حِمْص . وقيل : لما قدم المهديّ يريد بيت المقدس ، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعرى كاتبه ، فقال : يا أبا عبد الله سبقنا بنو أمية بثلاثٍ ، قال : وما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعني المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبُنِيَ الموالى فإن لهم موالى ليس لنا مثلهم ، وبِعَمَرَ بن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبدا ! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة .

وحكى عمرو بن مہاجر الأنصارى قال : حَسَبُوا ما أَنْفَقَ على الكَرَمَةِ التى فى قِبْلَةِ
مسجد دمشق ، فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أَنْفَقَ فى عِمارة مسجد دمشق أربعمائة صُنْدُوقٍ ، كلُّ صُنْدُوقٍ
أربعة عشر ألف دينار .

وقال بعض شعراء المُحَدِّثِينَ فى وصفه :

- دمشق قد شاع ذِكْرُ جامعها * وما حَوَتْهُ رَبى مَرايِعُها .
بديعةُ المُدُنِ فى الكَمالِ لِمَا * يُدْرِكُها الطَّرْفُ من بَدائِعِها .
طَيِّبَةُ أرضِها مَبارَكَةٌ * باليُمْنِ والسَّـودِ أَخَذُ طالِعِها .
جامعُها جامعُ المحاسِنِ قَدْ * فاقتَ به المُدُنُ فى جَواِمِعِها .
تُذَكِّرُ فى فَضْلِهِ وِرفَعَتِهِ * أخبارُ صِدقٍ راقَتِ لِسامِعِها .
قد كان قَبْلَ الحَرِيقِ مَدْهَشَةٌ * فغَسَّيَرَتِ نارُ بِلاقِعِها .
فأَذْهَبَتْ بالحَرِيقِ بَهِجَتَهُ * فليس يُرْجى إِيابُ راجِعِها .
إذا تَفَكَّرْتَ فى القُصُوصِ وما * فيها ، تَيَقَّنْتَ حَقِّقَ واضِعِها .
أشجارُها لا تَزالُ مِثْمَرَةً * لا تَرَهَّبُ الرِّيحُ فى مَدافِعِها .
كأنَّها من زُمُرْدٍ غُرِسَتْ * فى أرضِ تَبَرٍّ يُغشى بِفاقِعِها .
فَإِذَا تَحالَّما يَنعَتُ * وليس يُحْشى فسادُ يانِعِها .
تُقَطَّفُ باللِحْظِ لا بِمِجارِحَةِ الأيْدى * ولا تُجْتَنى لِبائِعِها .
وتَحْتَمَى من رُخامِهِ قِطْعٌ ، * لا قِطْعَ اللهُ كَفَّ قاطِعِها .
أَحْكَمَ تَرْخِيمَها المَرْخَمُ قَدْ * بَانَ عليها إِحْكامُ صانِعِها .

وإِنْ تَفَكَّرْتَ فِي قَنَاطِرِهِ * وَسَقْفِهِ ، بَانَ حَذَقُ رَافِعِهَا .
 وَإِنْ تَبَيَّنْتَ حُسْنَ قُبَيْتِهِ * تَحَيَّرَ اللَّبُّ فِي أَضَالِيعِهَا .
 تَحْتَرِقُ الرِّيحُ فِي مَحَارِمِهَا * عَصْفًا فَتَقْوَى عَلَى زَعَاذِعِهَا .
 وَأَرْضُهُ بِالرَّخَامِ قَدْ فُرِشَتْ * يَنْفَسِحُ الطَّرْفُ فِي مَوَاضِعِهَا .
 مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِيهِ مُوَقَّعَةٌ * يَنْشِرُحُ الصَّدْرُ فِي مَجَامِعِهَا .
 وَكُلُّ بَابٍ عَلَيْهِ مِطْهَرَةٌ * قَدْ أَمِنَ النَّاسُ دَفْعَ مَانِعِهَا .
 يَرْتَفِقُ الْخَلْقُ مِنْ مَرَاثِقِهَا * وَلَا يُصَدُّونَ عَنْ مَنَافِعِهَا .
 وَلَا تَزَالُ الْمِيَاهُ جَارِيَةً * فِيهَا لَمَّا شَقَّ مِنْ مَشَارِعِهَا .
 وَسَوْفَهَا لَا تَزَالُ أَهْلَةً * يَزْدَحِمُ النَّاسُ فِي شَوَارِعِهَا .
 لِمَا يَشَاءُونَ مِنْ فَوَاحِشِهَا * وَمَا يُرِيدُونَ مِنْ بَضَائِعِهَا .
 كَأَنَّهَا جَنَّةٌ مَعْجَلَةٌ * فِي الْأَرْضِ ، لَوْلَا سُرى فُجَائِعِهَا .
 دَامَتْ بَرَغْمُ الْعِدَا مُسَلِّمَةً * وَحَاطَهَا اللَّهُ مِنْ قَوَارِعِهَا .

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر؛ وقبر موسى

بدمشق؛ ودمشق معقل الناس في آخر الزمان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي
 قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿ وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ فليأت النِّيرْبَ
 الأعلى بدمشق بين النهرين ، وليصعد الغارَ في جبل قاسيونَ ، فليُصَلِّ فِيهِ فَإِنَّهُ بَيْتُ
 عِيسَى وَأُمِّهِ . وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِرَمَ ، فليأت نهرًا في دمشق يقال له بَرْدَى .
 وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ الَّتِي فِيهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَالْحَوَارِيُّونَ . فليأت مقبرة

الفراديس .

ومن خصائصها التَّفَاحُ الذي يَضْرَبُ به المثل في الحسن والطَّيب . وكان يحمل منه إلى الخلفاء في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة .

وبها الغُوطَةُ ، وهي أحد منزهات الدنيا الأربعة . وهي أَجَلُهَا .

وسنذكر وصفها في باب الرياض إن شاء الله تعالى .

وأما مصر وما يختص بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً .
منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ ، فقوله تعالى : ﴿ إِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

وقوله تعالى مخبراً عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِي ﴾ .

وقوله عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ .

وأما ما دلَّت عليه القرائن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبَوَّأً

صَدِيقٍ ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال ابن عباس ،

وسعيد بن المسيب ، ووهب بن منبه وغيرهم : هي مصر .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ . يعني مصر .

وقوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاسِيحِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . يعني قوم فرعون ، وأن بنى إسرائيل ورثوا أرض مصر .

وقوله عز وجل : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكَفِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُزِيلُ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ .
يعني أرض مصر .

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ يُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن بنى إسرائيل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَهْلِكَ عِذُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنُأْبِرَحَ الْأَرْضَ ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وذكر ابن عباس مصر، فقال : سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع من القرآن . والله تعالى أعلم .

§ وأما ما ورد فيها من الحديث النبوى صلوات الله وسلامه على قائله

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي مِصْرُ ، فَاسْتَوْصُوا بِقَبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا “

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ فَاتَّخِذُوا بِهَا جُنْدًا كَثِيفًا ، فَذَلِكَ الْجُنْدُ خَيْرُ أَجْنَادِ الْأَرْضِ “ فقال أبو بكر رضى الله عنه : وَلِمَ يَأْرُسُوكَ اللَّهُ ؟ فقال : ” لِأَنَّهُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ “ .

وعنه صلى الله عليه وسلم ، وذكر مصر : ” مَا كَادَهُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَفَاهُمُ اللَّهُ مَوْثِقَتَهُ “ .

وتكررت الأحاديث فى فضلها .

وقال عبد الله بن عمرو : وأهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدا، وأفضلهم عنصرا، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقریش خاصة .

وقال أيضا : لما خلق الله عز وجل آدم، مثل له الدنيا : شرقها ، وغربها ، وسهلها ، وجبلها ، وأنهارها ، وبحارها ، وبناءها ، ونحربها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك . فلما رأى مصر ، رآها أرضا سهلة ذات نهر جار ، مادته من الجنة ، تتحد فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة . في سفحه أشجار مثمرة ، فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة . فدعا آدم في النيسل بالبركة ، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى ، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات . وقال : «يا أيها الجبل المرحوم ، سفحك جنة وتربتك مسكة تدفن فيها عرائس الجنة ، أرض حافظة مطبقة رحيمة . لا خللتك يا مصر بركة ، ولا زال بك حفظ ، ولا زال منك ملك وعز ، يا أرض مصر فيك الحباء والكنوز ، ولك البر والثروة ، سال نهرك عسلا . كثر الله زرعك ، ودّر ضرعك ، وزكا نباتك ، وعظمت بركتك وخصببت ، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتكبري أو تخوني ، فاذا فعلت ذلك ، عراك شر ، ثم تغور خيرك » .

فكان آدم أول من دعا لها بالخصب والرحمة والرأفة والبركة .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : دعا نوح عليه السلام لابن ابنه بيصر ابن حام وهو أبو مصر ، فقال : اللهم إنه قد أجاب دعوتي ، فبارك فيه وفي ذريته وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التي هي أم البلاد .

قال عبد الله بن عمرو : لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده ، جعل لحام مصر وسواحلها والمغرب وشاطئ النيل . فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريش ،

قال : « اللهم إن كانت هذه الارضُ التي وعدتنا على لسان نبيك نوح عليه السلام وجعلتها لنا منزلا فاصرف عنا وبأها ، وطيب لنا ثراها ، وأجمع ماها ، وأنبت كلاها ، وبارك لنا فيها ، وتمم لنا وعدك ، إنك على كل شيء قدير ، وإنك لا تخلف الميعاد » وجعلها بيصر لابنه مصر وسمّاها به . والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام ابن نوح .

وسندكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر وبنيه عند ذكرنا لملوك مصر ، وهو في الفن الخامس في التاريخ .

وعن كعب الأحبار : لولا رَغْبَتِي في بيت المقدس لما سكنتُ إلا مصر . ف قيل له : ولم ؟ فقال : لأنها معافاةٌ من الفتن ومن أرادها بسوء كَبَّه الله على وجهه ، وهو بلد مباركٌ لأهله فيه .

وقال أبو بصرة الغفاري : ساطان مصر سلطان الأرض كلها .

قال : وفي التوراة مكتوب : مصرُ خزائنُ الأرض كلها ، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولايةُ مصر جامعةٌ ، تعدلُ الخلافةَ .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز ، قاضي العراق : سألت أحمد بن المدبر عن مصر فقال : كشفتها فوجدتُ غامرها أضعافَ عامرها . ولو عمَّرها السلطان ، لوفَّتْ له بخراج الدنيا .

ذَكَرَ مَنْ وُلِدَ بِمِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
وَمَنْ كَانَ بِهَا مِنْهُمْ

وُلِدَ بِمِصْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمَاعَةٌ ، مِنْهُمْ : مُوسَى ، وَهَارُونَ ،
وَيُوشَعَ بْنِ نُونٍ ، وَدَانِيَالُ ، وَأَرْمِيَا ، وَلُقْمَانُ ، وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ . وَلِدَتْهُ أُمُّهُ بِأَهْنَسَ ،
وَبِهَا النَّخْلَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَرْيَمَ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ .

وَلَمَّا سَارَ عِيسَى إِلَى الشَّامِ أَخَذَ عَلَى سَفْحِ الْمَقْطَمِ مَاشِيًا ، عَلَيْهِ جُبَّةٌ صُوفٌ مَرْبُوطُ
الْوَسْطِ بِشَرِيطٍ ، وَأُمُّهُ تَمْشِي خَلْفَهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ : يَا أُمَّاهُ ، هَذِهِ مَقْبَرَةُ أُمَّةٍ مَجْدُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَمَّا مَنْ كَانَ بِهَا مِنْهُمْ ، فَكَانَ : إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ، وَإِسْمَاعِيلُ ، وَيَعْقُوبُ ، وَيُوسُفُ
عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَاثْنَا عَشَرَ سَبْطًا .

ذَكَرَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

كَانَ بِهَا مِنَ الصَّادِقِينَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ .
وَقِيلَ : إِنَّهُ ابْنُ فِرْعَوْنَ لَصُلْبِهِ . آمَنَ بِمُوسَى وَحَقَّقَ بِهِ وَجَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَآيَةً .
وَكَانَ بِهَا وَزَرَاءُ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَفَضَّلَهُمْ عَلَى قَوْمِ نَمْرُودَ حِينَ قَالُوا :
”أَرْجِئْهُ وَأَخَاهُ“ وَقَالَ وَزَرَاءُ النَّمْرُودِ : ”أَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ“ .

وَأُخْرِجَتْ مِصْرُ السَّحَرَةِ الَّذِينَ أَحْضَرَهُمُ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى . وَكَانَتْ عَدَّتُهُمْ مِائَتِي
أَلْفٍ وَاثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا وَقِيلَ أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ ، آمَنُوا كُلُّهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .
وَلَمْ نَعْلَمْ مَنْ آمَنَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ .

- ومن فضائل مصر ونبل أهلها أنهم لم يُفْتَنُوا بعبادة العجل .
- وكان بها من الصديقات آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وأم إسحاق ،
ومريم ابنة عمران ، وماشطة بنت فرعون ، التي مشطها فرعون بأمشاط الكنان
لما آمنت بموسى .
- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «شَهِمْتُ لَيْلَةَ أُسْرِى بى فى الجنة رائحة» .
ما شَهِمْتُ أَطْيَبَ منها ، فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ فقال : هذا رائحة ماشطة
بنت فرعون» .

ذكر من صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

- منهم :
١٠ إبراهيم الخليل عليه السلام ، تزوج بهاجر أم إسماعيل .
ويوسف الصديق ، تزوج بنت صاحب عين شمس ، وتزوج زليخا بعد أن
عجزت وعميت . دعا الله لها فردّها الله إلى حالتها الأولى ، ورزق منها الولد .
وتسرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية التي أهداها
له المقوقس ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى السيرة النبوية .
١٥

ذكر من أظهرته مصر من الحكماء

- (١)
(الذين عمّروا الدنيا بكلامهم وحكمهم وتدييرهم ، وأظهروا ما خفى من العلوم)
قال الحسن بن إبراهيم ، صاحب تاريخ مصر :

(١) بعض الحكماء المذكورين فى هذا الفصل ليسوا من أهل مصر بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدة قليلة
أو كثيرة .

منهم : ذوالقرنين^(١) ، وهو الإسكندر من قرية يقال لها لُويَّة^(٢) . وهو الذي قتل دَارًا بَنَ دَارًا . وسيأتي خبره إن شاء الله تعالى في التاريخ في ذكر ملوك اليونان .

ومنهم : هرمس ، وهو المثلث بالنعمة : نبيّ ، وحكيم ، ومَلِك : وهو الذي صير الرّصاصَ ذهباً ، وبني الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال . وقيل : هو إدريس عليه السلام .

ومنهم تلميذاه : أغاثا ذيمون و فيثاغورس ، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء ، والنّجوم ، والسّحر ، وعلم التارنجيات ، والطلسمات ، والبرابي ، وأسرار الطبيعة .

ومنهم أوسلا و سيزوارس و بندقايس ، أصحاب الكهانة والزّجر .

ومنهم سقراط ، صاحب الحكمة ، والكلام على الباري جل ذكره ، وهو صاحب البلاغة .

ومنهم أفلاطون ، صاحب السّياسة ، والنواميس ، والكلام على المُدُن والملوك .

ومنهم بطليموس ، صاحب الرّصد ، والمساحة ، والحساب ؛ وهو صاحب كتاب المجسطى من كتب الأفلاك ، وحركة الشمس ، والقمر ، والكواكب المتحيرة والثابتة ، وصورة فلّك البروج . وله صفة الأُمم الذين يعمّرون الأرض ، وكتاب الثمرة في علم النجوم وتسطيع الكرة .

(١) هو الاسكندر الأكبر ، ابن فيلبوس وهو ليس من مصر وإنما غزاها بجيوشه وأسس فيها مدينة الاسكندرية التي صارت بعده مدينة العلم والحكمة .

(٢) هذا اللفظ محرف عن "بيل" وهي إحدى مدائن اغيريقية ، وفيها كانت ولادة الاسكندر الأكبر .

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعي، ورسالة نبت الذهب، قالوا: وليعقوب بن إسحاق الكندي نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس.

- ومنهم أراطس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة في تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، وأثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة، والزيج.

ومنهم أنطوليوس^(١)، صاحب الفلاحة.

ومنهم إبرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق.

- ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه.

ومنهم أسطنس، ودروثيوس، والنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم أنتشر ذلك.

ومنهم إيرن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جراتقال، والحيل الروحانية، وعمل البنّاكيم والآلات لقياس الساعات.

- ومنهم فيلون البرنطلي، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة.

ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمرآيا المحرقة وعمل المجانيق ورمى الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر براً وبحراً.

(١) ورد هذا الاسم في الاصل هكذا: "أفلاطونس" وليس هناك رجل بهذا الاسم. وإنما المشهور بكتابه في الفلاحة هو "انطوليوس الأفريق". وقد ذكره ابن العوام في كتاب الفلاحة الأندلسية،

ونقل عنه.

- ومنهم ماريه وقلبطره، أصحاب الطَّلَسَمَات، والخواص للطبائع .
- ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط .
- ومنهم ثيودوسيوس، وهو صاحب كتاب الأكر .
- ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب .
- ومنهم أوطوقيس، وله كتاب الكرة والأسطوانة .
- ومنهم المشاءون^(١)، أصحاب الرواق .
- وبمصر من العلوم التي عَمَرَتْ بها الدنيا علمُ الطب اليوناني، وعلمُ النجوم، وعلمُ المساحة، وعلمُ الهندسة، وعلمُ الكيمياء، وغير ذلك وبها الطلسمات العشرة .
- وبأدى الاسكندراني صاحب الزيخ^(٢) .
- والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أَخَذَ .
- ومنهم ديسقوريد : صاحب الحشائش، وديوجانس . واركاغانس ، وأرباسيوس، وفريقونوس، وروفس، هؤلاء أصحاب الطب اليوناني .
- فهؤلاء حكماء الأرض وعلماءهم الذين ورثوا الحكمة ، من مصر خرجوا ، وبها وُلِدُوا، ومنها انتشرت علومهم في الأرض .
- قال الحسن بن إبراهيم : وكانت مصر يسير إليها في الزمن الأول طلبةُ العلم وأصحابُ العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوة الذكاء ودقة الفطنة . والله تعالى أعلم .

(١) في الأصل : "المساتير" . ولعله يشير إلى أتباع ارسطو الذين يسميهم العرب "المشائين" .

(٢) لعل هذا الاسم محرف عن "ناون" الذي سبقت الإشارة إليه .

ومن فضائل مصر

أنها تَمِير الحرمين الشريفين ، ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالهما المقام بهما ، ولما توصل إليهما من يَرِد من أقطار الأرض .

ومنها أنها فُرْضة الدنيا ، يحل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلم ينقل إلى الحرمين ، وإلى جُدّة ، وإلى عُمان ، وإلى الهند ، وإلى الصين ، وصنعاء ، وعَدَن ، والشَّحْر ، والسَّند ، وجزائر البحر .

ومن جهة تَنِيْس ، ودِمياط ، والفرما فُرْضة بلد الروم ، وأقاصى الأفرنج ، وقبرس ، وسائر سواحل الشام ، والشغور إلى حدود العراق .

ومن جهة الإسكندرية فُرْضة أَقْرِيطَش ، وصِقْلِيَّة ، وبلد الروم ، والمغرب كلّ إلى طَنْجَة ، ومغرب الشمس .

ومن جهة الصعيد فُرْضة بلد النوبة ، والبُجّة ، والحَبْشَة ، والحجاز ، واليمن .
وفيها من ثغور الرِّباط : البرّس ، ورَشِيد ، والإسكندرية ، ورباط ذات الحمام ، ورباط البَحِيرَة ، ورباط إخنا ، ورباط دِمياط ، وشَطّا ، وتَنِيْس ، والأشْتوم ، والفرما ، والورّاده ، والعَرِيش ، والشَّجَرَتَيْن ، ورباط الحَرَس . وجهة الحَبْشَة ، والبُجّة .
ورباط أسوان على النوبة . ورباط الواحات على البربر والسودان . ورباط قُوص .

وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة ، ما لم يكن في غيرها . ولو استقصينا ذلك ، اطال به الشرح وأنبسط القول .

وقال سعيد بن عقبة : كنتُ بحضرة المأمون حتّى قال ، وهو في قبة الهواء : لعن الله فرعونَ حين يقول ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ فلورأى العراق ! . فقلت :

يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ . فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيته؟ .

قال : ثم قلت : لقد بلغني أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفنتهم : يحبسونه متى شاءوا، ويرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحاقتي النيل من أوله إلى آخره، ما بين أسوان إلى رشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع . ولقد كانت الأمة تضع المكمل على رأسها فيمتلئ مما يسقط من الشجر . وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى حمار لكثرة الشجر .

ومن فضائلها النيل، وقد تقدم ذكره في باب الأنهار .

ومن عجائبها الهرمان وسياقي ذكرهما في باب المباني القديمة إن شاء الله تعالى . ١٠

ومن عجائبها أن أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا .

وفيهما ما ليس في غيرها، وهو حيوان السقنقور، والثمس . ولولاه لأكلت الثعابين أهلها، وهو لها كقنفذ سجستان لأهلها .

وفيهما سمك يسمى الرعاد . وهو سمك إذا أمسكه إنسان أو أمسك ما يتصل به من خيط الصنارة أو الشبكة التي يقع فيها، ارتعدت يده . ١٥

والخطب السنط الذي لو وقده منه يوما وجمع ما وجد من رواده كان ملء كف . وهو صناب العود، سريع الوقود، بطيء الخمود . ويقال : إنه الآبنوس، وإنما البقعة قصرت عن الكيان فجاء أخمر شديد الحمرة .

وَدُهْنُ الْبَاسَانِ . وَالْأَفْيُونُ ، وَهُوَ عَصَاةُ الْحَشِخَاشِ . وَكَانَ بِهَا اللَّيْخُ ، وَهُوَ ثَمَرٌ
فِي قَدْرِ اللُّوزِ الْأَخْضَرِ إِلَّا أَنْ الْمَاءَ كَوَلٍ مِنْهُ الظَّاهِرُ . وَرَأَيْتُهُ أَنَا بِهَا وَأَكَلْتُ مِنْهُ
سَنَةً ثَلَاثَ وَتَسْعِينَ وَسِمَانَةً .

وَبِهَا الْأُتْرُجُ الْأَبْلَقُ .

وَبِهَا مِنَ الْمَعَادِنِ : مَعْدِنُ الزُّمُرُودِ ، وَمَعْدِنُ النَّفْطِ ، وَالشَّبَّ ، وَالْبَرَامُ ، وَالرُّخَامُ .
وَقِيلَ : إِنْ بِهَا سَائِرُ الْمَعَادِنِ كُلِّهَا .

وَأَهْلُهَا يَا كَلُونُ صَيْدُ بَحْرِ الرُّومِ وَبَحْرِ فَارَسٍ طَرِيًّا ^(١) .

وَفِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ شَهْرِ الْقَبْطِ صِنْفٌ مِنَ الْمَاءِ كَوَلٍ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَشْمُومِ ، يَوْجَدُ
فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ . فَيَقَالُ : رُطَبُ تَوْتٍ ، وَرُمَّانُ بَابِهِ ، وَمَوْزُ هَاتُورٍ ، وَسَمَكُ كِيهِكْ ، وَمَاءُ
طُوبَةِ ، وَخُرُوفُ أَمَشِيرٍ ، وَلَبَنُ بَرْمَهَاتٍ ، وَوَرْدُ بَرْمُودِهِ ، وَنَبَقُ بَشْنَسٍ ، وَتَيْنُ بَثُونَةٍ ،
وَعَسَلُ أَبِيبٍ ، وَعَنْبُ مَسْرَى .

وَمِنْهَا أَنْ صَيْفُهَا خَرِيفٌ ، وَشَتَاؤها رَبِيعٌ ، وَمَا يَقْطَعُهُ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ
مِنَ الْفَوَاكِهِ يَوْجَدُ فِيهَا فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ : لِأَنَّهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ وَالرَّابِعِ ، فَسَلِمَتْ مِنْ
حَرِّ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَبَرْدِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ ^(٢) .

وَيَقَالُ : لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِ مِصْرَ إِلَّا أَنَّهَا تَغْنَى فِي الصَّيْفِ عَنِ الْخَلِيشِ وَالتَّلْجِ
وَيَطْوُونَ الْأَرْضَ ، وَفِي الشِّتَاءِ عَنِ الْوَقُودِ وَالْقِرَاءِ .

(١) يُشِيرُ إِلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ الْمُتَّصِلِ بِالْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ بِوَسْطَةِ بَحْرِ الْهِنْدِ .

(٢) قَارَنَ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي الْمُقْرِيزِيِّ (طَبْعُ بُولَاقِ ج ١ ص ٢٨) .

ومما وصفت به

أن صعيدها حجازي : حَجَره كحجر الحجاز ينبت النخل والدَّوم (وهو شجر المقل)،
والْعُشْر، والقَرْظ، والإِهْلِيلَج، والفُلْفُل، والحِيَارَ شَنْبَر. وأسفل أرضها شامي : يمطر
كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز
والفستق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين .

وهي ما بين أربع صفات : فضة بيضاء، أو مسكة سوداء، أو زبرجدة خضراء،
أو ذهبية صفراء . وذلك أن النيل يعم أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصب
عنها فتصير مسكة سوداء، ثم تُزرع فتصير زبرجدة خضراء، ثم تستحصد فتصير
ذهبية صفراء^(١) .

- ١٠ وحكى ابن زولاق في "فضائل مصر" أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمي]^(٢)
وقف بالميدان عند بركة الحبش، فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن كان معه : أترون
ما أرى؟ قالوا : وما يرى الأمير؟ قال : أرى عجبا ما في الدنيا مثله ! فقالوا : يقول
الأمير ! فقال : أرى ميدان رهان، وحيطان نخيل، وبستان شجر، ومنازل سكنى،
وذروة جبل، وجبانة أموات، ونهر أعجاجا، وأرض زرع، ومراعى ماشية،
١٥ ومراعى خيل، وساحل بحر . [وصائد نهر] وقانص وحش، وصائد سمك، وملاح^(٣)
سفينة، وحادي إبل، ومفازة رمل، وسهلا، وجبلا ! فهذه ثمانية عشر منتزعا
في أقل من ميل في ميل .

(١) قارن ذلك بما ورد في المقرئ (طبع بولاق ج ١ ص ٢٦) .

(٢) هو والى مصر في أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية . والزيادة عن المقرئ (طبع بولاق ج ٢ ص ١٥٣) .

- وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف اقصر أنس بالبصرة حيث يقول :
- زُرْ وادِي الْقَصْرِ نَعْمَ النَّصْرُ وَالْوَادِي ! * لَا بُدَّ مِنْ زُورَةٍ مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ .
- زُرُهُ فَلَيْسَ لَهُ شَيْءٌ يَشَاكِلُهُ * مِنْ مَنَزِلٍ حَاضِرٍ إِنْ شَتَّتَ أَوْ بَادَى .
- تَرَى بِهِ السُّتْفَنَ وَالظَّالِمَانَ حَاضِرَةً * وَالضُّبَّ وَالنُّونَ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادَى .
- وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ، يصف جبل الرصد مثل
- ما وُصف به قصر أنس :

(١) يا نُزْهَةَ الرَّصْدِ الْمَصْرَى قَدْ جَمَعْتَ * مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَلَاً فِي جَانِبِ الْوَادَى .

فَذَا غَدِيرٌ ، وَذَا رَوْضٌ ، وَذَا جَبَلٌ : * فَالضُّبُّ وَالنُّونُ وَالْمَلَّاحُ وَالْحَادَى .

فهذه نبذة من فضائل مصر . ولولا الرغبة في الاختصار ، لكانت فضائلها تكون

١٠ كتاباً مفرداً .

وأما جزيرة الأندلس

- فقد اقتصرْتُ في وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها ، فقال :
- ”...أَرْضُهَا شَامِيَّةٌ فِي طَبِيعِهَا ، تِهَامِيَّةٌ فِي أَعْتِدَالِهَا وَأَسْتَوَائِهَا ، أَهْوَازِيَّةٌ فِي عِظَمِ خَرَايجِهَا وَجَبَابَتِهَا ، عَدَنِيَّةٌ فِي مَنَافِعِ سَوَاحِلِهَا ، صِينِيَّةٌ فِي مَعَادِنِهَا ، هِنْدِيَّةٌ فِي عَطْرِهَا وَطَبِيعِهَا وَذِكَايَا . وَأَهْلُهَا عَرَبٌ فِي الْأَنْسَابِ وَالْعِزَّةِ وَالْأَتَقَةِ ، وَفَصَاحَةُ الْأَلْسُنِ ، وَطِيبُ الثَّفُوسِ ، وَإِبَاءُ الضِّيمِ ، وَقَلَّةُ أَحْتِمَالِ الذِّلِّ وَالْإِهَانَةِ ، وَالتَّزَاهَةُ عَنِ الْخُضُوعِ ؛ هِنْدِيُّونَ فِي فِرْطِ عَنَائَتِهِمْ بِالْعُلُومِ وَحُبِّهِمْ لَهَا ؛ بَغْدَادِيُّونَ فِي ظَرْفِهِمْ وَنِظَافَتِهِمْ ، وَرِقَّةُ أَخْلَاقِهِمْ

(١) هذه رواية المقرئ . أما الاصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق في الوزن للبقية هكذا :

يا نُزْهَةَ الرَّصْدِ الَّتِي قَدْ تَزَهَتْ * عَنْ كُلِّ شَيْءٍ الْخ

وَنَبَاهَتِهِمْ ، وَاطَافَةُ أَذْهَانِهِمْ ، وَحِدَّةُ أَفْكَارِهِمْ ؛ نَبَطِيَّوْنَ فِي اسْتِنْبَاطِ الْمِيَاهِ ، وَمُعَانَاتِهِمْ لِلْغِرَاسَةِ ، وَتَرْكِيبِ الشَّجَرِ وَالْفَلَاحَةِ ؛ صَيِّثُونَ فِي إِتْقَانِ الصَّنَائِعِ الْعَلَمِيَّةِ ، وَإِحْكَامِ الْمَهَنِ الصُّورِيَّةِ ؛ تَرْكِيبُونَ فِي مُعَانَاةِ الْحُرُوبِ وَمُعَالَجَةِ آلَاتِهَا ، وَالنَّظَرِ فِي مَهْمَاتِهَا .

قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ * مَجْتَلَى عَيْنٍ وَرِيًّا نَفْسٍ !

فَسَنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ * وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسٍ .

وقد أظهرت الأندلس جماعةً من الفضلاء والأعيان والأكابر ، ذكرهم ابن بسّام في كتابه المترجم "بالذخيرة" ، في محاسن أهل الجزيرة . وذكرهم الفتح بن خاقان في كتابه "المطمح" ، و"قلائد العقيان" وغيرهما .

وسندكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وأبتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها ، وهو في الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في التاريخ من اخبار الدولة الأموية في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة ٩٢ من الهجرة .

وَأَمَّا الْبَصْرَةُ وَمَا آخَتْصَتْ بِهِ

فمن خصائصها أن للغربان بها ضرباً من العَجَب . وذلك أنها تقع إليها بالخريف حتى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أُصْرَمُ ثمرها ، ولا تقع على ما لم تُصْرَمَ ، ولو بقى عليها عَذْقٌ واحد .

ومن عجائبها أيضاً ، أن التمر يكون مصبوحاً في بيادره ، فلا يقع عليه شيء من الذباب لا في الليل ولا في النهار .

وأهل البصرة يتخذون المِظَلَّات على التمر والعجوة خوفاً عليها من الخُنْأَش . ومن عادة الذباب الفرار من الشمس إلى الظلّ ، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه آلبته . فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طَلَسَم ، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب . وليس كذلك ، وإنما هو من حماية الله ووقايته .

- ووصف خالد بن صفوان البصرة، فقال : منابتها قَصَب ، وأنهارها عَجَب ، وسماؤها رُطَب ، وأرضها ذَهَب .
- وفي الكوفة عدم الوفاء .

وأما بغداد وما أختصت به

- فإنه يقال : إنها جنة الأرض ، ومجتمع الوافدين : دجلة والفُرات ، وواسطة الدنيا ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، لأنها غرة البلاد ، ودار السلام والخلافة ،
- وجمع الطوائف والطيبات ، ومعدن المحاسن واللطائف ، وبها أرباب النهايات في كل فن ، وآحاد الدهر في كل نوع .

وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا ، وما عداها بادية .

- وكان أبو الفضل بن العميد إذا طرأ عليه أحد وأراد امتحان عقله سأل عن
- بغداد . فان فطن لفضائلها وخواصها ، جعل ذلك مقدمة فضله وعنوان عقله .

وقال ابن زريق الكوفي ، الكاتب :

سَافَرْتُ أَبْغَى لِبَغْدَادٍ وَسَاكِئَهَا * مِثْلًا ، فَاوَلَّتْ شَيْئًا دُونَهُ الْيَأْسُ .
هِيَ بَاتِ ! بَغْدَادُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا * عِنْدِي ، وَسُكَّانُ بَغْدَادٍ هُمُ النَّاسُ .

وقال آخر :

سقى الله بغدادَ من جنة * غدت للورى نزهة الأنفس .
على أنها منيةُ المؤسرين ، * وليكنها حشرةُ المفلس .

وأما الأهواز وما آختصت به

٥ فقال أبو عثمان " عمرو بن بحر الجاحظ " : إن قَصَبَةَ الأهواز مخصوصة بالحمى الدائمة اللازمة ، حتى إنها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب .

وقال إبراهيم بن العباس عن مَشِيخة من أهلها عن القوابل بها : إنهن ربما قِلن الطفل المولود بها فيجدنه محوما ، ولا تكاد تُوجد بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية ، ولا دمٌّ ظاهر .

١٠ ومن عجائب خصائصها : أن جميع أصناف الطيب تستحيل رائحته فيها جذاً ، حتى لا تكاد توجد له رائحة . وذلك من كثرة الرطوبات ، وغلظ الهواء ، والأبخرة الفاسدة . (وهذا موجود بأنطاكية والقُسطنطينية) . ويقال : إن الخيل لا تنزوها ولا تضهل ، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن ، لما يلحقها من الربو ، لنداوة البلد وعفونته .

وأما فارس وما آختصت به

١٥ فمن خصائصها : ماء الورد الذي لا يُوجد مثله في سائر البلاد طيباً ، والجورى الموصوف من أحد بلادها يُجلب إلى أقاصى البلاد ، ويُضرب به المثل .
ولشيران من بلاد فارس فغمة طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس .

واما أصفهان وما آختصت به

- فهى موصوفة بصحة الهواء، وجودة التربة، وعدوبة الماء .
- وحكى أن الحجاج ولّى بعض خواصّه أصفهان، فقال له : قد وليتك بلدةً حَجَرها الكُحل، وذُبَابُها النَّحل، وحشيشُها الزَّعفران .
- ومن خصائص الرّى : بُرودُها موصوفة كبرود اليمن، وتسمّى العَدَنِيَّات تشبيهاً لها ببرودِ عَدَن . وفيها الثياب المنيرة .
- قالوا : واللص الحاذق ينسب إلى الرّى .

وأما جرجان وما آختصت به

- فهى سُهْلِيَّة جَبَلِيَّة، بَرِّيَّة بَحْرِيَّة . وأهلها يَعُدُّون زيادةً على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبُقُول، والحشائش الصَّخْرَاوِيَّة، والثمارِ والحبوب السُّهْلِيَّة التى هى مبدولة بها للفقراء والغرباء .
- ومن خصائصها : العُنب الذى لا يكون فى سائر البلاد مثله، ويقال : هى بغداد الصَّغرى، إلا أنها وِيبَةٌ، مختلفة الهواء فى اليوم الواحد، قَتَّالَةٌ للغرباء، كثيرة الأنداء .
- ويقال : جُرجان مقبرة أهل نُحْرَاسان .
- وفى بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُسَاق إليها قصار الأعمار من الناس .
- وكان أبو تراب النيسابورى يقول : لما قُسمت البلادُ بين الملائكة، وقعتْ جُرجانُ فى قسم أبى يحيى (يعنى مَلَك الموت) .

وأما نيسابور وما أختصت به

فحكى عن عمرو بن الليث الصَّفَّار أنه كان يقول : كيف لا أقاتِلُ عن بلدة
حشيشها الرِّياس، وتُرابها الثُّقل، وسجَّرها الفيروزَج. أراد بقوله : ”تُرابها الثُّقل“
طينَ الأكل الذي لا يوجد مثله في الأرض، ويحمل منها إلى أقصى البلاد وأدانيها،
ويُتخف به الملوك. قالوا : وربما بيع الرُّطل منه بدينار. قال المأمون يصفه :
جُد لي من الثُّقل، فذاك الذي * منه خُلِقنا وإليه نَصِيرُ.
ذاك الذي يُحسب في مثله * أحجار كافورٍ عليها عيَرُ.

قالوا : والفيروزَج لا يكون إلا في نيسابور، وربما بلغت قيمة الفَص منه — الذي
إذا أربى وزنه على مثقال، وجمع الخضرة والاستدارة، وصبر على النار، وأمتع
على المبرد، ولم يتغير بالماء الحار — مائتي دينار.

ويقال إن له خاصية في تقوية القلب بالنظر إليه، كما أنَّ للياقوت خاصية
في مسرة النفس.

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد السامانيُّ، ملك ماوراء النهر وخراسان، آستحسنها
وآستطابها، وقال : يا لها من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان ! كان ينبغي أن تكون مياهها
التي في باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها التي على ظهرها في بطنها.
ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرقاق.

وأهلها لا يكرمون الغريب. قال المرادي :

لا تترَلَبْ بنيسابور مغترباً * إلا وحَبْلُكَ موصولٌ بسُلطان.
أولاً، فلا أدب يُغنى ولا حَسَبٌ * يُجدي ولا حُرمة تُرعى لإنسان.

وقال أيضا فيها :

قال المُرَادِيّ قَوْلًا غَيْرَ مَتَّهَمٍ ، * والنَّصْحُ مَا كَانَ مِنْ ذِي اللَّبِّ مَقْبُولٌ :
لا تَنْزِلَنَّ بَنِي سَابُورَ مُغْتَرِبًا ، * إنَّ الْغَرِيبَ بَنِي سَابُورَ تَحْذُولُ .

وأما طُوس وما آخِصَّتْ به

١٢٧

- ٥ فمن خصائصها السَّبَج الذي لا يكون إلا بها ، ومنها يُنْقَل إلى الآفاق ، والحجر الأبيض الذي تتخذ منه القُدُور .

ويقال : إن الله عز وجل أَلَانَ لأهلها الحجارة كما أَلَانَ لداود الحديد ، حتَّى إنهم يتخذون منها ما يتخذ غيرهم من الزُّجاج من سائر الأواني .

وأما بَلَخ وما آخِصَّتْ به

- ١٠ فيقال : هي من أقدم البلاد وأخصَّها بالملوك ، وهي شبيهة بالعراق ، وخراسان ، والهند . وإليها ينسب جَيْحُونَ ، فيقال : نهر بلخ .
وكان سعيد بن الحسن يقول : العَيْش في الصَّيْف بِلَخ كَتَصْحِيفِهَا ^(١) .
ومن خصائصها البخاقى والنَّيْلُوفَر ^(٢) .

(١) أى مثل تلخ .

- (٢) في الأصل : النجادی . [وهو تحريف لاشك فيه] . "والبخاقى" هي نوع من النياق اشتهرت بها هذه المدينة . قال ابن حوقل الرحالة البغدادي الشهير في كتابه "المسالك والممالك" (ص ٣٢٨ ، ٣٢٩) ما نصه :

"ويرتفع من بلخ وأعمالها في نفسها النوق المتقدمة على ما في جنسها وتعرف بالبخاقى ولا نظير لها من جنسها في جميع الأرض . وبها الأترج والنيلوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الا أنه لا نخيل بها" .

وأما بُسْت وما آختصت به

فيقال : إن هواءها كهواء العراق ، وماءها كماء الفُرات ؛ ومن خصائصها الإجاص الذي لا يوجد مثله في غيرها . ويقال : إن مَنْ مات بُسْت مغفوراً له فقد آنتقل من جَنَّة إلى جَنَّة .

وأما غَزَنَة وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء ، وجودة التربة ، وعدوبة الماء . وهى جبلية شمالية ؛ ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة ، والأمراض قليلة . قالوا : وهى أرض تنبت الذهب ، ولا تولد الحيات والعقارب والحشرات المؤذية . ومنها خرج الأجلاء الأنجاد من الرجال .

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان : لم أربلدة فى الصيف أطيب ، وفى الربيع أشبه ، ومن الحشرات أنظف من غزنة . ثم قال : إن قلَّة ثمارها من منافعها ، لأن كثرة الثمار مقترنة بكثرة الأمراض . وقد وصفها صاحب كتاب "لطائف المعارف" فقال :

وأها لغَزَنَة إِذْ غَدَتْ * لِلدُّلِكِ وَالْإِسْلَامِ دَارًا .
من كَعْبَةٍ قَدْ أَصْبَحَتْ * لِلجَّعْدِ وَالْعَلْيَا مَدَارًا .
فِي صَدْرِهَا الْمَلِكُ الَّذِي * قُطِبُ السُّعُودِ عَلَيْهِ دَارًا .

وقال أيضا فيها :

يَا دَارَ مُلْكٍ نَرَى كُلَّ الْجَمَالِ بِهَا * وَأُسْعِدَ الدَّهْرَ تَبْدُو مِنْ جَوَانِبِهَا .
كَأَنَّمَا جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ قَدْ نَزَلَتْ * بِأَرْضِ غَزَنَةِ تَعْجِيلًا لِصَاحِبِهَا .

وأما سنجستان وما آختصت به

فيقال فيها : مأوها وشل ، وثمرها دقل ، ولصها بطل .
ومما تختص به الطاسات وجلاجل البزاة ، والطبول الموكية ، والفُرش الديباج .

وأما الهند وما آختصت به

فيقال : الهند بحرها دُر ، وجبلها ياقوت ، وشجرها عُود ، وورقها عطر .
وعُود الهند يذكر مع أمهات الطيب .
وفي الهند الفيل ، والكَرَّكْدَن ، والْبَرْ ، والطاؤوس ، والْبِغَاء .
وفيه الياقوتُ الأحمر ، والصَّندل الأبيض ، والعاج ، وأصناف العطر ، والثياب
المُخَمَّلَة وغيرها ، والألانس^(١) ، والأقمشة .

وأما الصين وما آختصت به

فإن العرب تقول لكل طُرْفَة من الأواني : صينية كائنة ما كانت : لأختصاص
الصين بالطرائف .
وأهل الصين خُصُّوا بصناعة الطَّرَف ، والملح ، ونَحْرَط التماثيل ، والإبداع
في عمل النقوش والتصاوير ، حتَّى إن مصوِّرهم يصوِّر الإنسان فلا يغادر شيئاً
إلا الروح ، ثم لا يرضى بذلك حتَّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك المتجمل ، وبين
المتبسّم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور والهازي ، ويركّب صورة في صورة .
وفيه مناديل الغمر التي إذا أُنْسِخت وأُلْقِيَتْ في النار ، نُقِّيَتْ ولم تحترق .

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن الفلانس .

وفيه الحديد . وربما اشترى بأضعاف وزنه فضة .

وفيه السنجاب الفارحاني الذي هو من أنفس الأوبار . وفيه اللُّبُود الجياد .

قال الجاحظ في كتاب "النظر في التجارة" : إن خير اللُّبُود الصينية ، ثم المغربية الحمر ، ثم الطالقانية البيض .

وأما سمرقند وما آختصت به

قال قتيبة بن مسلم ، لما أشرف على سمرقند لأصحابه : شبهوها ، فلم يأتوا فيها بشيء ، فقال : كأنها السماء في الحضرة ، وكأن قصورها النجوم الزاهرة ، وكأن أنهارها الحجر . فاستحسنوا هذا التشبيه .

ومن خصائصها : الكواغد التي عطلت قراطيس مصر ، والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرق وأرق . ولا تكون إلا بها وبالصين .
ومن خصائصها : الثياب الودارية ، والنشادر ، والزئبق ، والبندق .

وأما بلاد الترك وما آختصت به

فانه يقال . إنها توازن بلاد الهند في كثرة الخصاص .

وفيه المسك والسنجاب والسمور والقاقم والفنك والثعالب السود والأرانب البيض وغير ذلك . وفيها البزة البيض والخليل .

وتثبت من بلاد الترك خاصية : أنه من أقام بها اعتراه سرور لا يدري ما سببه ، ولا يزال متبسما ضاحكا ، وأن الميت إذا مات فيها لا يدخل على أهله كبير حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب .



وأما خُوارزَم وما آخِطَصَتْ به

فإنها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها في الحصائص والمتاجر.

ومن خصائصها البطيخ الذي يقال له "النارنج" يقال إنه أحلى البطاطيخ وأطيبها. وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق في قوالب الرصاص، معبأة في الثلج. فكانت تُقوم الواحدة منه — إذا سلمت ووصلت — بسبعائة درهم. والله أعلم.

ذكر الحصائص التي تجرى مجرى الطلسمات

منها :

مدينة "خبيص" من مُدن كَرْمَان. لا يُطر المطر فيها داخل السور أبدا حتى إن الرجل يُخرج يده من سورها إلى خارجها، فتبتل يده ولا يتبل ساعده.

وبقرية من قُرى كَرْمَان أيضا "حصن عادي" ليس فيه فأر. وإذا دخل إليه فأر، مات.

ومدينة "حمص" لا يُوجد فيها عقرب. وإذا نُثر ترابها على ظهر عقرب، مات. وكذلك قلعة أعزاز من أعمال حلب. ويقال إنه لا يدخل مدينتها حيّة. ومتى نُثر عليها من ترابها، ماتت لوقتها. ولا يوجد فيها بعوض آلبتة. وإن الرجل متى أخرج

يده من السور، وقع عليها، فإذا أدخل يده، طار عنها.

و"بمصر" أن التماسيح إذا ساقها الماء إليها وحاذتها، انقلبت على ظهرها. فإذا بُعدت عنها، لا تضر أحدا. بخلاف ماهي في بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ما تظفر به من الحيوان حتى الخيل. ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس.

ومدينة "سجلماسة" لا يوجد فيها ذباب آلبتة.

(١) كذا ذكرها أيضا في النجوم بالهمزة. وفي المعجم "عزاز" بدونها.

(٢) يعني مصر العتيقة أي القسطنطينية.

ذكر خصائص البلاد في أشياء مختلفة

- (وهي العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والقرش، والمراكب،
والحيوانات ذوات السموم، والحملوى، والثمار، والرياحين،
والخلق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العلوية)
- ٥ أما خصائصها العلمية والعملية، فيقال : حكماء اليونان، وأطباء جنديسابور،
وصاغة حران، وحاكّة اليمن، وكتاب السّواد .
- ومن خصائصها في الجواهر، يقال : فيروزج نيسابور، وياقوت سمرنديب،
ولؤلؤ عُمان، وزبرجد مصر، وعقيق اليمن، وجزع ظفار، وبجادى بلخ، ومرجان
إفريقية .
- ١٠ ومن خصائصها في الملابس، يقال : برود اليمن، ووشى صنعاء، ورَيط الشام،
وقصب مصر، وديباج الروم، وقزّ السّوس، وحرير الصين، وأكسية فارس، وحلّ
أصبهان، وسقلاطون بغداد، وعمائم الأبلّة، ومُنير الرى، ومُلحم مرو، وتكك
أرمينية، ومناديل الدّامغان، وجوارب قرّوين .
- ومن خصائصها في الأوبار، يقال : سنجاب خرخيز، وسمّور بُغار، وعتالب
الخزر، وفنك كاشغر، وحواصل هَرَآة^(١)، وقاقم تغرغر .
- ١٥

(١) ورد هذا اللفظ في كثير من كتب العرب بمعنى الجلود السنية التي يتدفأ بها أهل الترف والنعيم
فقد ذكر الهمداني (ص ٢٣٥) الفنك والسمور والقاقم والحواصل والوشى والدلق الخ . وذكره
ابن البيطار فقال : «أنه طائر يكون بمصر كثيرا يعرف بالكنى (بضم الكاف وإسكان الياء) المنقوطة
بأثنتين من أسفل) ... ولباسه يصلح للشباب وذوى الأمزاج الحارة ومن يغلب عليه الصفراء» .
وذكر السيوطي في الجزء الثاني من "حسن المحاضرة" لطائف مصر وأورد من جملة الحوصل (بغير
ألف في النسخة المطبوعة طبع حجر بمصر، ص ١٧٦) حيث قال ما نصه : «وطير الحوصل يعمل
من جلده الخفاف الناعمة والفرا الأبيض الذى يقوم مقام الفنك في لبته ورقته» .

٢٠

ومن خصائصها في الفرش، يقال : بُسَطَ أَرَمِينِيَّةٌ، وَزَلَالِيٌّ قَالِيَقَلَا، وَمَطَارُحٌ مَيْسَانٌ، وَحُصْرٌ بَغْدَادٌ ^(١).

ومن خصائصها في المراكب، يقال : عَتَاقُ الْبَادِيَةِ، وَنَجَائِبُ الْحِجَازِ، وَبَرَاذِينُ طَخَارِسْتَانٍ، وَحَمِيرُ مِصْرَ، وَيَغَالُ بَرْدَعَةُ.

ومن خصائصها في الحيوانات ذوات السموم، يقال : أَفَاعِي سِجِسْتَانٍ، وَحَيَّاتُ أَصْفَهَانٍ، وَثَعَابِيْنُ مِصْرَ، وَعَقَارِبُ شَهْرُزُورٍ، وَجَرَّارَاتُ الْأَهْوَازِ، وَبَرَاغِيثُ أَرَمِينِيَّةٍ، وَفَارُ أَرْزَنَ، وَنَمْلٌ مَيَّا فَارَقِيْنَ، وَذَبَابٌ تَلُ فَاقَانَ، وَاقْدَاحٌ نَلْدٌ ^(٢) ^(٣).

ومن خصائصها في الحلواء، يقال : سُكَّرُ الْأَهْوَازِ، وَعَسَلُ أَصْفَهَانَ، وَفَانِيذُ مَاكِسَانَ وَدِبْسُ أَرْجَانٍ ^(٤).

- ١٠ (١) اعلمه مصحف عن "حصر عبادان" لأن المقرئ طالمًا يتكلم عن الحصر العبدانية في مواضع كثيرة جدًا من خطه. وكذلك السيوطي قال في لطائف مصر: «و بها من الحصر العبداني ومن سائر أصناف الحصر ما لا يوجد في غيرها». وقال المقدسي ص ١١٨ «ان أكثر أهل عبادان صناع الحصر من الحلفاء» وكانت هذه الحصر في غاية من الجمال حتى كان أهل مصر يقلدونهم كما رأينا من عبارة السيوطي.
- (٢) مفردة "قدح" وقال في انقاموس : «والقدح والقادح أ كال يقع في الشجر والاسنان... والقادحة الدودة». وقال ابن البيطار في كلامه على "التربد" نوع من النبات مانصه : «والتربد اذا طلل به الزمان عمل فيه القادح كما يعمل في الخشب ... تراه مثقباً كأنه ثقب برأس ابرة». ثم قال في بقية الكلام ما نصه : «لا يجب أن يستعمل منه (أي التربد) إلا ... السليم من السوس». ^{١٥}
- (٣) هكذا في الأصل . وربما كان محرفاً عن "بلد" المدينة المشهورة في العراق .
- (٤) كذا في الأصل وصوابه "ماسكان" وقد أوردتها ياقوت فقال «انها بلد مشهور بالنواحي المجاورة لمكران وراء سجستان» ثم قال «ولا يوجد الفانيد بغير مكان إلا بهذا الموضع ... واليه ينسب الفانيد الماسكاني».
- ٢٠

ومن خصائصها في الثمار ، يقال : رُطَب العراق ، وتمَر كُردمان ، وعُنَّاب جُرْجان ، وإجَّاص بُسْت ، وسَفَرَجَل نيسابور ، وتَفَّاح الشام ، ومِشْمَش طوس ، وكُكْثَرى نَهْاوَنْد ، وأُتْرُج طبرستان ، ونارَنْج البصرة ، وتين حُلوان ، وعنب بغداد ، وقِشْمَش هراة ، وموز اليمن ، وجوز الهند ، وبَطِّيخ خُوارزْم ، وباقلَاء الكوفة .

ومن خصائصها في الرياحين ، يقال : نَرْجِس جُرْجان ، وورد جور ، ونيلوفر السيروان ، ومنتور بغداد ، وزعفران قُم ، وشاهسُقرم سمرقند .

ومن خصائصها في الخلق والأخلاق ، يقال : سُقْرة الروم ، وسَواد الزنج ، وغَلَّظ الترك ، وجَفَاء الحِليل ، ودَمَامَة الصِّين ، وقِصر يَأْجُوج .

ومن خصائصها في الأمراض ، يقال : طواعين الشام ، وطِحَال البحرين ، ودَمَامِيل الجزيرة ، وحمى خير ، وجُنُون حمص ، وعَمَرَق اليمن ، ووباء مصر ، وِرْسَام العراق ، والنارُ الفارسية ، وقُرُوح بَلخ .

ومن خصائصها في الآثار العلوية ، يقال : شِتَاء أرمينية ، ومَصِيف عُمان ، وصواعق تِهَامه ، وزَلَزِل دَبِيل .

١٢٩

وقال الجاحظ في "كتاب الأمصار" : الصناعة بالبصرة ، والفَصَاحَة بالكوفة ، والتَّخْنِيث ببغداد ، والطَّرْمَذَة بسمرقند ، والغى بالرى ، والجَفَاء بنيسابور ، والحُسْن بهراة ، والمُرْوَة ببلخ ، والبُخْل بمرو ، والعجائب بمِصر .

وحكى عن عمرو بن عامر مُزَيِّقياً ، أنه قال لقومه لما تحقق كون سيل العرم : مَنْ كَانْ ذَا شَاءٍ وَبَعِيرٍ وَجَمَلٍ غَيْرِ شُرُودٍ ، فليلحق بالشَّعب من كُوفان ، فاحقَّتْ به

هَمْدَان ، وَمَنْ كَانَ ذَا سِيَّاسَةٍ وَصَبْرٌ عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ فَلْيَلْحَقْ بِبَطْنِ مَرٍّ ، فَلَحِقَتْ بِهِ
خُرَّاعَةٌ . وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الرَّاسِخَاتِ فِي الْوَحْلِ ، الْمُطْعِمَاتِ فِي الْمَحْلِ ، فَلْيَلْحَقْ بِبَيْثْرِ
ذَاتِ النَّخْلِ ، فَلَحِقَتْ بِهَا بَنُو قَيْلَةٍ ، وَهُمْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ
وَالْأَمْرِ وَالْتَّامِيرِ فَلْيَلْحَقْ بِبُصْرَى وَسَدِيرِ (وهي من أرض الشام) ، فَلَحِقَتْ بِهِ غَسَّانُ ،
وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الثِّيَابِ الرَّقَاقِ ، وَالْخِيُولِ الْعِتَاقِ ، وَالذَّهَبَ وَالْأُورَاقَ ، فَلْيَلْحَقْ
بِالْعِرَاقِ ، فَلَحِقَتْ بِهِ نَحْمٌ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأول

(في المباني القديمة)

والمباني القديمة كثيرة، فلنذكر منها ما عظم خطره، وشاع في الآفاق ذكره .

ذكر أول بناء وضع على وجه الأرض

قيل : أول ما بنى على وجه الأرض "الصرح" ويسمى "المجدل" بناء التمرود الأكبر
آبَنُ كُوشِ بْنِ حَامِ بْنِ نُوحٍ ، بِكُوشِ رَبِّي مِنْ أَرْضِ بَابِلَ . قيل : وبها إلى هذا العصر
من أثره كالجبال . وكان طوله في الهواء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف
ذراع . وكان مبنيًا بالحجارة والرصاص والكلس والشمع واللبن . بناه يمينه وقومه
من بأس الله عز وجل . وكان قد كفر وطغى . وادعى الألوهية ، فأرسل الله تعالى

إليه جبريل ، فضربه بخافقة جناحه فهدمه ، وهام من كان حوله على وجهه ، وقد تبليت ألسنتهم من الدهش والدعر ، فكانت عنه هذه اللغات التي يتكلم بها سائر الأمم ، وهي آثنتان وسبعون لغةً ، وسميت تلك الأرض التي كان بها بابل .

ذكر خبر إرم ذات العماد

وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

وكان سبب عمارتها أن شداد بن عاد بن إرم لما سمع وصف الجنة سؤلته نفسه أن يبنى مثلها . فبنى مدينة بين حضرموت وصنعاء ، طولها اثنا عشر فرسخا ، وعرضها مثل ذلك . وأحاط بها سورا ارتفاعه خمسمائة ذراع ، غشاه بصفائح الفضة المموجة بالذهب ، فلا يدركه البصر إذا أشرقت عليه الشمس . وبنى داخلها مائة ألف قصر (بعدد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفضة ، وكذلك جدوع سقوفها وأعمدتها . وأجرى في وسطها نهرا صَفَحَ أرضه بالذهب ، وجعل على حافته أنواع الجواهر والياقوت بدلا من الحصباء وألقى فيه المسك والعنبر بدلا من الحمأة . وفتح منه جداول إلى تلك القصور والمنازل ، وغرس على شطوطها من الأشجار ما كان لزهرة عرف طيب ورائحة ذكية .

زعموا أنه أقام في بنائها ثلثمائة سنة ، فلما تم بناؤها ، زاد في طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكنها . فلما أشرف عليها جاءتته صيحة من السماء فأهلكته هو وجنوده .

ويروى أن عبد الله بن قلابه خرج في طلب إبل له نذت فوقه عليها، فحمل ما قدر عليه، فبلغ معاوية خبره، فاستحضره وسأله فقص عليه قصته. فبعث معاوية إلى كعب الأبحار، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك: أحمق قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له نذت. ثم ألتفت فرأى ابن قلابه فقال: هذا والله ذاك الرجل.

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سميت ذات العماد. وقد ذهب قوم إلى أنها دهشق.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شديد وشداد، أبني عاد، وهو في الباب الخامس من القسم الأول، من الفن الخامس في التاريخ، وذلك في السفر الحادي عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. والله تعالى أعلم.

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو في الإقليم السادس في آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء.

قال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آخراق الآفاق"، إن الواثق بالله لما رأى في المنام كأن السد الذي بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سلاهما الترجمان وقال له:

(١) إن ابن خرداذبة هو أول من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم أتمتله منه من الكتاب

الذي كان كتبه في هذا المعنى للخليفة الواثق بالله (انظر المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ -

سنة ١٨٨٩ م من صفحة ١٦٢ - ١٧٠). وعن ابن خرداذبة نقل جميع المؤلفين الذين

جاءوا بعده مثل الإدريسي وأبن رسته وأبن الفقيه الهمداني والمقدسي. وقد نقل النويري عن

الإدريسي. وكلهم قد يزيد وينقص بعض الكلمات أو يبدلها بغيرها.

أذهب فانظر إلى هذا السد وجئني بخبره وحاله وما هو عليه ، ثم أمر له بأصحاب
يسرون معه ، عددهم خمسون رجلا ، ووصله بخمسة آلاف دينار ، وأعطاه ديتة عشرة
آلاف درهم ، وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم ورزق
سنة ، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام الترجمان : فشخصنا
من سامرا بكتاب الوثائق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية بالنظر إلى تنفيذنا
من هناك ، فكتب لنا كتابا إلى ملك السريير وأنفذنا إليه . فلما وردنا عليه ،
أشخصنا إلى ملك اللان . فلما وصلنا إليه ، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه . فلما
وردنا عليه [أرسلنا إلى ملك الخزر وهو] آختر لنا خمسة أدلاء يدئون على الطريق .
فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما في تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض
سوداء طويلة ممتدة كريهة الرائحة ، فشققناها في عشرة أيام . وكنا قد تزودنا لقطعها
أشياء نشمها خوفا من أذى روائحها الكريهة . ثم انفصلنا عنها . فسرنا مدة شهر في بلاد
خراب قد درست ابنتها ولم يبق منها إلا رسوم يستدل بها عليها . فسألنا من معنا
عن تلك المدن ، فأخبرونا أنها المدن التي كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخربونها .
ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي في شعبة السد وذلك في ستة أيام .
وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهناك مدينة يدعى ملكها
خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب . فسألونا من أين أقبلنا ،
فأخبرناهم أننا رُسل أمير المؤمنين الوثائق بالله ، فعجبوا منا ومن قولنا ”أمير المؤمنين“
ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شاب ؟ فقلنا : شاب ، فعجبوا أيضا .
ثم قالوا : وأين يكون ؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سمر من رأى . فعجبوا أيضا

- من ذلك ، وقالوا : ما سمعنا هذا قط . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم
وَمَنْ عَلَّمَهُ لَهُمْ ؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة
العُنُق طويلة اليدين والرجلين ، لها في موضع صلبها حَدَبَةٌ ، (فعلنا أنهم يصفون الجمل)
قالوا : فترل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علمنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا
أيضا القرآن ومعانيه فتعلمناه وحفظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هذا إلى السد
لُنَبِّئِرَهُ ، فسرنا عن المدينة نحواً من فرسخين ، فوصلنا السد . فإذا جبل مقطوع بوادي
عرضه مائة وخمسون ذراعاً ، وله في وسط هذا الفناء باب من حديد طوله خمسون
ذراعاً قد اكتنفه عضادتان ، عرض كل عضادة منهما خمسة وعشرون ذراعاً . والظاهر
من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله مبنى بلبن الحديد مغيب بالنحاس . وارتفاع
العضادتين خمسون ذراعاً ، وعلى أعلى العضادتين دروند حديد ، طوله مائة وعشرون
ذراعاً . والدروند للعتبة العليا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار
عشرة أذرع . ومن فوق الدروند بنيان متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس
الجبل ، وارتفاعه مد البصر . وفوقه شُرَافَات حديد ، في طرف كل شُرَافَة قرنتان
تتثنى أطراف كل واحدة منهما على الأخرى ، وللباب مصراعان مغلقتان ، عرض كل
مِصْرَاع خمسون ذراعاً في ثخن خمسة أذرع ، وقائمتاهما في دَوَّارَة على قدر الدروند . وعلى
الباب قفل طوله سبعة أذرع في غَلْظ ذراع في الاستدارة ، وارتفاع القفل من الأرض
خمسة وعشرون ذراعاً . وفوق القفل بخمسة أذرع غَلَق طوله أكثر من طول القفل ،

(١) هذه رواية ابن خرداذبة . وفي الأصل « قرنان مثني الأطراف بعضها الى بعض » . ورواية

المقدمي : « قرنان يثنى كل واحد الى صاحبه » .

وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف ، وله اثنتا عشرة دنداجة ، كل دنداجة منها كأغلظ ما يكون من دسائج الهواوين ، معلق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق . وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ماتحت العضادتين ، الظاهر منها خمسة أذرع . وكلها مكالة بالذراع السوادى . ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة مع عشرة فوارس ، مع كل فارس إرزبة حديد ، كل إرزبة خمسة أمتان . فيضرب القفل بتلك الإرزبات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب . فيعلم أن هناك حفظة ، ويعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا في الباب حدنا . وإذا ضرب أصحاب الإرزبات القفل ، وضعوا آذانهم ليسمعوا ما وراء الباب ، فيسمعون من ورائه دويًا يدل على أن خلفه بشرًا . وبالقرب من هذا الموضع حصن يكون عشرة [فراخ] في عشرة [فراخ] . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع ، وبين هذين الحصنين عين ماء عذبة ، في أحد الحصنين آلة البناء التي بُني بها السد من قدور الحديد ومغارف الحديد ، والقدور فوق ديكانات على كل ديكان أربع قدور مثل قدور الصابون ، وهناك أيضا بقايا من لبن الحديد

١٢١

(١) هذه رواية الإدريسي . والذي في ابن خرداذبة "دندانكة" وهي كلمة فارسية معناها "سن" والمراد أسنان المفتاح .

(٢) الدستج كلمة فارسية معناها "يد الهاون" أى المدق الذى تدق به الأشياء في الهاون .

(٣) في ابن خرداذبة ما يفيد أن المفتاح وحده هو المعلق في السلسلة وهذا نص روايته : « معلق في سلسلة ماحومة بالباب طولها ثمانى أذرع في استدارة أربعة أشبار والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق » وهي رواية معقولة أكثر مما ورد في المتن لأن المفتاح فقط هو الذى يصح تعليقه دون القفل والغلق .

(٤) كلمة فارسية يقابلها عند العرب "الأثافي" .

التي بُني بها السد وقد ألصق بعضها ببعض من الصدياء، وطول اللبنة ذراع ونصف في ارتفاع شبر .

قال سلام التريخان : وقد سألنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رأوا أحدا من يأجوج ومأجوج قط ، فأخبرونا أنهم رأوا منهم [مرة^(١)] عددا فوق شُرُفات الردم ، فهبت عليهم ريح عاصفة ، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفات كلها ، ثم أنصرفنا مع الأدلاء من تلك الحصون ، فأخذوا بنا على ناحية نُرَاسان . فسرنا إلى مدينة بختان ، إلى غُرَيان ، إلى مدينة برساخان ، إلى انطارار ، إلى سمرقند ، فوصلنا إلى عبد الله بن طاهر ، ثم وصلنا إلى الري ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغيبنا في سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدث به سلام .

وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي في تفسيره : إن ارتفاع السد مائتا ذراع وخمسون ذراعا . قال : وروى في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ ، وفي عرضه خمسون ذراعا . نقله عن وهب بن منبه .

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار السد وكيفية بنائه وطوله وعرضه ، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذي القرنين . فتأمله هناك ، وهو في الباب

(١) في ابن خرداذبه : « فهبت ريح سوداء فآلقتهم إلى جانبهم » أي إلى الجهة التي ظهر منها أولئك

الناس ، وهو المعقول ، لانه عقب بأن طول الرجل كان شبرين ونصفا ، ومعنى ذلك في رأى العين

من هذا العلو فتنبه .

الأول من القسم الرابع من الفن الخامس في التاريخ، وهو في السفر الثاني عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

ذكر مباني الفُرس المشهورة

ومباني الفرس كثيرة : قديمة وحديثة .

٥ فمن قديمها "سَدُّ اللَّيْلِ" . بناء قَبَاذ بن فيروز ، وقيل إن الذي بناه أبوه كسرى .
آبن قباد بن فيروز . كذا ورد في التاريخ .

وهذا السد من أرض شَرَوَانَ إلى بلاد الأَلان ، وبينهما مائة فرسخ ، بين شعاب جبل القَبْقُ . وهو جبل عظيم قد آسَمَل على آثنتين وسبعين أمة ، لكل أمة لسان وملك ، لا يعرف بعضهم بعضا لكثرة غياضه وأشجاره ، وفيه عيون وأنهار ، وتقدير مسافته طولا وعرضا نحو شهرين . ١٠

ومبدأ السور من جوف بحر الخَزَر على مقدار مسافة ميل ما رآ إلى البر ، ثم يمتد إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان . وهو مبنى بالصخر والحديد والرصاص . بناه على زِقَاق البقر المنفوخة ، فكان كلما أرتفع البناء نزلت تلك الزِقَاقُ إلى أن آستقرت في قعر البحر ، فغاصت الرجال بالخناجر فشَقُّوها فتمكن البناء . وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التي تجعل من أجله ، وبنى عليه حصنا وأسكن فيه مَنْ يحفظ ذلك الباب ويحرسه . ١٥

وزعم المؤرخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الخَزَر كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ هَمَذَانَ والموصل ، فحجزهم بهذا السور .

ومن مبانى الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودى أن سابور ذا الأكتاف بناه فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا فى ارتفاع مائة ذراع، وطول كل شُرْفَةٍ منه خمسة عشر ذراعا .

- ٥ ولما ملك المسلمون المداين، أحرق ستر هذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهباً .

- ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن ينقُضَه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمك فى ذلك فنهاء، وقال : ”هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذى بناه لا يُزِيل ملكه إلا نبيّ والمؤونة على نقضه أكثر من الارتفاق به“ . فقال له : ”أبيت إلا ميلا إلى المعجم“ فهدمت منه ثلثة . فبلغت النفقة عليها مالا كثيرا ، فأمسك المنصور عن هدمه ، فقال له خالد : ”أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس بعجزك عن هدم ما بناه غيرك“ فلم يفعل .

- وحكى مثل هذه القصة أنها وقعت ليحيى بن خالد مع الرشيد ، وهو إذ ذاك فى اعتقاله . وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزا فأراد هدمه وأستشار يحيى فأشار عليه بمثل هذا .

- ١٥ ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرَفاته هُدمت وجُعِلت فى أساس سور بغداد .

وقال ابن الأثير فى تاريخه إن الإيوان باقٍ إلى الآن . (وكان يوم ذاك فى سنة خمس وعشرين وستمائة) ، والله أعلم .

ومن المباني القديمة الحضر

وكان حصننا حصينا مبنياً بالرخام، يسكنه ملوك الضيَّازن. وهو بين دجلة والفرات،
بحيال تكريت .

ويقال إن بانيه الساطرون . وذكر أن قصر ملكه قائم إلى وقتنا هذا في وسط
المدينة، وفي وسطه هيكل مربع مبنّى بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني .

حكى أن سابور الجنود حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه . واتفق أن بنت ملكه
وهي النضرة بنت الضيَّزن حاضت، فأخرجت من القصر إلى ربضه لأجل ذلك .
فأرأت سابور، وكان جميل الصورة، فعشيقته . فأرسلت إليه تقول : إن ملكك الحصن
فما تجعل لي؟ قال : حَكَمْتُكَ . قالت : تتزوج بي . فأجابها إلى ذلك، فقالت له : خذ
حمامة ورقاء مطوقة، فاخضب رجلها بدم حيض جارية بكر زرقاء، وأرسلها . فإنها تقع
على سور البلد فيقع لوقتته . وكان ذلك حلَّ طَلَسَمَ له . ففعل ذلك ، فوقع السور
ودخل سابور الحصن وقتل ملكه وأصحابه وأصطفى ابنته لنفسه . فلما كانت ليلة
دخولها عليه، لم تزل متململة قلقة طول ليلتها، فالتمس سابور ما الذي قلقَت من أجله ،
فإذا ورقة آس قد لصقت بعُكْنَةٍ من عُكْنِها، فقال لها : ما كان أبوك يغدوك؟
فقالت : الزُّبْد والمُخَّ وشهد أبقار النحل والخمر، فقال لها : أنا أحق منك بشار
أبيك، ثم أمر رجلاً أن يركب فرسا جموحاً وأن يربط غدائرها في ذنبه ويركض به .
ففعل ذلك ، فتقطعت .

(١) في ياقوت : "النضيرة" .

وهذا الحصن قد اختلف في موضعه . فقليل : بحيال تكريت بين دجلة والفرات .
وقيل : بالجزيرة . ويقال إنه كان حاجزا بين الروم والفرس ، وملكته الزباء بنت
مليح^(١) وأسمها فارعة .

وفيه يقول عدى بن زيد العبادي من قصيدة :

وأخو الحضرة إذ بناه وإذ دجَّ سلةً تُجني إليه والخابور .
شاده مَرَمَرًا وكَلَّله كَلَسًا فللطير في ذراه ومكور .
لم يهبه ريب المنون فبادر السُّمْلُك عنه فبأبه مهجور .

ومن المباني القديمة القليس

وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ، ملك اليمن بصنعاء . ونقل إليها الرخام
المجزع والملون ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس . وكان أراد أن يرفع
بناها حتى يشرف منها على بحر عدن . فلما أهلكه الله تعالى وفترق ملكه ، أقفر
ما حول هذه الكنيسة ، وكثرت حولها السباع والحشرات . وبقيت إلى زمن
السفاح فذكر له أمرها ، فبعث إليها من تحريها وأخذ ما كان فيها . حكى ذلك
السهيل في "الروض الأنف" .

وحكى أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها باب من نحاس طوله عشرة
أذرع وعرضه أربعة أذرع ، يدخل منه إلى بيت طوله ثمانون ذراعا وعرضه
أربعون ذراعا ، مستقف بالساج المنقوش ، مسمر بمسامير الذهب والفضة . ثم يدخل
من البيت إلى إيوان معقود طوله أربعون ذراعا ، عن يمينه ويساره عقود من حرفة .

(١) كذا في الأصل "بنت فريج" . وذكر في تاج العروس في مادة زبيب أنها بنت عمرو بن الظرب
وأن اسمها بارعة أو ميسون أو نائلة . فتنبه .

ثم يُدْخَل من الإيوان إلى قبة ، ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا ، جُدُّهَا مَمْوَّهَةٌ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . وفي صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج ، المصفَّح بالذهب والفضة . ولما تم بناؤها ، خرج رجلٌ من بني كنانة فقعدها ليلاً (أى أحدث) ، فأغضب أبرهة ذلك ، فخلف ليهدم الكعبة ، فخرج بجيش كثيف من الحبشة ، فكان من أمره ما قصه الله تعالى في كتابه العزيز في سورة النمل : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَبَلَكَ بِيَوْمِهِمْ فَاءِيَةً يَمَّا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وذكر لي أن الذي نَحَرَّهَا العباس بن الربيع بن عبد الله العامري ، عامل المنصور على اليمن .

معين التارح

ومن المباني المشهورة قنطرة صَنْجَة لأهل التارح

وهي من مباني الروم على نهر عظيم يسمى بهذا الاسم ، يصبُّ في الفُرات ، لا يمكن خوضه : لأن قراره رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال . وهو ما بين حصن منصور وكيسوم من ديار بكر .

وهذه القنطرة طاق واحد ، ما بين جُدرانها مائة خُطوة . وهي مبنية بحجارة مهندمة ، طول الحجر منها عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع .

ومن المباني القديمة ملعبا بعلبك

وهما كبير وصغير .

فالكبير ، يُحكى أنه من بناء سُليمان بن داود عليهما السلام . وهو مبنى على عمدة شاهقة ، وحجارته منها ما هو عشرة أذرع وأكثر .



والمَلْعَب الصغير تهْدَم أكثره، ويبقى منه حائط طوله عشرون ذراعاً وارتفاعه كذلك .
ليس فيه إلا سبعة أحجار : واحد من أسفله ، وحجران فوقه ، وأربعة أحجار فوقهما .
ويقال إنه البيت الذى كان فيه الصنم الذى كان يدعى ”بعلا“ .

ذكر مباني العرب المشهورة

- وهى عُمدان، وحصن تيماء، والخورنق، والسدير، والغريان .
قال الجاحظ : أحببت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرد بالشعر، فبنوا :
عُمدان، وكعبة نجران، وحصن مارد، والأبلق الفرد .

فأما عُمدان

- فكان بصنعاء . زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح . وزعم آخرون أن
بيوراسب بناه على أسم الزهرة .
وقال ابن هشام إن الذى أسسه يعرب بن قحطان ، وأكله بعده وائل بن خنيس
ابن سبأ بن يعرب . وخرّبه عثمان بن عفان، رضى الله عنه .
وقيل فى صفته إنه كان مُربَّعاً ، أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض ، والثانى
بالرخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرخام الأحمر . وفيه سبعة سُقُوف
طباقاً، ما بين السَّقْف والآخر خمسون ذراعاً . وعلى كل ركن تمثال أسدٍ من نحاس ،
إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُرِهِ وخرجت من فيه ، فيسمع لها صوت كزئير الأسد .
وقال ابن الكلبي : كان على كل ركن من أركان عُمدان مكتوب ”اسلم عُمدان،
مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدوان“ .

ويقال : إن سليمان بن داود عليهما السلام أمر الشياطين أن يبنوا لِبَلْقَيْسَ أربعة قصور : عُمدان ، وصُرُواح ، وبَيْنين ، وسلحين . وكلُّها باليمن .
ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها عُمدانها . وهذا القول هو الذى حصَّ عثمان على هدمه .
ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا ، وإنه تَلَّ عالٍ مَطْلٌ على صنعاء .

وأما حصن تيماء

فهو الأَبْلَقُ الفَرْد . سُمِّيَ بالأَبْلَقِ الفرد لأنه كان مبنيًا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تيماء .

بناه السَّمَوَّلُ بن عاديا اليهودي . ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام .
وبه تضرب العرب المثل في المنعة والحصانة . وفيه يقول الشاعر :
طَلَبَ الأَبْلَقَ العُقُوقَ فَلَمَّا * لم يَنَلْهُ فرام بَيْضَ الأَنُوقِ .
وقصدت الزَّبَاءُ هذا الحصن وحِصْنِ مَارِدٍ فلم تقدر عليهما ، فقالت : ” تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الأَبْلَقُ “ .

ومارد حصن كان بدومة الجندل ، مبنى بحجارة سود . ويقال إنه أيضا من بناء السَّمَوَّلِ بن عاديا ، اليهودي .

وأما الخورنق والسدير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحيرة ، والسدير في بَرِيَّةٍ بالقُرب منها .
بناهما النعمان بن أمراء القيس ، وهو النعمان الأكبر . ويقال في سبب بنائه لهما :
إن يَزْدَ جُرْدَ بن سابور كان لا يعيش له ولد ، فسأل عن مكان صحيح الهواء . فدُكر له

ظَهَرَ الحيرة . فدفع أبْنَه بهَرَام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق . فبناه على نهر
سنداد في عشرين سنة . بناه له رجل يسمَّى سِنِمَار .

فلما فرغ من بنائه . عَجِب النُّعْمَانُ من حسن بنائه وإتقانه ، فأمر أن يلقى سِنِمَار
من أعلاه حتَّى لا يَبْنِي مثله لأحد . ويقال إنه إنما فعل ذلك به لأنه لما أَعْجَبه ،
شَكَرَه على عمله ووَصَلَه . فقال : لو علمتُ أن الملك يحسن إلى هذا الإحسان ،
لبنيتُ له بناء يدُور مع الشمس كيفما دارت ، فقال له النعمان : وإنك لتقدر على
أن تبني أفضل منه ، ولم تبته ؟ فأمر به ، فطُرح من أعلاه .

وقيل : بل قال : أنا أعرف فيه حجرا متى أُخذ من موضعه ، تداعى البناء . نخاف
النعمان إن هو لم يُنصفه في أجرته فعل ذلك ، فقتله .

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعْمَان مع سِنِمَار في المكافأة على الفعل الحسن بالقبيح ،
فيقال : جازاه مجازاة سِنِمَار .

وفيه يقول بعض الشعراء :

جَرَانِي جَرَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَرَائِهِ * جَرَاءَ سِنِمَارٍ ، وما كَانَ ذَا ذَنْبٍ .

سوى رفعه البُنيان عِشْرِينَ حِجَّةً * يُعَلِّي عليه بالقراميد والسَّكَبِ .

والخورنق تعريب خُورنْقَاهُ ، وهو الموضع الذي يؤكل فيه ويشرب . والسَّدير

تعريب سادل أى قُبَّة في ثلاث قباب متداخلة .

وفي هذه الأبنية يقول الأسود ابن يعْفَر :

ماذا أُوْمَلُّ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ * تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ ، وَبَعْدَ إِيَادٍ ؟

أهل الخورنق والسَّدير وبارق * والقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ من سنداد .

وقال عدى بن زيد العبادي :

وَتَفَكَّرَ رَبَّ الْخَوَرِ نِقْ إِذْ أَشْـَـرَفَ يَوْمًا ، وَلِلْهُدَى تَفَكِيرُ .
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَحْـَـوِيهِ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْدُ .
فَارْعَوَى قَلْبُهُ ، فَقَالَ : فَمَا غَبُـَـطَ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ ؟

وأما الغريّان

١٢٤

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة .

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، على جاريتين كانتا قيديّين تغنيان بين يديه .
فماتتا ، فأمر بدفنهما وبني عليهما الغريّين .

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شمر الغساني ، وكان بينهما وقعة على عين
أبّاغ ، وهي من أيام العرب المشهورة . فقتل للحارث ولدان ، وقتل المنذر وأنهمزمت
جيوشه . فأخذ الحارث ولديه وجعلهما عدلين على بعير ، وجعل المنذر فوقهما ،
وقال : " ما العلاوة بدون العدلين ! " فذهبت مثلاً . ثم رحل إلى الحيرة فأتتهما وحرّقها
ودفن آبنيه بها ، وبني الغريّين عليهما . حكاه ابن الأثير في تاريخه " الكامل " .

وأمر المنصور بهدم أحدهما ، لكثرة توهم أنه تحتها . فلم يجد شيئاً .

وقيل في سبب بنائهما غير ذلك . والله أعلم .

ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

وهي الأهرام ، وحائط العجوز ، وملعب أنصنا ، ومدينة عين شمس ، والبرابي ،
وحنية اللازورد ، ومنارة الإسكندرية ، ورُواق الإسكندرانيّين .

فأما الأهرام

التي بأرض مصر فهي كثيرة . وأعظمها الهرمان اللذان بالجيزة غربى مصر .
وقد اختلف في بانيهما .

فقال قوم : بانيهما سُورِيد بن سَهْلُوق بن سِرْناق . بناهما قبل الطوفان لرؤيا
رآها ، فقَصَّها على الكهنة ، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث
في العالم ، فأقاموا مراكرها في وقت المسألة . فدلَّت على أنها نازلة من السماء تحيط
بوجه الأرض . فأمر حينئذ ببناء البرابي والأهرام ، وصوِّر فيها صور الكواكب
ودرَجَها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال إن هرْمس المثلث بالحكمة (وهو الذى يسميه العبرانيون أَخْنُخ ، وهو
إدريس عليه السلام) آستدلَّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان . فأمر ببناء
الأهرام وإيداعها الأموال وصنائف العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور .

وكل هَرَم منها مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع
وسبعة عشر ذراعاً ، يحيط به أربعة سطوح متساويات الأضلاع ، كل ضلع منها
أربعمائة ذراع وستون ذراعاً ، ويرتفع إلى أن يكون سطحه مقدار ستة أذرع
في مثلها .

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكْبَةِ فرمته الرياح العواصف .
وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه
لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعَزَعَة الزلازل ، وطولُ
الحجر منه خمسة أذرع في سَمَك ذراعين .

ويقال إن بانيهما جعل لهما أبواباً على آزاج مبنية بالحجارة في الأرض ، طول كل أزج منها عشرون ذراعاً . وكل باب من حجر واحد يدور بلولب ، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب . فأزج الشرق منها في ناحية الجنوب ، وأزج الغرب في ناحية الغرب . يدخل من كل باب منها إلى سبعة بيوت ، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة ، وكلها مقفلة بأقفال . وحذاء كل بيت منها صنم من ذهب مجوف ، إحدى يديه على فيه ، وفي جبهته كتابة بالمسند إذا قرئت آنفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها .

والقبط يزعمون أنها والهرم الصغير الملون قبور : فالهرم الشرق في سوريد الملك ، وفي الهرم الغربى أخوه هوحيت ^(١) .

والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثديمون ، والآخر قبر هرمس ، والملون قبر صاب ابن هرمس ، وإليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم ، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة والعجول السود ، ويخرجون بدخن ، ويزعمون أنهم يعرفون عند اضطراب ما يذبحون حالة الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية .

وقصرت هم الملوك والخلفاء عن معرفة ما في هذين الهرمين ، إلى أن ولى عبد الله المأمون الخلافة وورد مصر ، أمر بفتح واحد منها . ففتح بعد عناء طويل ، واتفق لسعاده أنه وقع النقب على مكان يسلك منه إلى الغرض المطلوب ، وهو زلاقة ضيقة من الحجر الصوان المانع الذي لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين ملتصقين بالباطن قد نُقِر في الزلاقة حفر ، يتمسك السالك بتلك الحفر ، ويستعين بها

(١) كذا بالأصل وكذلك في خطط المقرئى . وفي ياقوت "هوحيت" .

على المشى فى الزَّلَاقَة لثَلَا يَزَلُّقْ ، وأسفل الزَّلَاقَة بئر عظيمة بعيدة القعر . ويقال إن أسفل البئر أبواب يُدْخَلُ منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب . وآنهت بهم الزَّلَاقَة إلى موضعٍ مُرَبَّعٍ فى وَسَطِهِ حوض من حجر صَلاَدٌ مغطى . فلما كُشِفَ عنه غطاؤه ، لم يوجَد فيه إلا رِقَة بالية . فأمر المأمون بالكف عما سواه .

وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا . ١٢٥

وسندكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده ، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس ، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك .

وقال بعض أهل النظر ، وقد عاين الأهرام : ”كلُّ بناءٍ يُخَافُ عليه من الدهر ، إلا هذا البناء فإنى أخاف على الدهر منه“ . ١٠

ونظم عمارة اليمنى هذا القول ، فقال :

خَالِيَّ ، مَا نَحَتَ السَّمَاءُ بَنِيَّةً * ثُمَائِلُ فى إِنْتِقَانِهَا هَرَمَى مِصْرَ !
بِنَاءٌ يُخَافُ الدَّهْرُ مِنْهُ ، وَكُلُّ مَا * عَلَى ظَاهِرِ الدُّنْيَا يُخَافُ مِنَ الدَّهْرِ !
تَنَزَّهَ طَرْفِي فى بَدِيعِ بِنَائِهَا ، * وَلَمْ يَتَنَزَّهْ فى الْمُرَادِ بِهَا فَكْرِي .

وقال بعض الشعراء :

حَسَرْتُ عُقُولَ ذَوَى النُّهَى الْأَهْرَامُ ، * وَأَسْتَصْغَرْتُ لِعَظِيمِهَا الْأَعْلَامُ .
مُلِسْتُ مُنِيقَةَ الْبِنَاءِ شَوَاهِقُ ، * قَصُرْتُ لِعَالِ دُونِهَا سِهَامُ !
لَمْ أُدْرِ حِينَ كَبَا التَّفَكُّرُ دُونَهَا * وَأَسْتَبْهَمَتْ لِعَجَبِهَا الْأَوْهَامُ ،
أَقْبُورُ أَمْلَاكِ الْأَعَاجِمِ هُنَّ ، أَمْ * طَلَسُمُ رَمَلٍ هُنَّ ، أَمْ أَعْلَامُ ؟

وقال أبو الطيب المتنبي :

أَيْنَ الذِي الْهَرَمَانُ مِنْ بُيَانِهِ ؟ * مَا قَوْمُهُ ؟ مَا يَوْمُهُ ؟ مَا الْمَصْرَعُ ؟
تَخْلُفُ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا * حِينًا . وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتَّبِعُ .

وقال أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَنْدَلُسِيُّ :

بَعِيشُكَ هَلْ أَبْصَرْتَ أَحْسَنَ مَنْظَرًا * عَلَى طُولِ مَا عَايَنْتَ مِنْ هَرَمٍ حَىْ مِصْرٍ ؟
أَنَافًا بِأَعْنَانِ السَّمَاءِ وَأَشْرَفًا * عَلَى الْجَوِّ إِشْرَافَ السَّمَاءِ أَوْ النَّسْرِ .
وَقَدْ وَافِيََا نَشْرًا مِنَ الْأَرْضِ عَالِيَا * كَأَنَّهُمَا تَدْيَانِ قَامَا عَلَى صَدْرِ .

وقال آخر :

أَنْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ إِذْ بَرَزَا * لِلْعَيْنِ فِي عُلوٍّ وَفِي صَعْدِ !
وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ الْعَرِيضَةُ إِذْ * ظَمِئَتْ لِقَرْطِ الْحَرِّ وَالْوَمَدِ ،
حَسَرْتُ عَنْ التَّدْيَيْنِ بَارِزَةً * تَدْعُو الْإِلَهَ لِنُفْرَقَةِ الْوَلَدِ .
فَأَجَابَهَا : لَيْيَنُكَ ! يُوسِعُهَا * رِيًّا وَيَشْفِيهَا مِنَ الْكَمَدِ .

وقال آبن الساعاتي :

وَمِنَ الْعَجَائِبِ ، وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ * دَقَّتْ عَنِ الْإِنْكَارِ وَالْإِنْهَابِ .
هَرَمَانُ قَدْ هَرِمَ الزَّمَانُ وَأَدْبَرَتْ * أَيَّامُهُ ، وَتَزِيدُ حُسْنَ شَبَابِ .
لِلَّهِ ! أَيُّ بَنِيَّةٍ أَزْلِيَّةٍ * تَبْغِي السَّمَاءَ بِأَطْوَلِ الْأَسْبَابِ ؟
وَلَرْبَّمَا وَقَفَتْ وَقُوفَ تَبَاثُثٍ * أَسَفًا عَلَى الْأَيَّامِ وَالْأَحْقَابِ .
كَتَمَتْ عَنِ الْأَسْمَاعِ فَضْلَ خَطَايَاهَا * وَغَدَتْ تُسَيِّرُ بِهِ إِلَى الْأَلْبَابِ .

وقال سيف الدين بن جُبارة :

لله! أئى غريبةٍ وعجيبةٍ * فى صَنعةِ الأهرامِ للألبابِ؟
أخفتُ عن الأسماعِ قصَّةَ أهلها، * ونصتُ عن الإبداعِ كلَّ نقابِ.
فكأنَّما هى كالحيام مُقامةٌ * من غيرِ ما عمَّد ولا أطنابِ.

- ومن رسالة اضياء الدين بن الأثير الجزرى فى ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها:
- بلدٌ أشهدُ بفضله على البلاد، ووجدته هو المصر وما عداه فهو السَّواد . فما رآه راءٍ
إلا ملأ عينه وصدَّره، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدره قدره . وبه عجائبُ
من الآثار، لا يضبطها العيان ولا الإخبار . فمن ذلك الهرمان، اللذان هَرم الدهرُ
وهما لا يهرمان؛ قد آختص كل منهما بعظم البناء، وسعة الفناء؛ وبلغ من الارتفاع
غاية لا يبلغها الطير على بُعد تحليقه، ولا يدركها الطَّرف على مدَّة تحديقته؛ فإذا أضرم
برأسه قَبَسٌ ظنه المتأمل نجما، وإذا استدارت عليه قوسُ السماء كان لها سَهْمًا .
- وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامة "أبوالهول" لعظمه .
- والقبط يزعمون أنه طَلَسَ الرمل الذى هناك، لئلا يغلب على أرض الحيرة .

(١٣)

وأما حائط العجوز

- والعجوز هى دُلوكا ملكة مصر .
- وهذا الحائط من العريش (وهو حد مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهى حد مصر من جهة النوبة)، شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقى .
- وزعمت القبط أن سبب بنائها أن الله عز وجل لما أغرق فرعون وقومه ،
خافت دُلوكا على مصر أن يطعم الملوک فيها . فبنته ، وزوجت النساء بالعبيد حتى
يكثر النسل والذرية .

وقيل في سبب بنائه : إن دُلوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رصدا ، فأُت أن التمساح يقتله ، فبنت هذا الحائط وقايةً له من التمساح . فلما شبّ الغلام رأى في مولده ذلك ، فأحب أن يراه . فصور له من خشب . فلما رآه ، هاله منظره وأستولى على نفسه الوهم والفرع ، فمات^(١) .

وأما ملعب أنصنا

فإنه كان مقياسا للنيل .

ويقال : إنه من بناء دُلوكا . وكان بناؤه كالطيلسان ، وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر الماتع ، بين العمود والعمود خطوة . وكان النيل يدخل إليه من فوهة فيه عند زيادة النيل . فاذا بلغ الحد الذي يحصل به الرى ، جلس الملك في مُشترف له ، ويصعد قوم إلى رؤوس الأعمدة فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت . فمن زلّت به قدمه منهم ، سقط إلى البركة .

وأما مدينة عين شمس

فهي من المباني التي درّست .

وكانت مصرَ فرعون موسى ، ومنها خرج بجنوده في طاب موسى وبني إسرائيل ؛ وكانت عدّتهم ستمائة ألف ، ليس فيهم ابن عشرين سنة ولا ابن ستين سنة . وأستقلّ فرعون هذا العدد وقال كما أخبر الله تعالى عنه : (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) . وكان بها هيكل الشمس فخرب .

(١) لم يرض ابن فضل الله بذكر هذه الخرافة في كتابه . وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (أنظر مسالك

الأبصار المطبوع ، ج ١ ص ٢٣٩) .

والفرس تزعم أن هرسيك بناها .

ويقال : إنه كان قد بقى منها عمودان من حجر صلد ، فلَكَتُ طول كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعا ، على رأس كل عمود صورة إنسان على دابة ، وعلى رأسيهما شبه الصومعتين من نحاس . فإذا كان (الليل) ، قَطَرَ من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذى هو مركب عليه . والموضع الذى يصل إليه الماء لا يزال أخضر رطبا .

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستائة .

وأما البرابى

وهى بيوت حكمة القبط . ويقال : إنه كان لكل كُورة من كُور مصر ربابة ، يجلس فيها كاهن على كرسى من ذهب .

١٠

ومن أعجب البرابى وأعظمها (برابة إخميم) . وهى مبنية بحجر المرمر ، طول كل حجر خمسة أذرع فى سمك ذراعين . وهى سبعة دهاليز ، سقفوها حجارة ، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع ، مدهونة بالآلأزورد وسائر الأصباغ ، يخالها الناظر إليها كأنما فرغ الدهان منها . يقال إن كل دهليز منها على أسم كوكب من الكواكب السبعة . وجُدران هذه الدهاليز منقوشة بصُور مختلفة الهيئات والمقادير ، يقال إنها رموز على علوم القبط ، وهى : الكيمياء ، والسِّيمياء ، والطلسمات ، والطب . أودعوها هذه الصور .

١٥

ويقال إن ذا النون المصرى العابد فك منها علم الكيمياء .

وأما حَنِية اللازورد

وهي بأرض مَنف . ومَنف هذه هي التي تسمى مصر القديمة .

يقال إن عَقْد الحَنِية أحسن من عَقْد قنطرة صَنْجَة التي تقدّم ذكرها . والحَنِية معقودة من حجارة مهندمة ، طول كل حجر منها أكثر من خمسة عشر ذراعا . وفيها نقوش وكتابة وطلسمات مموّهة باللازورد . وهي من الشرق إلى الغرب ، وفي صدرها فضاء فيه بناء مرتفع ، عليه بلاطة من الصوّان الأسود ، مكتوب فيها بالقلم البرّابوي ثلاثون سطرا . يقال إنه قبر الذي بنى الحَنِية ، وأنه ديساره : ملك كان بمصر ، حكيم .

وللقبط عيد يسمى ديساره : وهو عيد هذا الملك ، ويسمى عيد العنب .

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مَصَّبَة بالرصاص ، على قناطر من زجاج ، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس . وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضها فوق بعض ، تصعد الدابة بجملها إلى سائر البيوت من داخلها . وللبيوت طاقات يُنظر منها إلى البحر . وبين أهل التاريخ خلاف فيمن بناها .

فزعم بعضهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبس المقدوني . وزعم آخرون أنها من بناء دُلوكا ، ملكة مصر . ويقال إن على جانبها الشرق كتابة ، وإنها نقلت إلى اللسان العربي فوجدت ”بنت هذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب“ .

- ويقال : إن طولها كان ألف ذراع .
- وكان في أعلاها تماثيل من نحاس .
- منها تُمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس : أيما كانت من الفلك ، يدور معها حيثما دارت .
- ومنها تُمثال وجهه في البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة ، سُمِعَ له صوت هائل يَعْلَمُ به أهل المدينة طُروقَ العدو .
- ومنها تُمثال كلما مضى من الليل ساعة ، صَوَّتَ صوتا مطربا .
- ويقال : إنه كان بأعلاها امرأة تُرى منها قُسْطَنْطِينِيَّةٌ ، وبينهما عرض البحر . وكلما جهز الروم جيشا رُؤى في المِرْآة .
- ١٠ وحكى المسعودي في "مروج الذهب" أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية ، وأنها تعدّ من بناء العالم العجيب ، بناها بعض البطالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر ، لما كان بينهم وبين الروم من الحروب في البر والبحر . فجعلوا هذه المنارة مَرَقَبًا ، وجعلوا في أعلاها مِرْآة من الأحجار المُشَفَّة ، تشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومِيَّة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها .
- ١٥ ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون ، فأحتال ملك الروم على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خَوَاصِّه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الإسلام . فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام ، وأخرج كنوزا ودقائق كانت في الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدعيه . ثم قال له : إن تحت المنارة أموالا ودقائق وأسلحة ، دفنها الإسكندر . فصدقه وجَهَّزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية ، فهدم ثلث

المنارة وأزال المرأة ، ثم فطن الناس أنها مكيدة ، فاستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت معدة له . ثم بنى ما هُدم بالجص والآجر .

ثم قال المسعودى : وطول المنارة فى هذا الوقت (يعنى الوقت الذى وضع فيه كتابه ، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعا . وكان طولها قديما نحو من أربعمائة ذراع .

وهى فى عصرنا هذا ثلاثة أشكال : فمنها تقدير الثلث مربع مبنى بالججارة ، ثم بعد ذلك بناء مئمن الشكل بالآجر والجص نحو سستين ذراعا ، وأعلىها مدور الشكل .

ويقال إن أحمد بن طولون بنى فى أعلىها قبة من الخشب فهدمتها الرياح . فبنى فى مكانها مسجدا فى الدولة الظاهرية الركنية بپرس صاحب مصر رحمه الله تعالى . ثم هُدم فى ذى الحجة سنة آئنتين وسبعمائة بسبب الزلّلة الحادثة . ثم بنى فى شهر سنة ثلاث وسبعمائة فى دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور ، ثبت الله دولته ، وكان المندوب لذلك الأمير ركن الدين بپرس الدوّادار المنصورى ، نائب السلطنة الشريفة فى الغيبة .

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية .

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروى :

وسامية الأرجاء تُهدى أبا السرى * ضياءً ، إذا ما حنّس الليل أظلمًا .
لبست لها بُردًا من الأُنس ضافيا * فكانت بتدكار الأجابة مُعلما .
وقد ظللتني من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابي أنجما .
فُحِلَّت أَب البحر تحتي غمامة * وأنى قد خيمت فى كبد السما !

وقال أبو الفتح الأغر بن قلاقص :

وَمَنْزِلٌ جَاوَزَ الْجَوْزَاءَ مُرْتَقِيَا * كَأَنَّهَا فِيهِ لِلنَّسْرَيْنِ أَوْكَارُ.
رَاسِي الْقَرَارَةِ سَامِي الْفَرْعِ فِي يَدِهِ * لِلنُّورِ وَالتُّوْتِ أَخْبَارٌ وَأُخْيَارُ^(١).
أَطْلَقْتُ فِيهِ عَنَانَ الْقَوْلِ فَأَطْرَدْتُ * خَيْلٌ لَهَا فِي بَدِيعِ الشَّعْرِ مِضَارُ.

وأما رواق الإسكندرانيين

فهو ملعب كان بالإسكندرية .

كانوا حكماء يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئا دون الآخر ، ووجه كل واحد منهم — وإن اختلفت جهاتهم — تلقاء وجه الآخر . وإن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم ، سمعه الآخر . ونظر القريب والبعيد فيه سواء .

وقد بقيت منه بقايا عمدة تكسرت ، غير عمود منها يسمى عمود السوارى فى غاية الطول والغلاظ من الحجر الصوان الأحمر .

ذكر شىء من عجائب المباني

قال صاحب كتاب ”مباهج الفكر ومناهج العبر“ :

ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب ، أن الفرس تزعم أن أوشهنيج بنى بأرض

(١٣٨)

بابل سبع مدائن ، جعل فى كل مدينة منها أعجوبة ليست فى الأخرى .

١٥

(١) هكذا فى الأصل . وفى بدائع البداه ”أخبار وآثار“ وفى مسالك الأبصار ”إخبار وأخبار“ وهذا

الوجه الأخير أولى ويكون المعنى أن هذه المنارة تخبر عن المراكب المضيفة القادمة الى الإسكندرية

وأن فيها أخبارا عن السمك الساج فى البحر حولها .

فكان في الأولى — التي يكون فيها الملك — مثلاً أنهار الدنيا كلها . فإذا آلتوى عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم ، نَحَرَجَ نهراً من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فغَرِقُوا . فإذا أَدُّوا الخراج ، سَدَّ عليهم من عنده فآلَسَدَ عنهم .

وفي الثانية حوض . فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب ، أتى من أحب منهم بشارب له خاص فيصبه في الحوض . يفعل ذلك كل إنسان منهم ، فيختلط الجميع . ثم تقوم السُّقاة فتأخذ الأواني ويُسْقَى كُلُّ واحد من شرابه الذي جاء به .

وفي الثالثة طبل . فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره ، أُنْحِيَ هو أو ميت ، ضربوا الطبل : فإن كان حياً صَوَّتَ ، وإن كان ميتاً لم يصوِّت .

وفي الرابعة المرأة . فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حاله ، نظروا في المرأة فرأوه في الحالة التي هو عليها .

وفي الخامسة إوزة نُحَاسٍ . فإذا دخل المدينة غريب ، صَفَّرَتْ . فيعلمون أن غريباً دخلها .

وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء . فيجئ المحق والمُبْطَل ليجلسا معهما . فيجلس المحق ، ويرسب المبطل .

وفي السابعة شجرة . لا تظل إلا ساقها . فإذا جلس تحتها واحد أظلمته إلى ألف . فإن زاد على الألف واحد ، قعدوا كلهم في الشمس .

وكنْتُ قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها ، فرأيت ابن الجوزي وضعها في كتابه الذي سماه "سلوة الأجران" فأوردتها .

وحكى أنه كان بمدينة قيسارية — لما كانت في أيدي الروم — كنيسة بها امرأة .
إذا آتاهم الرجل أمراته بزنا ، نظر في تلك المرأة ، فيرى وجه المتهمة فيها . وأن بعض
الناس آتاهم فرأوه فيها فقتله الملك ، بجاء أهله إلى المرأة حمية فكسروها .

وحكى الواقدي في فتوح السند : أن عبد الله العبدى عامل معاوية على السند
غزا بلد القيقان ، فأصاب منهم غنائم كثيرة ، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه
الفداء وحمل إليه هدايا كان فيها قطعة من امرأة ، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها
على آدم عليه السلام ، لما كثر ولده وانتشروا في الأرض ، فكان ينظر فيها فيرى
من بعد منهم على الحالة التي هو عليها من خير أو شر ، فحملها عبد الله إلى معاوية ،
فبقيت في ذخائر بني أمية إلى أن انتقل الملك عنهم إلى بني العباس ، فضاعت فيما
فقد من الذخائر .^(١)

١٠

وقيل : إن ينهاوند حجرا يسمى الكيلان ، بالقرب منه صخرة ، من أراد أن
يتعرف حال غائب أو أبق أو سارق ، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها ، فيرى
في النوم حال ما تعرف به على ما هو عليه . وعجائب المباني كثيرة ، سندكر
إن شاء الله تعالى منها جملة في أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده ،
فتأمله هناك تجده .

١٥

(١) بهامش الأصل مانصه : ” قد ذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه أن هذه المرأة كانت عند أبي جعفر
المنصور فأنه أعلم أين صارت بعده “ .

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الأول

(فيما وصفت به المعادل والحصون)

وهذا الباب قد ترجمت عليه في الفن الثاني الذي يلي هذا الفن فيما يحتاج إليه الملك . وإنما ضممت إلى هذا الفن لمناسبته له وشبهه به ، وأستثنيت من الفن الثاني واقتصر فيه على مجرّد الترجمة . وبالله التوفيق .

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتاب والبلغاء القول في هذا المعنى وتواردوا فيه ، فاقصرنا على ما نوردته من ذلك ، وهو قليل من كثير .

فن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار :

« ... وهذه القلعة التي آتتهينا إلى قرارها ، وأستولينا على أقطارها ؛ أرحبُ المدن أمدًا للعيون ، وأخصبها بلدًا إذا أمحلت السّنون ؛ فروعها فوق الثّريا شامخه ، وعروقها تحت الثّرى راسخه ؛ تباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتناجى بأسرارها أذنّ الجوزاء ؛ وكانت في الزمن الغابر ، عتّت على عظيم القياصر ؛ فنازلها بأكثر من النجوم عددا ، وطاولها بأوفى من البحر مددا ؛ فأبت على طاعته كلّ الإباء ، وأستعصت على مقارعتة أشدّ استعصاء ، ومردت مرودا على الزّباء ؛ فأمكننا الله من ذروتها ، وأنزل رُكائبها لنا عن صهوتها . »

وقال القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني رحمه الله ، يصف أمد من رسالة جاء منها :

« ... وأمدُ ذكرها بين العالم متعالم ، وطالما صادم جانبها من تقادم . فرجع عنها مقدوعا أنفه وإن كان فخلا ، وفر عنها فريدا بهمه وإن استصحب خيلا ورجلا ؛ »

(١٣٩)

ورأى حجرها فقدر أنه لا يُفكُّ له حجر، وسوادها فظن أنه لا ينسخه حجر، وحية أنف
أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لزجر، من ملوك كلهم قد طوى صدره على الغليل
إلى مَوردها، ووقف وقفة الحب السائل فلم يفز بما أمل من سؤال معَهدا .

وقال من أخرى يصفها :

- « ... وهى العقيلة التى صدرُ الصدورِ الأوَّلِ مُحَلَّاً عن وِردِها، والطريدة التى حصل
منها على راحة يأسه وتعب طَردِها ؛ والمحجَّبة التى كُشِفَتْ ستورُها، ودار لعِصمتها
كسوارِ مِعصَمِها سُورُها ، وغَلَّتْ على أنها السوداء على خُطَّابِها لأنَّ المَهْجَ مُهورُها ؛
ولربما نأى بجانبها الإعراض ، ونبا جوهرُها عن الأعراض ، وطاشت دون أوصافها
سهام الأعراض ؛ ودرجت الملوك على حَسرتها فلم تحسرها لثاماً ، وما آستطاعت
لثغرها ثلماً ولا له الثَّامُ » .
- ١٠

وقال من أخرى يصف قلعة نجم ، وهى من عيون الرسائل ، جاء منها :

- « ... هى نجم فى سحاب ، وعُقاب فى عِقَاب ؛ وهامة لها الغمامة عِمامه ، وأنملة إذا
خَضَبها الأصيل كان الهلال لها قَلَامه ؛ عاقدة حُبوة صالِحها الدهر أن لا يَحُلَّها
بقرعه ، بادية عصمة صالِحها الزمن على أن لا يروِّعها بجلعه ؛ فاكْتَفَتْ بها عقاربُ
منجنيقات لم تُطْبِع طَبْعَ حِمَص فى العقارب ، وضربت بها بحجارة أظهرت فيها العداوة
المعلومة فى الأقارب ؛ فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثَّرت فيها الحجارة جُدرياً بضرِّها ،
ولم يصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقْبتها ؛ فالتسع الخرق على الراقع ، وسقط سَعده
عن الطالع ، إلى مولد من هو إليها طالع ؛ وفُتِحَت الأبراج فكانت أبواباً ، وسُيِّرَت
الجبال فكانت سَراباً » .
- ١٥

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس ، جاء منها :

« ... زاول المدينة من جانب ، فاذا هو أودية عميقة ، ولحج وعير غريقة ،
وسور قد أنعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار ،
وقدم المنجنقات التي تتولى عقاب الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي
تضرب ولا تفارق سهامها ولا سهامها نصالها ، فصاحت السور فإذا سهامها في شأيا شرفاتها
سواك ، وقدم النصر بشرى من المنجنق تحلده إخلاده إلى الأرض وتعلو علوه إلى
السماء ، فشج مراع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ، ورفع مشارعها ،
وأسفر النقاب عن الخراب النقاب ، وأعاد الحجر إلى خلقته الأولى من التراب ،
ومضغ سرد حجارتها بانياب مغوله ، وأظهر من صناعته الكيفية ما يدل على لطافة
أعماله ، وأسمع الصخرة الشريفة أيبته إلى أن كادت ترق لمقتله » .

وقال أيضا من أخرى :

« ... فنصبنا عليها المنجنقات تمطر سمائها نبل الوبال ، وتملا أرضها بالنكاية
والنكال ، وتهتد بساريات حجارتها راسيات الجبال ، وتزل نوازل الأسواء بالأسوار ،
وتوسع مجال الدوائر في الديار ، وتخطف بخطافات أعمار الأغمار ، وتطير حمامها بكثب
الحمام ، وتديم إغراء سهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام ، وكشف النقابون نقاب
السور المحجوج المحجوب ، فتهدم بنيانه ، وتداعت أركانه ، بتظاهر المنجنقات عليها
والنقوب » .

ووصف القاضي الفاضل المنجنق من رسالة فقال :

« فسلمت كأنها بنان ، ونضنضت كأنها لسان ، وأطت كأنها مرنان . وأهترت كأنها
جان ، وتقومت كأنها سنان ، وأنعطفت كأنها عنان ، وأقدمت كأنها شجاع وأجمعت » .

كأنها جبان . ورمت رءوسهم الموقرة من أحجارها بأمثال الرءوس المحلقة ، فأعادتهم
إلى الحلقة الأولى مخلقة وغير مخلقة » .

ووصف النامي المنجنيق فقال :

وَحِصْنِ زِيَادٍ غُدْوَةَ السَّبْتِ نَافِثًا * سَمَامًا ، أَرَاكَ أَبْنَ الْأَرَاقِمِ أَرْقَا .
نَصَبْتُ لَهُ فِي الْأَرْضِ يَنْتَ حَدِيقَةً * تَمُدُّ لَهَا فِي الْجَوْكَفَا وَمِعْصَمَا .
لَهَا أَخَوَاتٌ لِلنَّيَا كَكَوَامِنٍ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَا أَضْمَرْتَهُ مُكْتَمًا .
عَدَارِي ، وَلَكِنْ قَدْ وَجَدْنِ حَوَامِلًا * بُعْرُسَ تَرَاهُ لِلْجَنَادِلِ مَاتَمًا .
تَرَى الصَّخْرَ فِيهِ الصَّخْرُ وَهُوَ نَسِيبِهِ * عَدُوًّا بِيَوْمِ أَرْضِهِ تُنْمِطِرُ السَّمَاءُ .
إِذَا أَقْعَدْتَ جُدْرًا قِيَامًا ، رَأَيْتَهَا * تُنَبِّئُهُ قِيَعَانًا مِنَ التُّرْبِ نُومًا !
ومما وصفت به المعادل والحصون نظما .

فن ذلك قول كعب الأشقرى ، يصف قلعة :

مُحَلَّقَةٌ دُونَ السَّمَاءِ كَأَنَّهَا * غَمَامَةٌ صَنِيفٌ زَالَ عَنْهَا سَحَابُهَا .
وَلَا يَلْبُغُ الْأَرْوَى شِمَارِيحُهَا الْعُلَى ، * وَلَا الطَّيْرُ إِلَّا نَسْرُهَا وَعُقَابُهَا .
وَلَا خَوْفٌ بِالذَّنْبِ وَلِدَانُ أَهْلِهَا ، * وَلَا نَجْعَتٌ إِلَّا النَّجُومَ كَلَابُهَا .
وقال أبو تمام ، يصف عمورية :

وَبَرَزَةُ الْوَجْهِ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضَتُهَا * كِسْرَى وَصَدَتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَرْبِ .
بِكُرٍّ ، فَمَا أَفْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ * وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ النَّوْبِ .
مِنْ عَهْدِ إِسْكَندَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَقَدْ * شَابَتْ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَسِبْ !
وقال الخالديان :

وَخَلْقَاءَ قَدْ تَاهَتِ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا * بِمَرْقَمِهَا الْعَالَى وَجَانِبِهَا الصَّعِيبِ .

يَزُرُّ عَلَيْهَا الْجَوُّ جَيْبَ غَمَامِهِ * وَيُلْبِسُهَا عَقْدًا بِأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ .
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ ، بَدَتْ مِنْ خِلَالِهِ * كَمَا لَاحَتْ الْعَدْرَاءُ مِنْ خِلَالِ الْحُجُبِ .
سَمَوْتَ لَهَا بِالرَّأْيِ : يُشْرِقُ فِي الدُّجَى ، * وَيَقْطَعُ فِي الْجُلَى ، وَيَصْدَعُ فِي الْهَضْبِ .
فَأَبْرَزَتْهَا مَهْـوَكَةً الْحَيْبِ بِالْقَنَا * وَغَادَرَتْهَا مَلْصُوقَةً الْحَدِّ بِالْأُتْرَبِ !

وقالا أيضا في قاعة :

وَقَلْعَةٍ عَانَقَ الْعَيُوقُ سَافِلَهَا ، * وَجَارَ مِنْطَقَةَ الْجَوْزَا أَعَالِيَهَا .
لَا تَعْرِفُ الْقَطَرَ ، إِذْ كَانَ الْغَمَامُ لَهَا * أَرْضًا تَوَطَّأُ قُطْرِيَهُ مَوَاشِيَهَا .
إِذَا الْغَمَامَةُ لَاحَتْ ، خَاضَ سَاكِنُهَا * حِيَاضَهَا قَبْلَ أَنْ تَهْمِيَ عِزَّ إِلِيهَا .
يَعْدُ مِنْ أَنْجُمِ الْأَفْلَاكِ مَرَقَبُهَا ، * لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَجْرِي فِي مَجَارِيهَا .
عَلَى ذُرَى شَامِيخٍ وَعَيْرٍ : قَدْ أَمْتَلَأَتْ * كِبَرًا بِهِ ، وَهُوَ مَمْلُوءٌ بِهَا تِيهَا .
لَهُ عِقَابٌ : عُقَابُ الْجَلْوِ حَائِمَةٌ * مِنْ دُونِهَا ، فَهِيَ تَخْفَى فِي خَوَافِهَا .

وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَيَكْرِ تَحَامَتُهَا الْبُعُولُ مَخَافَةً ، * فَقَدْ تُرِكَتْ مِنْ كَثْرَةِ الْمَهْرِ أَيْمًا .
مَنْعَةً لَمْ يَغْلَطِ الذَّهْرُ بِأَسْمِهَا ، * وَلَمْ يَرَهَا فِي النَّوْمِ إِلَّا تَوْهُمًا .
تَزِلُّ عُقَابُ الْجَوِّ عَنْ شُرَفَاتِهَا ، * وَتَبْغِي إِلَيْهَا الرِّيحُ مَرْقًى وَسُلَمًا !
وَيُسْمَعُ فِي الْأَفْلَاكِ صَيْحَةُ دِيكِهَا ، * فَتَحْسَبُ دِيكَ الْعَرْشِ صَاحَ تَرَنَّمًا .
عَجُوزٌ ، تُرَى فِي صِحَّةِ الْجِسْمِ كَاعِبًا ، * وَلَوْ أُرْخَتْ ، كَانَتْ مِنَ الدَّهْرِ أَقْدَمًا !
تُورِي أَسَاسًا بِالتُّخُومِ مُؤَزَّرًا ، * وَتُبْرِزُ رَأْسًا بِالتُّجُومِ مَعَمَّا .
تُنَازِعُهَا الْأَرْضُ السَّمَاءُ وَتَدْعَى * لَدَيْهَا بِهَا حَقًّا لَهَا مُتَهَضِّمًا .
وَتَحْسَبُهَا زُهْرُ الْكَوَاكِبِ كَوَكْبًا * هَوَى خَلْفَ شَيْطَانِ رَجِيمٍ ، فَخِيًا !

الباب الخامس

من القسم الخامس من الفن الأول

(فيما وصفت به القصور والمنازل)

ولنبداً بذكر ما بناه المتوكل من القصور وما أنفق عليها، ثم نذكر ما قيل في وصفها،

وما وُصفت به المنازل الحالية، وما قيل في حب الوطن .

فأما قصور المتوكل، فهي : الكامل، والجعفرى^(١)، وبركوانا، والعروس، والبركة،
والجوسق، والمختار، والغريب، والبديع، والصبيح، والمليح، والقصر، والبرج،
والموتكلىة، والقلاية .

حكى المؤرخون أنه أنفق في بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينا،

ومائتا ألف ألف وثمانية وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم .

قالوا : وكان "البرج" من أحسنها . كان فيه صور عظيمة من الذهب والفضة،
وبركة عظيمة غشى ظاهرها وباطنها بصفائح الفضة، وجعل عليها شجرة من الذهب
فيها طيور تصوت وتصفر سماها "طوبى" بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف
دينار وسبعمائة ألف دينار .

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السرى :

مجلس في فناء دجلة، يرتأ * ح إليه الخليل والمستور.
طار في الهواء، فالبرق يسرى * دون أعلاه والحمائم يطير.
فإذا الغيم سار، أسيل منه * حلل دون جذره وسور.
وإذا غارت الكواكب صبحا، * فهو الكوكب الذي لا يغور!

(١) كذا بالأصل . وفي معجم باقوت "بركوانا" .



وقال أيضا :

مَنْزِلٌ كَالرَّيِّعِ حَلَّتْ عَلَيْهِ * حَالِيَاتُ السَّحَابِ عَقْدَ النَّطَاقِ .
يُمْتَنِعُ الْعَيْنَ فِي طَرَائِفِ حُسْنٍ * نَتَحَامِي بِهَا عَنْ الْإِطْرَاقِ .
بَيْنَ سَاحِجٍ كَأَنَّهُ ذَائِبُ التَّبَرِّ * عَلَى مِثْلِ ذَائِبِ الْأَوْرَاقِ .

وقال أيضا :

وَالْقَصْرُ يَنْسِمُ عَنْ وَجْهِ الضُّحَى ، فَتَرَى * وَجْهَ الضُّحَى - عِنْدَ مَا أَبْدَى لَهُ - شَجَبًا .
يَبِيْتُ أَعْلَاهُ بِالْحَوْزَاءِ مُنْتَطِقًا ، * وَيَغْتَدِي بِرِدَائِ الْغَيْمِ مُحْتَجِبًا !

وقال أبو سعيد الرستمي ، يصف دارا بناها الصاحب بن عباد :

وَسَامِيَةِ الْأَعْلَامِ تَلَحَّظُ دُونَهَا * سَنَا النُّجْمِ فِي آفَاقِهَا مُتَضَائِلًا .
نَسَخَتْ بِهَا إِيوَانَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ ، * فَأَصْبَحَ فِي أَرْضِ الْمَدَائِنِ عَاطِلًا .
فَلَوْ أَبْصَرْتُ ذَاتَ الْعِمَادِ عِمَادَهَا ، * لَأَمْسَتْ أَعَالِيهَا حَيَاءً أَسَافِلًا .
وَلَوْ لَحِظْتُ جَنَاتُ تَدْمَرُ حُسْنَهَا ، * دَرْتُ كَيْفَ تَبْدِي بَعْدَهُنَّ الْمَجَادِلَا .
مَتَى تَرَاهَا خَلَّتِ السَّمَاءُ سُرَادِقًا * عَلَيْهَا وَأَعْلَامَ النُّجُومِ تَمَائِلًا .

وقال علي بن يوسف الإيادي ، يذكر دارا بناها المعز العبدي بمصر وسمها

”العروسين“ :

بَنَى مَنْظَرًا يُسَمَّى ”الْعُرُوسَيْنِ“ رِفْعَةً ، * كَأَنَّ الثَّرِيَّا عَرَّسَتْ فِي قِبَايِهِ .
إِذَا اللَّيْلُ أَخْفَاهُ بِحُلُكَةِ لَوْنِهِ ، * بَدَأَ ضَوْؤُهُ كَالْبَدْرِ تَحْتَ سَحَابِهِ .
تَمَكَّنَ مِنْ سَعْدِ السُّعُودِ مَحَلَّهُ ، * فَأَصْحَى وَمِفْتَاحُ الْغِنَى فَتَحَ بَابِهِ .
وَلَوْ شَادَهُ عَزَمُ الْمُعِزِّ وَرَأْيُهُ * عَلَى قَدْرِهِ فِي مُلْكِهِ وَنِصَابِهِ ،
لَكَانَ حَصِي الْيَاقُوتِ وَالتَّبَرِّ مُفْرَعًا * عَلَى الْمُسْكِ مِنْ أَجْرِهِ وَتُرَابِهِ .

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقليّ، يصف دارا بناها المعتمد بن عباد من أبيات :

- ويا حَبْدًا دارُ قَضَى اللهُ أَنَّهَا * يُحَدِّدُ فِيهَا كُلَّ عِزٍّ وَلَا يَلِي !
وما هِيَ إِلَّا خِطَّةُ الْمَلِكِ الَّتِي * يُحِطُّ إِلَيْهَا كُلُّ ذِي أَمَلٍ رَحَلَا .
إِذَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، خِلَتْ أَنَّهَا * تَقُولُ بِتَرْحِيبٍ لِدَاخِلِهَا : أَهْلًا .
وقد نَقَلَتْ صُنَاعُهَا مِنْ صِفَاتِهِ * إِلَيْهَا أَفَانِينًا ، فَأَحْسَنَتِ الثَّقَلَا .
فَمِنْ صَدْرِهِ رُحْبًا ، وَمِنْ نُورِهِ سَنًا ، * وَمِنْ صِيَّتِهِ فَرَعًا ، وَمِنْ حِلْمِهِ أَصْلًا !
فَاعْلَتْ بِهِ فِي رُتَبَةِ الْمَلِكِ نَادِيًا ، * وَقَلَّ لَهُ فَوْقَ السَّمَاكِينِ أَنْ يُعْلَى .
نَسِيتَ بِهِ إِيوَانَ كِسْرَى ، لِأَنِّي * أَرَاهُ لَهُ مَوْلَى مِنَ الْحُسْنِ لَا مِثْلًا .
تَرَى الشَّمْسَ فِيهِ لَيْقَةً تَسْتَمِذُّهَا * أَكُفِّ ، أَقَامَتْ مِنْ تَصَاوِيرِهَا شُكْلًا .
لَهَا حَرَكَاتٌ أَوْدَعَتْ فِي سُكُونِهَا ، * فَمَا تَبِعْتُ مِنْ ثَقَلَيْنِ يَدَّ رِجْلًا .
وَمَا عَشِينَا مِنْ تَوْقَدِ نُورِهَا ، * تَخِذْنَا سَنَاهُ فِي نَوَاطِرِنَا نُحْلًا .

- وقال أيضا من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور ببجاية ، جاء منها :
- وَأَعْمُرْ بِقَصْرِ الْمَلِكِ نَادِيكَ الَّذِي * أَصْحَى بِجَدِّكَ بَيْتُهُ مَعْمُورًا !
قَصْرٌ لَوْ أَنَّكَ قَدْ حَكَمْتَ بُنُورَهُ * أَعْمَى ، لَعَادَ عَلَى الْمَقَامِ بَصِيرًا .
وَأَشْتَقُّ مِنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ نَسِيمَهُ ، * فَيَكَادُ يُحْدِثُ لِلْعِظَامِ نُسُورًا .
فَلَوْ أَنَّ بِالْإِيوَانِ قُوَيْلَ حُسْنُهُ ، * مَا كَانَ شَيْئًا عِنْدَهُ مَذْكُورًا .
نَسِيَ "الصَّبِيحُ" مَعَ "المَلِيحِ" بِذِكْرِهِ ، * وَسَمَا فَفَاقَ "خَوْرَنَقًا" وَ"سَدِيرًا" .
أَعْيَتْ مَطَالِعُهُ عَلَى الْفُرْسِ الْأَلَى * رَفَعُوا الْبِنَاءَ وَأَحْكَمُوا التَّدِيرًا .
وَمَضَتْ عَلَى الْقَوْمِ الدُّهُورُ وَمَا بَنَوْا * لِمُلُوكِهِمْ شَبَهًا لَهُ وَنَظِيرًا .
أَذْكَرَتْنَا الْفِرْدَوْسَ حِينَ أَرَيْتَنَا * غُرَفًا رَفَعَتْ بِنَاءَهَا ، وَقُصُورًا .

- فَلَكُ مِنَ الْأَفْلَاقِ ، إِلَّا أَنَّهُ * حَقَرَ الْبُدُورَ فَأَطْلَعَ "الْمَنْصُورًا".
 أَبْصَرْتُهُ فَرَأَيْتُ أَبْدَعَ مَنْظُرًا * ثُمَّ أَنْثَيْتُ بِنَاطِرِي مُحْشُورًا.
 وَظَنَنْتُ أَنِّي حَالِمٌ فِي جَنَّةٍ * لَمَّا رَأَيْتُ الْمُلْكَ فِيهِ كَبِيرًا.
 وَإِذَا الْوَلَايْدُ فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا ، * جَعَلَتْ تُرْحَبُ بِالْعَفَاةِ صَرِيرًا.
 عَصَّتْ عَلَى حَلَقَاتِهَا ضَرَاغِمٌ * فَغَرَّتْ بِهَا أَفْوَاهَهَا تَكْشِيرًا. ٥
 فَكَأَنَّمَا لَبَدَتْ لَتَمِصْرَ عِنْدَهَا * مَنْ لَمْ يَكُنْ بِدُخُولِهِ مَأْمُورًا.
 تَجْرَى الْخَوَاطِرُ مُطْلَقَاتٍ أَعْنَى * فِيهِ ، فَتَكْبُو عَنْ مَدَاهُ قُصُورًا.
 بِمَرْخَمِ السَّاحَاتِ تَحْسَبُ أَنَّهُ * فَرَشَ الْبُهَا وَتَوَشَّعَ الْكَافُورًا.
 وَمُحْصَبٌ بِالْذَّرِّ تَحْسَبُ تُرْبَهُ * مِسْكًَا تَضَوَّعَ نَشْرُهُ وَعَمِيرًا.
 يَسْتَحْلِفُ الْإِصْبَاحُ مِنْهُ إِذَا أَنْقَضَى * صُبْحًا عَلَى غَسَقِ الظَّلَامِ مُئِيرًا. ١٠
 صَحِكَتْ مَحَاسِنُهُ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا * جَعَلَتْ لَهُ زَهْرُ النُّجُومِ ثُغُورًا.
 وَمُصَفَّحَ الْأَبْوَابِ تَبْرًا نَظَرُوا * بِالنَّقْشِ بَيْنَ سُكُوكِهِ تَنْظِيرًا.
 تَبْدُو مَسَامِيرُ النُّضَارِ كَمَا عَلَتْ * فَلَكُ النُّهُودِ مِنَ الْحِسَانِ صُدُورًا.
 خَلَعَتْ عَلَيْهِ غَلَائِلًا وَرُسِيَّةً * شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرًا.
 فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى غَرَائِبِ حُسْنِهِ ، * أَبْصَرْتَ رَوْضًا فِي السَّمَاءِ نَضِيرًا. ١٥
 وَعَجِبْتَ مِنْ خُطَافِ عَسْجَدِهِ الَّتِي * حَامَتْ لَتَبْنِي فِي ذُرَاهِ وَكُورًا.
 وَضَعَتْ بِهِ صُنَاعَهُ أَقْلَامَهَا ، * فَأَرْتَكَ كُلَّ طَرِيدَةٍ تَصُورًا.
 فَكَأَنَّمَا لِلشَّمْسِ فِيهِ لِقَاءٌ * مَشَقُّوا بِهَا التَّرْوِيقَ وَالتَّشْجِيرًا.
 وَكَأَنَّمَا فَرَشُوا عَلَيْهِ مَلَاءَةً * تَرَكُّوا مَكَانَ وَشَاحِهَا مَقْصُورًا.
 يَا مَالِكَ الْمُلْكِ الَّذِي أَضْحَى لَهُ * مَلِكُ السَّمَاءِ عَلَى الْعُدَاةِ نَصِيرًا. ٢٠

كَمْ مِنْ قُصُورٍ لِلْمُلُوكِ تَقَدَّمَتْ * فاستَوْجَبَتْ بِقُصُورِكَ التَّأْخِيرَا .
فَعَمَّرَتْهَا وَمَلَكَتْ كُلَّ رِيَّاسَةٍ * مِنْهَا ، وَدَمَّرَتْ الْعِدَا تَدْمِيرَا .

وقال عمارة اليمنى ، يصف دارا بناها فارس الإسلام من أبيات :

فَتَمَلَّ دَارًا شَيْدَتْهَا هَمَّةٌ ، * يَغْدُو الْعَسِيرُ بِأَمْرِهَا مَتَيْسَرَا .
فَاقَتْ عَلَى الْإِطْلَاقِ كُلَّ بَنِيَّةٍ ، * وَسَمَتْ بِسَعْدِكَ عِزَّةً وَتَكْبَرَا .
أَنْشَأَتْ فِيهَا لِلْعُيُونِ بَدَائِعًا * دَقَّتْ ، فَأَذْهَلَ حُسْنُهَا مَنْ أَبْصَرَا .
فَمِنْ الرُّخَامِ : مُسِيرًا ، وَمَسَهَّمَا ، * وَمُنَمَّنًا ، وَمُدْرَهَمًا ، وَمُدَنَرَا .
وَسَقَيْتَ مِنْ ذَوْبِ النَّضَارِ سُقُوفَهَا * حَتَّى يَكَادَ نُضَارُهَا أَنْ يَقْطُرَا .
لَمْ يَبْقَ نَوْعٌ صَامِتٌ أَوْ نَاطِقٌ * إِلَّا غَدَا فِيهَا الْجَمِيعُ مُصَوَّرَا .
فِيهَا حَدَائِقُ لَمْ تَجِدْهَا دَيْمَةً ، * كَلَّا وَلَا نَبَتَتْ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى .
لَمْ يَبْدُ فِيهَا الرُّوضُ إِلَّا مُزْهِرًا ، * وَالنَّجْلُ وَالرَّمَانُ إِلَّا مُثْمَرَا .
وَالطَّيْرُ مُدُّ وَقَعَتْ عَلَى أَغْصَانِهَا * وَثَمَارُهَا ، لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَنْفَرَا .
وَبِهَا مِنْ الْحَيَوَانِ كُلِّ مُشْبِهٍ * لَيْسَ الْحَرِيرُ الْعَبْقَرِيُّ مُصَوَّرَا .
لَا تَعْدَمُ الْأَبْصَارُ بَيْنَ مَرُوجِهَا * لَيْثًا وَلَا ظَبْيًا بَوْجَرَةً أَعْفَرَا .
أَنْسَتْ نَوَافِرُ وَحْشِهَا لِسَبَاعِهَا : * فَظَبَاؤُهَا لَا تَنْتَقِي أَسَدَ الشَّرَى .
وَكَأَنَّ صَوْلَتَكَ الْمُخِيفَةَ أَمَّنَتْ * أَسْرَابُهَا أَنْ لَا تَخَافَ فَتُدْعَرَا .
وَبِهَا زَرَافَاتٌ كَأَنَّ رِقَابَهَا * فِي الطُّولِ أَلْوِيَّةٌ تَوْمُ الْعَسْكَرَا .
نُوبِيَّةُ الْمَنْشَأِ تُرِيكَ مِنَ الْمَهَا * رَوَقًا ، وَمَنْ بُزِلَ الْمَهَارَى مِشْقَرَا .
جُبِلَتْ عَلَى الْإِقْعَاءِ مِنْ أَعْجَازِهَا ، * فَتَخَالُهَا فِي التَّيِّهِ تَمْشِي الْقَهْقَرَى !

وقال أبو الصلت أُمَيَّة بن عبد العزيز، يصف قصرا بناه علي بن تميم بن المعز بمصر:

لِلَّهِ، مَجْلِسُكَ الْمُنِيفُ ! فَبَابُهُ * بِمُوطِدٍ فَوْقَ السَّمَاءِ مُؤَسَّسُ .
 مُوَيْفٍ عَلَى حُبِّكَ الْمَجَزَةِ تَلْتَقِي * فِيهِ الْجَوَارِي بِالْجَوَارِ الْكُنُوسِ .
 تَتَقَابَلُ الْأَنْوَارُ فِي جَنَابَاتِهِ * فَالْلَّيْلُ فِيهِ كَالنَّهَارِ الْمُشْمِسِ .
 عَظِفَتْ حَنَائِيهِ دُورِينَ سَمَائِهِ * عَظِفَ الْأَهْلَةُ وَالْحَوَاجِبُ وَالْقَشِي .
 وَاسْتَشْرَفَتْ عَمَدُ الرُّخَامِ وَظُوهِرَتْ * بِأَجَلٍّ مِنْ زَهْرِ الرَّيِّعِ وَأَنْفَسِ .
 فَهَوَاؤُهُ مِنْ كُلِّ قَدٍّ أَهْيَفُ، * وَقَرَارُهُ مِنْ كُلِّ خَدٍّ أَمْلَسِ .
 فَلَكَ تَحْيِيرٌ فِيهِ كُلِّ مُنْجَمٍ، * وَأَقَرٌّ بِالتَّقْصِيرِ كُلِّ مُهَنْدِسِ .
 قَبَدًا لِلْحُطِّ الْعَيْنِ أَحْسَنَ مَنَظَرًا، * وَعَدَا لَطِيبِ الْعَيْشِ خَيْرَ مَعْرِسِ .
 فَاطْلُغْ بِهِ قَرَا، إِذَا مَا أَطْلَعْتَ * شَمْسُ الْخُدُورِ عَلَيْكَ شَمْسُ الْأَكُوسِ .
 فَالنَّاسُ أَجْمَعُ دُونَ قَدْرِكَ رُتَبَةً، * وَالْأَرْضُ أَجْمَعُ دُونَ هَذَا الْمَجْلِسِ !

٥

١٠

وقال الوزير أبو سليمان بن أبي أُمَيَّة :

يَادَارُ، آمَنَكَ الزَّمَانُ * نُبُ خُطُوبِهِ وَنَوَائِبُهُ .
 وَجَرَتْ سَعُودُكَ بِالَّذِي * يَهْوَى نَزِيلُكَ دَائِبُهُ .
 فَلَنِعْمَ مَأْوَى الضَّيْفِ أَنْتَ، إِذَا تَحَامَوْا جَانِبُهُ .
 خَطَرُ شَأْوَتِ بِهِ الدَّيَا * رَا، فَأَذَعَنْتَ لَكَ قَاطِبُهُ .

١٥

وقال أبو صخر القرطبي :

دِيَارُ عَلَيْهَا مِنْ بَشَاشَةِ أَهْلِهَا * بَقَايَا، تَسُرُّ النَّفْسَ أَنْسَا وَمَنْظَرَا .
 رُبُوعٌ كَسَاهَا الْمَزْنُ مِنْ خَلْعِ الْحَيَا * بُرُودًا، وَحَلَاهَا مِنَ النَّوْرِ جَوْهَرَا .

١٤٢

وقال الشريف الرضى :

مازلتُ أطرقُ المنازلَ باللّوى * حتّى نزلتُ منازلَ النّعمانِ .
 بالحيرةِ البيضاءِ حيثُ تقابلتُ * شَمَّ العبادِ، عريضةَ الأعطافِ .
 شهدتُ بفضْلِ الرّافعينَ قبائِها . * ويبيّنُ بالبُنيانِ فضلُ الباني !
 ما ينفعُ الماضينَ أنْ بقيتُ لهم * خطّطُ معمّرةً بعميرِ فاني !

وأما ما وُصفت به المنازل الخالية

فمن ذلك ما قاله البحترى يشير إلى "الكِرمان" الذى بناه كسرى أنوشروان من أبيات :

فكانَ الكِرمانَ من عَدَمِ الأُنسِ وإخْلالِهِ بِنَيْسَةٍ رَمَسَ .
 لو تراه ، عَلمتُ أَنَّ اللَّيلى * خلَعَت فيه مائِماً بعدَ عُرْسِ .
 وهو يُنيكُ عن عَجائِبِ قورِمَ ، * لا يُشَابُ البَيانُ فيها بلبَسِ .
 وإذا ما رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَـاكِيَّةَ ، آرَتَعَتَ بَيْنَ رُومِ وفُرْسِ .
 والمَنّايا مَوائِلَ وأنوشـروانُ يُزجى الصُّفوفَ تحتَ الدَّرَفَسِ !

وقال أيضا من قصيدة يرثى فيها المتوكل ، ويذكر قصره "الجعفرى" :

مَحَلٌّ على القَاطولِ أَخْلَقَ دارُهُ ، * وعادَتْ صُروفُ الذَّهْرِ جَيشاً تُعاوِرُهُ .
 كانَ الصَّبَا تُوفى نُدُورا ، إذا آنَبَرَتْ * تَجَرُّ به أذيالُها وتَباكِرُهُ .
 ورُبَّ زَمانٍ ناعِمٍ تَمَّ عَهْدُهُ ، * تَرِقُّ حَواشِيهِ ويونقُ ناظِرُهُ .
 تَغَيَّرَ حُسْنُ "الجَعْفَرى" وأُنْسُهُ ، * وقَوَّضَ بِادى "الجَعْفَرى" وحاضِرُهُ .
 تَحْمَلُ عنه ساكنُوهُ جُفاءً ، * فعادَتْ سَواءَ دُورِهِ ومَقارِرُهُ .
 إذا نَحْنُ زُرناه ، أَجَدَ لَنا الأَسى ، * وَقَد كانَ قَبْلَ اليَومِ يَهجُ زائِرُهُ .

(١) نهر مشهور معروف .

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سريره ، * وإذ دُعِرَتْ أطلأؤه وجاذره .
 وإذ صيح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أسناره وسرايره .
 وأوحشه حتى كأن لم يكن به * أيس ، ولم تحسن لعين مناظره .
 كأن لم تبت فيه الخلافة طلقه * بشاشتها ، والمملك يُشْرِق زاهره .
 ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها * وبهجتها ، والعيش غص مكاسره .
 فإين الحجاب الصعب حيث تمتعت * بهيبتها أبوابه وستائره ؟
 وأين عمود الملك في كل نوبة * تنوب ، وناهي الدهر فيه وأمره ؟
 وقال عمر بن أبي ربيعة :

يادار ، أمسى دارساً رسمها * وحشاً قفاراً ما بها أهل .
 قد جرت الريح بها ذيلها ، * وآستن في أطلالها الوايل .

وقال شاعر أندلسي :

قلت يوماً لدار قوم تفانوا : * أين سكاك الكرام لدينا ؟
 فأجبت : هنا أقاموا قليلاً * ثم ساروا ، ولست أعلم أيننا !

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسي :

يادار علوة ، قد هيئت لي شجناً * وزدتني حزناً ! حييت من دار !
 كميت فيك على اللذات معتكفاً ، * والليل مدرع ثوبا من القار !
 كأنه راهب في المسح ملتحف ، * شد الحجر له وسطاً بزئار !

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكي :

إن رعباً عرفته مألوفاً * كان للبيض مربعا ومصيفا .
 غيرت آية صروف الليالي ، * وغدا عنه حسنه مضروفا .

ما مَرَرْنَا عَلَيْهِ ، إِلَّا وَقَفْنَا * وَأَطْلُنَا شَوْقًا إِلَيْهِ الْوُقُوفَا .
 أَلِفًا لِلْبُكَاءِ فِيهِ ، كَأَنِّي * لَمْ أَكُنْ فِيهِ لِلْغَوَايِ أَلِفَا .
 حَاسِدًا لِلْجُفُونِ لَمَّا أَذَالَتْ * فِي مَغَانِيهِ دَمْعُهَا الْمَذْرُوفَا !

وقال الشريف الرضي من أبيات :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِدِيرِ هِنْدٍ مَنْزِلًا * أَلَمَّا مِنَ الضَّرَاءِ وَالْحَدَثَانِ !
 بِأَلَى الْمَعَالِمِ ، أَطْرَقَتْ شُرْفَاتُهُ * إِطْرَاقَ مُنْجَذِبِ الْقَرِينَةِ غَانِي .
 أَمَقَاصِرِ الْغَزَلَانِ ، غَيْرِكَ إِلَيَّ * حَتَّى غَدَوْتَ مَرَاتِعَ الْغَزَلَانِ !
 وَمَلَاعِبِ الْأَنْسِ الْجَمِيعِ طَوَى الرَّدَى * مِنْهُمْ ، فَصَرْتُ مَلَاعِبَ الْحَنَانِ !

وقال أبو الحسن عليّ القابوسي نثرا :

- ١٠ « قد كان منزله مألّف الأضياف ، ومأنس الأشراف ؛ ومُستَجع الرّكب ، ومقصد
 الوُفد ؛ فاستبدل بالأنس وحشه ، وبالنّضارة غُبره ، وبالضّياء ظُلمه ؛ واعتاض
 من تراحم المواكب ، بالأذم النّوادر ؛ ومن ضجيج النّداء والصّهيل ، عجيج البكاء
 والعويل » .

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزريّ ، جاء منها :

- ١٥ « ... دَارُ لَعِبَتْ بِهَا أَيْدَى الزَّمَنِ ، وَفَرَّقَتْ بَيْنَ السَّاكِنِ وَالسَّكَنِ . كَانَتْ
 مَقَاصِيرَ جَنَّةٍ ، فَأَصْحَتْ وَهِيَ مَلَاعِبُ جَنَّةٍ . وَلَقَدْ عَمِيَتْ أَخْبَارُ قُطَّانِهَا ، وَعَفَّتْ
 آثَارُهَا آثَارَ وَطَّانِهَا ، حَتَّى شَابَهَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الْجُفَا ، الْأُخْرَى فِي الْعَفَا . وَكُنْتُ
 أَظُنُّ أَنَّهَا لَا تُسْقَى بَعْدَهُمْ بَغَامٌ ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْهَا جُلُبَابُ ظَلَامٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ السَّحَابَ بَكَاهُمْ
 وَأَجْرَى بِهَا سَوَافِحَ دُمُوعِهِ ، وَاللَّيْلَ شَقَّ عَلَيْهِمْ جُيُوبَهُ فَظَهَرَ الصَّبَاحُ مِنْ خِلَالِ
 صُدُوعِهِ » .

ومما قيل في حب الأوطان

قال ابن الرومي (وهو أول من بين السبب في حب الوطن) :
 ولي منزلٌ، آليتُ أن لا أبيعَهُ * وأن لا أرى غيري له الدهرَ مالِكًا !
 عهدتُ به شَرخَ الشَّبابِ ونِعمَةً * كِنِعمَةِ قومٍ أصبحُوا في ظلالِكا .
 فقد أَلْفَتَهُ النفسُ حتَّى كأنَّهُ * لها جَسَدٌ، إنْ غابَ عُودِرْتُ هالِكا .
 وحَبَّ أوطانَ الرِّجالِ إليهم * ما رَبُّ قَضَاها الشَّبابُ هُنا لِكا .
 إذا ذَكَّرُوا أوطانَهُم ، ذَكَّرْتُهُم * عُهودَ الصَّبا فيها فَنُونا لذلِكا !

ذكر شيء مما قيل في الحمام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :
 أهلاً بيَّتِ النارِ من منزلٍ * شيدَ لأبرارٍ وجُفَّارِ !
 يدخُلُهُ ملتمسٌ لَذَّةً * فيدخلُ الجنةَ في النارِ !
 وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسي :
 انعم ، أبا عامرٍ بِلَدَّتِهِ * وأعجبَ لأمرينِ فيه قد جُمعا !
 نيرانُهُ من زنادِكم قُدَحَتْ ، * وماؤه من بنائكم نَبعا !
 وقال علي بن عطية البلنسي :
 رَبِّ حَمَّامٍ تَلَطَّى * كتَلَطَّى كُلِّ وامِق .
 ثم أذرتَ عَبرَاتُ * صوبُها بالوجدِ ناطِق .
 ففَدَا مِنِّي ومنه * عاشقٌ في جَوْفِ عاشِق !
 وقال أبو طالب الماموني ، شاعر اليتيمة :
 وبيتٌ كأحشاءِ الحُبِّ دخَلْتُهُ * ومالي ثيابٌ فيه غيرُ إهابي .

أرى مُحَرَّمًا فيه وليس بَكَعْبِيَّةٍ ، * فَمَا سَاغَ إِلَّا فِيهِ خَلْعٌ ثِيَابِي .
 بَمَاءٍ كَدَمْعِ الصَّبِّ فِي حَزِّ قَلْبِهِ * إِذَا آذَنْتُ أَحْشَاؤُهُ بِذَهَابِ .
 تَوَهَّمْتُ فِيهِ قِطْعَةً مِنْ جَهَنَّمَ * وَلَكِنَّهَا مِنْ غَيْرِ مَسِّ عِقَابِ .
 يُثِيرُ ضَبَابًا بِالْبُخَارِ مُجَدَّلًا * بُدُورِ زُجَاجٍ فِي سَمَاءِ قِبَابِ !

وقال آخر :

إِنَّ حَمَامَكَ هَذَا * غَيْرَ مَذْمُومِ الْجَوَارِ .
 مَا رَأَيْنَا قَبْلَ هَذَا * جَنَّةً فِي وَسْطِ نَارِ !

وأنشدني جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه :

قالوا : نَرَاكَ دَخَلْتَ حَمَامًا ، وَمَا * حَلَفَ الْهَوَى يَلْتَذُّ بِالْأَهْوَاءِ .
 فَأَجَبْتُهُمْ : لَمْ تَكُنْفِ أَدْمُعَ مُقَلَّتِي * حَتَّى بَكَيْتُ بِجُمْلَةِ الْأَعْضَاءِ .

تم السفر الأول

(نسخة ما هو مكتوب في آخر الأصل بخط المؤلف)

نجز السفر الأول من "كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب" على يد مؤلفه
 فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري التيمي القرشي ،
 عرف بالنويري عفا الله عنه ، ووافق الفراغ من كتابته في يوم السبت المبارك
 لعشر بقين من ذى القعدة عام إحدى وعشرين وسبع مائة أحسن الله تقضيه ،
 وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى يتلوها إن شاء الله تعالى في أول السفر
 الثاني "الفرق الثاني في الإنسان وما يتعلق به" والحمد لله وحده ، وصلى الله على
 سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه وسلم آمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

جزوب
 معين التاريخ
 لأهل التاريخ